٢٥

يوسف ميخائيل أسعد

Mngool.com

سيكولوجية الخوف

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الفجالة - القاهرة

مقدمة

لكل كتاب ثلاثة أركان رئيسية : فكرة الكتاب ، ومنهجة ، ومضمونة .

وعن فكرة الكتاب نقول انه بدأ بتساؤل دار فى خلدى هو : هل يولد الطفل كائناً مطمئنا ثم يكتسب الخوف عن طريق الخبرات المخيفة التى يلقاها من البيئة الطبيعية والإجتماعية التى ينشأ فيها ويتعامل معها ، أم أنه يولد مفعماً بالخوف ثم يشيع الأطمئنان فى قلبه عن طريق المحيطين به إذا كان سعيد الحظ ونشأ فى بيئة تشجع على إشاعة الطمأنينة فى القلوب ؟ وبعد أن حيرنا هذا التساؤل وأخذ بجماع العقل كل مأخذ ، فإن الكاتب انخرط فى التأمل والمعاناه الذهنية إلى أن تبلورت لديه فلسفة بازاء هذا الموضوع ورد على هذا التساؤل بما سوف يقف عليه القارئ لمتن هذا العمل .

أما عن المنهج الذى اتبعناه فى الكتابة ، فهو المنهج الذى آمنا به وتشبثنا والتزمنا باتباعه ، وهو المنهج التأملى الإبداعى . فالمؤمن بهذا المنهج يؤمن فى الوقت نفسه بأنه لا يقدم على الكتابة ما لم يكن لديه جديد يبين عنه ويسجله بالقلم . وميزة هذا المنهج – وركيزته الأساسية فى نفس الوقت – هى أنه يعبر عن الخلاصة الخبرية للمؤلف . ولا يختلف الكاتب التأملى الإبداعى فى موقفه فى التأليف عن الفنان المبدع الذى لا ينقل عن غيره ولا يستشف ولا يقتبس . فهو يصدر عن ذاتيته ويعبر عن جماع حصيلته الخبرية بشكل كلى متكامل .

أما عن المضمون فإن بين يديك خمسة وسبعين موضوعاً تنخرط تحت خمسة عشر فصلاً . ونعتقد أن جميع موضوعات الكتاب ليست تكراراً لما سبق أن ألف فى هذا المجال . ذلك أن اتباع المنهج التأملى الإبداعى يحمل الكاتب المؤمن به على تحاشي المطروق والشائع وتصيد الجديد الذى لم يسبق إليه أحد من قبل.وحتى بالنسبة لأى موضوع قد يبدو لك من الموضوعات المألوفة ، فإنك ستجد أن المعلومات التى تساق فيه جديدة ، أو سوف تجد أن الطريقة التى سيق بها مستحدثة ومبتكرة .

يوسف ميخائيل أسعد



نحن ورثة مخاوف أجدادنا

الفصل الأول
مخاوف أسلافنا تنزل إلينا

الوارثة ليست وراثة جسمية فقط :

نحن مقبلون على ثورة فى علم النفس شبيهة بالثورة التى شهدتها العلوم الطبيعية . فبعد أن ظل علم النفس منذ نشأته رسميا فى عام ١٨٧٩ على يد فندت **WUNDT** الذى أخضع الإنسان لمجموعة من التجارب المعملية فينظر إلى الذات البشرية بطريقة موضوعية محدودة بحدود الجسم وما يرتبط به من ظواهر نفسية يمكن إخضاعها للملاحظة المباشرة والقياس بالمقاييس المختلفة ، نقول إنه بعد أن ظل علم النفس يتناول الإنسان بنظرة متأثرة بنظرية التطور التى تقرب الإنسان من عالم الحيوان ، فإننا نجد بوادر الثورة فى علم النفس تنفض عن الدراسات النفسية هذه النظرة التى ترجح كفة البيولوجيا لكى تتخذ وجهة نظر جديدة تنظر بها إلى الإنسان .

ونستطيع أن نتبين بعض ملامح الثورة المتوقعة فى علم النفس ، والتى بدأت بوادرها فى البزوغ ونقول إنها صارت تشكك فى أن تقتصر الوراثة التى يتلقاها الإنسان عن أسلافه القريبين وعن أسلافه البعيدين على أنها مجرد وراثة لاستعدادات يمكن أن تظل مطمورة فى طيات الشخصية . فالنظرة الجديدة سوف تعترف للوراثة النفسية بأنها هامة وموثرة فى الكيان السلوكى للمرء . وبتعبير آخر فإننا بمثابة حلقات متصلة فى سلسلة مستمرة قديمة جدا بحيث لا نستطيع استبانة أولها . فأنا لست مرتبطا بوالدى أو بأجدادى القريبين فحسب ، بل أنا حلقة فى سلسلة تمتد حتى القبائل البدائية التى كانت تسكن الكهوف .

والسؤال الذى يلح اليوم على أذهان علماء النفس هو : هل الوراثة البعيدة والبعيدة جداً تؤثر بدرجة أقل كلما بعدت عن الوجود الراهن ، أم أنها تؤثر بنفس القوة والخطورة ؟ وبعبارة أخرى : هل أنا متأثر بوالدى أكثر من تأثرى بالأربعة أجداد القريبين ، أعنى جدى وجدتى لأبى ، وجدى وجدتى لأمى ؟ وهل تأثرى بهؤلاء الأجداد الأربعة له أثر فى حياتى أكثر من الأثر الذى تركه تأثرى بأجدادى البعيدين جدا ؟

وإذا افترضنا أنى تلقيت مؤثرات وراثية لها أثرها عن هؤلاء الأجداد البعيدين جدا ، فهل لتلك المؤثرات الوراثية أثر فى حياتى النفسية الراهنة ؟ وبعبارة أخرى نتساءل : هل المخاوف التى صادفت أجدادى البعيدين جدا فى الكهوف والمغارات ما تزال تعمل عملها فى كيانى الداخلى ؟

لعل علماء النفس سوف يعلنون فى ثورتهم المرتقبة أن شيئا ما مر فى سلسلة الأسرة البشرية الممتدة عبر الآف السنين لا يفنى . ولعل العلماء جميعاً فى شتى المجالات يعتقدون أن أى شئ يحدث لا يتلاشى . ومن يدرى فربما يأتى وقت قريب أو بعيد يتسنى فيه للعلماء إعادة تجميع الموجات الصوتية التى أحدثتها كلمات فاه بها اخناتون أو هيرودوت وصارت بعيدة وشبه متلاشية لكى يعيدوها كلمات منطوقة ومسموعة وتسجل على أشرطة . ولعلهم أيضا سوف يستعيدون أشكالهم وحركاتهم منذ الميلاد حتى انقضاء حياتهم على الأرض . ذلك أن تجميع ما نصفه اليوم بأنه قد تلاشى وانقضى أمر وارد فى أذهان العلماء . وليس من المستبعد على العلم شئ بعد أن دخل الانسان عصر الكومبيوتر والانسان الآلى .

واذا صح ما نزعمه هنا من أن انسان اليوم هو عبارة عن حلقات متصلة فى سلسلة تمتد به إلى الوراء إلى الماضى السحيق جدا ، فإننا نستطيع أن ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى فنقول إن كل واحد منا يجمع فى شخصه جميع الخبرات التى تحملها سلسلة أسلافه . واذا صح زعمنا هذا فاننا سوف نقرر اذن أن كل جيل تال يكون أكثر تعقدا وتراكبا من الجيل السابق عليه . ومعنى هذا أن المخاوف تتزايد لدى الانسان فى أعماقه ، لأن مخاوف الأجيال السابقة جميعا تنزل إليه وتترسب فى دخيلته .

ولكن ومع إعترافنا بأن هذا الكلام سوف يقابل بالرفض من جانب أولئك الذين يتشبثون بالنظرة التقليدية إلى الإنسان ، فإننا يجب أن ننبه إلى أن المكتشفات الحديثة فى علم النفس التى تشير إليها مجلات علم النفس العالمية المتخصصة من أمثال مجلة Psychology To-day الأمريكية تشير إلى تغير النظرة إلى الإنسان والحيوان على السواء . فثمة بحوث تدور اليوم وتؤكد نتائجها أن الحيوانات بمراتبها المتباينة وأنواعها وتركيباتها غير المتشابهة لها عقول ذات قوانين خاصة بها قد تمتاز فى أنحاء كثيرة عن العقل البشرى . وكذا فإن بحوثا أخرى تؤكد أن الجنين فى بطن الأم يسمع ما تتلقاه الأم بأذنيها من أصوات . فالموسيقى التى تسمعها الأم الحامل يشاركها جنينها الموجود فى بطنها فى سماعها . ويؤكد العلماء أن الطفل حديث الميلاد ليس صفحة بيضاء كما دأب علماء النفس التقليديون على النظر اليه . إنه كائن يحمل كثيرا من الخبرات ، كما أنه يكون جاهزا للامتداد بالخبرات التى سبق له اكتسابها فى بطن أمه .

واذا نحن استهدينا بتلك النظرات الجديدة إلى الحيوان والإنسآن ، فإننا لا نستبعد اذن أن يكشف النقاب عن أشياء جديدة تماما كان ينظر إليها باعتبار أنها خرافات . من ذلك ما يرثه الانسان من مخاوف تمتد عبر سلسلة طويلة جداً بحيث يحمل المخاوف التى عانى منها أسلافه البعيدون فى الكهوف والغابات .

والواقع أنه من غير المنطق على الأطلاق أن نصدق أن الانسان لا يرث وراثة مباشرة إلا جسمه ، وأن الخبرات صارت مجرد افتراضات يمكن أن تورث ويمكن ألا تكون كذلك . إن علم النفس يجب أن يقول كلمته الصريحة بهذا الصدد . فإذا كان علماء النفس وعلماء الطب أيضا يعلنون لنا وعلى الملأ أن الانسان كائن نفسجسمى **Psycho-somatic** وأن العلاج الحديث لا يتناول المريض باعتباره جسما فحسب ، بل يتناوله بنظره تكاملية باعتباره كائناً لا انفصال فيه بين جسمه ونفسه ، أفلا يفضى هذا التأكيد إلى القول بأن ما يرثه الانسان عن أسلافه ليس جسما فحسب ، بل هويرث الكل وليس الجزء فقط ؟ وبعبارة أصرح : أفلا يفضى هذا إلى القول بأن الانسان يرث خبرات أسلافه ؟ إننا لا نعتقد أن تحميل البيئة والمؤثرات البيئية كل شئ من العدل أو من الحكمة فى شئ.ولعلنا نقول إن البيئة لا تفعل سوى التدعيم واعطاء الفرصة لما ورثه الانسان لكى يتلبس بصور وبأثواب بيئية اجتماعية .

فنحن اذن ورثة أسلافنا فى كل شئ ، وقد جبلنا على تلقى كل ما إكتسبوه بما فى ذلك المخاوف التى عانوا منها مضافا إليها مخاوفنا الجديدة التى أصابتنا بها حضارتنا المعاصرة .

خبرات أسلافنا البعيدين لم تندثر :

من الحقائق المؤكدة التى ليس عليها خلاف أن الحالة الجسمية التى يكون عليها المرء تجد لها صدى فى حالته النفسية ، سواء كانت فكرا أم عاطفة . وكذا فإن ما يطرأ على الجسم من متغيرات تكون بدورها مؤدية إلى إحداث تأثيرات معينة فى الحالة النفسية . ولكن الذى عليه خلاف بين علماء النفس – وعلماء الفسيولوجيا أيضا – هو أن الحالات النفسية بأنواعها العقلية والوجدانية تؤثر فى القوام الجسمى للمرء .

بيد أن المتحمسين للاتجاه السيكوسوماتى (النفسجسمى) يؤكدون أن هناك تأثيرا تبادليا بين النفس والجسم . فكما أن الجسم يعكس ما يتأثر به على الجوانب العقلية والوجدانية لدى المرء ، كذا فإن الأفكار والشاعر الوجدانية تؤثر بدورها فى الجسم وتترك بصمتها عليه . والواقع أن هذه المقولة الأخيرة لها تفسيرات كثيرة وخطيرة . فلقد يذهب البعض إلى أن تأثير الأفكار والمشاعر لا تعدو الملامح الخارجية ونظرات العينين وطريقة الجلوس والمشى والوقوف والنوم . وبتعبير آخر فان الآثار الجسمية التى تتركها الأفكار والمشاعر إنما هى آثار محدودة بحدود الظاهر من السلوك ، كما أنها تقتصر على نطاق الشخص الواحد الذى تلقى تلك الأفكار والمشاعر ولا تمتد إلى أبنائه وأحفاده .

أما التفسير الثانى لمدى تأثير الأفكار والمشاعر الوجدانية فى القوام الجسمى فإنه يذهب إلى شوط أبعد من الشوط الذى ذهب إليه التفسير السابق . فأصحاب هذا التفسير يزعمون أن

تأثيرالأفكار والمشاعر الوجدانية يمتد إلى الخلايا الجرثومية المسئولة عن الانجاب وعن المناشط الجوهرية بالشخصية . ومعنى هذا أن الأفكار والمشاعر الوجدانية تترك بصمتها على الأجيال التالية . وبتعبير آخر فإن الأفكار والمشاعر تختزن على هيئة جسمية محسوسة فيما يسمى بالارثات [genes] الموجودة على الكروموزومات بالخلايا الذكرية والخلاية الأنثية . وعندما يتم التزاوج ويتكون الجنين نتيجة التحام الخلية المنوية مع البويضة. وعندما يتم الاندماج بين كروموزومات الوالدين ، ومن ثم التحام وتفاعل الأرثات بعضها مع بعض ، فإن ما سبق أن تلقاه كل من الأب والأم من مؤثرات ذهنية ووجدانية يتبلور ، أو بتعبير آخر يتجسد فى هيئة محسوسة بيولوجية . أضف إلى هذا ما سبق أن تلقاه الأبوان عن الأجداد من تلك المقومات الجسمية النفسية المجسدة فى قوامها البيولوجى . ولكأن تلك الأشياء المخزونة مستعدة للعمل عندما تتاح لها الفرصة. فهى قائمة وموجودة وان كانت فى بعض الأحيان تظل فى حالة كمون ككمون النار فى الكبريت .

أما التفسير الثالث لتأثير الأفكار والمشاعر الوجدانية فى القوام الجسمى فإنه يذهب إلى القول بأن تلك الآثار التى تحدثها الأفكار والمشاعر لا تعمل وحدها فى استقلال عن المقومات والعوامل البيئية . فهى كالشحنة الموجبة التى تحتاج إلى شحنة سالبة لكى يحدث الاشتعال أو لكى تحدث الإضاءة فى المصباح الكهربى . فما تتركه الأفكار والمشاعر فى الجسم لا يتبدى للعيان فى الواقع الخارجى إلا فى بيئة مناسبة تشعل أو تسمح بابراز تلك المكونات المخبوءة . ولكن هذا لا يقلل من شأن توارث تلك المقومات ، بل هو يقنن اعتمالها ونشاطها ويشترط وجود المواقف البيئية فى الحياة لكى تبزغ للعيان وتبدو على سطح السلوك . فحالة الكمون تظل قائمة بازاء تلك المقومات المكتسبة والموروثة لدى المرء إلى أن تقيض لها الفرصة بوجود عناصر بيئية تمثل القطب السلبى الذى يساعد العناصر الموروثة والمكتسبة للخروج من حالة الكمون إلى حالة البزوغ والاعتمال .

وإذا صحت هذه النظريات الثلاث أو بعضها ، فإن هذا يدل على أن ما سبق للمرء اكتسابه لا يندثر ، بل ويدل على أن المخاوف التى أصابت أسلافنا البعيدين ما تزال تجد لها مسرحا تلعب عليه فى قلوبنا . ولعلنا لا نخطئ إذا ما قلنا ان المخاوف لا تنقص بمرور الأجيال وتعاقبها ، بل هى تتزايد وتتكاثر وتتعقد . فكل جيل يضيف إلى حصيلة ما خلفته الأجيال السابقة فى أبنائها مخاوف جديدة من أنواع متباينة . فإذا كان أسلافنا البعيدون قد اكتسبوا المخاوف نتيجة سماعهم لأصوات الرعد والعواصف ونتيجة مشاهدة مناظر الوحوش الضارية وهى تنقض على الأطفال والنساء والضعفاء من الرجال فتمزقهم شر ممزق ونتيجة اصطدامهم بالأشباح التى كانوا يشاهدونها أو التى كانوا يتخيلون مشاهدتها وهى تتوعدهم وتقض

مضاجعهم وتظهر لهم فى أشكال مخيفة ، فإننا نجد أن مخاوف الانسان الحديث تتمثل فى الكوارث الطبيعية وفى الحروب والمجاعات والآت التعذيب والتقتيل والأبادة وفيما أنتجته الحضارة من أشياء تؤذى أو تقتل مع أنها لم تجعل إلا لراحة الإنسان ورفاهيته . فالكهرباء مفيدة ولكنها قد تصعق . وكذا فإن السيارة والطائرة مفيدتان ولكنهما قد توديان بحياة الإنسان إذا ما أرتطمت الأولى واذا ما سقطت الثانية . والمشكلة التى تجابه انسان العصر الحديث هى مشكلة تراكم المخاوف بداخله . فهو يحس بالركامات الرهيبة التى ترسبت فى أعماقه عبر الآف السنين من جهة ، كما أنه يجد أن حضارته الحديثة لم تستطع أن تحجب عنه مخاوفه القديمة المغزوزة فى أعماقه ، بل إنها أضافت وتضيف باستمرار مخاوف جديدة إلى مخاوفه القديمة من جهة أخرى .

ولسنا ننكر أن الحضارة الانسانية قد استطاعت أن تخدر الكثير من الناس بوسائل كثيرة مسلية . ولكن الواقع أن تلك التخديرات لا تعدو أن تكون تخديرات مؤقتة وضعيفة المفعول وقصيرة الأمد . فالانسان الحديث مصاب على العموم الأكبر بما يسمى بالقلق . والقلق حسب تعريف علماء النفس هو تلك المخاوف الغامضة المكبوتة والتى تجد لها طرقا تحتية بالشخصية . والقلق لدى الانسان الحديث يتبدى فى أشكال متباينة ومتنوعة . فهو فى بعض الأحيان يبدو فى هيئة أمراض نفسية كالوساوس والأعمال القهرية والخوف من الأماكن المغلقة أو الخوف من الأماكن المرتفعة أو الخوف من الأصابة بالمكروبات أو الخوف من أشياء أو حشرات أو حيوانات بشكل مبالغ فيه . وفى بعض الأحيان يبدو القلق فى عدم الاتزان الحركى أو فى الاحساس بالضياع أو التشتت الفكرى أو الاصابة بالتجوال الذى لا يهدف إلى شئ ، أو قد يبدو فى الاندفاع نحو الإنتحار أو نحو التعرض للأخطار قسرا وضد حرية المرء . وفى أحيان ثالثة يتبدى القلق فى بعض الأمراض الجسمية كالربو وقرحة المعدة أو السرطان أو غير ذلك من أمراض تعذب المصاب بها وتزيده خوفا على مخاوفه المعتملة بخبث فى أعماقه . وفى أحيان رابعة يتبدى القلق فى حالات الجنون الصريحة والمستمرة كالاصابة بالهستيريا أو الفصام أو البارانويا أو بغير ذلك من الأشكال العديدة للأمراض العقلية التى تبدو فيها المخاوف وقد أخذت بخناق المصاب بها .

والواقع أن الحضارة الإنسانية التى تحاول تخليص أبنائها من المخاوف المتوارثة عن الأسلاف البعيدين ومن المخاوف المضافة حديثًا إلى حياة المرء ، لم تتمكن إلا من تغليف الانسان بغطاء هش لا يمكن أن يقيه من اعتمال المخاوف فى جنباته . فتوارث المخاوف عن أسلافنا البعيدين يجعل من تلك المخاوف مشكلة تعلو عن مجرد البحث فى تاريخ طفولة المرء . فمخاوفنا لا تقتصر على ما اكتسبناه فى طفولتنا من خبرات مخيفة بل هى وراثة قديمة وستظل إرثا أبديا فى جبلة الانسان .

مخاوف اليوم تدعم مخاوف الأمس البعيد :

قلنا إن إنسان العصر الحديث يخضع لمجموعة كبيرة من المخاوف التى تتخذ شكل القلق . والواقع أن قلق إنسان العصر يرتد إلى مجموعة من الأسباب المعقدة والمتداخلة . ولعلنا لا نخطئ إذا ما قررنا أن مخاوف الإنسان الحديث ليست فى الغالب مخاوف من مصادر الطبيعة المباشرة بل هى مخاوف حضارية . فالتلميذ لا يخاف من وحش مفترس يهاجمه ، بل يخاف من رسوب يتردى فيه عندما يحين وقت الامتحان فى آخر العام. والموظف يخاف من الخطأ الذى يسبب له توقيع الجزاء عليه . والتاجر يخاف من خسارة تلحق بتجارته فيخسر رأس ماله . وكل من تستظله الحضارة تحت عباءتها يخاف من أشياء تعتبر رموزا فى الواقع أكثر من كونها أشياء فى ذاتها .

بيد أن إنسان الحضارة ما يزال مهدداً من جانب الطبيعة وما تعج به من أشياء قد تقضى على حياته . فالوحوش الضارية ما تزال تنتظر بالغابات لتتحين أول فرصة لاقتناص فرائسها من بنى الإنسان . والزلازل والبراكين والعواصف والأنواء البحرية والفيضانات والجراد والنمل الأبيض والجراثيم والفيروسات والقحط وقلة الموارد الغذائية مما يترتب عليها انتشار الجوع وغير ذلك من أشياء طبيعية لا ترتبط بالحضارة إرتباطاً مباشراً ، ما تزال تشكل عوامل خوف تصيب إنسان الحضارة وتقف له بالمرصاد .

والواقع أن أسباب الخوف الحديثة التى تكتنف حياة الإنسان الحديث لا تقوم فى انفصال وعدم تفاعل مع نتائج المخاوف المترسبة والمستقرة فى أعماق الجنس البشرى . ونحن نزعم ان ما يسمى بالغرائز إن هو سوى خبرات متبلورة فى النوع من أنواع الكائنات الحية. فالتكوين البيولوجى لأى نوع من أنواع الكائنات الحية قد سار فى خطوط متوازية مع الخبرات التى تلقاها ذلك النوع وبضمنه خبرات الخوف. فالتكوين البيولوجى والتفتق الفسيولوجى لم يحدثا فى استقلال عن تلقى الخبرات من البيئة المحيطة ، بل نقول إن البيئة والخبرة قد سارتا جنبا لجنب بغير انفصال وبغير تخلف إحداهما عن الأخرى . فغريزة الخوف تشكل جماع خبرات الخوف التى تلقاها الجنس البشرى . ولعلنا نقول إن غريزة الخوف – أو مخاوف جنسنا البشرى المتبلورة فينا – تتغذى وتتأكد بالمخاوف الجديدة التى نتلقاها من البيئة الحضارية التى تظلنا ونعيش فى إطارها .

وهناك من يزعمون أننا نخاف لأننا جهزنا منذ ميلادنا بغريزة الخوف . فكأن غريزة الخوف – فى زعمهم – هى التى تشكل الأساس في إحساسنا بالخوف ، أو أنها هى التى تسبب لنا الخوف . والواقع – فى رأينا – غير هذا تماماً . فغريزة الخوف هى فى الواقع جماع المخاوف السابقة التى تلقاها الجنس البشرى . .

وإذا ما صح زعمنا فإننا نستطيع أن نقرر إذن أن غريزة الخوف ليست هى السبب الذى يحدث الخوف ، بل إن المخاوف الحديثة تنضاف إلى المخاوف القديمة . وبتعبير آخر فإن ما نستشعره من خوف أو قلق يؤكد ويدعم غريزة الخوف عندنا .

على أننا نحذر من الاعتقاد بأنه لا توجد صلة تفاعلية بشكل تبادلى فيما بين المخاوف الراهنة التى تتمثل بصفة أساسية فى القلق وبين المخاوف القديمة المتعلقة بالجنس البشرى كله والمتمثلة فى غريزة الخوف وهى التى اعتبرناها تمركزا أو تبلورا لجماع المخاوف التى سبق أن تلقاها الجنس البشرى . فالواقع أن هناك علاقة تفاعل تبادلية بين مخاوف اليوم وبين مخاوف الأمس البعيد . فكما أن المخاوف الحديثة التى نتلقاها فى حياتنا الحاضرة تنضاف وتدعم بؤرة الخوف فى كياننا التى تسمى بغريزة الخوف،كذا فإن تلك الغريزة تقوم بعملية الجذب أو التعرف – إذا صح التعبير – على المخاوف الجديدة . فكما أن جماع معرفتنا السابقة تساعدنا على إكتساب خبرات معرفية جديدة عن طريق التعرف او عن طريق المقومات المشتركة بين الخبرة المعرفية الجديدة وبين الخبرات المعرفية السابقة ، كذا فإن جماع المخاوف التى تبلورت فيمايسمى بغريزة الخوف يساعد على امتصاص المخاوف الجديدة ثم استيعابها فى تلك البؤرة التى أسميناها بغريزة الخوف .

فالجديد من المخاوف يدعم القديم منها ، أعنى تلك المخاوف التى ورثناها عبر الأجيال المتعاقبة أو حتى عبر ملايين السنين المتتالية . وكذا فإن القديم من المخاوف يدعم ويرحب باستيعاب المخاوف الجديدة بحيث تزداد غريزة الخوف لدينا شدة وصلابة وتمكنا من كياننا .

ومعنى هذا أن كل جيل من أجيال الناس يخاف بقدر أكبر وبدرجة أخطر من الأجيال السابقة عليه . وهذه فى الواقع نظرة تشاؤمية لما ينتظر البشرية من مستقبل وجدانى. ذلك أن النظرة التفاؤلية تجعل نقطة بداية الفرد من الناس منذ ميلاده فحسب ، ولا تقوم بالربط بين مخاوفه الشخصية وبين مخاوف الجنس البشرى. أما نحن – مع اعترافنا بأن نظرتنا تشاؤمية – فإننا نزعم أن مخاوف الشخص الواحد ترتبط برباط متين بما سبق أن تلقاه الجنس البشرى من مخاوف تتمثل فيما يسمى بغريزة الخوف . ونحن نعتقد أن تقرير الواقع حتى ولو كان واقعًا مرا أفضل بلا شك من دس الرأس فى الرمال كما تفعل النعامة . فاولئك الذين يتفاءلون بإزاء المخاوف وينيطون الحضارة بطوق النجاة ويذهبون إلى حد القول بأن إنسان المستقبل سوف لا يجد أى شىء يخيفه وأنه سوف يتحرر تحررًا تاما أو شبه تام من أسباب الخوف ، نقول إن أولئك المتفائلين يخدرون أنفسهم ويخدرون من يطلعون على فكرهم التفاؤلى الذى لا يستند إلى أى أساس من الواقع الوجودى. فحقيقة الأمر أن كل جيل من أجيال الناس لايعد سوى حلقة فى سلسلة متصلة وهى سلسلة طويلة تمتد عبر الآف السنين .

فنحن إذن وإن كنا نتطور ونتقدم ظاهريا وحضارياً بما ننتجه من تكنولوجيا ومن فكر ومن أدب وفن ، فإننا من جهة أخرى نتعقد وجدانيا بما ينضاف إلى قوامنا الوجدانى من مخاوف تزداد تأكداً وتبلوراً ، بل وتزداد بُعداً عن مصادر الخوف الطبيعية المحدودة ،وتتجه إلى مصادر للمخاوف تتسم بالرمزية من جهة ، وبالغموض وعدم التعين من جهة أخرى . ولا شك أن المخاوف التى تتأتى لنا من مصادر غامضة وغير متعينة ، تستعصى على المجابهة ويتعذر التغلب عليها أو التجهيز لمجابهتها ومغالبتها . وخلاصة القول إن المخاوف التى نتلقاها فى حياتنا من خارج نطاقنا تضاف إلى مخاوف أسلافنا التى نزلت إلينا فى أصلابنا .

اللاشعور الجمعى حقيقة سيكلوجية :

قال فرويد إن هناك ما يشبه المخزن فى الجهاز النفسى لكل فرد يختزن فيه ما يكبت من مشاعره ورغباته التى تحول الظروف الإجتماعية والعادات والتقاليد الشائعة بالبيئة دون تحقيقها. فما يستطيع المرء التعبير عنه فى الواقع الخارجى لا يجد طريقه إلى ذلك المخزن اللاشعورى وما يختزن يحاول أن يتحين الفرص لكى يطل برأسه إلى سطح السلوك بالطرق الرمزية فى الأحلام أو فى التصرفات غير المقصودة أو الكلام الذى لا يقصد الشخص التفوه به .

ولكن تلميذ فرويد يونج JUNC لم يوافق أستاذه على بعض جوانب نظريته الخاصة باللاشعور وزعم أن هناك لاشعوراً جمعياً بالإضافة إلى اللآشعور الفردى . فبالنسبة للفرد الواحد فإنه يقوم بتخزين الرغبات والمخاوف التى لم يتمكن من التعبير عنها فى بيئته الاجتماعية التى يعيش فى إطارها ، كما أنه يقوم فى نفس الوقت بتخزين الرغبات والمخاوف التى لم تتمكن الأجيال السابقة عليه والتى نزل من صلبها من التعبير عنها .

ومعنى هذا فى الواقع أن المخاوف القديمة جدا التى عانى منها الأسلاف القريبون والأسلاف البعيدون لا تموت أو تفنى ، بل هى تختزن تخزينا وتحبس فى نطاق الفرد الواحد . بيد أننا نلاحظ أن يونج – شأنه شأن أستاذه فرويد – لم يحدد مكانا طوبوغرافيا بالقوام الجسمى – كالمخ مثلا – يجعل ذلك اللاشعور الجمعى أو اللاشعور الفردى متواجدا به . فاللاشعور إذن كمفهوم عند كل من فرويد ويونج لا يعدو أن يكون زعما فلسفيا . والفلسفة فى كثير من الأحيان تسبق العلم ، وتفترض فروضا نظرية سرعان ما يقوم العلم بالتحقق من صحتها . فالذرة كانت فرضا فلسفيا قبل أن تستحيل إلى حقيقة علمية . وحتى إذا لم تستحل بعض الفروض الفلسفية إلى حقائق علمية ، فإن هذا لا يقلل من قيمتها طالما أنها تقدم تفسيرا معقولا لبعض الظواهر ، أو طالما أنها تساند مجموعة من الحقائق فى سياق منسجم بعضه مع بعض .

على أننا بالنسبة لفرض يونج الخاص باللآشعور – ومن قبله قول فرويد به مع اقتصاره على

القول باللاّشعور الفردى – فإننا نجد أن علم الوراثة آخذ فى تحقيق هذا الفرض . ولعل السؤال المطروح حاليا هو : هل تحمل الكروموزومات الموجودة بالخلية الذكرية أو الخلية الأنثية إرثات genes جميع الأجيال السابقة ؟ وبتعبير آخر هل يحمل الواحد من الناس خبرات أسلافه جميعا فى قوامه على شكل مجسد على هيئة نقط على الكرومزومات ؟ إذا أتت إجابة العلماء بالإيجاب ، فيكون معنى هذا فى الواقع أن كل وحدة من الوحدات التى يشتمل عليها النوع من الكائنات الحية تتضمن تلخيصاً وافياً لتاريخ ذلك النوع . فجميع الخبرات التى مرت وترسبت فى اللآشعور الفردى لكل فرد من أبناء القبائل البدائية قد تجمع بطريقة تراكبية فى أبنائه ثم فى أحفاده مهما بعدوا عنه زمانا . وكل خوف ساور وامتلك ناصية الأسلاف نزل إلى الأبناء ثم إلى الأحفاد . وهكذا تنضاف المكبونات اللآشعورية الفردية إلى المكبونات اللآشعورية الجمعية لكى يتكون لاشعور فردى جمعى يضم فى أنحائه الخبرات الآنية التى تلقاها الفرد فى حياته بالإضافة إلى خبرات الآباء والأجداد وأجداد الأجداد عبر سلسلة طويلة ممتدة .

بيد أن هناك معنى آخر للآشعور الجمعى هو المعنى الذى ذهب إليه الفيلسوف الفرنسى أميل دور كايم الذى قال بوجود عقل جمعى للجماعة التى ينخرط الفرد فى إطارها يقابل العقل الفردى الذى يتمتع به كل فرد من أفراد تلك الجماعة . وللعقل الجمعى خصائص العقل الفردى مع شموليته وهيمنته على جمع العقول الفردية . فلذلك العقل الجمعى فى نظر دور كايم قوانينه الخاصة التى لايستطيع أى عقل فردى التخلص من الخضوع لها والتأثر بما تريده وتنحو إليه . وطبيعى أن يستند ذلك العقل الجمعى إلى لاشعور جمعى يصدر عنه ويتحدد . فالعقل الجمعى هو تعبير عما ترسب فى اللآشعور الجمعى من خبرات ومخاوف عبر الأجيال المتعاقبة .

من هنا فإن كل مجتمع من المجتمعات البشرية لا يستطيع بسهولة أن يتخلص من مخاوفه السابقة التى رانت عليه ولفته بعباءتها . فالمجتمع – أى مجتمع – هو أسيرماضيه بكل تأكيد . فما لقيه من هوان أو استعمار أو إذلال يؤثر فيه ويحمله على مغالبته بما يستخدمه فى حاضرة من تصرفات . وكما أن الفرد الذى حمل فى أعماق لا شعوره مخاوف متباينة يحاول التخلص منها بما يستحدثه فى سلوكه من تصرفات شجاعة ، كذا فإن المجتمع الذى لقى الهوان والمهانة والاذلال يحاول جاهدا أن ينفض عن نفسه غبار المخاوف ، وأن يقلب مشاعره بالخوف إلى مشاعر تبدو وكأنها مشاعر جرأة واستخفاف بالمخاطر . فثمة اذن ما يمكن أن نسميه بالتعويض أو بالمبالغة فى التعويض عما سبق أن لقيه الشعب من مخاوف فى ماضيه البعيد وماضيه القريب . وشاهد ذلك ما نراه فى سلوك الشعب الاسرائيلى تجاه الشعب الفلسطينى . إنهم يستأسدون على جيرانهم كتعويض عما لاقوة من هوان واستذلال عبر تاريخهم وعلى أيدى الألمان النازبن خاصة .

فالشعور الدفين فى اللاّشعور الجمعى لدى الإسرائليين يحملهم على التعويض عما يحسون به من مخاوف . فالخوف لديهم يستحيل إلى عدوانية على غيرهم من شعوب مجاورة . وعدوانية الخائف تكون فى الغالب أخطر بكثير من عدوانية المطمئن – بفرض أن المطمئن بحاجة هو الآخر إلى شن العدوان على غيره وهو أمر مستبعد . ولكن الاحساس اللاّشعورى بالخوف ربما لا يجد له ما يطفئ لهيبه مهما استمر الشعب الخائف فى العدوان على غيره من شعوب . إنه يظل كذلك يطارد الخوف المعتمل فى أوصاله إلى ما لانهايه . إنه يقلب الوضع بداخله ولكنه سرعان ما يجد نفسه ما يزال خائفا وغير قادر على ذب الخوف عن قلبه .

وما يقال عن الشعب الخائف الذى يعبر عن خوفه بشكل مقلوب ، فيبدو وكأنه شجاع فى عدوانيته على غيره من شعوب ، ينسحب بنفس الدرجة من الصدق بإزاء الأفراد الذين لاقوا خبرات مخيفة فى طفولتهم . فالشخص الخائف الذى ترسبت فى أعماقه خبرات خوف متأصلة فى شخصيته كثيرا ما يبدو جريئا شجاعا فى مواقف متباينة . لقد يستهين بالآخرين المحيطين به حتى لقد يلقى بالرعب فى قلوبهم . وقد لا نخطئ إذا ما قررنا أن زعماء العصابات وقطاع الطرق هم أشخاص يمتلئ لاشعورهم بالخوف والهلع . إنهم يعبرون عن مخاوفهم المعتملة لديهم فى طيات اللاّشعور بشكل مقلوب . فيبدو الخوف فى شكل تهور ، ويبدو الإرتجاف القلبى فى هيئة شجاعة منقطعة النظير . بيد أن هذا لا ينسحب بازاء جميع الشجعان وان كان ينسحب بازاء الغالبية العظمى منهم . ذلك أننا سبق أن قررنا أن الانسان يحمل فى طيات لاشعوره خبرات سابقة تتعلق بالأسلاف القريبين والبعيدين . فجميع الناس لديهم مخاوف دفينة ان لم تكن خبرات طفولتهم ، فهى خبرات أسلافهم المشحونة بالخوف المتوارث .

الظروف التى تنشط مخاوف أجدادنا فينا :

يخطئ من يعتقد أن كل موقف نخاف فيه يكون وحدة مستقلة عن جميع المواقف الأخرى التى نخاف فيها . فواقع الأمر أن المخاوف التى نمر بها والتى تترسب فى أعماقنا تشكل سلسلة متصلة الحلقات . وأكثر من هذا فإن مخاوفنا التى اكتسبناها خلال عمرنا ترتبط بوشائج متينة بالمخاوف التى مرت فى حياة أسلافنا القريبين وأسلافنا البعيدين والتى ترسبت فى قوامنا كما ذكرنا .

ولا شك أن استدعاء احدى حلقات هذه السلسلة الوجدانية الطويلة جدا ، يؤدى إلى استدعاء باقى حلقاتها . ومعنى هذا أن الخوف عندما يستثار فينا لسبب أو آخر فإن المخاوف السابقة التى مرت فى حياتنا من جهة ، والمخاوفِ السابقة التى مرت فى حياة أسلافنا والتى تراكمت فى قوامنا تستدعى وتهتاج وتعتمل فى أوصالنا . فكما أن قانون تداعى المعانى يحكم

حياتنا العقلية ، كذا فإن قانون تداعى المخاوف يحكم حياتنا الوجدانية . فكما أن الشئ بالشئ يذكر ، كذا فإن المخاوف المتباينة المتراكمة فى قوامنا تجتلب اجتلابا بواسطة موقف مخيف واحد يمر بنا .

على أن الظروف التى تعمل على تنشيط مخاوف أسلافنا القريبين والبعيدين فينا متباينة وكثيرة . ولقد نستطيع تقسيم تلك الظروف التى فئتين أساسيتين : فئة من الظروف الداخلية فى قوامنا وفئة أخرى من الظروف الخارجية التى تؤثر فينا من الخارج . ولعلنا نبدأ بالفئة الأولى من الظروف التى تعتمل بدخائلنا فنحددها فيما يلى :

أولا : البنية الجسمية أو القوام البيولوجى للمرء : فالواقع أن الانسان يولد باستعدادات جسمية لا سبيل إلى تغييرها عن طريق تناول الأغذية أو بالانتظام على العقاقير الطبية .فما نولد به من قوام جسمى انما هو قدر كتب علينا . فالأغذية والعقاقير لا تستطيع أن تفعل أكثر من تفتيق ما جبلنا عليه واخراجه من حيز الكمون إلى حيز الواقع . ومن الأشخاص من يولدون بأجهزة عصبية مرهفة بحيث يكونون فى حالة من رهافة الحس أو بحيث يكونون منزعجين من الداخل . ذلك أن رهافة أعصابهم تجعلهم فى حال من الخوف الدائم أو تجعلهم على استعداد لأن يضطربوا ويتقلقلوا لأتفه الأسباب التى لا تؤثر من قريب أو من بعيد فى الشخصيات السوية . وكذا فان هناك من الأشخاص قد ولدوا بغدد صماء غير منتظمة فى إفرازاتها الهورمونية . فهؤلاء الأفراد يكونون عرضة أيضا للوقوع تحت طائلة الخوف أو الاضطرابات النفسية المتباينة . فى هذه الحالات نستطيع أن نقول إن الأشخاص الذين ولدوا ببنية غير سوية يكونون عرضة أكثر من غيرهم لتنشيط المخاوف الموروثة عن الآباء والأجداد القريبين والأجداد البعيدين .

ثانيا : ماقد يصاب به المرء من أمراض . وهنا نستطيع أن نميز بين نوعين من الأمراض : نوع له تأثير بالغ فى الجوانب النفسية الوجدانية والانفعالية ، ونوع ليس له مثل هذا التاثير بنفس الدرجة ، أو قل إنه لا يكاد يكون له تأثير نفسى يذكر . ويهتم علماء الطب النفسى فى السنوات الأخيرة بتحديد الأمراض التى لها فاعلية فى الجوانب النفسية والتى تفضى إلى الاحساس بالخوف أو القلق أو الاكتئاب أو غير ذلك من حالات نفسية . ولا شك أن الأمراض التى تصيب بعض الناس والتى لا يرجى منها شفاء كمرض السرطان ، إنما تنعكس بشدة على حالة المريض النفسية وتعرضه للاحساس بالخوف الذى قد يتخذ شكلا هستيرياً . ولا شك أن تلك الحالات المرضية وغيرها تعمل على تنشيط المخاوف التى ورثها المرء عن أسلافه القريبين وعن أسلافه البعيدين على السواء .

ثالثا : ما قد يتناوله المرء من مواد أو عقاقير مما يؤثر فى الحالة النفسية . فالشخص الذى يتعاطى المخدرات وقد اعتاد على تعاطيها غالبا ما يحس بالخوف اذا ما حرم من تعاطيها . فلكأن تلك المواد المخدرة تعمل على تهدئة المخاوف التى ورثها الشخص فى كيانه الجسمنفسى . فعندما يزول تأثيرها فإن تلك المخاوف الموروثة تنشط وتنهض من مرقدها وتجد طريقها إلى الحياة الشعورية لذلك الشخص .

رابعا : العمليات الجراحية وبخاصة تلك العمليات التى تستأصل أجزاء من المخ . فلقد وجد أن البعض ممن أجريت لهم مثل تلك العمليات قد صاروا يستشعرون المخاوف التى ليس لها أسباب خارجية . فلا يكون هناك من تفسير سوى التفسير الذى انتحينا إليه ، وهو أن المخاوف التى ورثها الشخص عن أسلافه القريبين وأسلافه البعيدين تستيقظ وتنشط بعد أن يكون المخ قد فقد اتزانه بسبب إجراء تلك العمليات الجراحية .

خامسا : الاصابة بضمور فى المخ أو بأورام خبيثة أو ببعض الأمراض العصبية التى تسبب خللا فى وظائف المخ وبخاصة ما كان متعلقا بالضبط الانفعالى وبالتفكير المنطقى . وكذا الإصابة بالأمراض النفسية الوظيفية التى ما يزال العلماء غير قادرين على تحديد أسبابها الجسمية كالوساوس والأعمال القهرية والهستريا والمخاوف المرضية المتباينة .

وإذا نحن تركنا الأسباب الداخلية جانبا ووجهنا الاهتمام إلى الظروف الخارجية أو إلى الأسباب التى تستحث المخاوف الموروثة من الخارج ، فإننا نستطيع أن نقسمها إلى الأقسام الآتية :

أولا : الأصوات العالية المفاجئة . فإذا كنت سائرا فى الطريق وحدثت فرقعة مفاجئة إلى جانبك ، فإنك تجد نفسك تجرى مذعورا وقد تملكك الخوف من كل جانب . ولا شك أنه فى الحالات المتواترة من سماع الفرقعات ، فإن الشخص قد يصاب بالهلع الدائم ، وفى نفس الوقت تستثار لديه المخاوف الموروثة . فالأمر لا يقتصر عندئذ على الموقف وما يتضمنه من تهديدات خارجية ، بل يجد المرء نفسه غارقا فى الخوف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . ذلك أن المخاوف المتوارثة تهيج لديه وتنشط وتستولى على مقود شخصيته .

ثانيا : التعرض للسقوط من مكان مرتفع . فأنت إذا ما تسلقت سلما عاليا بغير أن تكون معتادا على ذلك ، أو إذا صعدت إلى سطح إحدى ناطحات السحاب وأطللت من السطح إلى الشارع ، فإنك عندئذ سوف تحس بالخوف يملأ صدرك ، حتى لقد يهيأ لك أن قوة ما تدفع بك للالقاء بنفسك من ذلك العلو الشاهق . ذلك أن المخاوف الموروثة المتربصة بك فى دخيلتك تهتاج فجأة وقد انضمت وتآزرت مع الخوف الذى يحدثه إحساسك بالخوف من

السقوط ، ويكون عليك عندئذ أن تبتعد عن المكان وأن تكفكف بصرك عن مشاهدة ما أنت فيه من موقع مرتفع للغاية .

ثانيا : الحركة السريعة . فإذا ما لمحت شيئا يتحرك فجأة وبسرعة هائلة أمام ناظريك ، أو إذا كنت فى طائرة مكشوفة تطير على مقربة من الأرض بسرعة هائلة بحيث ترى بوضوح كيف أن الأشجار والبيوت وكأنها هى التى تجرى بسرعة مخيفة من تحتك ، عندئذ قد يأخذ بك الخوف كل مأخذ وقد تجد مشقة كبيرة فى ضبط انفعالاتك المذعورة .

رابعا : مشاهدة أشياء لا تجد لها تفسيرا إدراكيا فى ذهنك .تخيل أنك شاهدت حيوانا يتحرك حولك فى الصحراء حيث تكون وحدك ولكنك لا تستطيع تبين ملامحة أو الوقوف على تكوبن جسمه . فليس له رأس مثلا ، أو له عيون كثيرة منتشرة على جسمه الهائل . ماذا يكون احساسك عندئذ ؟ لا شك أنك ستصاب بالذعر الشديد لأنك لا تستطيع أن تجد ترجمة معرفية لذلك الكائن الذى تشاهده فى ذهنك . بيد أنك لا تخاف فقط من ذلك الكائن العجيب بل إنك أيضا تخاف من بركان المخاوف الذى يهيج فى أعماقك .

خامسا : الخوف على أشخاص تحبهم من مصائب تصيبهم أو من مخاطر تحدق بهم . فكثيرا ما ينخرط الأطفال الذين يحبون والديهم فى أحلام يقظة مخيفة عندما يتخيلون موت أحد هذين الوالدين أو إصابته بمكروه . ناهيك عن المخاوف التى تصيب المرء عندما يتعرض أحباؤه للأمراض الخطيرة أو إذا أصابهم مكروه من أى نوع .



إننا كائنات خائفة

الفصل الثانى
جنون الخوف هو تعرية لطبيعتنا

الإنسان كائن خائف :

يخطىء من يعتقد أن الأساس فى طبيعة الإنسان منذ ميلاده أن يكون مطمئنا وأن الخوف هو حالة وافدة عليه نتيجة ما تؤثر به البيئة بخبراتها الضاغطة والمخيفة فيه . ذلك أن الشائع فى الأذهان وعلى الألسنة أنه لولا ما يلاقيه المرء منذ ميلاده من عوامل مخيفة ، ما كان إذن ليخاف ، وما كان له أن يكتسب خبرات مخيفة . والواقع أن الأصل فى طبيعة الإنسان أنه يولد وهو محمل بالخبرات التى تجعل منه كائنا خائفا حتى قبل أن يتلقى أية خبرات مخيفة من البيئة المحيطة به .

ولعلنا لا نخطىء إذا ما قلنا إن البيئة الاجتماعية التى تحيط بالمرء منذ ميلاده كثيرا ما تخبىء المقومات المخيفة فى جبلته ، أو أنها تهبه الطمأنينة المؤقتة ، أو أنها تعمل على تخديره وإلهائه عن واقع طبيعته وواقع الحياة من حوله أيضا . فالأصل هو الخوف ، والطمأنينة هى الحالة المستحدثة تخفيفا من ضغوط الخوف عليه .

ونستطيع أن نقول إن الطفل ساعة ميلاده لا يرتجف من البرد الذى يستشعره بعد خروجه من أحشاء أمه الدافىء فحسب ، بل هو يرتجف من الخوف أيضا . ونستطيع أن نقول أيضا إن الوليد لا يصرخ لكى يبدأ لأول مرة فى تشغيل رئتيه فحسب ، بل إنه يصرخ فى نفس الوقت ويبكى إظهارا لما يستشعره من خوف . ولقد نقول إن البيئة الدنيوية التى يخرج إليها الوليد هى أول مجال يبدى فيه ما يعتمل فى قوامه من مخاوف . فهو وإن لم يستطع التعبير عن مخاوفه وهو بعد فى أحشاء أمه ، فإن هذا لايعنى أن مقومات الخوف لم تكن تعتمل فى أوصاله . فلعل الاهتزازات التى كانت تحس بها الأم الحامل قبل أن تلد طفلها كانت فى جانب منها بمثابة لغة حركية كان ذلك الكائن يأتيها تعبيرًا عما يشيع فى جنباته من خوف موروث عن أسلافه القريبين وعن أسلافه البعدين .

وإذا نحن تتبعنا مراحل حياة الإنسان منذ ميلاده حتى مماته ، نجد أنها جميعا مشقوعة بما يؤكد ويثبت ، بل ويهيج الخوف الكامن والمتوارث لديه . ففى مرحلة الطفولة الأولى التى تبدأ منذ لحظة الميلاد حتى نهاية الرابعة تقريبا يكون على الطفل أن يخضع لكثير جدا من الضغوط الاجتماعية التى تخيفه وتشيع الهلع فى أنحائه . ولقد نقول إن الآباء والأمهات والكبار بوجه عام

ممن يحيطون بالطفل الصغير يستغلون مشاعر الخوف لديه لكى يشكلوه بالشكل الذى يريدونه . فهم يصوغونه وفق أطر يترسمونها فى أذهانهم ويجبرونه على أن يحققها فى شخصيته وفى أنحاء سلوكه المتباينة . وقل نفس الشىء بازاء مرحلة الطفولة الثانية التى غالباً ما ينخرط الطفل خلالها بالتعليم النظامى ، فيلقى من أسباب التخويف والإرهاب ما يجعله يحاول جاهداً أن يشكل نفسه وفق ما يؤمر به . إنه يتعلم وكل تعليم يفرض عليه يكون مصحوباً بنوع ما من أنواع التخويف والإرهاب . فهو يتعلم أن ينخرط فى جماعة وأن يعمل لها ألف حساب ، وأن يأتمر بأوامر المعلمين وأن يراعى الاتجاهات العامة لدى مجموعة الأتراب من تلاميذ الفصل وإخوان اللعب .

ونفس الشىء يقال عن الشخص وقد أخذ ينخرط فى المراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة . فهناك الضغوط الاجتماعية وما تبديه الجماعة من تحذير وتخويف للمرء إذا هو حاد عن الخطوط التى ترسم له لكى يصب سلوكه فيها ويترسمها ويراعيها فى حياته . فالمجتمع يلاحق أعضاءه سواء كانوا مع غيرهم أم كانوا وحدهم . فكما يقول فرويد فإن للمجتمع مندوبا يخيفه ويفرض أوامره عليه فى جهازه النفسى الذى أطلق عليه إسم « الأنا الأعلى » . وحتى عندما يتجاسر الفرد ويخرج على قواعد وأنظمة المجتمع الذى نشأ فيه وترعرع فإنه يجد نفسه – بسبب خوفه من مغبة غضبه – يعض بنا الندم ويتوب ، أو يحاول أن يتوب ويسلك وفق تلك الخطوط المرسومة . ناهيك عن أن الناس المحيطين بمثل ذلك الشخص يأخذون فى تجنبه خوفا من سخط المجتمع عليهم .

ونحن لا نستطيع أن تغفل مقوماً هاماً بالمجتمع هو الدين . فمنذ نعومة الأظفار نجد أن الدين – أى دين فى أى مجتمع – يقول بالثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة . فنحن نخاف الله خوفاً من عقابه ، كما نخافه خوفاً من ضياع ثوابه . ومن جهة أخرى فإننا نخاف من كائنات روحية شريرة تتربص بنا الدوائر وتغرينا بمخالفة الوصايا الآلهية . وأكثر من هذا فإننا نخاف من إيذائها لنا إذا نحن لم نستعن بالرعاية الإلهية لنا .

ومعنى هذا فى الواقع أن المجتمع يستعين بالخوف لكى نتكيف له ولما يقول به ، كما أنه يستعين بالخوف حتى نسير فى الطريق التى يراها سديدة لخلاص أرواحنا فى الدنيا والآخرة على السواء .

ومهما يكن من أمر ، فإن المجتمع الذى يحتضننا بالحنو والرعاية ، هو فى نفس الوقت المؤسسة التى تأخذنا بالتخويف . بيد أن المجتمع لا يقتصر على الضغط المعنوى وعلى التخويف النفسى ، بل هو يذهب إلى أقصى من هذا عندما يستعين بالقانون الوضعى لإخافتنا إذا ما جرؤ

أحد منا بمخالفة وصاياه . فالقانون ينصب على العقوبات بالدرجة الأولى وبخاصة فيما يتعلق بالقانون الجنائى . فالشخص الذى لا يخالف ذلك القانون الجنائى لا يأخذ مكافأة ولكنه إذا خالف ما ينص عليه ، فإنه يستحق العقاب سواء بالتغريم المالى أم بالسجن أم حتى بالموت شنقا .

وهناك ماهو أهم من القانون الوضعى هو القانون الأخلاقى . والواقع أن القانون الأخلاقى يتسع لأمور كثيرة قد لا ينص عليها التشريع الوضعى أو حتى الوصايا الالهية . فمن يبصق على الأرض فى الطريق العام أو فى إحدى وسائل المواصلات يؤاخذ وفق ذلك القانون الأخلاقى . وكذا يؤاخذ من يدخن فى الزحام . وليس هناك نص صريح فى القانون المكتوب والمحدد يؤاخذ من يبصق على الأرض أو من يدخن فى حجرة مزدحمة بالموجودين . وكذا لايوجد نص صريح يؤاخذ من يتخطى دوره فى طابور الجمعية التعاونية ، ولكن القانون الأخلاقى غير المكتوب يؤاخذه.ونحن نجد أنفسنا خائفين من نقد الناس لنا إذا ما خالفنا عن القواعد السلوكية الشائعة أو التى يجب أن تمارس . فنحن نحاول التحرر من الخوف بأن نسلك سلوكا أخلاقياً محققاً للمرغوب اجتماعيا . ولذا فإننا ننوع سلوكنا كلما تغيرت البيئة الاجتماعية من حولنا . فالمصرى إذا سافر إلى فرنسا يجد نفسه محوطا بتقاليد اجتماعية جديدة عليه أن يكيف نفسه لها ، وألا يخالف عنها حتى لا يستهجن الفرنسيون سلوكه .

والواقع أن النجاح نفسه الذى يلقاه المرء فى حياته يحمله بمسئوليات جديدة تجعله يخاف من الفشل فى النهوض بها . فكلما تقدمت خطوة إلى الأمام فى حياتك ، كانت رقعة مخاوفك أوسع نطاقا وأشد تضييقاً عليك . فأنت تتخرج فى الجامعة لكى تخاف من الفشل فى الحياة العملية ، وأنت تتزوج وتنجب الأطفال لكى تخاف من فشلك فى الزواج ، أو من فشلك فى تربية أطفالك وتخاف لئلا تعجز عن تأمين مستقبلهم . وقل نفس الشىء بالنسبة لكل تقدم تحرزه فى الحياة . فكل تقدم يصاحبه خوف أوسع .

والمرأة الجميلة التى تزهو بجمالها تخاف من الشيخوخة التى تطفىء ذلك الجمال ، والرجل الذى احتل منصباً مرموقاً يخاف من الإحالة إلى المعاش فيفقد بذلك تلك المكانة والسلطة والدخل الكبير . وطبيعى أن يترقب الإنسان المرض فى شيخوخته ، ومن بعده الموت الذى يعد الصدمة الكبرى فى حياة المرء بعد صدمة الميلاد التى عاناها لحظة ميلاده . إذن فحياة الإنسان سلسلة متتابعة من المخاوف التى ترين عليه ولا تفارقه . فهو كائن خائف بصفة دائمة .

عندما يخلع المرء ثوب الحضارة :

قلنا إن الحضارة تحاول جاهدة إشاعة الطمأنينة فى قلوبنا وإن كانت لا تنجح دائماً فى مسعاها . ذلك أن الحضارة هى الأخرى كثيراً ما تصيبنا بالمخاوف التى تهدد أمننا النفسى وتشيع القلق فى قلوبنا . ولكن مهما يكن ، فإننا لا نجد سبيلا أمامنا يحمينا من المخاوف التى تعتمل فى قلوبنا سوى الارتماء فى أحضان الحضارة .

وتتمثل الحضارة أكثر ما تتمثل فى مؤسساتها التى تحتل الأسرة المكانة الأولى فيها . فنحن نرتمى فى أحضان الأسرة منذ نعومة أظفارنا حتى شيخوختنا ومماتنا لأننا نجد فى حضنها ما يغطى على مخاوفنا الداخلية المغروزة فى جبلتنا . فكأن أحضان الحضارة – متمثلة فى حضن الأسرة – تعالج شيئاً مما نحس به من خوف دفين فى قلوبنا .

والواقع أنه فى اللحظة التى نتعرى فيها من ثوب الحضارة الذى يغطينا ويحجب بعض الخوف عن قلوبنا ، فإننا نبدأ عندئذ بالشعور بالهلع يخيم علينا ويغطينا . وهذا ما يحدث عندما تسقط دعامة من الدعامات الأساسية بالأسرة . فعائل الأسرة إذا مات فجأة ، أو إذا ماتت الأم التى تحنو على أطفالها وتبث فى قلوبهم الطأنينة ، عندئذ تهيج مشاعر الخوف فى القلوب .

وكذا فإنه عندما تقع الكوارث كأن يهدم البيت أو تعصف الزلازل أو الفيضانات بالمأوى ، ويتشرد الناس أشتاتاً متفرقة ، عندئذ ينتشر الخوف ويغطى بعباءته من استطاعوا الفرار بحياتهم من السكان وقد نجوا من براثن الموت ، ولكنهم لم يتمكنوا من النجاة من مخالب الخوف التى تنشب أظفارها فى مهجهم . فالمأوى بمثابة درع حضارى يقى المرء من الشرور المتربصة به فى الخارج . والواقع أن المأوى المتمثل حاليا فى العمائر الضخمة أو فى البيوت الصغيرة قد مر عبر القرون الكثيرة فى سلسلة من التطور الطويلة . فالإنسان فى بداوته كان يتعرض للمخاطر الطبيعية ولتهديدات الوحوش الضارية والطيور الكواسر تفتك به أو تهدد حياته بالضياع . فكان أن حاول الاختباء فى الكهوف الطبيعية التى لم يقم بحفرها ، ثم حاول بعد ذلك أن يقلد الطبيعة بأن اخذ يحفر لنفسه كهوفاً يمكن اعتبارها نقطة البداية فى تشييد البيوت والقصور والعمائر . ولا شك أن ضياع المأوى عندما تهدم البيوت هو فى نفس الوقت نكوص إلى الحالة البدائية التى تختمر فيها المخاوف وتهيج .

ومعنى هذا أنه عندما يجد المرء نفسه بغير مأوى فجأة ، فإنه يتذكر بغير وعى من جانبه الحالة التى كان عليها أسلافه البعيدون جداً فى الكهوف وقد اختبأوا من الطبيعة الهائجة أو من الوحوش الضارية أو من الطيور الكواسر . ولنا أن نذكر هنا ما سبق أن أكدنا عليه ، وهو أن قوام إنسان الحضارة يحمل فى طياته خبرات الأسلاف القريبين والبعدين ومخاوفهم . فالمخاوف

التى ترسبت فى قوام الإنسان سرعان ما تهيج إذا ما فقد المأوى الذى يلهيه عن إثارة المخاوف النائمة فى قوامه الخبرى .

وغنى عن القول إن الإنسان يجد نفسه بين قطبى الرحى . فهو عندما يرتمى فى أحضان الحضارة يجد أنها تكتنفه بمجموعة كبيرة جديدة من المخاوف تتسم بالرمزية مما يسبب له القلق النفسى الذى يعد فى الواقع من أخطر أمراض الحضارة التى تصاب بها نفسية الإنسان الحديث . ومن جهة أخرى فإن المرء إذا ما تحرر من أثواب الحضارة ، فإنه يجد نفسه فى ضياع وخوف وارتعاد . فماذا يفعل إذن ؟ إن المخاوف تحيط به من الخارج ، وتعتمل فى أوصاله من الداخل فى قوامة .

فالخوف يلاحق الإنسان بلا مناص سواء ارتدى أثواب الحضارة أم تعرى منها ، وسواء انخرط فى ركب المجتمع ام بقى فى عزلة وحده . ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا إن الخوف قدر كتب على الإنسان والحيوان على السواء . وكل جهد يبذل لحماية الإنسان من الخوف أو لدرئه عنه يبوء بالفشل لا محالة . وليس من سبيل سوى محاولة التخفف من ثقل ووطأة الخوف ، ولا سبيل إلى التخلص منه تماما .

ولعلنا نقول إن الشخص الذى يكيف سلوكه للحضارة التى يستظل بظلها يوصف بأنه شخص عاقل ، بينما يوصف الشخص الذى يعجز عن تحقيق مثل ذلك التكيف بأنه شخص مجنون . فالجنون هو الحالة التى يخلع فيها المرء ثوب الحضارة ، أو هو الحالة النكوصية التى يعود المرء بمقتضاها إلى الحالة البدائية التى كان عليها أسلافه البعيدون . فالبدائية جنون والحضارية عقل . على أن هذا لا يعنى أن البدائيين كانوا مجانين ، وأن أصحاب الحضارة عقلاء . فالواقع أن المسألة نسبية فالشخص الذى ينكص إلى الوراء فى سلسلة التطور يعتبر مجنوناً بسبب نكوصه . فالبدائية فى حد ذاتها ليست جنونا ، ولكن الجنون هو النكوص ، أو هو الإنخلاع من الإطار الحضارى الذى يكتنفنا ويضمنا تحت عباءته .

ولا تقف المسألة عند هذا الحد ، بل إن التقدم أيضا إلى الأمام بتطور أسرع من الإيقاع الحضارى الذى نعيش فى إطاره يعد جنونا . فأولئك الذين يسبقون زمانهم ، أو أولئك الذين ينفضون عن أنفسهم أثواب الحضارة الحالية لكى يرتدوا أثواب حضارة يعتقدون أنها حضارة مستقبلية ، إنما يتهمون أيضا بالجنون . والعاقل هو ذلك الشخص الذى يعيش حضارته الراهنة بغير نكوص وبغير استباق لحضارة يظن أنها مقبلة مع الأيام أو السنوات أو القرون .

وثمة قيم أساسية جوهرية يعتنقها المجتمع الراهن لا بد للمرء تحاشى الاصطدام بها . ولذا فإن العقلاء لايفصحون دائماً عن كل ما يدور بخلدهم . إنهم لا يفصحون إلا بقدر أما أولئك

الذين ينطلقون معبرين عن كل ما يجول بخواطرهم من أفكار تتصادم بالقيم القائمة ، فإنهم سرعان ما يتهمون بالجنون . ذلك أن القيم الاجتماعية التى يأخذ بها المجتمع نفسه تعتبر بمثابة سلسلة فقرية يقوم عليها بناء ذلك المجتمع . فعلى أبناء ذلك المجتمع أن يأخذوا أنفسهم بها ، وألا يعترضوا عليها . إنهم يستطيعون الاعتراض على القيم الهامشية وربما يجدون آذاناً تصغى لهم وتأخذ برأيهم واعتراضهم . أما أن يقاوموا القيم الأساسية الجوهرية ، فإنهم كمن يصطدم برأسه فى حجر صوان . إن رأسه تتحطم بينما يظل حجر الصوان راسخا قائما لا يتأثر باصطدامهم به .

فالجنون إذن هو الاصطدام بالقيم الأساسية الجوهرية بالحضارة والعقل هو التكيف لتلك القيم والأخذ بها وتأييدها . ولذا فإنك تجد ما يشبه التعارض فيما بين الصحة النفسية وبين الصراحة المطلقة فى التعبير . ومعنى هذا أن إنسان الحضارة يتسم بقدر صغير أو كبير بالمداهنة أو الرياء والنفاق.فهو كثيرا ما يخفى مواقفه المضادة لما تأخذ به الحضارة نفسها من قيم ومعتقدات . وأضعف الإيمان أن يسكت المرء بحيث لا يبدى تأييدا أو اعتراضا . إنه بسكوته وعدم صراحته يكون قد جنب نفسه تهمة الجنون . تخيل شخصا نشأ فى بيئة ذات حضارة مثل حضارتنا تقول بأن الأسرة هى الخلية الأولى فى المجتمع وأنها جديرة بالحفاظ عليها . ولكن صاحبنا رأى أن الأسرة مؤسسة اجتماعية ضارة وذهب إلى القول بأن الأطفال يجب أن يسحبوا من أمهاتهم وآبائهم ، وأن ينشأوا فى مستعمرات أو حضانات بحيث لا ينسب الطفل إلى أسرته وبحيث تضيع الأنساب . ماذا يمكن أن يقال عن مثل هذا الشخص ؟ الجنون بالطبع ، وذلك لأنه ناهض قيمة أساسية من قيم الحضارة هى الأسرة . ولكن على العكس من هذا إذا ما ذهب الشخص إلى القول بالحضانات كمؤسسات تساند الأسرة ولا تلغيها ، فإن كلامه يجد قبولا وينظر إليه باحترام وينوطه أبناء المجتمع بالعقل السليم والحكم السديد . ومن ثم فإنه يحظى بالأمان ويتحاشى ما يمكن أن يوجهه إليه مجتمعه من وسائل الإرهاب والتخويف.وهل هناك أرهب أو أخوف من أن يتهم المرء بالجنون ؟

التربية محاولة مستمرة لتغطية الخوف :

يحاول الوالدان بدأب طوال الطفولة والمراهقة بث روح الطمأنينة فى قلوب أبنائهما وذب عنهم تلك المخاوف المفطورة فيهم . فبتوفير الغذاء والملبس والمأوى والرعاية بكافة أنواعها يحس الأطفال بالطمأنينة النسبية وإن كان هذا لا يضمن لهم التخلص من المخاوف التى تعتورهم نهائياً وبشكل حاسم . فالواقع إن مخاوف الطفولة مشهورة ويتذكرها كل شخص خرج من إطارها

إلى الأطر العمرية التالية . ذلك أن الطفولة هى المرحلة القريبة من الفطرة والوراثة ، أو قل إن الطفولة هى المرحلة التى لم تتلق الكثير من خبرات الواقع الخارجى .

ومعنى هذا أن الإنسان على الفطرة يكون أكثر خوفاً وارتعاداً منه وقد انخرط فى بيئة اجتماعية ، وقد تلقى عنها الكثير من الأسلحة التى تقيه الكثير من تلك المخاوف. فنحن عندما نقع تحت تأثير غيرنا ، فإننا نستمد قوة من ذلك الغير. وكذا الحال عندما نعمد إلى تربية ذواتنا طوال حياتنا . فنحن نحاول بصفة دائبة أن نربط أنفسنا بالواقع الخارجى ، وأن نتخلص من النظرة **الذاتية** إلى أنفسنا وأن نتناول ذواتنا كأشياء موضوعية . فنحن إذا ما نظرنا إلى أنفسنا من الداخل إذن لا **نغمسنا** فى بوتقة المخاوف التى ترهبنا . أما إذا نظرنا إلى أنفسنا من الخارج فإننا سننجو من تلك البوتقة المفعمة بالانفعالات التى تتربع عليها انفعالات الخوف .

على أن التربية التى يفترض فيها أن تهب الطفولة الطمأنينة كثيرا ما تزيغ عن مسارها السليم وتتخذ لها مساراً يدعم المخاوف التى اكتسبت فى الطفولة ، وتضيف إلى المخاوف المتوارثة مخاوف أخرى جديدة مكتسبة . وكذا الحال بالنسبة للحضارة برمتها . فهى وان كانت قد نشأت بادىء الأمر لكى تذب عن الإنسانية المخاوف التى ورثتها عن الأجيال الماضية القريبة والبعيدة ، فإنها بدلا من ذلك أخذت تنحرف عن مسارها السليم . إنها أخذت فى إنتاج أسلحة الدمار وعوامل التخويف المتباينة . وبدلا من أن تكون وسيلة لتنحية المخاوف بعيدا عن قلوب بنى الإنسان ، فإنها صارت عامل تخويف وإرهاب يطيح بالطمأنينة من القلوب ، ويخيم عليها بأشباح متباينة تخيفه وتفزعه فى حياته سواء فى اليقظة أم فى المنام .

بيد أن التربية تحاول جاهدة أن تخفف من الآثار النفسية المدمرة التى تتركها الحضارة على صفحة الحياة النفسية للبشرية . فالمربون يحاولون بكافة الوسائل والفنون أن يخلصوا بنى الإنسان مما يعتمل فى قلوبهم من مخاوف ، سواء كانت مخاوف أكسبتها لهم الحضارة بفنونها ومخترعاتها المخيفة ، أم كانت مخاوف مترسبة فى قوامهم عن الأسلاف القريبين والبعيدين . فلقد يذهب المربون إلى محاولة بث الشجاعة فى قلوب الناشئة وذلك بمجابهة المخاطر وجها لوجه وتحديها بقلوب صلبة لا تلين ولا تخشى بأسا أو تخاف من ضر ، وكذا فإنها تستعين بالإخشوشان ، وذلك بأن يفتعل الناشئة المواقف الصعبة التى تجعل أعوادهم صلبة وقلوبهم قوية لا تخشى من مقابلة المواقف التى تخيف ضعاف النفوس الخائفين من أتفه الأسباب .

ففى إسبرطة قديما كان الأطفال الصغار جدا يعرضون للبرد على الجبال وللمخاطر والمواقف الصعبة حتى يعتادوا الحياة الخشنة وحتى يشبوا على النضال كجنود أقوياء الشكيمة يدافعون عن وطنهم بجرأة وبسالة . وكذا الحال فى ألمانيا النازية وفى اليابان قبيل الحرب العالمية الثانية

حيث كان الجنود والشباب بعامة يجابهون الأخطار حتى تدب فى أوصالهم روح الشجاعة والإقدام والبسالة. والواقع أن الجيوش الحديثة بصفة عامة تدرب الجنود على مجابهة المخاطر بقلوب ثابتة لا تحركها المخاوف بقدر ما يتسنى للمدربين الحربيين بث الشجاعة فى الجنود والقادة.

ومن جهة أخرى فإننا نجد علماء النفس يحاولون الكشف عن المخاوف الكامنة فى النفس حتى يتسنى لهم التخفف من وطأتها والتخلص من سلطانها المستخفى الذى يعمل عمله فى السلوك الداخلى بالشخصية سواء فى مجال الفكر أم فى مجال العاطفة، أم فى السلوك الخارجى فى التصرفات وطريقة الكلام والإشارات والأوضاع التى يتخذها الشخص فى الجلوس والوقوف والنوم والمشى.

فمنهج فرويد فى التحليل النفسى يعتمد على التداعى الحر للمعانى التى تدور بخلد المريض نفسياً حتى يعرض للنقاط الحساسة فى شخصيته من خوف مكبوت أو من رغبات لم يتحقق إشباعها بسبب الخوف من بطش الكبار أو الخوف من بطش المجتمع بعامة. وكذا فإن المنهج العلاجى، المسمى بالفعل المنعكس الشرطى يحاول القائمون بالعلاج بواسطته إبطال مفعول الأسباب التى تؤدى إلى الخوف أو التى ارتبطت فى ذهن المريض بالخوف كأن يخاف المريض من صوت جرس الإسعاف ويرتعد، أو لمجرد مشاهدة صرصور أو جرو صغير.

ولعلنا لا نخطىء اذا ما قلنا إن المربين وعلماء النفس على السواء يؤمنون بحقيقة هامة هى ضرورة الكشف عن أسباب الخوف كخطوة أولى فى العلاج النفسى. فهم يعالجون الخوف بالخوف. فبغير أن يمر الشخص فى حالة الخوف كمرحلة أولى فى العلاج، فلا يتسنى تخليصه من مخاوفه. فالمربون يقولون لك إذا أردت أن تتخلص من مخاوفك فعليك بمجابهة الموقف وأن تتحمل الخوف بكل أبعادة بغير أن تحاول التخلص منه أو التخفف من وطأته. فعندما تخاف إلى إبعد قدر ممكن من الشىء المخيف، فإن مفعول ذلك الشىء المخيف يبطل إذن. فلا تعود تخاف منه بعد ذلك. فلكأن الخوف بعض الخوف من الشىء المخيف دون أن تستنفذ كل طاقة الخوف التى تحملها فى نفسك لذلك الشىء، لا يسمح بتفريغ ذلك الشىء الذى يخيفك من مضمونه المرعب لك. ولكن على العكس من ذلك فإنك إذا ما خفت كل الخوف من ذلك الشىء مع تبصرك به وتفرسك فيه وتأملك له، فإنك عندئذ تستطيع أن تجرده من سلاحه. فلسان حال المرء هنا يقول «وداونى بالتى كانت هى الداء».

ونفس الشىء يقال عن المعالجين النفسانيين. إنهم يحملون مرضاهم النفسيين على المرور فى ذات الخبرة التى بثت الخوف فيهم بادىء ذى بدء. فهم يحاولون تمرير المرء فيما سبق أن مر فيه

من مواقف سببت له الخوف فى طفولته الأولى أو فى طفولته الثانية أو فى مراهقته أو فى شبابه . ولكأن المعالج النفسى يريد أن يعود بالشخص المريض إلى الوراء حيث كان طفلا أو مراهقاً أو شاباً صغيرا ، ويجعله يعيش تلك المرحلة العمرية مرة أخرى بكل تفاصيلها وهوامشها . فممارسة الحياة من جديد تمنح المريض بصرا ، أو قل إنها تحمله على تصحيح الصورة المشوهة التى التقطها للموقف . ذلك أن المعالج النفسى يظهره على سخف مخاوفة التى ظل يعانى منها منذ ذلك الموقف الذى اكتسب فيه عقدة الخوف .

ويزعم بعض المعالجين النفسانيين أن العلاج النفسى للمخاوف لا يقتصر على ما سبق للمريض اكتسابه خلال مراحل نموه الأولى ، بل انه يستطيع أيضا أن يعالج الشخص المريض من المخاوف التى تلقاها بالوراثة عن أسلافه القريبين وعن أسلافه البعيدين . ولقد يكون « يونج » واحدا من أولئك المعالجين ، وذلك لأنه يعتقد – كما سبق أن قلنا – بوجود خبرات سلفية تنزل إلى المرء عن أسلافه منذ القبائل البدائية البعيدة فى الزمان .

ومهما يكن من أمر فإن التربية وعلم النفس – وهنا ننوه إلى أن العلاج النفسى هو بمثابة إعادة تربية المريض نفسيا من الناحيتين الوجدانية والعقلية – يعملان على تخفيف حدة المخاوف لدى المرء . ولكن لنا هنا ملاحظتين : الأولى – إن الكثير من وسائل التربية تزيد الخوف ولا تخفف من غلوائه . وذلك لأن التربية قد ارتبطت فى أذهان كثير من المربين باستخدام وسائل التخويف والإرهاب مع الناشئة . أما الملاحظة الثانية – فهى أن العلاج النفسى ما يزال قاصرا ولا يخضع لفنونه سوى قلة قليلة من الناس . ونحن فى الشرق وفى البلاد العربية بعامة لا نكاد نؤمن بجدوى عرض أنفسنا على المعالجين النفسانيين ، بل إن فنون العلاج النفسى قد ارتبطت فى كثير من الأذهان بالشعوذة وانعدام الجدوى . من هنا فإننا نستطيع أن نقرر أن المخاوف المكتسبة والمخاوف الموروثة ما تزال مهيمنة على قلوب الناس ، ولسوف تظل ضاربة باطنابها فى أغوار شخصياتهم .

عندما تتصدع المؤسسات الاجتماعية :

قلنا إن المجتمع يحيمنا من أنفسنا ، أو قل إنه يغلف مخاوفنا بحيث تكون محتجبة عن أنظارنا . والمجتمع يغلف مخاوفنا بواسطة المؤسسات الاجتماعية التى يقيمها . فنحن نحتمى وراء أسوار تلك المؤسسات الاجتماعية حتى نخفى الواقع فلا نراه . ويؤكد زعمنا هذا ما يمكن أن يعتورنا من خوف فظيع إذا ما انهارت صروح المجتمع وصرنا وجها لوجه أمام ذواتنا . والواقع أن من الصعب تخيل المجتمع من حولنا وهو يتصدع ، وذلك لأن مثل هذه الحالة لاتكاد تقع

فى حياة المرء الذى يعيش فى ظل مجتمع راسخ الأركان ويسير فى حياته على نسق مستمر ثابت غير متزعزع .

بيد أنه فى الحالات التى يتصدع فيها بنيان المجتمع كله كما هو الحال عندما يتشقق المجتمع من الداخل ، وعندما تصير هناك جبهات فى المجتمع الواحد تتنازعان البقاء فان المخاوف تأخذ شكلاً حاداً . ولسنا نقصد هنا الأحزاب السياسية التى تتعارض بعضها مع بعض ، بل نقصد القاعدة الشعبية العريضة ذاتها . فالمجتمع فى صلبه وفى قوامه الشعبى قد يتشقق وقد يصل التشقق إلى حد إحساس الشقين المتصدقين بأنهما خطر على بعضهما البعض ، وبذا فإن الإحساس بالخطر لا ينصب على فئة دون أخرى ، بل يعم المجتمع كله . من ذلك مثلا حالة المجتمع الفرنسى فى أثناء الثورة الفرنسية ، والمجتمع اللبنانى فى الوقت الحاضر ، أعنى فى الثمانينيات من هذا القرن .

وأخطر من هذا عندما ينفرط عقد المجتمع بحيث لا تتعين الفئات المتنازعة وحيث يكون الانقسام مستشريا بحيث لايستطيع المرء أن يعرف من أين يأتيه الخطر ، ولا يستطيع أن يحدد أصدقاءه وأعداءه على السواء.فالكل من حوله يمكن أن يكون صديقا ويمكن فى نفس الوقت أن يكون عدوا . ونستطيع أن نقدم مثالين فى هذا الصدد : الأول – المجتمع المصرى وقت حريق القاهرة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢. ففى تلك الفترة التى حدث فيها ذلك الحدث الهائل كنت لا تستطيع أن تحدد هوية القائمين بالحريق . فلكأن الشياطين قد خرجت من مخابئها لتفتك بكل ما تستطيع الفتك به والقضاء عليه واشعال أوار الحريق فيه . أما المثال الثانى – فهو يتعلق بتلك المجتمعات كمجتمع ألمانيا النازية وقت أن كان الجستابو ينتشرون حتى بين أفراد الأسرة الواحدة . فالأب كان يتوجس خيفة من إبنه أو من ابنته لأن النازيين قد استطاعوا أن يجعلوا من كل مواطن رقيباً على سواه حتى ولو كان ذلك الذى يراقب ويبلغ بخيانته الأب أو الأم أو الأخ أو الأخت . ففى تلك الفترة كانت المخاوف تنشأ من مصادر مجهولة ، وقد انفصمت العرى وفقدت الثقة حتى فى أقرب الناس إلى المرء .

ومن المخاوف التى تسيطر على النفس وتهدد الأستقرار النفسى لدى المرء وبخاصة فى الطفولة والمراهقة اشتعال النزاع المستمر بين الوالدين بحيث تكون الأسرة على شفا السقوط والانهيار . والواقع أن الأسرة التى تفصم عراها بالفعل تكون أهون من الناحية النفسية على أبنائها من الأسرة التى تتهدد بالسقوط كل يوم ولا تنهار . ففى كل مرة تنشب فيها المعركة بين الزوجين أمام أطفالها ، ويحس فيها الأطفال بأن خطرا ما يتهدد عرى تلك الأسرة ، فإنهم يهتزون من الداخل نفسيا ، ويحس كل واحد منهم بأنه مهدد بالضياع . وهذه الحالة تزداد حدة عندما يكون

الوالدان على نفس الدرجة من القوة والشكيمة والضغط على الطرف الآخر. فالمعركة لا تحسم طالما أن الزوجين بنفس الدرجة من القوة والعناد. فكل منهما يريد أن يظل فى المكان القوى، بل إن كلا منهما لايريد للمعركة أن تهدأ وأن تنفض عنها أسباب النزاع. إنهما يريدان للمعركة بينهما أن تظل حامية الوطيس، وأن يظل المتفرجون مشدودين إليهما وهما يتبادلان السباب أو الوعيد. ففى بعض الحالات يكون العراك والنزاع المستمران وسيلة هامة من وسائل تحقيق الذات أو حتى لقد يكونان وسيلة لاكتشاف مدى قدرة المرء على ذب المخاطر واثبات قوته وقدرته على الصمود أمام الأعداء. ناهيك عن أن النزعتين السادية – وهى الإلتذاذ بإيقاع الألم على الآخرين – والماسوكية – وهى الإلتذاذ بتقبل الألم يوقعه الآخرون على المرء – يلعبان دوراً كبيراً فى تلك المنازعات المستمرة التى تنشأ فى بعض الأسر بين الوالدين. ولكن الضحية النفسية لتلك المعركة المستمرة تكون الطفولة الغضة أو المراهقة المرهفة التى تتأثر فى العمق بما يدور حولها، والتى تتعذب بصفة مستمرة عندما تشاهد معركة لا تنتهى بين الوالدين.

ويزيد من خطورة المعارك الأسرية بين الوالدين إحساس الطفل أو المراهق بأنه سوف يضيع اقتصاديا إذا ما تفرق شمل الأسرة. فربما يكون الجوع والعرى والتشتت فى انتظاره إذا ما وقعت الواقعة، وإذا ما تم الطلاق. وحتى إذا كانت الأخيلة التى تسيطر على الطفل والمراهق ليست صحيحة، وأن الخيال يضفى عليها خطورة وأبعاداً غير واقعية، فإن الواقع النفسى المرير الذى يحياه الطفل والمراهق فى تلك الأوقات التى يثور فيها النزاع تكون محفوفة بالمخاوف الغامضة غير المتعينة.

ولعل أخطر حالة تحياها مثل تلك الأسر التى ينشب النزاع بين الوالدين فيها تلك الحالة المتقلبة جدا وحامية الوطيس جدا والتى سرعان ما تهدأ بحيث يصير الوالدان كأحب الأحباء وألصق شريكين فى الحياة. فالتقلب الشديد بين الكراهية الشديدة والتهديد والوعيد وبين الحب والعناق واللهفة، لما يجعل المخاوف فى قلوب الناشئة تزداد اضطراما وتأججاً. فالأطفال والمراهقون يجدون أنفسهم حيارا ين تيارين متعارضين تمام التعارض، فهم يخشون على الحب بين الوالدين أن ينهار، كما يخشون من سطوة الكراهية لئلا تأتى على كل مرتخص وغال. ولكن ماذا تكون الثمار النفسية المتأتية عن هذا التضارب بين الإتجاهين المتعارضين والمتصارعين؟ إنها المخاوف الغامضة غير المتعينة التى تهيج فى نفس الوقت تلك المخاوف المترسبة بالوراثة فى القوام النفسى البيولوجى لأولئك الناشئة فى أحضان تلك الأسرة المتصارعة.

ونحن لا نستطيع أن نغض النظر عن أولئك الناشئة الذين يتحرقون فى قلوبهم بسبب الشك القاتل والمعذب فى صحة أنسابهم.وهذا يحدث إذا ما ترامى إلى سمع الطفل إتهام الوالد

للأم بأنها معوجة السلوك ، وأن إنجابها لم يكن من صلبه وأن ذلك الطفل ليس فى الواقع إبنه . فمهما أقسمت الأم لمثل ذلك الأب بأغلظ الأيمان بأنها عاشت معه مستقيمة ، وأن الطفل من صلبه فإنه لايصدق طالما أن الشك قد انسرب إليه . وطبيعى أن طفلا كهذا – يتشكك فى صحة نسبه – سوف يحس بأنه شخص ضائع ولا يعرف إلى أين يتجه بعقله وقلبه . فهو يكره أمه وأباه فى نفس الوقت ، ومن ثم فإنه يرتمى فى أحضان سلسلة من المخاوف التى تستبد به وتأخذ به كل مأخذ .

والواقع أن المدرسة هى الأخرى تشكل مؤسسة اجتماعية ذات خطورة من حيث الإلتحاق بها والإندماج فيها من جانب الناشئة . إنها الأسرة الثانية للطفل . وطبيعى أن تلك المؤسسة قد تنهار فى أنظار الأطفال حتى وإن كان انهيارها هو انهيار أدبى وليس انهياراً مادياً . فإذا ما عملت المدرسة على سلب الطمأنينة من قلوب أبنائها ، وذلك عندما تستخدم الإرهاب معهم والعنت فى معاملتهم وتأخذهم بالشدة المهينة للكرامة ، فإنها بذلك تشكل معول هدم لأمنهم وأمانهم ، وبالتالى فإنها تسمح للمخاوف بأن تخيم على آفاقهم النفسية . والواقع أن الكثير من الأمراض النفسية التى يشيع فيها الخوف إنما تنشأ بين ربوع المدرسة ، عندما يقوم أحد المدرسين أو إحدى المدرسات باضطهاد الطفل أو القسوة عليه أو حتى تجاهله . فالمدرسة عندما تنهار فى نظر مثل هذا الطفل المضطهد ، فإنها تصير معول هدم لسعادته بل إنها تكون حافزا على إثارة مخاوفه الموروثة عن أسلافه القريبين والبعيدين .

أضف إلى هذا أيضا مؤسسات العمل بعد التخرج والإلتحاق بالحياة العملية . فكثير من تلك المؤسسات تنهار معنويا فى انظار العاملين فيها ، وبالتالى فإنها تستثير لديهم المكتسب والموروث على السواء من كوامن الخوف والشقاء النفسى .

اذا ما فقدنا الانضباط الذهنى :

معنى الجنون فى أذهان كثير من الناس هو ضياع العقل تماما . والواقع أن الجنون ذو أطياف متباينة من حيث الشدة والنوع . فهناك جنون شديد من جهة ، وهناك من جهة أخرى جنون خفيف لا يشمل الحياة العقلية برمتها . وهناك أيضا جنون يتصل بقطاع العقل والمنطق ، بينما هناك جنون يتصل بقطاع الوجدان ، ونوع ثالث من الجنون يتصل بالارادة .

ومهما يكن من شىء فان جميع أنواع الجنون تتصف بصفة مشتركة عامة هى فقدان الانضباط الذهنى . فإذا ما أدرك المرء أو أدرك الناس من حوله أنه لا يستطيع التحكم فى تفكيره أو فى عواطفه أو فى تصرفاته . عندئذ يوصف الشخص بأنه مجنون حتى وإن اختلف

جنونه عما يشيع فى الأذهان من أن المجنون شخص لا يستطيع التعامل مع الآخرين . فالواقع أن هناك كثيرا من المجانين يسيرون فى الحياة بطريقة طبيعية ويزاولون أعمالهم على خير وجه ، بل لقد يساعد بعض أنواع الجنون على ممارسة النشاط فى الحياة بأكثر شدة وبتركيز ذهن لا يتسنى للشخص العادى كما هو حال بعض العباقرة الذين نستطيع أن نلحظ فى سلوكهم بعض الانحراف عن العادى من السلوك .

على أن الإنسان عندما يفقد سيطرته على ذهنه فانه يكون فى نفس الوقت عرضة للاحساس بالكثير من المخاوف التى تهدد أمنه النفسى . ذلك أن التحكم الذهنى هو فى نفس الوقت الجام للمشاعر الوجدانية ، وبمثابة حاجز قوى ومتين بين القطاع الذهنى وبين القطاع الوجدانى من الشخصية . فنحن نعلم أن المخ البشرى يتكون من جزأين أساسيين : الأول – ما يسمى بقشرة المخ ، والثانى – ما يسمى باللب **Medulla** . وقشرة المخ مسئولة عن الضبط الانفعالى ، أما اللب فهو يختص بالعواطف الفائرة والمشاعر المشتعلة أوارا .

ونستطيع القول بأن قشرة المخ هى المسئولة عن ربطنا بالواقع الخارجى ، بينما نجد أن لب المخ مسئول عن ربطنا بأنفسنا . فنحن نخاف عندما تضعف قشرة المخ ويسيطر اللب على سلوكنا الداخلى وعلى سلوكنا الخارجى على السواء . وانك لتجد الأشخاص الذين يتعاطون المواد المخدرة وكذا أولئك الذين يعاقرون الخمر أكثر التصاقا بأنفسهم من سواهم الذين لا يحاولون تخدير قشرة المخ فى أمخاخهم بتلك المواد المخدرة أو بالخمور يعاقرونها . وليس غريبا أن تجد أولئك الأشخاص يبدون شجاعة جوفاء هى فى الواقع قلب لما يحسونه من خوف يستبد بقلوبهم . فالسكير ومدمن المخدرات لا يحسان بالشجاعة الحقيقية ، بل يحسان بالشجاعة الموهومة التى ليس لها رصيد من الواقع النفسى . فهما من الشخصيات الجبانة التى تحس بالخوف يستبد بها فتعبر عما تحس به بشكل مقلوب .

ولاشك أن قشرة المخ إذا ما خدرت فإن الشخص يصير نهبا لمخاوفه التى اكتسبها خلال الطفولة من جهة ، ولتلك المخاوف التى ورثها عن أسلافه القريبين والبعدين من جهة أخرى .

وعلينا أن نذكر أن هناك مجموعة من الأسباب الأخرى التى تؤثر فى قشرة المخ بحيث تجعلها واهنة ضعيفة ، ومن ثم فإنها تعمل على فقدان سيطرة المخ على المخاوف المكتسبة والمخاوف الموروثة على السواء . ولعلنا نجمل تلك الأسباب فيما يلى :

أولا – الأمراض التى تصيب المخ كالخراريخ والسرطان وغيرهما مما يعمل على شل وظيفة قشرة المخ وبالتالى فقدان القدرة على الضبط الانفعالى وعلى الجام المخاوف المعتملة فى دخيلة المرء .

ثانيا – أمراض الشيخوخة وبخاصة ما كان متعلقا بضمور المخ . ففى حالات الطعن فى السن ، فإن الشيخ قد يفقد القدرة على السيطرة على عواطفه وانفعالاته ، ومن ثم فإنه يتعرض لسلسلة من المخاوف التى تقض مضجعه وتخضعه لسلطانها وتأثيرها مما يجعله شقيا بحياته وخائفا فى عزلته النفسية .

ثالثا – فقدان الإتزان الهورمونى . ذلك أن نقص الهورمونات أو زيادتها أو اضطراب النسب بين الهورمونات المتباينة التى تضمن ما يسمى بالاتزان الهورمونى ، تعمل جميعاً على اضطراب التفكير ، وبالتالى فان انضباط الانفعالات والوجدانات يضعف ويترتب على هذا أن المخاوف المكبوتة بالشخصية سرعان ما تتحرر وتطيح بالطمأنينة التى كان يوفرها الانضباط الذهنى قبل حدوث الاضطراب فيما تفرزه الغدد الصماء من هورمونات .

رابعا – الاجهاد الذهنى . فالواقع أن الأشخاص الذين يجهدون عقولهم بالتفكير المستمر والحاد يتعرضون فى كثير من الأحيان لفقدان الانضباط الذهنى . ولذا فانه لدى تدارسنا لحياة الفلاسفة والأدباء والمفكرين بعامة ، فاننا نجد أن عددا لا يستهان به منهم يصابون بفقدان انضباطهم الذهنى ، وبالتالى فانهم يتعرضون للانفعالات تهيج لديهم ، والمخاوف المتباينة تسيطر عليهم وتقض مضجعهم وتسومهم العذاب النفسى الاليم .

خامسا – المواقف المفاجئة . فإذا ما تعرض المرء لموقف فجائى مفجع أو لموقف فجائى مفرح ، فإن هذا قد يعرضه لفقدان انضباطه الذهنى مؤقتا أو بصفة مستمرة . فبالنسبة للمواقف المفاجئة المفجعة فمن أمثلته فقدان حبيب فجأة إثر حادث أليم ، مما يترتب عليه عدم القدرة على السيطرة على المخ . ذلك أن صدمة النبأ المفجع تشل قوة قشرة المخ مؤقتا أو باستمرار . وليس بالغريب أن يكون للنبأ السار المفاجيء نفس الأثر المؤذى الذى يحدثه النبأ المكدر .

وفى جميع الحالات الخمس السابقة فإن المخاوف الكامنة فى طيات الشخصية – سواء منها المكتسب خلال فترة العمر السابقة منذ الطفولة ، أم تلك المخاوف الموروثة عن الأسلاف القريبين والأسلاف البعيدين – تبدأ فى السيطرة على الشخصية بحيث تحتل بؤرة الشعور فيها . فأولا بالنسبة للشيوخ ، والمرضى المصابين فى المخ سواء بسبب الخراريج أو الأمراض السرطانية أم بسبب الحوادث التى تصيب الرأس كأن تخترق شظية معدنية جدار الجمجمة وتستقر بالمخ ، فإن الشخص المصاب يحس بأن المخاوف تهيج لديه بشكل واضح . ولقد أشار العالم الكسس كارل إلى مثال يدلل به على العلاقة بين إصابة المخ وبين إتزان الشخصية يتعلق بحالة أحد العمال أصيب بشظية استقرت فى مقدمة مخه ، فأحدثت تغييرا فى قوامه الوجدانى ، ولقد

استحال من كونه شخصية شجاعة مقدامة إلى شخصية جبانة عازفة عن المواقف الصعبة . أما بالنسبة للشيوخ فإن أمرهم معروف وذلك لأن الشخص الطاعن فى السن كثيرا ما يبدى مخاوفه لمن حوله تماما كالطفل الصغير الذى يستنجد بالمحيطين به لكى يخبئوه من العفاريت التى تهدده . وكذا الحال بالنسبة للحالات التى تضطرب فيها إفرازات الغدد الصماء ، حيث تزيد أو تنقص إفرازات بعض تلك الغدد الهورمونية . فالشخص المصاب بالاضطراب الهورمونى كثيرا ما يكون عرضة للاضطرابات الوجدانية وكثيرا ما يبدى انفعالات الخوف المتباينة . أما بالنسبة للاجهاد الذهنى وانعدام النوم أو قلته ، فانه يكون أيضا مصحوبا بالمخاوف الزائدة لدرجة أن الشخص الذى يوغل فى السهر لعدة ليال متعاقبة يمكن أن يصاب بالهلوسات المرئية والمسموعة التى تجعله يزداد خوفا وارتعادا . أخيرا فإن المخاوف التى تتأتى عن المواقف المفاجئة – سواء كانت مواقف مكدرة أم مواقف سارة – قد تصيب المرء بحالة أشبه بالذعر المستمر . وحتى بالنسبة لتلك الحالات التى يفترض فيها أن تبعد المخاوف عن أفق الشخصية ، فاننا قد نجد الشخص الذى يواجه الموقف المفاجىء السار جدا ، وقد أصيب بنوع من الحساسية النفسية الشديدة التى تجعل منه شخصية على جانب كبير من القلق النفسى لدرجة أنه قد ينخرط فى البكاء الشديد أو حتى لقد يخاف من نكبات ومصائب وشيكة الوقوع سوف تحل به بعد وقت يقصر أو يطول . ولكأن فقدان الاتزان النفسى يصيب الشخصية بعدم الاستقرار والتوجس مما سوف تحمله معها الأيام القادمة من كدر وشقاء . ومن ثم فانه يخاف من مستقبل مقبض غير واضح المعالم والقسمات .



الحيوانات أيضاً تخاف

الفصل الثالث
الخوف عند الحيوانات

استجابات الخوف عند الحيوانات :

نحن جميعا نعرف إن الحيوانات تخاف كما يخاف الإنسان . وهناك قطاع مشترك بالنسبة لمصادر الخوف بين الإنسان والحيوان . ونحن (والحيوانات الفقرية) نخاف من الصوت المرتفع المفاجئ كصوت إنفجار قريب منا ، كما نخاف من الكائنات العجيبة الى لم تألف مشاهدتها ، كما أننا نخاف جميعا من فقد السند عندما نحس أننا على وشك السقوط من مكان مرتفع .

وكلما أحس الإنسان أو الحيوان بالطمأنينة وأنه غير محوط بالخطر يهدد كيانه ويأتى على حياته ، فإنه لا يحس وقتئذ بالخوف يفكك أوصاله ويهد كيانه أو يوتر أعصابه . ولكن عندما يقترب الخطر –سواء كان خطرا حقيقيا أم كان خطرا مزعوماً– فإن الجسم البشرى أو الجسم الحيوانى يتخذ لنفسه أوضاعا جديدة وحالات بيولوجية وعصبية مغايرة للحالة التى كان عليها وقت أن كان مطمئنا .

ولنأخذ حالة الأرنب البرى عندما يكون فى العراء مهددا بخطر السطو عليه . إنه يكون فى حالة استعداد قصوى . إنك تجد أذنية وقد أخذتا تتحركان فى جميع الاتجاهات حتى يتسنى له التقاط أشد الأصوات دقة وبعدا . ولعله يستطيع أن يميز أيضا فيما بين الأصوات التى تصل إلى أذنيه . وعندما يكون ذلك الأرنب منهمكا فى التقاط غذائه من هنا وهناك ، فإنه يكون فى نفس الوقت قد استعد للقفز والجرى إلى مسافات شاسعة بسرعة هائلة . إذن فعضلاته لا تكون عندئذ مرتخية . بل تكون مشدودة وجاهزة للعمل اذا ما جد الجد واقترب الخطر منه .

والواقع أن هناك فروقا جسمية فيما بين الحيوانات بعضها وبعض تتمشى فى نفس الوقت مع الفروق فيما بينها بالنسبة لتعرض كل منها للخطر . فالحيوانات الأكثر عرضة للخطر تستطيع أن ترى فى جميع الإتجاهات تقريبا بفضل وجود العينين على جنبى الرأس . أما الحيوانات التى لا تخاف لأنها هى التى تخيف غيرها وهى التى تهاجم الحيوانات الأخرى فإن رؤيتها تكون إلى الأمام فقط . فالأرنب والبقرة والغزالة مثلا لها أعين مجعولة بحيث تستطيع أن تشاهد فى جميع الإتجاهات تقريبا . فهى ترى ما يوجد أمامها وما يوجد إلى جانبيها كما تشاهد ما يأتى وراءها . أما الأسد والنمر فإن العينين موجودتان لديها فى مقدمة الوجه . فهما فى غير ما حاجة إلى مشاهدة مجال أوسع لأنهما فى أمان نسبى .

وحتى بالنسبة للحيوانات المرتجفة والمتوجسة خيفة كالأرانب والغزلان والأبقار الوحشية ، فإنها لا تظل فى حالة من الترقب والخوف طوال الوقت . إنها تجد وقتا للنوم وإن كان قصيرا وليس نوما مستغرقا على طول الخط . فعندما يحس الحيوان بأنه فى مأمن من الخطر فإنه يخفض من شدة توتره العصبى فترتخى أذناه وتغمض عيناه ويستسلم للنوم وإن كان يستيقظ من وقت لآخر ليطمئن نفسه من عدم وجود أى خطر يتهدده .

والواقع أن الفروق الفردية بين أفراد النوع الواحد من الكائنات الحية تزيد كلما ارتفعنا فى سلم التطور .فالإنسان – باعتباره أرقى الكائنات الحية جميعا – تختلف فيه الأجناس البشرية من حيث مدى شيوع الخوف لديها . وكذا فإننا نجد أن الأنواع العليا من القردة تختلف بعضها عن بعض من حيث مدى شعورها بالخوف . ولكن اذا نزلنا إلى المستويات الدنيا من الكائنات الحية فإننا نجد أن الفروق الفردية وأيضا الفروق الجماعية فيما بينها تكاد تكون منعدمه .فنحن لا نكاد نلحظ فرقا فى إحساس فئة الغربان هنا أو هناك بالخوف . فلكأنها جميعا متطابقة فى مشاعرها الوجدانية مهما اختلفت بيئاتها .

على أن مشاعر الخوف تتباين لدى الحيوانات باختلاف مراحل النمو التى تمر بها.خذ مثالا لذلك النمر الصغير . انه لا يكاد يبدى أى خوف ولكنه ما يكاد يكبر حتى يبدأ فى أخذ حذره والاحساس بالخوف ومجابهة ما يحس به بالدفاع عن النفس إذا ما هجم عليه خصم .وكذا الحال بالنسبة للأطفال الصغار . إنهم لا يكادون يخافون إلا من أشياء غير متعينة وغير محددة . ولكن ما أن يكبر المرء حتى تتسع آفاق مخاوفه وتتباين تباينا بعيد المدى . ولعلنا نعود إلى القول بأن الإنسان يرث مخاوفه عن أسلافه القريبين والبعيدين ، ولكن تلك المخاوف قد لا تجد لها فى الطفولة الباكرة فرص احتكاك كافية لكى تتبدى للعيان .

وهناك لغز يحير العلماء يتعلق بالخوف من بعض الحيوانات بدرجة ملفتة للنظر . وعلى رأس القائمة الحيات والعقارب . ولقد قام بعض علماء النفس بمدارسة مدى خوف القردة العليا من الثعابين فوجدوا أن الشمبانزى تخاف بشكل ملحوظ لدى مشاهدتها للثعبان. لقد قام إثنان من علماء النفس باجراء التجارب بحديقة الحيوان بلندن ووجدا أن الشمبانزى تخاف من مشاهدة الثعابين والسلاحف وهى تجرى . أما بالنسبة للأطفال الصغار جداً ، فإن الخوف من الثعابين لا يبدو لديهم لعدم قدرتهم على الادراك والتركيز ، ولكن ما يفتأ الطفل بعد أن يشب عن الطوق قليلا يبدى خوفا شديدا من الثعابين . ولقد يظل ذلك الخوف معتملا لديه حتى المراهقة أو ما بعدها .

واذا نحن تأملنا هذا اللغز الذى يحير العلماء ، إذن لوجدنا أن حل هذا اللغز يكمن فى زعمنا

من أن خبرات الأجيال الماضية كلها تترسب لدينا . ولا غرو أن تحس القردة العليا بنفس المخاوف التى تتبدى لدى الانسان من الثعابين . فلعل هناك خبرات مشتركة فيما بين المملكة الإنسانية وبين مملكة القردة بهذا الصدد . فنحن والقردة قد ورثنا وراثة مشتركة مؤلمة بازاء تلك الكائنات . لعل الأجداد البعيدين قد لاقوا الأمرين من تلك الكائنات الحية التى تعض بأسنانها أو تلدغ بلسانها أو تقفز من مسافات بعيدة إلى العينين فتصيبهما بالعمى إلى غير ذلك من عدوان كانت وما تزال تشنه على بنى الإنسان وعلى بنى القردة على السواء . فالطفل بعد أن يشب عن الطوق قليلاً ، وكذا الشمبانزى يرتعدان لدى مشاهدتهما للثعبان بغير أن تكون لهما خبرة شخصية مباشرة تلقياها من ذلك الكائن الحى . فليس هناك إذن تفسير مقنع سوى ما نذهب إليه من أن خبرات الأسلاف القريبين والأسلاف البعيدين قد نزلت إلينا فى قوامنا الجسمى بالوارثة القريبة والوراثة البعيدة على السواء .

وغريزة الخوف من الكائنات الحية الغريبة تفسر فى ضوء ماذهبنا إليه بأنها جماع الخبرات السلفية القريبة والبعيدة وقد تبأورت فى قوامنا البيولوجى . ومعنى هذا فى الواقع أن السلوك المشوب بالخوف هو سلوك نابع من دخلية المرء ، أو بالحرى من دخيلة النوع الإنسانى أو الحيوانى .ولعل أن ما يعد اكتسابا هو مجرد دعم أو مجرد تفتيق لما هو موجود بداخلنا . ولكى نوضح هذا نقول إنه بغير أن تكون لدينا مقومات خوفية موروثة فينا ، لما كان للخبرات المكتسبة اذن أية فاعلية أو تأثير فينا . فلولا وجود المقومات الداخلية ما كان للمقومات الخارجية أى تأثير فى كسبنا لخبرات جديدة .

ونستطيع أن نعمم فى الواقع فنقول إن الحيوانات العشبية فى الغابات والسافانا تحس بالخوف بالفطرة من الوحوش الضارية لأنها اكتسبت باعتبارها أنواعا من الكائنات الحية خبرة فى قوامها البيولوجى . فهى تترجم عما هو مغروز فى قوامها البيولوجى بما تبديه من خوف ومن هروب من مصدر الخطر بالجرى والإختباء حيثما يتسنى لها الإختباء حرصا على حياتها . فخبرة النوع إذن هى الدافع الأساسى فيما تحس به تلك الكائنات الحية من خوف سرعان ما يخرج من حيز الكمون إلى حيز الواقع .

فى الغابة :

يضرب المثل عادة بالغابة ، فيقال « شريعة الغاب » أو يقال عن الأشخاص الذين يتخذون من العدوان بعضهم على بعض أساسا فى تعاملهم «كأنهم فى غابة » فالغابة تشكل مجتمعا يسيطر فيه القوى على الضعيف ولا يوجد شئ يحمى الضعيف من سلطة وبطش الكبير القوى . وبتعبير آخر فإن الغابة تخضع لمبدأ القوة . فالأقوى هو المنتصر والأضعف هو المغلوب .

والغلبة فى الغابة معناها استمرار الحياة ، والهزيمة معناها الموت . والحياة والموت فى الغابة لها أبعاد فردية وأبعاد نوعية . فالفرد القوى يظل على قيد الحياة طالما هو قوى . أما الضعيف فإنه يلقى البطش والفناء السريع . وكذا فإن النوع الأقوى يظل حيا فيما ينجبه من ذرية تستمر به حاملة لواءه . أما النوع الأضعف فإنه يلقى الفناء لأنه لا يستطيع أن يغالب الأقوياء من الأنواع الحيوانية الأخرى . من هنا فإن الأنواع الضعيفة تدافع عن نفسها وعن استمرار وجودها بكثرة الإنجاب . فالغزال ينجب نسلا أكثر مما تستطيع اللبؤة إنجابه من أشبال .

والخوف فى الغابة يتوزع على الكائنات الحية ولكن بنسب متفاوته . ولكن جميع الحيوانات تعيش فى خوف دائم ، سواء كان خوفا ظاهرا للعيان أم كان خوفا كامنا لا يكاد يبدو للعيان . ولولا الخوف يعتمل فى أوصال الكائنات الحية لما استطاعت أن تدافع عن نفسها ، ولما استطاعت أن تتخذ حذرها من عدو متربص بها يتحين الفرصة للانقضاض عليها . والواقع أن انفعالى الخوف والغضب متداخلان أشد التداخل فى قوام الحيوانات جميعا . بيد أن انفعال الغضب قد يغلف الخوف بحيث لا يكاد يبدو على سطح سلوك الحيوان . فالأسد فى هجومه على الغزال يكون فى حالة من التوتر والتوحش والعدوانية والغضب الممزوج باللذة . ولكن الأسد فى هجومة ذاك يكون فى نفس الوقت خائفا بعض الخوف من أذى يمكن أن يلحقه به الغزال بواسطة قرونه المشروعة وحوافرة الحادة ولكأن الحيوانات تغالب بعضها بعضا بما تستطيع أن تلقى به من ذعر فى نفس الخصم الذى يتم افتراسه . ففى اللحظة التى تهزم فيها نفس الفريسة تصير عندئذ لقمة سائغة للحيوان المعتدى .

والحيوان الذى يخاف من حيوان آخر قد يفترسه ويتغذى على لحمه ، إنما يخاف فى نفس الوقت على ذويه بدرجة قد تساوى خوفه على نفسه أو قد تزيد عن ذلك فالغزالة لا تخاف من الأسد يهاجمها فحسب ، بل هى تخاف أيضا على صغارها التى تتعلق بها وترضع ضرعها . واللبؤة تحاول أن تخبئ صغارها عن الأبصار ساعة ميلادهم ، وتظل ترقبهم أينما يتحركون وهى فى أثناء اضطجاعها فى عرينها وقد راح أطفالها يمارسون بعض الألعاب الخشنة بعضهم مع بعض كتدريب لهم على ما سوف يمارسونه من بطش بالفرائس فى المستقبل دئما تظل متتبعة لكل حركة تصدر عنهم خوف أن يسطو عليهم حيوان من الغابة كالنمر مثلا فيأتى عليهم ويصرعهم ليأكلهم .

والواقع أن الحيوانات المفترسة تخاف على كيانها وعلى استمرار بقائها من جوع يفتك بها . فلكأن الخوف من الموت الذى يعتبر الجوع نذيرا له ، هو الذى يدفع بها إلى مهاجمة فرائسها . فليس من سبيل أمام الأسد سوى البحث عن فريسة يهاجمها لينالها . فإذا لم يفعل ذلك فإنه

يهلك شيئا فشيئا تحت وطأة الجوع أولا ، والوهن الجسمى ثانيا ، والعجز عن إلتقاط رزقه من تلك الحيوانات ثالثا : فليس ما يقوم به الحيوان الضارى بمثابة سلوك اختيارى يمكن أن يستغنى عنه أو العدول عنه إلى سلوك آخر مغاير ، بل هو سلوك اجبارى حتمى كتب على الحيوان الضارى الإلتزام به وعدم الحيد عنه . فالحيوان فى الغابة يكون بين اختيارين فحسب فهو اما آكل واما مأكول ولا وسط بين هذين الاختيارين .

ولعل أن يكون الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى استطاع أن يعثر على حل وسط بين هذين الاختيارين . فبدل أن يكون آكلا لبعض الأسماك أو الطيور الجميلة ، فإنه صار معنيا بها قائما على شئونها وسادا لحاجاتها . وبدل أن يكون مأكولا أو عرضة لهجوم الحيوانات الضارية عليه : فإنه أخذ فى استئناس بعضها كالبقرة والجاموسة والحمار والحصان والقرد ، بل إنه استطاع أن يستأنس الأسد والنمر والفهد والدب ولكن فى حدود ضيقة للترفيه عن المتفرجين على ما يدربها عليها من ألعاب تجذب الناس إليها من كل فج وصوب للتمتع بمشاهدتها فى السيرك .

ولعلنا لا نخطئ إذا ما زعمنا أن الخوف يشيع فى أرجاء الغابة إنما يهبها روعة ويضفى على سكانها نشاطا وحركة ودأباً واجتهاداً . ولعلنا نزعم أيضا أن هناك فرقا شاسعا وجوهريا بين الخوف يشيع فى الغابة وبين الخوف يشيع فى ساحة القتال . فالخوف فى الغابة يشيع بين سكانها من الحيوانات ، إنما يوفر لها إتزانا بيئيا فى المملكه الحيوانية . فهناك أولا مبدأ طبيعى يسود الغابة هو أن البقاء للأقوى ولأحسن العناصر من كل نوع . ذلك أن الأشد قوة والأقوى عضلات يستطيع أن يسيطر إذا كان مهاجما ، ويستطيع أن يهرب بجلده إذا كان هاربا . أما بالنسبة لساحة القتال ، فإنها لا تحقق هذه الغاية . فالحرب تكتسح الحضارة أمامها وتأتى على الأخضر واليابس ، ولا تميز بين شاب مفتول العضلات وبين شيخ هرم ، ولا تميز بين شخصية نافعة للمجتمع وبين شخصية ضارة به . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن الحرب تقضى على أفضل العناصر من بنى الإنسان وأقواها بينما هى تبقى على أردأ العناصر وأوهاها. فصفوة الشباب من العراقيين والإيرانيين قد هلكت فى الحرب التى نشبت بينهما . ومعالم الحضارة قد ديست تحت عجلات الدبابات وجبروت المفرقعات . فالحرب لا تحقق التوازن الحضارى بين الشعوب ، بل هى تمحو الحضارة من سطح القارات . ويعتقد الكثيرون أن الحرب العالمية الثالثة إذا نشبت فإنها ستهلك الجميع وستصيب الأمم المتحضرة والمتخلفة على السواء ، وإن تركت وراءها أناسيا ، فإنها سوف تترك بعض الرعاة والبدائيين الذين لا علم لهم ولا حضارة .

فالخوف الشائع فى الغابة بين سكانها من الحيوانات هو خوف مفيد لأولئك السكان إذا ما

نظرنا إليهم جميعا (وكأنهم من العقلاء) بنظرة عامة غير متحيزة لفرد من الأفراد يقع صريعا لحيوان آخر قوى ومفترس ، ولا لنوع يؤكل منه عدد وفير . ذلك أن الفرد فى نطاق نوعه لا يعدو مجرد وسيلة لخدمة ذلك النوع ولاستمرار بقائه فحسب . فالفرد ليس له قيمة وجودية فى ذاته فى الغابة بل القيمة الوجودية منوطة بالنوع ذاته . فلا خطر على نوع الغزلان إذا ما افترس هذا أو ذاك من أفراده . فطالما هو مستمر فى وجوده فلا خوف إذن عليه . وهذا ليس من شأن الإنسان الذى يزعم له أنه يحمل قيمة فردية ذاتية لا يمكن أن نضرب صفحا عنها . فكل فرد من أبناء بنى الإنسان هو عالم فريد قائم بذاته ولا يمكن النظر إليه كما ننظر إلى أفراد الغزلان أو أفراد الأبقار . ولا خوف على الأنواع من الانقراض إلا إذا كان الإنسان هو المعتدى . وحتى بفرض أن بعض الأنواع قد انقرضت بفعل التناحر بين أنواع الكائنات الحية ، فإن النظرة العامة إلى سكان الغابة من الكائنات الحية سوف تظل هى هى . فالحيوانات جميعا مملكة واحدة ، كما أن أنواع الكائنات الحية هى من زاوية معينة مجرد أفراد فى تلك المملكة التى يجب أن تظل قائمة وأن يضحى بالنوع الأضعف فى سبيل استمرار النوع الأقوى منها .

ومما لا شك فيه أن الإنسان إذا ما تجرد عن أسلحة حضارته وجعل فى الغابة ، فإنه يكون أكثرها ضعفا وأكثرها تعرضا للإلتهام ، بل وأشدها وقوعا تحت طائلة الخوف . بيد أن الإنسان عندما يتسلح بأسلحة حضارته ، فإنه يكون عندئذ أكثر بطشا وشجاعة . ولكنها شجاعة ترتبط – بل وتعتمد – على التكنولوجيا التى صارت تحميه ، لا بفضل قوته الشخصية ، بل بفضل أسلحة الدمار التى يستخدمها بمجرد الضغط على زناد أو على زر صغير . فالإنسان لم يعد فى الواقع حيوانا ناطقا كما كان شأنه قديما ، بل إنه صار حيوانا تكنولوجيا يرتدى أثواب حضارة عزفت به عن طبيعته وأبعدته عنها .

فى رفقة الإنسان :

دأب الإنسان منذ أن كان فى حالة البداوة وقبل أن يخترع الحضارة على أن يقيم علاقات من نوع أو آخر بالحيوانات الأخرى ، بل وبالكائنات الحية على اختلاف مراتبها . فهو لا يستغنى عن النبات كغذاء له . ومن هنا فإنه لم يكتف بما تنبته الأرض من نباتات ، بل أخذ يزرع الأشجار ويقطف منها ثمارها يغتذى بها . ولكنه لم يكتف بعالم النبات يأخذ منه وهو على حال الطبيعة أو يقوم بزراعته وجنى ثماره . بل إنه زحف إلى المملكة الحيوانية يأخذ منها ويأكل . ولعله بدأ بالزواحف ثم بالأسماك ثم أخذ بعد ذلك يبحث عن الطيور ثم عن الحيوانات الثديية فيسطو عليها ويأكل لحمها .

بيد أن الإنسان فى تعامله مع الحيوانات قد استعان بمبدأ ين أساسيين : المبدأ الأول – هو

التخويف ، والمبدأ الثانى – هو الترغيب . فبإيقاع الألم على الحيوانات أولا ، ثم بإسداء المكافآت لها ثانيا استطاع الإنسان أن يستأنس الكثير من الحيوانات الثديية . فلولا عاملى التخويف والمكافأة لما إستطاع الانسان أن يستأنس البقرة والجاموسة والحمار والحصان وغيرها من حيوانات . فلقد وقف الإنسان على هذين المبدأين عندما لاحظ أن ثمة أوجه شبه كثيره بين الحيوانات وبينه . فالحيوان يخاف من الألم ومن مصادر الألم كما يخاف هو . والحيوان ينجذب إلى مصادر الإلتذاذ وإشباع الحاجات كما يلتذ هو ويشبع حاجاته . فإذا كان هو وأبناء جلدته يتحاشون الألم ومصادره ، وينجذبون إلى اللذة ومصادرها ، فالحيوانات تفعل نفس الشئ . ومن هنا فإنه يستطيع أن يتعامل مع الحيوانات ويسوسها كما يتعامل مع أبناء جلدته ويسوسهم .

ووجد الإنسان أيضا أن استئناس النبات يتم بشكل سهل وميسور للغاية . ولذا فإنه بدأ باستئناس النباتات عن طريق الزراعة . ثم إنه إكتشف أن استئناسه لبعض الطيور كالدجاج مثلاً أيسر من استئناس الحيوانات الثديية . من هنا فإن استئناسه لتلك الطيور كان سابقا على إستئناس الأبقار والأغنام . ولعل استئناس الإنسان للكلب قد حدث بغير قصد من جانبه . فلقد وجدت بعض السلالات منها أن السير فى القطيع مع الخرفان والماعز والأبقار يضمن لها الحصول على الطعام مما يفضل من الرعاة من طعام . ناهيك عن أن السير مع القافلة يحميها من شر الحيوانات الضارية الأكثر شراسة وقوة منها . ومن ثم فانها تصير فى مأمن ولا يصيبها مكروه ، إذا أن الرعاة سوف يذبون عنها تلك الوحوش لا دفاعا عنها ، بل دفاعا عن ثروتهم الحيوانية التى يقومون برعيها . ولعل الكلاب قد ظنت أن الرعاة يطاردون الذئاب دفاعا عنه وليس دفاعا عن المواشى والأغنام ، فأنسوا إلى الناس ووجدوا فيهم الأصدقاء الذين يهبون لنجدتهم وحمايتهم من الأعداء .

وهناك فى الواقع خدعة كبرى يقوم بها الإنسان بازاء الحيوانات التى قام باستئناسها . فالإنسان يعتنى بحيواناته ويحوطها بالرعاية والعطف . ولكنه ما يفتأ أن يقوم بذبحها على مرأى من باقى أترابها . ولعل أن الحيوانات التى لم يتم بعد ذبحها تظن – إذا صح الزعم – أن ذبح البعض منها ليس إلا خطأ أو استثناء من القاعدة ، وأنها هى بمنأى عن ذلك ، وأنها سوف تظل حائزة على الرعاية والحنو . ولكنها وقد ربطت قبل ذبحها تفيق من الوهم الذى ران عليها ، فتأخذ فى الرفس محاولة التخلص من قيودها . ولكن هيهات أن يجدى الرفس ومحاولة الهرب وقد أجهزت السكين الحادة على الرقاب فتمزقها شر ممزق .

ولعل هذه هى نفس الخدعة التى يقع فيها الجنود وهم يتجهون إلى ميدان القتال . فكل

واحد منهم يعتقد أنه ناج من الموت ، وأن بعض زملائه سوف يستشهدون أو يجرحون بينما هو سيعود حاملا إكليل الظفر وتاج الانتصار على الأعداء . ولكن عندما يقع تحت وطأة هجوم الأعداء ، فإنه عندئذ يفيق من سباته ويدرك أنه واحد من أولئك الهالكين فى ميدان القتال .

ولقد تكون الحيوانات المستأنسة والتى اختارت الإنسان رفيقا لها طواعية وبرغبة من جانبها مثلما فعل الكلب ، قد وجدت فى الإنسان كائنا رفيقا بها سوف لا يبطش بها ، بل إنه لا يأكل لحمها وبذا فإنه سوف لا يؤذيها ولا يقوم بذبحها . فبمقارنة فطرية بين الانسان وبين الأسد أو النمر ، وجد الكلب أن انضمامه إلى ركب الانسان ومصاحبته له فيه الأمن والأمان له ولذريته من بعده . فالكلب إذن اختار أن ينضم إلى القطيع مقدما المساعدة للإنسان وذلك بنباحه ليلقى بالرعب فى قلوب المغيرين من الأعداء بملئ حريته وباختياره الشخصى المستقل .

على أن الإنسان قد أخذ يوسع فى دائرة المنفعة التى يمكن أن يجنيها من مصاحبة بعض الحيوانات له . فجعل الكلب للحراسة ، وجعل الجمل والحمار والحصان لقطع المسافات وقد امتطى ظهورها فيحظى بالراحة ، واختار الأبقار والجاموس وغيرهما للاغتذاء بلحمها ، ثم هو أخذ يفتن فى استخدام كل شئ فى قوام الحيوان . لقد وجد فى الفراء ملبسا لجسمه ، كما وجد فى جلود الأبقار والجاموس جلودا يفصلها أحذية لقدميه . وهكذا اتسع الإنسان فى استغلاله للحيوانات الأليفة .

وبعد أن كان الإنسان البدائى يخاف من تلك الحيوانات ويتحاشى بطشها ، فإنه صار يخاف عليها ويخشى أن يلم بها مكروه فتنفق وبذا تضيع عليه الفوائد التى كان ليجنيها لولا تعرضها للهلاك.ولقد يمتد خوف الإنسان على حيواناته إلى مستقبلها أيضا وليس إلى حاضرها فقط . فهو يحصنها ضد ما يمكن أن يصيبها من عدوى ببعض الأمراض فتموت لأنه يخاف عليها مما قد يصيبها فى المستقبل.وأكثر من هذا فإنه يتطلع إلى مستقبل أبنائها وأحفادها ، وذلك بأن يعد العدة لانجاب أكثر عددا وأعلى مرتبة . فخوفه هنا هو خوف على الذرية التى لم يقيض لها الوجود بعد . فهو خوف يمتد إلى فترة زمنية بعيدة.فهو لا يخاف على حيواناته الموجودة فحسب ، بل إن خوفه يمتد أيضا إلى الأجيال التالية من الأبناء والأحفاد التى ستنجبها تلك الحيوانات .

على أن الإنسان لا يكتفى بالإعتماد على التلقائية فيما يصدر عن الحيوان كما يفعل الكلب فيتم استئناسه بغير تخطيط من جانبه.فالواقع أن هناك مهارات وفنونا تم بلورتها وتحديدها ، كما أن هناك تجارب فى الاستئناس شبيهة بالتجارب العلمية حيث تكون النتائج مؤكدة وحتمية . ولعل أمام الإنسانية شوطا طويلا فى الاستئناس بازاء مملكتى النبات والحيوان على السواء .

ونقصد بالأستئناس النباتى إحالة النباتات الفطرية إلى زراعة مقصودة . فثمة فى الواقع العديد من النباتات – كالنباتات الطبية مثلا – غير مستأنسة بالزراعة ، بل يعتمد المنتفعون بها على مجرد أخذها من حالتها الفطرية والإفادة منها فى الأغراض العلاجية . وطالما أننا لا نعرض لما قد يحس به النبات من مشاعر –وهو مبحث وارد –فإننا نقتصر على مدارسة مشاعر الخوف عند الحيوانات ، أو عند بعضها على الأقل .

ونحن نعلم جيدا أن الإنسان قد استخدم الثواب والعقاب ، أو بتعبير آخر أدق استخدم الالتذاذ والإيلام لكى يستأنس الحيوانات ويروضها . والسؤال المطروح حاليا هو : هل من الممكن تعميم استئناس الحيوانات المتوحشة بغير خوف من ضرواتها ؟ وبتعبير آخر : هل سيأتى يوم نجد فيه الناس فى بيوتهم يربون الأسود والنمور والفهاد وغيرها من حيوانات متوحشة بغير خوف من بطشها المفاجئ ومن أن تنحو إلى التهام من قاموا برعايتها وتربيتها ؟ من الطبيعى والبديهى أنه طالما أن مروض الوحوش فى السيرك قد استطاع أن يستأنس البعض من أخطر الوحوش الضارية ، فإن من الممكن إذن الاستعانة بتلك الفنون الترويضية الاستئناسية التى استعان بها لكى يعمم الإستئناس . ولكن هل هناك صعوبات فى هذا المضمار ؟ وهل سيتسنى التغلب على مثل تلك الصعاب ؟ إن الأيام أو السنوات أو القرون القادمة سوف تجيب عن تساؤلنا هذا .

فى السلخانة :

قد يعتقد البعض خطأ أن الحيوانات عندما تساق إلى السلخانة لتنحر ، فإنها لا تعرف ما يحدث لرفيقاتها وهى تشاهدها تحت قدم الجزار ، وقد ربطها وألقى بها على الأرض ، ثم استل النصل ومر به بقسوة على رقبتها فتفجر الدم غزيرا على الأرض . والواقع أن الحيوانات تدرك جيدا ما يقع لأترابها فى السلخانة ، فتأتى بالحركات وتبدى الارتجافات أو تحدث من الأصوات ما يدل على هلعها من بشاعة المنظر الذى تشاهده .

ومن القصص المعروفة محاولة هرب الجاموس والبقر والجمال من السلخانة إلى حيث لا تعرف . ولكن أنىَّ لها أن تفلت من سكين الجزار الذى يسارع إليها وقد شمر عن ساعده واستل نصله الحاد فيقتادها بعنف وبشئ من الإلتذاذ إلى حيث يسيل دماءها كما فعل بما قام بذبحه قبلها من ماشية .

ولا شك أن الاعتقاد بأن الحيوانات لا تعرف أنها ستذبح فى السلخانة هو اعتقاد ساذج وعار من الصحة . فأبسط البسطاء وأجهل الجهلاء يستطيع أن يعرف من سلوك الحيوان أنه

يخاف من الموت ، وأنه يشارك الإنسان فى إنفعالاته وغرائزه المتباينة التى يتبوأ الخوف المقام الأول فيها .

وليس من الخطأ أن نقرر أن الحيوانات على تباينها تشترك معنا فى قطاعات مشتركة علينا أن نعترف بها . ونأسف أن نجد واحدا من المثقفين جدا مثل الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) قد ذهب إلى أن الحيوانات لا تعدو أن تكون مجرد آلات . فهى لا تخاف ولا تشعر كما يشعر الإنسان . لقد كان يضرب كلبه ويقول إنه مجرد آله تقدم رد فعل غير عقلى . فهو قصر العمليات العقلية بكافة أنواعها على الجنس البشرى .

ونحن نعتقد أن هذه النظرة قد تزايلت أو كادت من أذهان المثقفين ، بل إن الغالبية العظمى من العوام لا يأخذون بها ولا يقرونها . فحتى أطفال اليوم يعتقدون أن الحيوانات - ويضمنها الطيور - تخاف كما يخاف الإنسان . بيد أن مصادر الخوف قد تتباين فى شدتها وتأثيرها من نوع من أنواع الكائنات الحية إلى نوع آخر برغم أن الخوف صفة مشتركة بين جميع الكائنات الحية .

ولكن بالأسف فإن المهتمين بحقوق الحيوانات فى الإحساس بالأمن نادرون . ذلك أن الإنسان يتخذ موقف الباطش والمفترس للمملكة الحيوانية . فكيف يمكن أن نطالبه بذب الخوف عن الحيوانات ، بينما هو فى نهاية المطاف يقوم بذبحها ؟ وهل من عملية أقسى وأخوف وأرهب من عملية الذبح ؟ وبتعبير آخر : كيف نطالب الذابح برقة القلب ، وكيف نلتمس من القاتل أن يخفف من غلوائه وأن يرحم الكائن الذى سوف ينقض عليه بعد وقت يقصر أو يطول ؟

ولعلنا نتناول قصة خوف الحيوان فى مسيرته الأخيرة إلى السلخانة من أولها . تبدأ قصة هذه المسيرة فى اللحظة التى تسلم فيها الحيوانات من الشخص الذى قام بتربيتها وتنشئتها إلى أيد غريبة فتنقل إلى مكان بعيد عن المكان الذى نشأت فيه . فنحن نعتقد أن الحيوان الأليف - بل وغير الأليف - يرتبط بالبيئة التى ينشأ فيها . إنها تمثل وطنه الصغير الذى يحن إليه ويطمئن فيه . والمواشى تتعلق بالأشخاص الذين يقدمون إليها طعامها . إنها تشكر لهم عنايتهم بها بأن تهز ذيلها وبما تقدمه من نظرات حانية إليهم .

ومن المؤكد أن البهيمة تمر بلحظات تعيسة ومخيفة عندما تفقد الأشخاص الذين أنست إليهم وأحبتهم وتعلقت بهم . ولقد تقاوم وهى تصمم على العودة إلى بيتها ، ولكن التاجر الذى اشتراها يأخذ فى ضربها ونخسها بطرف عصا مدببة ، ثم هو يرفعها بغلظة إلى سيارة ضخمة مكشوفة هى وأترابها لكى تنقل إلى حيث قدرها المحتوم . وفى تلك الرحلة المخيفة ، تشاهد

البهيمة الأرض وهى تتحرك من تحتها وأن الأشجار تجرى من أمام عينيها فيأخذ بها الخوف كل مأخذ . ولكنها ربما تجد شيئا من الطمأنينة لأن جلدها ملاصق لجلود زميلات لها فى تلك الرحلة المرعبة . ذلك أن تاجر المواشى قد رصى البهائم رصا فوق تلك العربة الكبيرة كما يرص السردين فى العلب .

بيد أن تلك الطمأنينة الزائفة ترتبط بالتعب الذى يأخذ بها منهكا لقواها . فكلما أسرعت السيارة فى المسير تمايلت البهائم بعضها فوق بعض بحيث لا تستطيع أن ترقد أو أن تغير من وضعها . ومهما حاولت أن تفسح لنفسها مكانا أفسح من المكان الذى جعل لها ، تجد أنها قد قسرت على أن تقف منتصبة رغم أنفها طوال رحلة العذاب هذه .

وما أن تصل السيارة إلى أول الشارع الذى يقع فيه المذبح حتى تبدأ رائحة الدم المنبعثة من بعيد من ذلك المكان المخيف فى الوصول إلى أنوفها . ذلك أن النسيم لا يحمل لتلك المخلوقات فى تلك اللحظات سوى تلك الرائحة التى تميزها بالغريزة . عندئذ يبدأ الشك فى الانسراب إلى نفوسها ، فتحاول فى آخر محاولة يائسة أن تهرب بجلدها مما لا تدرك تفصيله ، بل تحسه بما وهبته من فطرة وحدس طبيعيين .

بيد أن المحاولة تلو المحاولة لا تفضى إلى شئ . فهى مربوطة برباط متين بعضها إلى بعض من جهة ، ثم إنها قد رفعت فوق تلك الشاحنة العالية التى لا تستطيع القفز من فوقها إذا ما أتيح أن تتخلص من إسارها . فماذا تعمل ؟ لا شئ . إنها إذن تترقب ماذا عسى أن يحدث لها ولرفيقاتها الواقفات معها على سطح ذلك الجبل المتحرك .

وما أن تصل السيارة الضخمة إلى الباب الخارجى للسلخانة حتى ينزل السائق ليحتسى كوبا من القهوة فى المقهى المجاور للسلخانة منتظرا دوره حيث تقف أمامه شاحنة أخرى تنتظر لحظة قدوم الجزارين لاقتياد المواشى التى تحملها إلى داخل ذلك المكان المرعب الذى تستحيل فيه الحياة إلى موت ، وتلك الكائنات الحية إلى ينابيع دماء متفجرة تلطخ كل ما حولها من حوائط وأرضيات ، بينما تسمع قهقهات ونكات وأحيانا شتائم وشجارات هنا وهناك .

وفى لحظة حاسمة ، وبينما وقفت المواشى بالعربة تنتظر ما سوف يحل بها ، وقد أخذت رائحة الدم تنبعث من داخل ذلك المبنى المخيف ، وصارت تتصاعد أصوات البهائم التى يهوى عليها الجزارون بالداخل ذبحا .. فى تلك اللحظة خرج ثلاثة من الرجال ارتدوا جلابيب بيضاء ولكنها ملطخة بالدم بحيث اختلط البياض فيها بذلك اللون القانى . وبسرعة خاطفة فتحت الشاحنة من الخلف ومن الجانبين وأخذ أحد هؤلاء الرجال الثلاثة فى فك قيود البهائم . ثم قفز الرجل الثانى إلى أعلى الشاحنة وفى يده عصا غليظة ، ثم أخذ يدفع ببهيمة بعد أخرى من ذلك العلو

الشاهق نسبيا إلى الأرض ، ولا يبالى إذا كانت سيقان تلك المواشى تتحطم نتيجة بثقلها من ذلك الإرتفاع المخيف .

من الطبيعى أن ذلك المنظر الذى تتأمله المواشى التى لم يحن دور الإلقاء بها إلى الأرض يضربها بالخوف الشديد . ولا شك أن انتظار وقوع الألم يجلب إلى قلوبها الهلع المروع . وما هى إلا هنيهة حتى يأتى بالفعل دور العربة الثانية لكى يتقدم بها السائق إلى باب السلخانة ثم يلقى بركابها المساكين بهيمة بعد أخرى وتساق جميعا إلى الداخل .

والعذاب النفسى الذى تتحمله البهائم قبيل نحرها مروع حقا . فى تلك اللحظات الخطيرة تتجلى بشاعة نفسيه الإنسان . إن من يزور المجزر ويكون قد حمل فى قلبه شيئا من الحنان على تلك الكائنات الضعيفة ، لسوف يجد نفسه ممزقا تمزيقا ومحطم النفس تحطيما . إنه سوف يدرك من المناظر التى يشاهدها أن الجزار لا يكتفى بإيقاع الألم على الحيوانات الضعيفة ، بل إنه يجد لذة سادية فى تعذيبها قبيل نحرها . إنه يترك صفا من البهائم فى انتظار مصيرها بينما هو يهوى بالسكين على رقبة رفيقة من رفيقاتها أمام عينيها .

ولا شك أن الإنسان قد استحال إلى كائن يغتذى على اللحم والنبات فى نفس الوقت . ولسنا نجرؤ هنا فندعو إلى الإقلاع عن تناول لحم الحيوان ولكن ما نجرؤ على الدعوة اليه هو كفالة الطمأنينة للحيوان المسكين طوال حياته حتى اللحظة التى نذبحه فيها ، وألا نقف موقف اللامبالاة بازاء ما يستشعره من خوف أو هلع فى السلخانة . أليس يجدر بالإنسان المتحضر أن يستن من القوانين ما يكفل حماية البهائم من الخوف الذى يجثم على قلوبها قبيل ذبحها ؟ ألا يكفى أننا نقوم بذبحها وبالتالى إيلامها ؟ من المؤكد أن بعض من سيقرءون هذا الكلام سوف يشيرون إلينا بالهزء والسخرية ، ولكن لدينا أملاً أيضا فى أن بعضهم الآخر سوف يؤمنون بما ندعو إليه ويتحمسون لقضية كفالة الطمأنينة للحيوانات فى كافة الأحوال حتى ولو كنا نعتزم ذبحها وأكل لحمها فى نهاية المطاف .

إشباع الغرور البشرى :

من النوازع التى تدفع بالإنسان إلى استذلال الحيوانات وقهرها وإرهابها إشباع الغرور المعتمل فى أوصال البشرية . ذلك أن الإنسان بطبيعته يحب التباهى بقوته وقوة حيله وما يستعين به من ذكاء وقدرات خاصة فى إخضاع الكائنات الأخرى من حوله لسيطرته وسطوته .

ولعل الانسان قد بدأ فى حياته البدائية بمقاومة الحيوانات الضارية والطيور الكواسر والزواحف السامة وقد استشعر أن فى تلك المقاومة فى حد ذاتها ما يشبع غروره . فهو ينازل

الأسد ويحارب النسر ويتصدى للحية أو التنين الهائل وقد ذب الخوف عن قلبه . فهو يخاف ولكنه يقاوم مشاعره . ولقد ظن الإنسان القديم أن الخوف يمكن أن يقهر إذا ما عرض نفسه للخطر . فإذا ما صار وجها لوجه أمام العدو . عندئذ يتلاشى الخوف من بطش ذلك العدو .

وعندما نجح الإنسان البدائى فى قهر بعض الحيوانات الضارية وبعض الطيور الكواسر وبعض الزواحف السامة . فإنه ظن أن سر قوتها يكمن فى مقومات جسمها . من هنا فإنه أخذ قلب الأسد بعد قتله وصار يأكله نيئاً . وقل نفس الشئ بازاء باقى الأعداء من الحيوانات التى استطاع أن يبطش بها ويأتى عليها ويقتلها .

فالإنسان البدائى ذهب إلى أن الاتحاد الجسمى ببعض الحيوانات أو الطيور أو الزواحف . إنما يحيل الإنسان إلى طبيعتها . فإذا ما التهم النمر . فإنه يصير نمرا حتى ولو ظلت هيأته كما هى ولم تستحل إلى هيئة النمر . ومن يأكل الثعبان أو التنين فإنه يصير ثعبانا أو تنينا . ومن يأكل نسراً فإنه يصير نسراً .

والواقع أن بعض أفراد القبائل البدائية كانوا يذهبون إلى أبعد من هذا . فمن يأكل قلب أسد . فإن عليه أن يستعين ببعض الأصباغ يلون بها وجهه بحيث يتخذ شكله شكل أسد . ومن يأكل قلب نسر فإن عليه أن يصنع لنفسه ملابس توحى له وللآخرين بأنه قد صار نسرا . ومن يأكل ثعبانا أو تنينا . فإن عليه أن يجعل رداء رأسه ملفوفا بجلد ثعبان أو تنين . وبتعبير آخر فإن الإنسان القديم كان يستعير قوة الحيوانات الضارية والطيور الكواسر والزواحف السامة بأن يتحد بها جسديا من جهة . وبأن يتشبه بها فى خارجيته من جهة أخرى .

بيد أن غرور البشرية كان يستهدف إشاعة الخوف عند الحيوانات الأضعف من الحيوانات التى استعاروا أشكالها الخارجية . والتى تناولوا بعض الأجزاء من جسمها وبخاصة القلب . ولقد نزعم أن الإنسان قد استعان بالهيئة الخارجية المستعارة من الحيوانات الضارية والطيور الكواسر والزواحف السامة لكى يستأنس بواسطتها بعض أنواع الحيوانات والطيور . فهو استطاع بتلك الأزياء المستعارة أن يلقى بالرعب فى قلوب الحيوانات والطيور الضعيفة . ومن ثم فقد استطاع أن يسوقها إلى البيئة التى يعيش فيها ويستغلها فى القيام ببعض الأعمال الشاقة أو فى أكل لحمها أو فى إمتطاء صهوتها أو نقل البضائع على ظهورها.

بيد أن الإنسان لم يكتف بهذا . بل إنه استعان بألوان من القسوة والتعذيب فى معاملة الحيوانات الأليفة أو الحيوانات التى أراد لها أن تكون أليفة كالجاموس والجمال وغيرها . فالضرب وما ارتبط به من أصوات معينة يزجرها بواسطتها . كانت أدوات فعالة فى إشاعة الخوف فى قلوب تلك الحيوانات . ومن ثم فإنها صارت تطيع الإنسان بغير أدنى مقاومة .

وكلما تقدم العلم . اكتشف الإنسان حقائق جديدة حول طبيعة الحيوانات وحول الوسائل

التى جعلتها أكثر طواعية له وأكثر إذعانا لمشيئته . بل وأكثر فائدة لتحقيق أهدافه المتباينة . من هنا فإن دائرة الإفادة من الحيوانات عن طريق إشاعة الخوف فى قلوبها قد اتسعت . فنجد أن الترفيه قد صار مجالا هاما من المجالات التى حددها الإنسان للحيوانات . ولعل حيوانات السيرك خير مثال على هذا . فبالعقوبة من جهة . وبالمكافأة من جهة أخرى يستطيع الوحش المفترس أن يرضخ لمدربه . ولقد كشف علم النفس الحيوانى عن حقائق كثيرة وأساسية فى هذا المضمار . ولعل من أخطر وأفعل تلك الحقائق قانون الفعل المنعكس الشرطى .

لقد اكتشف العالم الروسى بافلوف أن من الممكن استحداث استجابات جديدة لدى الحيوان ليست فى طبيعته الأصلية . وذلك عن طريق مبدأى المصاحبة والتكرار . فالكلب الجائع يسيل لعابه إذا ما شاهد الطعام الذى يحبه . فسيلان لعابه يعد استجابة طبيعية . ولكن مصاحبة تقديم الطعام أمام الكلب الجائع بصوت جرس معين يدق بطريقة معينة مرات متكررة ، تجعل مجرد سماع الكلب لصوت الجرس ، كافيا لسيلان لعابه . ومن هذا المنطلق تفجرت تجارب كثيرة خاصة بتدريب الحيوان والانسان أيضا فى شتى المجالات .

وفى السيرك يقوم المدرب بالربط فيما بين الاستجابات الطبيعية التى هى من الخصائص الطبيعية للحيوان . وبين مثيرات اصطناعية . فتحدث الاستجابة الطبيعية بسبب المثير الاصطناعى وليس بسبب المثير الأصلى . فبدل أن يؤلم الحيوان بالضرب . فإن مجرد مشاهدته للسوط . وبمجرد سماع فرقعته فى الهواء تحدث لدية نفس استجابة الخوف . وبالتالى فإنه يطيع صاحبه . وقل نفس الشىء بالنسبة لجميع صور الألعاب والاستعراضات المتباينة التى تشاهد فى السيرك .

والعجيب أنه لوحظ أن من الممكن ربط الاستجابة الشرطية – أعنى الاستجابة التى تحدث لدى الحيوان نتيجة مثير اصطناعى غير المثير الأصلى – بمثير شرطى جديد . وبتعبير آخر فإن من الممكن ربط المثيرات الاصطناعية بمثيرات اصطناعية أخرى . فبدلا من فرقعة السوط فى السيرك ، فإن النطق بصوت معين فى أثناء استخدام السوط فى الفرقعة يكسب ذلك الصوت المنطوق نفس قوةالاستجابة التى يحدثها صوت فرقعة السوط . فبينما نجد أن فرقعة السوط تعتبر المثير الشرطى رقم واحد ، فإن الصوت المنطوق المصاحب لتلك الفرقعة يعتبر المثير الشرطى رقم اثنين . ولعل السؤال الذى يثار هنا هو : هل من الممكن الاستمرار فى سلسلة المثيرات الشرطية بحيث نربط المثير الشرطى رقم ٢ بالمثير الشرطى رقم ٣ ، ثم ربط المثير الشرطى رقم ٣ بالمثير الشرطى رقم ٤ إلى غير نهاية ؟ الواقع أن هذا صحيح من الناحية النظرية . بيد أن من الضرورى القيام بعملية إعادة ربط المثيرات الشرطية بعضها ببعض من جهة لتقويتها ، ثم

ربط المثير الشرطى الأول بالمثير الطبيعى من جهة أخرى . وهذا ما يعرف باسم عملية الدعم أو التثبيت .

وعلى الرغم من أن الحيوان يقع بصفة عامة تحت سيطرة الإنسان – وبالذات تلك الحيوانات الأليفة – فإننا نجد من الجهة الأخرى أن هناك حالات ثورة وعصيان تعلنها بعض الحيوانات الأليفة أو بعض الحيوانات الضارية التى تم استئناسها وإخضاعها لإرادة الإنسان . فثمة قصص واقعية كثيرة عن أسود هاجمت مدربيها على مرأى من المشاهدين فى السيرك وقامت بتمزيقهم شر ممزق . وقصة الحلو ليست ببعيدة . وكذا فإن الجمال قد تشحن قلوبها حقدا على أصحابها وتنتهز الفرصة المناسبة فى الأماكن المهجورة وتطيح بهم من فوق ظهورها ثم تهاجمهم وتطحن ضلوعهم بأسنانها وتدوسهم بأقدامها . وكذا تفعل الحمير والبغال والحصن فى بعض الأحيان . وفى بعض الحالات يأخذ الغضب بالكلب كل مأخذ فيهاجم أصحابه ويشبعهم عضاً . وسواء نجم هذا عن مرض الكلب يكون قد أصابه أم لغير ذلك من أسباب صحية ، فإن ما يختزنه الكلب من شحنة غضبية ومن حقد تجد لها منفذا خلال مرضه فيكون مؤذيا لمن يصادفه فى طريقه أيما إيذاء .

ولعلنا نزعم أن هناك حداً معينا يبلغه صبر الحيوان ينفجر بعد اجتيازه ويعود إلى طبيعته الوحشية الأصلية . ونستطيع أن نزعم أيضا أن القول بأن الأسد المستأنس المدرب قد خرج على طبيعته فالتهم مدربه هو قول مقلوب . والصحيح أن يقال إنه استرد طبيعته الأصلية . فلكأن حالة الاستئناس هى حالة مستعارة غريبة عن طبيعة الأسد الحقيقية . ونفس الشئ يصح بازاء جميع الحيوانات التى قام الإنسان بإخضاعها لإرادته منذ عهود بعيدة فى الزمان . ولقد نقول إن الوراثة الوحشية الأصلية تظل قائمة ومتأصلة فى الحيوانات . ولكن من جهة أخرى فإن ما اكتسبه الحيوان عبر أجياله المتعاقبة من خبرات مخيفة قد ترسب أيضا فى قوامه الوراثى . فالحيوان لا يرث طبيعته الوحشية فحسب ، بل إنه يرث أيضا مكتسباته الجماعية التى صارت طبيعية ثانية إلى جانب طبيعته الوحشية .ومن المؤكد أن البيئة الإنسانية التى يولد الحيوان فى نطاقها تدعم بالمكتسبات التى ورثها عن أجداده القريبين وعن أجداده البعيدين والتى جعلت منه حيوانا يميل إلى الدعة والألفة والارتباط بالعالم البشرى .

ومهما يكن من شئ فإن الحيوان قد ارتبط بصديقه الإنسان بحيث صار خوفه لا يرتبط بما يمكن أن يؤذيه به فحسب ، بل ارتبط خوفه أيضا بما يمكن أن يحرم منه إذا هو تخلص من نير عبودية الإنسان ، أعنى الحياة نفسها .



ما الذى كان يخيف البدائيين ؟

الفصل الرابع
الخوف عند البدائيين

الخوف من الأشياء :

إعتقد البدائيون أن الأشياء الجامدة إنما هى كائنات حية تدرك وتجيش بالعاطفة وتريد . وهذا ما يعرف فى تاريخ الإنسانية باسم النزعة الحياتية **animatism** . والحياتية هى الاعتقاد فى أن أشياء معينة أو ظواهر طبيعية معينة مما يجب أن نعتبره أشياء غير حية . هى ذاتها أشياء قادرة على التصرف والتحرك كأشياء تضطلع بالإحساس . والظاهر أن الحياتية لا تؤدى بحال إلى نشوء عواطف دينية كما أنها لا تحمل على عبادة الشئ الذى يعتقد أنه مفعم بالحياة . وهكذا فإن الهندى بكاليفونيا الذى يعتقد أن أحدى الأشجار قد تقتله إذا ما رغبت فى ذلك . بأن تسقط أحد فروعها عليه . لا يخشع بسبب ذلك أمام الشجرة . ولا يعتقد فى أن الشجرة تتضمن روحا ينبغى عبادتها . إنه لا يعدو مجرد تجنب الأشجار . أو إبداء حذر شديد لدى مروره تحتها . ولكن من جهة أخرى فإن نفس ذلك الهندى قد يتحاشى بركة معينة . بسبب الاعتقاد فى أنها مأهولة بروح حاقدة سوف تسحبه إلى قاع البركة لإغراقه . ولقد يحاول أكثر من ذلك استرضاء تلك الروح بتقديم القرابين إليها . فالأرواحية **animism** التى تتضح فى هذا المثال الأخير هى إذن إعتقاد أو مجموعة من الاعتقادات فى كائنات علوية . سواء كانت أرواح مخلوقات سبق لها أن عاشت على الأرض . أم وجدت بادئ ذى بدء ككائنات علوية . وهى التى قد تقطن فى بعض الظواهر الطبيعية مثل الأشجار والبرك والجبال أو فى بعض الأشياء المصنوعة مثل الأسلحة أو المنازل أو القوارب . أو قد توجد فى حالة مرئية فى قسم معين من الكون أو فى الكون كله[1] .

وهكذا نجد أن الإنسان القديم كان يتناول الأشياء من حوله لا كموضوعات ميتة بلا حياة . بل كان يتعامل معها باعتبار أنها متلبسة بالحياة على نحو أو آخر . سواء كانت الحياة والإرادة متمركزتين فى ذاتها كما هو الحال فى النزعة الحياتية . أم كانت مباينة ومنفصلة عن الأشياء ولكنها متلبسة بها أو مجاورة لها أو مرتبطة باستخدامها كما تذهب إلى ذلك الأرواحية .

ولقد نزعم أن الانسان البدائى كان يخلط بين الأشياء الجامدة وبين عالم النبات . فربما كان يرى فى مياه البركة المتحركة بسبب الهواء من فوقها أو بسبب الأسماك المتحركة قريبا من سطحها

---

(١) انظر كتاب « مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة» الجزء الثانى تأليف رالف بيلز وهارى هوبجز ترجمة المؤلف وآخرين — دار نهضة مصر بالفجالة القاهرة — ص ٥٩٤

ما يؤكد له أن تلك الحركة انما هى حركة أرواح تسكن البركة أو أن البركة ككل إنما هى كائن حى كبير له إرادة وله القدرة على التصرف بالإيذاء أو المباغته أو العدوان . فالبركة اذن لا تختلف عن الشجرة التى يراها اليوم غيرها بالأمس . ناهيك عن أن بعض الأشجار أو النباتات تتحرك سواء كانت الحركة بالاهتزاز بسبب الهواء . أم كانت حركة ذاتية كتلك التى تبدو فى أوراق بعض الأشجار التى تتضمن خلايا عصبية حساسة والتى تنغلق بمجرد ملامستها .

والواقع أن خوف الانسان البدائى من الأشياء الجامدة غير الحية قد ارتبط فى وجدانه بالغضب من تلك الأشياء . ومن هنا فإنه اتخذ منهج الهجوم عليها وتحطيمها حتى يتخلص من الخوف المعتمل فى أعماقه تجاهها . ولعلنا نزعم أن إعمال اليد الإنسانية فى الأشياء قد تواكب مع الخوف منها . فهو اعتدى على الأشجار بقطعها لا رغبة فى الإفادة من أخشابها فحسب ، بل رغبة فى التخلص من الخوف منها ومما تحتوى عليه من أشباح تخيفه أيضاً . ولعله كان يحاول إيلام الأرض بدقها بالفأس ونبش بطنها . فهو اعتقد أن الجبل يشتمل على الأرواح المخيفة . فماذا يفعل ؟ إنه يستطيع أن يحارب الخوف الذى يستشعره فى دخيلته بأن يعلن الحرب الشعواء على ذلك الجبل بأن يحطم رأسه وبأن يتحدى الأشباح التى تسكن فيه . ولقد نزعم أيضا أن الذين بدأوا بالهجوم على الأشياء الجامدة كانوا مغاوير لديهم جرأة منقطعة النظير لأنهم استطاعوا أن يقفوا فى تحد أمام تحذيرات الآخرين من حولهم مما عسى أن تفعله بهم تلك الأشياء ذات الإرادة الأقوى وتلك الأرواح التى تسكن فى الأشجار والجبال .

ولا شك أن موقف أولئك المغاوير القدامى الذين خاطروا بحياتهم فهاجموا الأشياء والنباتات ضاربين بالمعتقدات التى سادت وقتئذ عرض الحائط أشبه ما يكون بموقف علماء التشريح الأوائل الذين تجرأوا وتناولوا أول جثة بشرية يعملون فيها مباضعهم ويقطعونها إرباً إرباً . ذلك أن الناس من حولهم قد اعتقدوا أن روح تلك الجثة سوف تنتقم منهم أو سوف تلبسهم وتنكل بهم شر تنكيل .

بيد أن البدائيين لم ينهجوا جميعا هذا النهج . ذلك أن البعض منهم قد اتخذ منهجا جديدا للتخفف من الخوف الذى كانوا يحسونه معتملا بدخائلهم . والمنهج البديل كان منهج الاسترضاء والتقرب . فبدلا من استذلال تلك الأشياء الجامدة أو الأشجار المسكونة بالأرواح ، فإن بعض البدائيين ذهبوا إلى تقديس تلك الجوامد أو تلك الأشجار . فوقع الاختيار على بعض الأماكن أو على بعض الأشجار وأناطوها بهالة معينة وجعلوها فى منأى عن التحطيم أو القطع أو التغيير . فتلك الأماكن أو تلك الأشجار يجب أن تظل على حالها لا يقترب منها المرء إلا وقد أخذ به الخوف كل مأخذ . فهى تستحق منه الإجلال والتعظيم والتقديس واللامساس .

ولقد نزعم أن عبادة الأصنام قد نشأت عن هذا الموقف البديل المناهض لموقف المغامرين الذين أخذوا يحطمون الصخور ويقطعون الأشجار ويغيرون شكل الطبيعة . فالصنم هو شئ أصم . ولكن عابديه زعموا أن له إرادة تحركه وسلطة على بنى الإنسان فى قبضته . فهو إله قادر على اتخاذ موقف المنتقم من أولئك الذين لا يبتغون مرضاته أو الذين يقاومون مشيئته .

وهكذا نجد أن البدائيين قد اتخذوا موقفين متناقضين من الأشياء الجامدة وأيضا من عالم النبات . فثمة من جهة أولئك الذين أخذوا يقاومون الخوف من عالم الأشياء وقد شاعت فى مجتمعاتهم عقيدة الأرواحية من جهة . وعقيدة الحياتية من جهة أخرى . وذلك عن طريق تعرية الأشياء والنباتات من تلك الهالة الوهمية التى أحيطت بها . أما الفريق الثانى فهم أولئك الذين أخذوا يسترضون الأشياء والأشجار بتقديسها وإحاطتها بالإحترام والتبجيل والتحريم . فبدلاً من تحطيم الأشياء وبدلا من قطع الأشجار كما فعل المغاوير . فإنهم انحنوا أمام الأحجار والأشجار يلتمسون منها الغفران ويستجلبون منها لأنفسهم ولذويهم الرضاء . ويستمطرونها البركات والخيرات . ويلتمسون لديها الحماية من الأعداء .

ولقد امتد البعض من أفراد هذا الفريق الثانى بالتقديس والتجيل للأشياء والأشجار إلى درجة بعيدة . فبعضهم ذهب إلى انتقاء عينات من أحجار الجبال المقدسة . أو قطع من أغصان الأشجار حملوها فى جيوبهم فى الحروب وفى المواقف الخطرة اعتقادا منهم أنها تحميهم من أى خطر يتهددهم .فهم يذبون الخوف عن أنفسهم بتلك العينات المقدسة . أعنى تلك التمائم التى يحتفظ بها الشخص فى مكان قريب من قلبه حتى لا تصيبه السهام فى وقت النزال . وحتى تحافظ عليه من الحسد أو من كل الأعمال الشيطانية الرديئة .

وأكثر من هذا فإن البعض من البدائيين قد ذهبوا إلى أن رسم صور لتلك الجبال أو الأشجار على أجزاء معينة بالجسم بواسطة الكى أو بالاستعانة بالأصباغ التى لا تبلى . إنما يحافظ على المرء من أى خطر يحدق به . وهذا ما عرف بالوشم . فالوشم فى أساسه هو وسيلة لدرء الخوف من الأشياء التى تحمل أرواحا وإرادة كما اعتقد البدائيون . ولعل أن تكون مرحلة الاستعانة بالوشم كبديل للتميمة قد أتت كمرحلة تالية لظهور التمائم.ذلك أن الوشم يعد رمزا للتميمة . والرمزية فى الحياة البشرية أتت بعد المرحلة الشيئية . فالعينة من الأشياء -- أعنى التمائم – أتت أولا . ثم تلتها بعد ذلك مرحلة استخدام الوشم على اليدين وعلى الخدين وعلى أجزاء متباينة بالجسم .

وفى بعض الأحيان كان البدائيون يتخذون موقف المؤدب للطبيعة التى تشيع الخوف فى قلبه . فبدل أن تتفكك مفاصله لدى سماعه لصوت الأمواج المتلاطمة . فإنه استعان بطقس

عرف بطقس تأديب البحر . فتخرج جماعة من الرجال الأشداء وقد حمل كل منهم عصا غليظة ذات أوصاف معينة ، ثم تقام طقوس دينية خاصة بتلك المناسبة . ثم ينهال الرجال على البحر بالضرب بطريقة معينة . وبذا فإن البحر يتأدب ويعرف أن أولئك الناس لا يخافون منه. والعجيب أن هذا الطقس السحرى قد ارتبط بنزوح العديد من الأسماك إلى الشاطئ فيقوم الأهلون بجمعه وشيه وأكله . ومن الطبيعى أن يفسروا ذلك بأن البحر قد خاف منهم وأنه أرسل بتلك الأسماك لاسترضائهم طالبا العفو منهم .

الخوف من الحيوانات المفترسة :

ارتبط الخوف من الحيوانات المفترسة فى وجدان الإنسان منذ بواكير الانسانية بما تبديه من وحشية قبالة من تستطيع اقتناصهم من أفراد . فالحيوان المفترس يجد فى الواحد من البشر وجبة لذيذة ربما يفوق مذاقها لديه مذاق سائر الكائنات الأخرى التى يستطيع الحصول عليها . ولقد ظل بنو الإنسان لفترة طويلة فى تاريخ البشرية وفى عصور ما قبل التاريخ وهم يتعرضون لهجوم الحيوانات المفترسة ، سواء كانوا فى العراء أم كانوا حتى فى بيوتهم غير المحكمة . فالذئاب والضباع كانت تدلف فى سكون الليل من الأبواب أو النوافذ أو من أى فتحة تمكنها من اقتناص من تستطيع إقتناصه من رجال ونساء وأطفال . وطالما أن الإنسان غارق فى نعاسه فإنه يكون لقمة سائغة لا تستطيع أن تقاوم أو تدافع عن نفسها أو عن غيرها .

ولعلنا نكون قد ورثنا عن أسلافنا القريبين وعن أسلافنا البعيدين ما ترسب فى قوامنا النفسى من خوف دفين من الحيوانات المفترسة . وحتى عندما نكون فى وسط المدينة بحيث لا تجرؤ الحيوانات المفترسة من الاقتراب من الأضواء والأصوات ، فإننا قد نقوم من نومنا العميق مفزوعين بسبب حلم رأينا فيه وحشا ضاريا يهاجمنا . ولقد يفسر لنا المحيطون بنا مثل تلك الأحلام ، بأن ما رأيناه فى الحلم لا يعدو أن يكون رمزا لعدو من أبناء البشر يتربص بنا ويكيد لنا كيداً عظيما .

والواقع أن بعض الملوك القدامى كانوا يتشبهون بالوحوش فى ملامحهم الخارجية عن طريق الأقنعة والريش والأصباغ ونحوها ، بل إن بعضهم كانوا يزعمون أنهم من سلالة بعض الوحوش . فكان أحد الملوك يزعم أنه من نسل الأسد ، والآخر كان يزعم أنه من نسل الذئب . ولقد تذهب قبيلة برمتها إلى أنها بجميع أفرادها قد نزلوا من صلب أحد الحيوانات المفترسة . وعرف هذا بالطوطم . وفى بعض الأحيان كان الطوطم يشكل معبودا حقيقيا أو رمزيا للقبيلة . وبعد أن تطورت البشرية صار أبناء الفئة الواحدة يعتبرون أن ما يتخذونه من شعار يمثل للأسد مثلا انما هو على سبيل المجاز وليس بالحقيقة الواقعية . فإذا ما قيل مثلا إن

احدى الأسر المدرسية قد أطلقت على نفسها اسم « أسرة الأسد » . أو تسموا بالأشبال . فإن ذلك يكون بمثابة وسيلة تربوية فحسب لاشاعة الشجاعة فى قلوب الناشئة . وليس بزعم أن أولئك الأولاد من نسل الأسد كما كان يعتقد البدائيون .

ولقد ارتبط الخوف فى وجدان الناس من الوحوش الضارية ببعض المعتقدات الخرافية . فلقد اعتقد بعض أبناء القبائل أن عليهم أن يقدموا فدية عن قبيلتهم من أبنائهم لأسد أو لتنين خطير يهدد القبيلة كلها . فإذا هم لم يقدموا إليه هذه الفدية السنوية من الأطفال أو من الشباب . فإنه سوف ينقض إذن على أفراد القبيلة جميعا بغير رحمة ويلتهمهم التهاماً . ولقد ارتبط هذا الأعتقاد باعتقاد آخر هو أن ذلك الوحش له عقل وإرادة بحيث يستجيب للدعوات فيرق قلبه ولا يؤذى من ينجح فى استرحامه . ولعل أن يكون هذا الاعتقاد قد نشأ نتيجة ما لاحظة البعض من وجود أوجه شبه كثيرة بين الطبيعة الحيوانية بين الطبيعية الإنسانية . فالوحش يتوتر ويغضب ويخاف كما يفعل بنو الإنسان . ناهيك عن أنه يرى بعينين ويسمع بأذنين ويمشى على الأرض بأرجل وله فم وأسنان وغير ذلك من أشكال وتركيبات مشابهة للأشكال والتركيبات الخاصة بجسم الإنسان .

ومما يضاعف من خوف البدائين من الحيوانات المفترسة ذلك الاعتقاد الذى كان شائعا – وما يزال يشيع لدى البقية الباقية منهم . كما يشيع أيضا لدى أبناء بعض القرى النائية – ومؤداه أن الوحوش تتلبس فى بعض الأحيان بالأرواح الشريرة بحيث تضيف إلى قوتها قوة أخرى خارقة ومنقطعة النظير فى الإيذاء والتعذيب . وعندما يرى البدائى أو الريفى قطا أسود اللون فى الظلام الدامس . فإنه يعتقد عندئذ أن ما يراه ليس قطا كتلك القطط الحيوانية التى يشاهدها كل يوم فى أماكن عديدة . بل هو أحد الجان المؤذين وقد ارتدى ثوب قط وهو ليس بقط . وهنا نذكر بقصة الحية التى كلمت أمنا حواء فى الجنة . وهى لم تكن حية حقيقية . بل كانت الشيطان نفسه وقد تلبس فى هيئة حية تزحف على الأرض .

وهناك من الناس من يعتقدون أن عذاب جهنم سوف لا يكون مجرد نار تحرق الأبدان . بل سيكون بها وحوش جهنمية تأخذ فى مهاجمة أولئك الذين سيستمر تعذيبهم إلى أبد الآبدين . وما يتواكب مع ذلك الهجوم من خوف وارتعاد للمفاصل وهز للمشاعر . وهناك أيضا من يعتقدون أن الوحش إذا ما هاجم قبرا ونبش جثة . فإن صاحب تلك الجثة يحس بالألم الشديد . والألم هنا لا يقع للجثة . بل يقع لصاحبها . فكل عضة وكل تمزيق يصيب جثته تصيبه أيضا فى روحه بالعض والتمزيق . فالروح تتألم إذا ما وقعت جثة صاحب تلك الروح بين أنياب أحد الوحوش .

وفى المناطق التى تقع فيها حوادث مهاجمة بعض الوحوش للأهلين من وقت لآخر . فإن الأمهات تلقى بالرعب فى قلوب أطفالهن لحملهم على طاعتهن وذلك بأن يهددنهم بالإلقاء بهم إلى فم الذئب . أو يهددنهم بدعوة الذئب إلى البيت لحملهم إلى داره حيث يفتك بهم ويقيم وليمة لأبنائه وأصدقائه على أبدانهم فيلتهمونهم التهاما وتتحطم ضلوعهم تحطيما .

وليس تاريخ الرومان القدامى بخاف على أحد حيث كانوا يتخذون من منظر واحد من أشداء الرجال العبيد وهو يصارع أسدا فى حلبة أعدت خصيصا لذلك ملهاة لهم فيلتذون بمتابعة تلك المعركة غير المتكافئة وقد أخذ العبد المسكين يقاوم ويناضل فى سبيل إنقاذ حياته إلى أن ينهار تحت مخالب وأنياب الوحش القوى فيأتى عليه ويأخذ فى تمزيقه إربا إرباً ثم يلتهمه التهاما بينما ينتشى الإمبراطور بذلك المنظر وقد استطاع أن يلقى بالرعب فى قلوب رعيته حتى لايلقى أحد منهم نفس المصير .

وفى اسبرطة قديما كانوا يأخذون الأطفال الصغار إلى الجبل حيث يتركونهم هناك معرضين للبرد من جهة وللوحوش الضارية من جهة أخرى . فمن يظل صامدا وباقيا على قيد الحياة حتى الصباح يكون أهلا لأن يكون إبناً مناضلا فى سبيل اسبرطة .

وقصة يونان النبى فى العهد القديم الذى ابتلعه الحوت وظل فى جوفه ثلاثة أيام تشير بطريق غير مباشر إلى أن ما كان يتهدد بحارة السفينة ليست الأمواج وحدها . بل كان يتهددهم ذلك الحوت الضخم . فلما ارتعدوا وخشوا من غرق سفينتهم بمن عليها وما عليها . فإنهم ألقوا قرعة على الموجودين فوقعت القرعة على يونان . فألقى به إلى البحر فداء لجميع الموجودين على ظهر السفينة . ولعلهم اعتقدوا أن الالقاء بواحد منهم إلى الحوت سوف يرضيه ويرقق قلبه عليهم ولا يقلب السفينة بمن عليها بذيله العظيم .

والواقع أن تطور البشرية قد اتخذ خطاً معكوساً مع تطور الحيوانات المتوحشة . فبينما تطور الانسان إلى قامة أطول وإلى تطور عظيم فى جهازه العصبى بالإضافة إلى إنتشاره بشكل تفجرى على سطح الكرة الأرضية بحيث لا تكاد توجد بقعة على الأرض لم يتم مسحها بدقة ومعرفة خصائص سطحها وما يحتويه باطنها . فإننا نجد من الجهة المقابلة أن ثمة العديد من الحيوانات الضخمة جدا قد انقرض . فثمة زواحف ضخمة قد انقرضت وما يظنه البعض مجرد اساطير عن التنينات العظيمة هو حقيقة وقعت بالفعل على سطح الأرض . ونحن لا نكاد نستطيع أن نتخيل حياة القبائل البدائية فى ظل تلك البيئة التى كانت فيها الكفة راجحة تماما لصالح تلك الحيوانات المتوحشة التى تم انقراضها بالفعل .

فمن المؤكد أن نسبة الملتهمين من أبناء القبائل البدائية كانت كبيرة جدا إذا ما قيست

بالنسبة الضئيلة جدا من الذين تلتهمهم الوحوش اليوم . ولقد نزعم أن الناجين من أنياب الضوارى فى إحدى الحقب كانوا أقل عددا من الذين يتم التهامهم . « فمن لا يؤكل اليوم سوف يؤكل غدا » هذا كان لسان حال أبناء القبائل البدائية .

ولسنا نشك فى أن ما ورثناه فى لا شعورنا من خوف من الحيوانات المفترسة ما يزال مخيما على خيالنا وما يزال ينسرب فى كلامنا . فنحن ما نزال نخاف من الوحوش لأن أسلافنا البعيدين قد ذاقوا الأمرين من تلك الكائنات الوحشية . وما زلنا نشبه الطائرة الضخمة أو الدبابة التى تقهر الجبال بالأسود والنمور . وما يزال المثل الأعلى للشجاعة فى أنظارنا هو الأسد أو النمر أو الذئب . فعالم الوحوش ما يزال يلقى بظله كثيفا على ذهننا ويجد ذلك منفذا إلى ما نقوله من كلام أو ما نقوم برسمه من فنون تصويرية أو فيما ننتجه من أفلام سينمائية تذكرنا بماضينا السحيق .

الخوف من الأشباح :

نستطيع أن نقول إن عقلية البدائيين أشبه ما تكون بعقلية الطفل . ونحن نعلم أن الطفولة تمتاز بالخيال الخصب من جهة . وبالحساسية الوجدانية المرهفة من جهة أخرى . فإذا ما إنضم الخيال إلى الحساسية الزائدة صار المرء شديد القابلية للخوف . بل إنه ينسج لنفسه أخيلة تعمل على إخافته . والواقع أن حياة البدائيين فى جانب كبير منها ترتبط بعالم الأرواح . فثمة النزعة الأرواحية والنزعة الحياتية من جهة . وثمة التابوهوات **Taboos** أو المحرمات الكثيرة التى فرضها البدائيون على أنفسهم من جهة أخرى مما جعل حياة البدائى محفوفة بالخوف من كل ما يحيط به من أشياء . فهو يعتقد جريا وراء النزعة الأرواحية بأن الأرواح تقطن الأشجار والبرك وبعض الأماكن المسكونة . كما يعتقد جريا وراء الحياتية بأن الجوامد والأشجار هى كائنات حية مريدة كما سبق أن ألمحنا .

من هنا فإن البدائى كان فى خوف مستمر من الكائنات الروحية التى لا يراها . بل انه فى بعض الحالات كان يخاف من أرواح الحيوانات التى قام بالاعتداء على أرواحها بالقنص ، أو بذبحها لأكل لحمها . ناهيك عن المخاوف التى كانت تساوره من هجومه على أبناء جلدته من الآدميين يقتلهم ويأكلهم . لقد كان يخال أن أرواح الحيوانات وأرواح الآدميين تتربص به الدوائر وتتحين أول فرصة للانقضاض عليه والانتقام منه .

وعلينا أن نضع فى إعتبارنا أن الإنسان البدائى لم يكن يفكر فى الأشياء من حوله وفى البيئة التى كان يقطنها من وجهة نظر علمية واقعية ، بل إنه كان ينظر إلى كل الأشياء بنظرة روحية بمعنى الكلمة . ناهيك عن أنه كان غير مسيطر على الطبيعة ، بل انه كان غير فاهم لطبيعة

الأشياء . إنه كان يفسر كل شئ تفسيرا غيبيا بما فى ذلك أبسط الأمور فى حياته اليومية . فكان يعزو كل ما ينجح فيه وكل ما يقف عقبة فى طريق نجاحه بتفسيرات غيبية معتقدا أن الأرواح الصديقة تساعده فى حياته . بينما تقف الأرواح العدوة فى طريق نجاحه وتوقعه فى المهالك إذا لم تسعفه الأرواح الصديقة .

ولعل السؤال الذى يطرح نفسه فى هذا المقام هو : هل كان الإنسان البدائى – وما يزال – يشاهد الأشباح حقا . أم أنه كان يتوهم أنه يراها ؟ الواقع أن قضية الأرواح ما تزال تثار حتى اليوم . ولقد يذهب البعض إلى القول بأن الإنسان البدائى كان شخصية فجة . أو بتعبير آخر كان شخصية ناقصة النمو غير ناضجة . ومن ثم فإن ما كان يتراءى له من أشباح إنما كان مرده إلى نقص فى تكوينه وإلى تخلفه فى التفكير والتصور .

ونحن نرفض هذا الرأى من أساسه . واعتقادنا هو أن المسألة نسبية بكل ما فى كلمة النسبية من معنى . فالإنسان البدائى كان غائصا فى قلب الوجود . أو قل إنه كان ذا قوام غير منفصل عن قوام الوجود . ومن هنا فإنه كان مبايناً للإنسان الحديث الذى ينظر إلى الوجود من حوله من بعيد بنظرة موضوعية مباينة لعمق ذاتيته .

فالإنسان البدائى كان يمتاز عن الإنسان الحديث بأنه كان يعيش فى أعماقه . أو قل إنه كان يحيا حياة تشبه حياة النائم الذى يحيا فى دخيلته . فرؤيته للأشباح لم تكن ظاهرة غريبة على طبيعته بل كانت من صميم تلك الطبيعة .

وبتعبير آخر فإننا نقول إن الإنسان البدائى كان أكثر قرباً من الإنسان الحديث إلى طبيعته الروحانية . ولعلنا نقول إن الإنسان الحديث هو ذلك الكائن الذى انحرف عن تلك الطبيعة الروحانية . أو قل انه فقدها أو كاد . فرؤية الإنسان البدائى للأشباح كانت رؤية حقيقية ولم تكن مجرد خرافة . ولم تكن من قبيل الهلوسات التى قد يصاب بها بعض الافراد من أبناء المجتمعات الحديثة . فالإنسان القديم كان يحظى بجهاز نفسى يسمح له بمشاهدة تلك الأشباح .

ولسنا نقول بدعا . فعلم النفس المعاصر قد بدأ يميط اللثام عن الجانب الروحانى من حياة الإنسان . ولكأنه قد بدأ فى إعادة كشف قارة كانت مأهولة بالسكان ولكنها هجرت لأجيال كثيرة . والقارة المجهولة هى تلك القارة الخاصة بالأرواح . وربما يكون الدافع إلى إنكار عالم الأشباح من جانب البعض من أبناء الحضارة الحديثة راجعاً إلى الجبروت الهائل الذى استحوذ عليه الإنسان الحديث .

ومهما يكن من أمر . وبغض النظر عن تصديق رؤى الإنسان البدائى للأشباح أو عن إنكار

ذلك . فإن من الحقائق المقررة أن الإنسان البدائى كان يرى الأشباح ويسمعها . وكان يخاف من غضبها ومن إغضابها . ومن هنا فإنه كان يتعامل معها .

وكان تعامل الإنسان البدائى مع الأشباح بطريقين : أما الطريق الأول فهو العمل على مرضاتها وذلك بالتقرب إليها وعقد صلح وصداقة معها . أما الطريق الثانى فكان بالاحتماء بأرواح أخرى مناوئة لدرء خطر الأرواح الخصيمة . فالأرواح عند الإنسان البدائى كانت تسود كل شئون الحياة اليومية وخاصة فى الطقوس والاحتفالات الدينية التى كانت تكرس بصفة خاصة لاحراز الشفاء من الأمراض. فكل بالغ – سواء كان رجلا أم امرأة – قد تكون لديه روح على ألفة بها يستطيع أن يتلقى عنها الاتصال بالقوة العلوية الضرورية لاحراز الشفاء . وهكذا يستمد البعض القوة من البومة أو من الحية أو من الغزالة . وهى ثلاثة أرواح حيوانية يخشى بأسها وتلقى احتراما بفضل قوتها . وثمة بدائيون آخرون كانوا يستمدون القوة من أرواح حيوانات القنص التى لها أهميتها فى الحياة الاقتصادية . أما القوة التى كانوا يستمدونها من أرواح الجبل فإنها كانت تمكن البدائين من تقديم طقس الراقص المقنَّع . وهو حفل ما يزال متبعا عند شعب الأباكى للاستشفاء ولرفاهة المجتمع .

ولعلنا نقرر أن تركيب مخ الإنسان البدائى وإن كان لا يختلف عن تركيب مخ الإنسان الحديث من حيث الأساسيات فإنه بلا شك كان مبايناً عن مخ الإنسان الحديث فى بعض النواحى التى ربما لم يكشف عنها النقاب بدقة بعد . ولقد يكون لذلك الاختلاف بين تركيب مخ الإنسان البدائى وبين مخ الإنسان الحديث الأثر فيما يبدو من تباين بين تقييمات الإنسان البدائى للوجود وتقييمات الإنسان الحديث له . فلربما كان بفضل تركيب مخ البدائى المتميز أنه كان يستطيع أن يرى مالا يراه الإنسان الحديث اليوم . وبتعبير آخر فإننا قد نزعم أن التطور الذى وقع لمخ الإنسان عبر العصور والأجيال المتعاقبة لم يكن لصالح الجانب الروحانى من شخصيته . بل كان فى الواقع لصالح الجانب الموضوعى أو المادى منها . فبدل أن كان الإنسان البدائى يشاهد الأشباح والعالم الروحانى ويعيش فى إطارة . فإن الإنسان الحديث – وقد تطور مخه تطوراً معينا أفقده تلك الموهبة أو كاد – لم يعد يشاهد ما كان يشاهده الإنسان البدائى ويعيش فى إطاره .

ولعلنا ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى هى الزاوية الحضارية . فالحضارة ليست مجرد انعكاس للقوام البيولوجى وللإمكانيات الفسيولوجية لدى المرء . بل إنها بدورها تؤثر فى ذلك القوام البيولوجى وفى تلك الإمكانيات الفسيولوجية . ومعنى هذا فى الواقع أن هناك تأثيرا تبادليا فيما بين القوام الجسمى للإنسان وحضارته . فكما أن قوام الإنسان الجسمى يؤثر فيما

يستطيع إنشاءه من حضارة. كذا فإن الحضارة تستطيع بدورها أن تؤثر فى القوام الجسمى. ومعنى هذا فى الواقع أننا نعزو التغيرات التى وقعت فى الجبلة الجسمية للبشر فى جانب كبير منها إلى ما أحدثته الحضارة فيها.

أما عن الحقائق الوجودية فإننا نجد بازائها أن الماديين ينكرون وجود الروحانيات ، كما أن من يؤمن بعالم الأرواح لا يستطيع أن يجتزئ بالوجود المادى وينيطه بكل القيمة. ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن الإنسان ما يزال يمتاز بأنه كائن روحانى من جهة ، وكائن حيوانى من جهة أخرى. ومن الخطأ أن نعزو إليه الصفات الحيوانية فحسب دون أن نعزو إليه الصفات الروحانية. ونخطىء أيضا إذا ما أعمتنا الحضارة التى تضرب بأطنابها بعمق فى حياتنا عن تكويننا البشرى الثنائى. فليس اذن من اللائق أن ننظر باستخفاف إلى الحياة الروحانية التى كان البدائيون ينحازون لها.

وما لنا نخشى القول بالأرواح والأشباح ونعتبرها مجرد خرافات لا وجود لها بينما نحن نؤمن بالروحانيات فى نفس الوقت؟ أليس الغالبية من الناس يؤمنون بوجود أرواح تساندهم فى حياتهم أو ملائكة تحرسهم وشياطين تناوئهم؟ فنحن إذن ما نزال غارقين حتى آذاننا فى المعتقدات الروحانية. وإذا كانت الجماهير التى تقطن المدن قد انصرفت فى الغالب عن مشاهدة الأشباح من حولها ، فهل هذا هو نفس حال القرويين والقبائل الرحل؟ إنك إذا جالست أولئك الذين لم يقعوا تحت تأثير المدينة الصاخبة ، فإنهم سوف يقولون لك أشياء كثيرة عن الأشباح.

فالبدائيون فى مشاهدتهم ومعايشتهم للأشباح لم يكونوا إذن فى عزلة عن واقعنا الحاضر. بل كانوا أقرب إلى الطبيعة والجبلة الأصيلة للإنسان. ولسنا نغالى إذا قلنا إن البدائيين كانوا الأصل وكانوا حائزين على مواهب روحية نعتبرها اليوم مواهب خارقة إذا كنا نؤمن بالروحانيات. أو نعتبرها خرافات إذا كنا ماديين وخلوا من الروحانية.

الخوف من الآلهة :

لا نستطيع أن نفصل فصلا تاما فى حياة البدائيين فيما بين الأشباح وبين الآلهة. ذلك أن البعض من تلك الأشباح التى كانت تتراءى لهم كانت فى نفس الوقت آلهة يعبدونها ويقدمون إليها القرابين. وأكثر من هذا فإن آلهتهم كانت فى الأغلب متصلة بحياتهم من قريب أو من بعيد. فالكثير من تلك الآلهة كانت أناسيا يعيشون بين ظهرانيهم. وبعد أن ماتوا استحالوا من كونهم بشرا إلى كونهم آلهة. ناهيك عن أن بعض الظواهر أو الموجودات الطبيعية كانت ضمن الآلهة. من ذلك مثلا الشمس والجبل والبحر ونحوها.

والآلهة عند البدائيين تنقسم إلى قسمين رئيسيين : آلهة لها صفة التجريد. فهى غير متلبسة

بجسد أو بأية هيئة مادية محددة . وآلهة ترتبط بحاسة أو أكثر من الحواس الخمس . فالشمس مثلا تشاهد ولكنها الهة تريد وترضى وتغضب وتفيد وتضر . بيد أن الآلهة غير المحسوسة كأرواح الأجداد كانت فى وقت ما مرئية وتعيش فى العالم وتخالط الناس. ومعنى هذا فى الواقع أن الآلهة عند البدائيين ترتبط بالواقع المحسوس ارتباطا مباشرا .

ثم إن الآلهة عند البدائيين كانت فى علاقاتها بالناس تؤثر إما بالنفع وإما بالضرر . وتأثيرها لا يعدو أن يكون تأثيرا دنيويا آنيا . فهى لا ترجئ النفع تجزله أو الضرر تؤجله للآخرة فى يوم الحساب . بل هى تتخذ القرار مباشرة أو بعد حين حسبا يتراءى لها ووفق مشيئتها . المهم أن المكافأة والعقاب اللذين كانت تقدمها الآلهة للبشر هما مكافأة أو عقاب محسوسان ويرتبطان بالحياة هنا على الأرض .

وعلاقة البدائى بآلهته هى علاقة خوف وتقرب . فإذا ما أجزلت الآلهة العطاء للإنسان . فإن عليه أن يقدم البديل عن ذلك . وإذا ما أخطأ الإنسان فى حق الآلهة . فإن عليه أن يقدم البديل أو العوض أيضا استرضاء لتلك الآلهة . فإذا ما حصل البدائى على القنص المناسب . **فإن عليه أن يقدم منه جانبًا للآلهة حتى لا تغضب فلا يستطيع بعد هذا أن يحصل على شيء من الفرائس إذا ما خرج إبتغاء للقنص . وإذا لم يقدم البدائى ما يجب تقديمه ، أو إذا هو قصر فى واجب مقدس للآلهة فإن عليه أن يعوض تلك الآلهة عن تقصيره وذلك بأن يقدم الأضحية المناسبة .**

والواقع أن المعتقدات الدينية قد ظهرت قبل ظهور فئة رجال الدين . ولكن ظهور رجال الدين كان ضرورة حتمية لتنظيم الطقوس الدينية . ولتنظيم مايقدم من هدايا أو اضحيات . وما أن ظهر رجال الدين حتى أخذت المعتقدات الدينية فى التكثر والتعقد . فصارت هناك طقوس محددة بالتفصيل يجب على البدائى أن يؤديها . ثم أخذ رجال الدين أيضا فى تحديد ما يجب تقديمه من ذبائح فى الأوقات المناسبة . وهنا ظهرت نوعية جديدة من الذبائح التى أخذ رجال الدين فى تحديد أوصافها وملامحها والمناسبات التى تقدم خلالها . تلك الذبائح هى الذبائح البشرية .

ومن هنا صارت لرجال الدين سطوة هائلة على عقول وقلوب أبناء القبائل البدائية . وصاروا مرهوبى الجانب يخشى الناس بأسهم ويتقربون منهم برعدة وتهيب وتشكك . بيد أن رجال الدين البدائيين قد أخذوا فى وضع القواعد الموضوعية التى تبدو وكأنها خارجة عن إرادتهم . وأن اختيار الأضحية البشرية ليس فى أيديهم . بل هو فى أيدى الآلهة . فتلك الآلهة هى التى تقوم باختيار الأفراد الذين ترغب فى التضحية لها بهم وذبحهم ثم حرق جثثهم على

مذابح كانت تقام خصيصا لإحراق الأضحيات من الحيوانات والآدميين عليها . وربما كان رجال الدين البدائيون يلجأون فى إختيار الأضحية البشرية بالقرعة يلقونها بعد القيام بمجموعة من الطقوس .

ولقد أخذ رجال الدين البدائيون فى إفهام الناس من حولهم أنه لشرف عظيم أن يقدم المرء ذبيحة وأن تحرق جثته بعد أن تكون الآلهة قد اختارته دون سائر أترابه من أبناء جلدته . ذلك أن اختيار الأضحية يجب أن يكون بعناية شديدة سواء كانت الذبيحة حيوانية أم بشرية . من هنا فإن الأضحية البشرية التى كانت تقدم كان يشترط فيها أن تكون من العناصر الممتازة . لم تكن الأضحية المقدمة من الشيوخ مثلا . فإذا كانت من الإناث ، فلا بد أن تكون من أجمل بنات القبيلة . وإذا كانت من الفتيان ، فلا بد أن يكون الفتى من أحسنهم قواما وأشجعهم قلبا وأفضلهم أخلاقا .

ولعلنا نقول إن الأضحية فى القبائل البدائية من أبناء وبنات القبيلة كانت فداء من أجل المجموعة فالواحد يموت من أجل الجميع . ولذا فإن شدة إيمان أبناء القبيلة بجماعية قبيلتهم كانت تدفع بهم إلى تقبل هذه العملية الخطيرة برحابة صدر وبصبر منقطع النظير . فلم يكن الشاب أو الفتاة اللذان وقع عليهما الاختيار لكى يقدما للذبح يثوران أو يبديان المقاومة ، بل كانا يستسلمان لمشيئة الآلهة ولكن بخوف دفين قاتل للنفس قبل أن يكون قاتلاً للجسد .

ولا شك أن ذوى الأضحية كانوا ينتحبون انتحابا ويتفجعون تفجعاً عندما ينمى إلى أسماعهم نبأ وقوع القرعة على أحد أبنائهم أو على إحدى بناتهم .وإنه ليوم رهيب ذلك اليوم الذى كانت تقام فيه الطقوس المتعلقة بتقديم الأضحية البشرية.كانت المناحات تقام كما ظهر بالقبيلة شخصيات تقول شعرا أو ما يشبه الشعر صار بمثابة قوالب لفظية بعد ذلك تلاك فى تلك المناسبات .

وكانت الآلهة لدى القبائل البدائية أصحاب نفوذ محدود بحدود أماكن معينة ، أو بحدود وظائف معينة . فسلطة الآلهة لا تتعدى مناطقها التى تعبد فيها . وكذا فإن إله القوة مثلا يختص بالقوة فقط ولا يختص بالأمور المتعلقة بالجمال مثلا . من هنا فإن سلطة كل إله كانت محدودة ، ولم يعرف البدائيون الإله الواحد كلى القدرة وكلى المعرفة . ولذا فإن الخوف الذى كان يبديه البدائيون من الآلهة لم يكن خوفا مطلقا ، بل كان خوفا نسبيا .

ولعل من عوامل التخفف من الخوف بتجاه الآلهة ما كان ينشب بينها من معارك أسطورية . وطبيعى أن كل فريق متعبد لأحد الآلهة كان ينضم إلى صفه ويحارب أتباع الإله الخصم . بيد أن القبيلة الواحدة كانت فى الغالب منسجمة فى عبادتها . ولكن الموقف كان مبايناً

بالنسبة للقبائل الأخرى . فارتبط قوام كل قبيلة بالآلهة التى تقوم بعبادتها . وفى كل مرة كانت تتفوق فيها إحدى القبائل على غيرها من قبائل . فإن الغلبة كانت تعزى إلى تعضيد الآلهة الخاصة بها وليس إلى شجاعة وبسالة أفراد القبيلة أو قادتها العسكريين. بيد أن القائد النابغة المغوار كان يستحيل إلى إله عندما يستولى على أزمة قلوب أبناء القبيلة . وكان رجال الدين أو الأدباء أصحاب القدرة على التخيل والتعبير يحوكون حول الآله الجديد قصصا تنم على شجاعة منقطعة النظير .

وبعد أن يموت القائد المؤله . فإن رجال الدين والمعجبين به كانوا يختلقون قصصا أو أساطير حول أعمال خارقة قام بها . فهو يهب خيرات جزيلة . أو يوقع العقوبات الصارمة على الطائشين أو على أولئك الذين يقللون من شأنه أو يستخفون بقدرته . وكلما مرت السنون فإن القصص التى تكون قد حيكت حول البطل المؤله قد ازدادت وتضخمت . ومن ثم فإن المتعبدين له يزدادون استمساكا به وتقربا إليه وخوفا من غضبه عليهم .

ولقد عمد رجال الدين وأتباعهم فى القبيلة إلى اجتلاب الثراء لأنفسهم عن طريق النذر التى يقوم الأفراد بنذرها . والنذر عبارة عن عقد شفوى يعقد بين شخص ما وشخص الآله أو أشخاص الآلهة . فإذا ما قام الإله أو الآلهة بالوفاء بالمطلوب فى النذر ؛ فإن الشخص الذى عقد العقد الشفوى أو الذى عقده بين يدى رجل الدين يكون ملزما بالوفاء بما وعد به . فهو يقدم من ممتلكاته إلى رجل الدين . والنذر قد يكون لجلب فائدة ، كما أنه قد يكون لايقاع ضرر على عدو . ولقد يكون رجال الدين فى القبيلة قد استعانوا بالتخويف من إنتقام الآله أو الآلهة إذا ما خنث الناذر بنذره ، ولم يقدم ما سبق أن وعد به .

وقام رجال الدين أيضا باعلان المحرمات التى يفرضها الإله أو الآلهة على أفراد القبيلة . وليس من الضرورى أن يكون التحريم وجيها أو له مغزى أو فائدة . بل إنه قد يكون ضارا أو غير مفيد على الأقل . فلقد يكون متعلقا بنوع معين من الطعام . أو قد يكون تحريما باللامساس بعدم الأقتراب من مكان أو أمكنة معينة . وقصر الأقتراب منها على رجال الدين . وكذا فإن بعض الأدوات المقدسة صار من المحرم على غير رجال الدين بالقبيلة استخدامها . فهى تستخدم لأهداف مقدسة . من ذلك مثلا عدم لمس السكين المستخدم فى نحر الذبائح أو ذبح الآدميين على مذبح الأضحيات وطبيعى أن ترتبط المحرمات بالخوف من الاعتداء على حرماتها أو حتى مجرد الاقتراب منها .

الخوف من السحر :

للسحر معنيان : المعنى الأول إيجابى نفعى حيث يستطيع الساحر أن يحصل على خير أو أن يتسبب فى خير يصيب شخصا آخر بوسائل سحرية . أما المعنى الثانى فهو معنى سلبى ضار حيث يستطيع الساحر أن يؤذى شخصا أو مجموعة من الأشخاص بالوسائل السحرية .

والسحر هو استخدام لقوى غيبية لتحقيق المآرب . فالساحر الذى يعالج أحد المرضى بالسحر لا يستخدم وسائل الطب المعروفة التى تعتمد على مبدأ السبب والنتيجة . بل يستخدم قوى شيطانية معينة يستحضرها بمجموعة من التعاويذ والأشياء التى يتطلب السحر استخدامها فى أثناء ترديد التعاويذ . فالساحر يردد التعاويذ أو الأقوال السحرية وفى أثناء ذلك يستخدم بخورا ويحرق أشياء معينة ويأتى بحركات مرسومة ومحددة فى الفنون السحرية .

وينقسم السحر إلى نوعين أساسيين : النوع الأول يتم عن طريق المشابهة . فلقد يقوم الساحر بعمل تمثال أو رسم شبيه بالشخص الذى يراد حوك السحر ضده . ثم يقوم بحرق التمثال أو الصورة المرسومة أو كى التمثال أو حرق الصورة فى أماكن معينة فتحدث نفس الآثار – حسب قول المؤمنين بالسحر – فى الشخص الذى يوجه السحر ضده .

أما النوع الثانى من السحر فإنه يتم بأخذ شئ من متعلقات الشخص الذى يراد حوك السحر ضده . أو أخذ جزء من شعره أو من قلامة أظافره أو قطعة من ملابسه تكون فيها رائحته ثم تمارس الطقوس السحرية وتقرأ العبارات السحرية فيصاب صاحب تلك المتعلقات بالأذى .

والواقع أن الإيمان بفاعلية السحر شائعة حتى اليوم لدى كثير من الناس . وانه لأكثر شيوعيا فى الريف ولدى القبائل البدائية . ومن الطبيعى أن يستشعر الناس المؤمنون بفاعلية السحر الخوف الشديد من أن يصيبهم مكروه بفعل السحر يحاك ضدهم .

والحسد يعتبر أيضا ضمن السحر . بيد أن الحسد لا يحدث نتيجة فعل مقصود فى أغلب الأحيان . بل يتم عن غير قصد من جانب الحاسد . ولقد يفسر الحسد علميا بأنه طاقة معينة لم يكشف النقاب عنها بعد تصدر من أعصاب معينة بالعين أو بمراكز الإبصار بالمخ فتصيب الشخص أو الحيوان أو الشىء المرئى المحسود بأذى ، والواقع أن الكثير جداً من المتحضرين فى معظم بلاد العالم يؤمنون بالحسد ويخشون تأثير عين الحسود فيهم . فهم لذلك يتخذون احتياطات معينة ضد عين الحسود كأن يرتدوا أشياء معينة أو كان يعلقوا على الأبواب حدوة حصان أو نحو ذلك من أشياء يعتقدون أنها تقيهم شر الحسد .

وفى القبائل البدائية كان الفاصل فيما بين السحر والدين غير واضح . فرجل الدين كان فى

الأغلب هو الساحر . وكان الساحر هو فى الأغلب رجل الدين . ذلك أن الدين لدى القبائل البدائية كان دينا حسيا يعتمد على المنفعة تطلب وعلى الأذى يجتنب . ويبدو أن الإنسان البدائى لم يكن يقسم الكائنات الغيبية إلى نوعين : نوع قدسى ونوع آخر شيطانى ، بل كان ينظر إلى الكائنات الروحية باعتبارها فئة واحدة تنفع وتضر . ولقد ظل منهج الدين ومنهج السحر واحدا حتى بعد تمايز الدين من السحر . فرجل الدين والساحر يتوسلان **للتقرب** من القوى الروحية بنفس الطرائق مع اختلاف المقاصد . ناهيك عن أن رجل الدين يترك الخيار للقوى الروحية الخيرة لكى تمنح أو تمنع . بينما نجد أن الساحر يسيطر على قوى الشر ويلزمها بأوامره فترضخ له وتوقع الأذى على من يطلب الساحر الأذى يوقع عليهم .

ولقد احتل رجل الدين أو الساحر مكانة ممتازة فى أنظار أبناء القبائل البدائية . وكانت المهابة تحيطه ويستشعر الجميع الخوف منه حتى لا يؤذيهم إذا ما غضب عليهم . وكانت خشيتهم منه لأنهم اعتقدوا أنه يستطيع أن يمنع عنهم الخير إذا ما أراد ذلك ، كما أنه يستطيع أن يوقع عليهم الشر إذا ما انتوى ذلك وقد امتلأ غيظا منهم وكرها لهم .

والواقع أن خوف البدائيين من الساحر كان يتخذ مجموعة من المظاهر التى نستطيع تلخيصها فيما يلى :

أولا -- مظاهر الإحترام الزائد عن الحد والمشوب بالخوف والخشوع الكامل . من ذلك مثلا الركوع أمام الساحر وتقبيل قدميه ويديه والتبرك به أو بتعبير أدق التمسح فيه حتى يكتسب المرء حصانه من سحره . ونحو ذلك من مظاهر التبجيل المشوب بالخوف والارتعاد .

ثانيا – تقديم الهدايا إلى الساحر وخاصة ما كان متعلقا بالمأكل الفاخر والملبس القشيب فى المناسبات المتباينة وعندما يقصد الشخص مقر الساحر لكى يجلب له خيرا أو لكى يوقع شرا على عدو له .

ثالثا – الانصياع لرغبات الساحر المتباينة بما فى ذلك الرغبات الجنسية . ففى القبائل البدائية تكون للساحر سطوة على أجساد الأهلين . فبمقدوره أن يعتدى على الأعراض بينما يكون الآباء والأمهات فى خوف شديد من بطشه السحرى إذا هم لم يرضخوا له ويقدموا إليه الضحية من بناتهم وهم صاغرين مستسلمين . وفى بعض القبائل تكون عادة تقديم البنات العذارى إلى رئيس القبيلة أو إلى رجل الدين أو الساحر قبل أن يتم تزوجهن غير مستهجنة . بل تكون هى القاعدة المتبعة فى مراسم الزواج الطبيعية .

رابعاً – الخروج عن العادات المتبعة فى الحياة اليومية ، كأن يطلب الساحر من الشخص الذى يقصده لعمل السحر ضد عدو له أن يأكل لحم حيوان يكرهه أو تقشعر الأبدان لدى مشاهدة

لحمه وهو يطهى كأن يطلب الساحر من ذلك الشخص أن يأكل لحم ثعلب أو غراب أو نحو ذلك من حيوانات أو طيور مستكرهة لحومها .

خامسا – الانصياع لأوامر الساحر التى تبدو وكأنها عقوبات بدنية مهينة للمرء . من ذلك أن يستذل الشخص الذى حيك السحر ضده بأن يركع أمام باب الساحر عدة ساعات حتى يرقق قلبه ويلغى السحر الذى عمله ضده .

ولقد يتخذ الأهلون بالقبائل البدائية مجموعة من الذرائع التى يحاربون بها الخوف يعتمل بدخائلهم من الساحر وما يحوكه من سحر ضدهم . ولعلنا نلخص تلك الذرائع فيما يلى :

أولا – الاستعانة بساحر يعتقدون أن لديه قوة سحرية وقدرة أعظم فى حوك السحر من ذلك الساحر الذى حاك السحر وأراد الإضرار بهم بما اتخذه من إجراءات سحرية .فثمة ساحر أقوى من ساحر آخر ، ولكل ساحر وسائله المغايرة للوسائل التى يتذرع بها غيره . وكل ساحر يرغب فى أن يجذب إليه أكبر عدد من الزبائن ، ومن ثم فإنه يزعم لنفسه أنه أقوى من أى ساحر آخر .

ثانيا – اللجوء إلى وسائل عنيفة مع الساحر.من ذلك قتله أو قتل أحد أبنائه أو حوك سحر ضده بطريق ساحر آخر . وطبيعى أن يتم قتل الساحر غيلة وقبل أن ينتبه فيتخذ الإجراءات السحرية التى يستطيع بواسطتها أن يوقع الضرر على المعتدى عليه . فعنصر المفاجأة ضرورى إذن لدى الهجوم على الساحر لقتله .

ثالثا – البحث عن أشياء يعتقد البدائى أنها استخدمت فى حوك السحر ضده والقيام بحرقها وابادتها . ولقد يستعين البدائى بساحر يدله على الأماكن التى خبئت فيها الأشياء التى استخدمت فى السحر ، فيحضرها ويقوم ذلك الساحر الآخر بفك أسرارها ثم يقوم بحرقها بطريقة معينة وبمصاحبة كلام سحرى يلغى فاعلية السحر الأصلى .

رابعا – تقديم الأضحيات وعمل النذور وتلاوة بعض الأدعيات أمام الآلهة حتى يتم شجب فاعلية السحر الذى تم حوكه ضد المرء .

خامسا – تغيير مكان الاقامة وذلك بالسفر بعيدا عن مسقط الرأس . فالاعتَقاد قديما كان مؤداه أن السحر يرتبط بالمكان . فإذا ما فارق الشخص المكان الذى عمل فيه السحر فإن فاعليته تضعف أو حتى لقد تتلاشى تماما . بيد أن على الشخص المسحور أن يتخلص من جميع متعلقاته القديمة وأن يرتدى ملابس جديدة تماما ، وألا يصطحب معه أشياء من ممتلكاته التى يظن أنها تحمل بعض الأعمال السحرية .

والواقع أن البدائى كان يخشى من الاتيان ببعض التصرفات التى تحمل فى ذاتها ضررا سحريا يصيبه أو يصيب بيته . ولعلنا نذكر فى هذا المقام بعضا من تلك التصرفات التى كان

البدائى يجتنب الاتيان بها أو ممارستها . وهى على النحو التالى :

أولا – مشاهدة بومة بالليل أو سماع صوت نعاقها أو مشاهدة قط أسود بالليل فإذا حدث ذلك ورأى الشخص بومة أو سمع نعاقها أو شاهد قطا أسود بالليل . فإن عليه أن يمارس طقوسا معينة تبطل فعل السحر الذى يتأتى عن مشاهدة البومة أو سماع صوتها أو مشاهدة القط الأسود .

ثانيا – دخول الدار بالقدم اليسرى . فإن ذلك يجلب النحس إلى البيت . وكذا عدم الخطو فوق قشر البيض . وعدم ملامسة أى شئ يحمل بقايا من مخاض المرأة . فالبدائى كان يتحاشى أشياء كثيرة يخشاها لأنها تحمل له السحر بمجرد ملامستها أو الاقتراب منها .



ما الذى يلقى بالخوف فى قلب الطفل ؟

الفصل الخامس
الخوف فى الطفولة

الخوف من الأشكال الغريبة :

زعمنا فى صدر هذا الكتاب أننا نرث مخاوفنا عن أسلافنا القريبين وعن أسلافنا البعيدين ، وأن مايسمى بغريزة الخوف إن هو فى الواقع سوى الركامات الخبرية المتوارثة والمتبلورة فى كياننا النفسى . فنحن ورثة نوعنا بكل ما تتضمنه كلمة « وراثة » من معنى . فالوارثة فى رأينا ليست وراثة بيولوجية فحسب ، بل هى وراثة جسمنفسية . ولعلنا نضيف إلى هذا أن الخوف ليس هو الشىء الذى يكتسبه الطفل مما يحيط به فى عالمه الجديد بعد الميلاد ، بل ان الطمأنينة هى التى يحظى باكتسابها . وبتعبير آخر فان العالم كله يكون مخيفا للطفل بعد ميلاده وبعد أن يدرك الأشياء من حوله .

فالطفولة إذن تتسم بالخوف المطلق . ولكن هل يستمر حال الطفل خائفاً من كل شىء يحيط به ؟ الواقع أن لا . فالأشياء التى يطمئن إليها الطفل تزداد عدداً ونطاقاً بمساعدة العوامل التربوية المتباينة . فكلما نجحت المؤسسات التربوية التى تكفل للطفل إشاعة جو الطمأنينة من حوله ، فإن رقعة الطمأنينة فى حياته تتسع ، بينما تتقلص رقعة الخوف .

بيد أن الطبع يغلب التطبع كما يقولون . فالأصل فى حياة الطفولة هو الخوف ، والمكتسب هو الطمأنينة . من هنا فإن من السهولة بمكان العمل على ملاشاة الطمأنينة من سطح الأشياء التى كان يخاف الطفل منها ، وبذا ينكشف الغطاء ويتعرى الغلاف البيئى التربوى الدخيل على حياة الطفل . فالتربية الصحيحة هى تلك التربية التى تدعم الطمأنينة فى حياة الطفولة وتحافظ على نطاقها الذى تسنى تحقيقه فى نفسيته .

ونستطيع القول بأن كل الأشياء التى تحيط بالطفل فى بداية حياته تكون ذات أشكال غريبة بكل ما تتضمنه كلمة « أشكال » من معان . فنحن نتوسع فى استخدام هذه الكلمة لكى تتضمن الأشكال المرئية والصيغ السمعية والصيغ اللمسية والصيغ الشمسية وأخيراً الصيغ الذوقية . فكل شىء – مهما كان – يعد مخيفا للطفل فى بداية حياته لأنه يتضمن شكلا غريبا عليه . ولكن ما أن يعتاد الطفل على أحد الأشكال حتى يطمئن إليه ولايخشاه . بيد أن تلك الطمأنينة تكون مشروطة بشرط أساسى هو ثبات ذلك الشىء من حيث صيغته أو شكله .

فإذا ما تغير الشكل أو تباينت الصيغة . فإن مسحة الطمائنينة التى اكتنفت ذلك الشىء سرعان ما تتلاشى ويعود الخوف مسيطرا على وجدان الطفل منه كما كان حاله قبلا .

فالأم مثلا – وهى الشخصية التى صار الطفل مطمئنا إليها محبا لها – إذا ما غطت وجهها أو حتى إذا هى ارتدت عصابة رأس تجعلها غير مألوفة فى مرآها له . فإن الخوف يأخذ به كل مأخذ . وحتى بعد أن تخلع العصابة من وفوق رأسها **وتأخذ** فى احتضانه وتقبيله ، فانه يظل لفترة وهو يخشاها ولايكاد يطمئن إليها . ولكن استمرار **حدبها** عليه والتأكيد له بأن شيئا لم يتغير فى شخصيتها يعيد إليه طمأنينته إليها . وهى طمأنينة يمكن أن تتزلزل فى أى وقت اذا ما غيرت الأم شكلها أو صوتها أو أى شىء يتعلق بها .

والواقع أن موقفنا هنا من الخوف بازاء الطفولة يتباين تباينا بعيد المدى عما هو شائع على الألسنة والأقلام . فبينما نجد أن الشائع هو أن الطمأنينة هى الطبع . وأن الخوف هو التطبع . أو بتعبير آخر النظر إلى الطمأنينة باعتبار أنها الفطرة بينما ينظر إلى الخوف باعتبار أنه الاكتساب . فإننا عكسنا المسالة وجعلنا الخوف هو الطبع أو الفطرة . بينما جعلنا الطمأنينة هى التطبع أو الاكتساب . وطالما أننا اتخذنا موقفا غير مألوف ومباينا لما هو شائع إذن يتعين علينا أن ندافع عن موقفنا وأن نبرهن على صحته بأن نسوق البراهين التالية :

أولا – إن الأشياء التى يخاف منها الطفل كثيرا ما تكون جديدة عليه كل الجدة ولا تكون قد ارتبطت فى حياته بأشياء مخيفة بحيث يمكن تفسير خوف الطفل منها بالفعل المنعكس الشرطى **conditioning** أعنى انتقال الخوف بالمجاورة والتكرار من شىء يخاف الطفل منه إلى شىء لم يكن يخاف منه كأن يخاف التلميذ من صوت الجرس لأنه يرتبط بضرب المدرس له بالحصة . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن الأصل فى حياة الطفل هو الخوف وليس الطمأنينة . ولو كانت الطمأنينة هى الأصل وليس الخوف لما كان الطفل الصغير يخاف من الأشياء التى لم يسبق له مشاهدتها أو سماعها . وهى الأشياء التى لم ترتبط فى خبراته بواقع نفسى .

ثانيا – لو أن الطمأنينة كانت هى الأصل والأساس فى حياة الطفل منذ ميلاده وليس الخوف لما كان من السهل ملاشاة الطمأنينة فى حالة الأم التى ذكرناها قبلا بمجرد تلحف تلك الأم بعصابة على وجهها . ولما كانت فى حاجة إلى بذل جهد كبير لإعادة الطمأنينة إلى نفسية الطفل بازائها . إننا نستطيع أن نقول إن مسحة الطمأنينة بمثابة غلاف يغطى الحقيقة النفسية لدى الطفل وهى أنه يخاف من كل شىء بادىء ذى بدء . ولكن المكتسبات التربوية تجعله يتطبع بتطبع مكتسب هو حالة الطمأنينة تجاه تلك الشخصية التى هى أمه .

ثالثا – ان ما يسميه علماء النفس بغريزة الخوف لهو أكبر شاهد على أن جبلة الطفولة قد ارتكزت على الخوف وليس على الطمأنينة . ولو كان العكس هو الصحيح . وكانت الطمأنينة هى الأساس أو الطبع أو الجبلة . لكنا نسمع عن غريزة يطلق عليها علماء النفس اسم « غريزة الطمأنينة » يحلونها فى كتبهم وأبحاثهم محل « غريزة الخوف » .

رابعا –وواضح لأى شخص عايش ميلاد أى طفل وبواكير تربيته أنه يبدأ بالخوف ولا يبدأ بالطمأنينة . ولقد سبق لنا فى مكان آخر أن زعمنا أن الطفل لحظة ميلاده لايبكى فقط لتشغيل رئتيه . بل يبكى أيضا ككائن خائف . وإنك لتجد علماء النفس حديثا جدا يؤكدون أن المرحلة الجنينية التى يقضيها الطفل فى أحشاء أمه ليست مرحلة نمو جسمى فحسب . بل هى مرحلة نمو شخصية الطفل جسمياً ونفسيا أيضا . فما تكتسبة الأم من انفعالات وما تستشعره من أحاسيس وجدانية ينتقل إلى الجنين فى أحشائها وينمو مع نموه الجسمى .

خامسا – إذا كانت الطمأنينة هى الأصل فى حياة الطفولة والخوف هو الفرع . أو بتعبير آخر إذا كانت الطمأنينة هى الطبع والخوف هو التطبع . إذن لكنا نجد بعض الأطفال لايخافون على الإطلاق من شىء ، بل تكون حياتهم كلها دعة وطمأنينة . ولكن الواقع غير هذا حتى بالنسبة لأطفال الملوك وذوى الجاه وأبناء أولئك الذين يتخذون من التدليل مبدأ لهم فى تنشئة أبنائهم .. فالواقع ان جميع أولئك الأطفال يبدون أيضا الخوف من الكثير من الأشياء حتى وإن اتسعت رقعة الطمأنينة فى حياتهم مع استمرار معاملتهم بما يبعث فى نفوسهم الطمأنينة وذب الخوف عنهم ، أو بتعبير أدق معاملتهم بما يغطى المخاوف بطبقة رقيقة أو سميكة من الطمأنينة .

وفى المقابل فإننا نستطيع أن نقدم مجموعة سريعة من البراهين التى تدحض القول بأن الطمأنينة هى الأصل وأن الخوف هو الاكتساب على النحو التالى :

أولا – إن الأشياء والأشخاص والأصوات التى يطمئن إليها الطفل يجب أن تظل على هيئة ثابتة لا تتغير . فالوتيرة الواحدة والشكل المتطابق يجب أن يسما الأشياء والأشخاص . فإذا ما تغير صوت الأم أو الأب لسبب أو آخر . أو اذا أحدثا ذلك التغير فى صوتهما بقصد اللعب مع الطفل . فانه يبدى خوفا شديدا . فالتطابقية والاستمرارية والوتيرة الواحدة يجب أن تتلازم مع الشىء أو الشخص الذى اطمأن إليه الطفل . وهذا يؤكد أن الطمأنينة ليست فى طبيعة الطفل . لأنها لا تتوافر إلا بتوافر مواصفات معينة خارجية وموضوعية فى الأشياء والأشخاص .

ثانيا – ان الطمأنينة التى يكتسبها الطفل نتيجة ألفته بالأشياء ليست طمأنينة مستمرة دائبة . بل هى طمأنينة مؤقتة زائلة. وشاهد ذلك أن الطفل الذى يطمئن إلى أمه أو إلى أبيه سرعان ما يخاف منهما شر خوف إذا ما قلبا له ظهر المجن وكشرا عن أنيابهما . فما شاع فى نفسية الطفل من طمأنينة قبالتهما إنما هو شيوع مؤقت بل هو شيوع متزعزع غير ثابت . فالأصل اذن فى حياة الطفل هو الخوف منهما ومن غيرهما . بل والخوف من الكون كله من حوله ، وأن الطمأنينة التى يكتسبها إنما هى طمأنينة عارضة وسطحية وغير مستقرة .

ثالثا – أخيرا فإن ما يبديه الطفل من طمأنينة بازاء الأشكال والصيغ البيئية المحيطة به يكون مشوبا فى نفس الوقت بالخوف والحذر . وشاهد ذلك أنه يكون على استعداد فورى للانقلاب من حال الطمأنينة السطحى إلى حال الخوف العارم والبادى للعيان .

الخوف من بعض الأصوات :

قلنا فى الموضوع السابق إن الأصل فى حياة الطفل هو الخوف ، وأن الطمأنينة هى الخبرة المكتسبة . وإذا صح زعمنا هذا فتكون جميع الأصوات إذن مدعاة لإثارة الخوف عند الطفل الوليد . ولكن نفس ذلك الطفل الوليد يكون مستعدا لأن يكون على ألفة بجانب كبير جدا من الأصوات . ولعل أول صوت يجلب الطمأنينة إلى قلب الطفل هو صوت أمه . بيد أننا نعتقد أن الطمأنينة التى يحسها الطفل لدى سماعه لصوت أمه ليست هى الأصل ، أو ليست هى الفطرة المغروزة فيه . بل إن تلك الطمأنينة تكتسب اكتسابا بعد أن يكون الخوف قد سبقها إليه . فهو بطبعه يخاف من جميع الأصوات بما فى ذلك صوت أمه . ولكن حيث ان هناك ارتباطاً شرطيا فيما بين اللذة يجتنيها الطفل الوليد الرضيع من ثدى الأم وبين صوتها ، فإن ذلك الصوت يكتسب بالتالى نغمة مواتية لها فيجد فيها أمنه وأمانه وطمأنينته .

بيد أن الأم التى يبعث صوتها الطمأنينة إلى قلب الطفل هى أيضا صاحبة الأصوات الأخرى التى تثير مخاوفه . فعندما تصرخ الأم فى وجه طفلها – وهو مالم يكتسب فى أذنيه حبا وطمأنينة – فإنه يصير صريعاً للخوف مرة أخرى بغير أن يكون لذلك الصوت أثر مهدئ فى قلبه . إذن فثمة مجموعة من الأصوات تصدرها الأم إلى طفلها وليست جميع تلك الأصوات يكون قد اكتسب مسحة الطمأنينة ، بل يظل كثير منها على حاله الأصلى من إشاعة الخوف فى قلب الطفل .

وإذا كان هذا هو حال الطفل بازاء صوت أمه ، فإنه بالأولى بالنسبة لجميع أصوات المحيطين به . ولعلنا نقرر أن الأب الذى يكون فى الغالب فى انشغال بأعماله بعيدا عن البيت وبعيدا عن الطفل إنما يظل صوته على حاله بغير أن يكتسب سمة الطمأنينة يشيعها فى قلب

الابن . ولكن إذا كان الأب من أولئك الآباء الذين يبقون إلى جانب الطفل لساعات كثيرة فى اليوم الواحد ، فإن صوته يصيرا مألوفا لطفله ، وبالتالى فإن الخوف يتلاشى من قلبه إذا ما استمع إليه . بيد أن الأب – شأنه شأن الأم وشأنه شأن جميع المحيطين بالطفل – لديه مجموعة كبيرة من الأصوات وليس صوتا واحدا . فعندما يغضب الأب ويصيح ، فإن الطفل يخاف . وخوفه فى هذه الحالة دليل على أنه لم يعتد الاستماع إلى صياح ذلك الأب .

على أن هناك قانوناً عاما يجب ألا نغض عنه بالنسبة لعلاقة الصوت عموما بالخوف . فالصوت العالى يثير خوفا أكثر من الصوت المنخفض . وهذا القانون ينسحب على الأطفال والكبار جميعا ، بل إنه ينسحب أيضا بازاء الحيوانات ولعل تفسير هذا القانون يكمن فى أن الصوت العالى يشكل تهديدا فسيولوجيا مباشرا لحياة الإنسان والحيوان على السواء . فثمة درجة من إرتفاع الصوت تحدث عطبا فى طبلة الإذن من جهة ، وفى المراكز السمعية بالمخ من جهة أخرى . وثمة درجة من ارتفاع الصوت قد تحدث الموت لشدة تأثيرها بالتلف فى المخ .

ومن الطبيعى أن الكائن الحى – حيوانا كان أم إنسانا – يستشعر الخوف عندما يحس بالتهديد بالأذى أو حتى بالموت يطرق باب حياته . ولقد وجد أن الجنين فى بطن أمه يهتز فى تشنج عندما يسمع صوت فرقعة مفاجىء . فالصوت المرتفع يعد سببا فطريا لإحساس الإنسان فى جميع أعماره وحالاته بالخوف .

بيد أن قصة العلاقة بين الصوت والخوف فى حياة الطفل لا تنتهى عند هذا النوع من الصوت ، أعنى الصوت المرتفع . فلقد قلنا إن جميع الأصوات أيا كانت تشيع الخوف بداءة لدى الطفل ، وأن ما يصير على ألفة به يصير صوتا غير مخيف لدى استماعه إليه . والواقع أننا نحن الكبار لا نفلت من هذا القانون الذى تخضع له الطفولة . تخيل أنك سمعت صوتا فى شقتك – أى صوت بغض النظر عن طبقته – ولكنك لم تستطع ترجمته إلى صوت شىء تعرفه وعلى ألفة به . ماذا يحدث لك عندئذ ؟ لاشك أنك تبدأ فى الاحساس بالخوف يغطيك بعباءته . فإذا ما نجحت فى معرفة أو ترجمة ذلك الصوت فتقول مثلا إنه صوت صرصور مختبىء وراء النافذة ، فإنك تنجح عندئذ فى اشاعة الطمأنينة فى قلبك . ولكن افترض أنك لم توفق فى مثل هذه الترجمة ، وظللت فى حيرة لا تعرف مصدر الصوت أو الكائن الذى يصدره ، كما أنك لا تستطيع أن تجد له شبيها من بين الأصوات الكثيرة التى سبق لك الاستماع إليها وقد صرت ألفة بها . فماذا يكون حالك إذن ؟ لاشك أن الخوف سوف يستبد بك تماما ، وربما يدفع بك ذلك الشعور الرهيب إلى الاستنجاد بالمحيطين بك من جيران أو أقرباء لكى يساعدوك على تبين طبيعة ذلك الصوت ومصدره ورده إلى أحد الأصوات التى تألفها ويألفونها

فإذا كان هذا هو حالك وأنت الشخص الراشد ، فإنه بالأولى يكون حال الطفل الصغير. من هنا فإننا نقول إن الطفولة التى تخلو من كل خبرة سابقة بالأصوات تخاف من جميع الأصوات . ولكن كلما اكتسبت خبرة بأحد الاصوات بحيث تستطيع ترجمة ما يصل إلى سمعها فى ضوئها ، فإن نطاق الطمأنينة تجاه الأصوات يتسع ولكن لايعنى هذا أن الطفل عندما يعجز عن ترجمة أحد الأصوات فى ضوء خبراته الصوتية السابقة ، أنه يحس بالطمأنينة لأنه سبق أن أحس بالاطمئنان تجاه بعضها . فكل صوت غريب على الطفل يحدث لديه إحساساً شديدا بالخوف .

فمهما اكتسب الطفل من خبرات صُوتية تجعله على ألفة ببعضها ، فإنه يظل يستشعر الخوف من أى صوت يخرج عن نطاق خبراته الصوتية التى اكتسبها . بيد أن هذا لايحول دون القول بأن الطفل لدى استماعه إلى أحد الأصوات الغريبة فإنه يحاول جاهدا رده إلى ما سبق معرفته والاطمئنان إليه . ولكنه إذا فشل فى هذا الصدد ، فإنه يرتمى عندئذ فى أحضان الخوف الذى يستبد به فيحاول الهرب بعيدا عن مصدر الخطر الصوتى .

وإلى جانب العاملين السابقين اللذين يحدثان الخوف فى قلب الطفل ، أعنى خوف الطفل من أى صوت لايكون على ألفة سابقة به ، وخوفه من الأصوات المرتفعة المفاجئة ، فاننا نضيف نوعا ثالثا من الأصوات التي تحدث الخوف لدى الطفل هو ما نسميه بالصوت الاشتراطى . وقد سبق أن ألمحنا إلى هذا النوع من الأصوات بمثل سقناه عن صوت جرس المدرسة الذى يخاف التلميذ لدى سماعه له لأنه ارتبط شرطيا فى ذهنه بضرب المدرس له .

ولقد يغالى بعض علماء النفس عندما يعتمدون فى تفسيرهم لمخاوف الطفولة على قانون الفعل المنعكس الشرطى وحده . ذلك أن هؤلاء العلماء يعتقدون خطأ أن الطفل يولد كصفحة بيضاء لم يكتب عليها أى شيء ، وأن ما يتلقاه من خبرات يحدد مخاوفه. بيد أننا خالفنا هذا الرأى بالبراهين التى سقناها قبلا مؤكدين أن الطفل يخاف من جميع الأصوات بغير استثناء ، وأنه يبدأ فى التخلص من بعض مخاوفه عندما يكتسب خبرات مطمئنة ببعض الأصوات فيألفها ويسمعها وهو مطمئن إلى سماعها .

والواقع أنه حتى بالنسبة لتلك الأصوات التى اكتسبت ألفة لدى الطفل بحيث لايعود يخاف من سماعه لها ، فإننا نجده يخاف من سماعها أحيانا إذا لم يحظ بالوقت الكافى لترجمة ما يسمعه فى ضوء خبراته السابقة . وهذا يفسر لنا لم يخاف الطفل – بل ولماذا نخاف نحن الكبار أيضا – إذا ما نادانا أحد الأصدقاء الذين ألفنا صوته فجأة بغير توقع . ومعنى هذا أن الطمأنينة يستشعرها الطفل تجاه بعض الأصوات ليست طمأنينة مطلقة ، بل هى طمأنينة مشروطة

بشرط ترجمة تلك الأصوات ترجمة صحيحة وقد حظيت بالوقت الكافى لاحداث تلك الترجمة بالمخ . فإذا لم يتوافر مثل هذا الشرط فان الطمأنينة التى اكتسبها الطفل تجاه ذلك الصوت تتلاشى إلى حين يسارع إلى ترجمة ما يستمع إليه من أصوات ويرده إلى ما سبق له أن ألفه منها .

على أنه ينبغى ألا يفهم من كلامنا هذا أننا نقلل من شأن الفعل المنعكس الشرطى فى إحداث الطمأنينة أو فى إحداث الخوف لدى الطفل من الأصوات . فكما أن من الممكن فى ضوء قانون المفعل المنعكس الشرطى جعل أحد الأصوات مثيرا للطمأنينة بسبب ربطه بصوت سبق أن اكتسب صفة الطمأنينة لدى الاستماع إليه ، كذا فإن من الممكن إحداث العكس فيكتسب الصوت تأثيرا مخيفا جدا بسبب ربطه بصوت آخر مخيف . وفى هذه الحالة الأخيرة فإننا نجد أن تأكيد الخوف فى حياة الطفل يتضاعف . فبالإضافة إلى كون الطفل يخاف بداءة من جميع الأصوات ، فان ذلك الخوف يتضاعف ويتأيد إذا ما ارتبط الصوت بصوت اكتسب طاقة خوف فى خبرة الطفل . والشأن هنا كشأن الجائع الذى يزداد جوعه جوعا عندما يشم رائحة طعام يحبه ويشتهيه .

الخوف من الوقوع :

قلنا إن الطبيعة الأصلية لدى الطفل الوليد تتسم بالخوف لا بالطمأنينة . فهو يخاف من كل شيء ويخاف من أى شكل ومن أى صوت . ونضيف هنا إلى مخاوفه نوعا ثالثا من المخاوف هو الخوف من الوقوع فى المكان. ويتبدى هذا الخوف لديه فى يقظته ونعاسه . ويظل هذا اللون من الخوف معتملا لديه طوال حياته. فالكبير يتعرض فى أثناء نعاسه العميق لخوف مفاجيء يصيبه نتيجة إحساسه وكأنه سيسقط أو كانه يسقط بالفعل إلى أسفل . ولكنه سرعان ما يستيقظ ويجد نفسه نائما على السرير فى مأمن من السقوط .

ولعلنا نتساءل : ما أصل هذا النوع من الخوف فى حياة الإنسان بعامة وفى حياة الطفل بخاصة ؟ إننا نعتقد – كما سبق أن ذكرنا – أن الطفل لا يولد صفحة بيضاء خالية من أى خبرات سابقة كما يعتقد أولئك الذين يذهبون إلى أن بداية تشكل حياة الطفل الوجدانية تبدأ بعد ميلاده فحسب ، وأن لاصلة بين ما مر فى خبرة الأسلاف القريبين والأسلاف البعدين من خبرات مخيفة وبين وما قد يعتور حياة الطفل من مخاوف . فنحن ذهبنا ونذهب إلى أن الطفولة ترث عن الأسلاف جميعا المقومات الجسمية وأيضا المقومات الوجدانية الانفعالية فيما يسمى بالغرائز . فما نسميه بغريزة الخوف لايعدو كونه محصلة خبرات الخوف التى مرت بأسلاف الإنسانية عبر ملايين السنين . فالغريزة هى ما ترسب فى أعماق اللاشعور الجمعى الإنسانى

متمثلا فيما يبديه كل طفل من غريزة تنم على الخوف . فما تتفتق عنه دخيلة الطفل من غريزة للخوف هى فى الواقع خبرات حفرية - إذا صح التعبير .

فكما أن الجيولوجى يرى تاريخ الكائنات الحية فى عينة متحجرة منها سواء كانت عينة نباتية أم كانت عينة حيوانية أم عينة بشرية ، كذا فان عالم النفس يرى تاريخ الانسانية كلها ، فيما يبديه الطفل من ألوان سلوكية ترمز إلى تلك الخبرات السلفية الطويلة وتتمثل فيما يسمى بالغرائز .

ولعل علماء النفس يفسرون الخوف من الوقوع فى ضوء تلك الخبرات المترامية فى البعد فى الزمان . فإذا صح ما نقرأه من أن أسلاف البشرية كانوا يسكنون على جذوع الأشجار هربا وتجنبا للوقوع إلى الأرض فتتلقفهم الحيوانات المفترسة وتأتى عليهم نهشا وعضا والتهاما ، فاننا نستطيع القول بأن الخوف من الوقوع هو فى الواقع إشارة إلى تلك الخبرة المتأصلة فى الجبلة البشرية والتى ما تزال تطل برأسها فى السلوك الإنسانى لماما وعندما يكون المرء فى حالة شبه لاشعورية أو فى حالة لاشعورية بالفعل .

ونستطيع أن نقول إن الإنسانية عبر تاريخها المترامى والمتنوع قد عانت بالفعل من حالة التعرض للخطر أو للموت بالفعل نتيجة الوقوع من إرتفاع عال إلى الأرض . ولم يكن ذلك الوقوع مقصورا على أولئك الذين وجدوا فى الأشجار ملجأ ومسكنا لهم خوفا من الوقوع إلى حيث الوحوش المفترسة ، بل كان أيضا حال سكان الجبال ومن تحتهم الوديان السحيقة ، بل إنه كان أيضا حال ساكنى الشواطىء حيث البحار الهائجة والتى تبعد قيعانها إلى مسافات سحقية بحيث إذا ما سقط فيها شخص فلا يدرى عنه أحد خبرا . ذلك أن الحيتان والأسماك الكبيرة ذات الأنياب الحادة تكون فى انتظاره لكى تجد فيه مبتغاها من طعام شهى المذاق .

واستمر حال الانسانية على هذا المنوال من الخوف من الوقوع ، بل إن السلاطين والملوك قد وجدوا ملهاتهم فى مشاهدة الأسرى والعصاة وكل من يخالف عن معتقداتهم وقد ألقى بهم من ارتفاع شاهق إلى جب للأسود أو للحيات حيث يجد من يلقى به من الارتفاع الشاهق نوعين من الخوف أحدهما الخوف من الوقوع من الارتفاع الشاهق ، والآخر من الوقوع بين أنيات الوحوش أو لدغات الحيات .

فلنا إذن أن نزعم أن الطفولة فى العصور الحديثة قد ورثت جميع الخبرات السلفية فتبديها فى اشكال متباينة رمزية فى الغالب . فخوف الطفل من الوقوع يتبدى على هيئة غريزة عامة غير محددة الملامح والسمات . فكل ما يخبره الطفل هو أنه يخاف من أن يقع . بيد أن ما يؤكد لنا ما نذهب إليه هنا من أن الطفولة قد ورثت مخاوف الأسلاف القريبين والأسلاف البعيدين هو

تلك العمومية والشمول اللذان تتبدى عليهما غريزة الخوف من الوقوع . فالطفل الذى لم يسبق له أن وقع من فوق السرير إلى الأرض يخاف أيضاً من الوقوع مثلما يخاف نظيره الذى مر بتلك الخبرة المؤلمة . فجميع الأطفال يخافون من الوقوع على الأرض .

ومن المؤكد أن القول بالغريزة بشكل مطلق بغير محاولة لتفسير ما يكمن وراءها من تاريخ بشرى طويل ، لهو قول غامض وميتافيزيقى . فمن غير المعقول إذن أن يكتفى بالقول بأن هذا السلوك أو ذاك إنما هو سلوك غريزى ثم نتوقف عند هذا الحد . إننا نحس بأن فروضا وتفسيرات يجب أن تقدم لتفسير معنى الغريزة . ونحن ذهبنا إلى هذا التفسير مفترضين أن الإنسان لا يرث جسمه فحسب ، بل هو يرث كل شىء مرت به البشرية منذ بداوتها ، بل وقبل ذلك فيما تقلبت عليه قبل ظهور الإنسان العاقل **homo sapiens**

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الصيغ الصريحة والرمزية التى يتبدى فيها الخوف من الوقوع لدى الأطفال . إننا نجد تلك الصيغ تتلخص فيما يلى :

أولا – إننا نلاحظ أن جميع الأطفال بغير استثناء تقريبا يحبون التمرجح بالمراجيح أيا كانت أشكالها وأنواعها . والطفل فى تأرجحه يبدى الخوف وهو يصرخ . ولكنه ما يفتأ يطالب الشخص الذى يشرف عليه فى لعبه أن يعيد الكرة ويجعله يتأرجح من جديد . وإن دل هذا على شىء ، فإنما يدل على أن غريزة الخوف من الوقوع تعتمل فى قلب الطفل ويرغب فى التعبير عنها ولكن بطريقة آمنة . فهو وإن كان يخاف فى أثناء تأرجحه ويبدى خوفه من الوقوع ، فإنه من جهة أخرى يجد أنه فى مأمن من الوقوع الفعلى . فهو إذن يقع بوجدانه ولا يقع بعقله ؛ أو بتعبير آخر إنه يقع بالإيهام ولايقع بالفعل . وهو يصرف طاقة الخوف وينفس عما كبت لديه من مخاوف موروثة عن أسلافه القريبين وأسلافه البعيدين عن طريق تأرجحه ذاك .

ثانيا – كلنا يعرف أن الطفل يغرق فى الضحك إذا ما شاهد أحد الأطفال الآخرين وهو يقع . ولعله يضحك أكثر إذا ما شاهد أحد الأقوياء الكبار وقد زلت قدمه وطرح أرضاً . فى هذه الحالة تحدث لديه عملية إسقاط . فبدل أن يقع الطفل نفسه – وهو أمر يخشاه ويرتعد منه – فانه يشاهد شخصا آخر بديلا عنه يلعب ذلك الدور . فالطفل هنا ينفس عن مخاوفة عن طريق تلك الشخصية البديلة التى وقعت نيابة عنه .

ثالثا – ويسير جنبا لجنب مع هذا التذاذ الطفل بمشاهدة المصارعة اليابانية وغيرها من مصارعات وألعاب خشنة يقع فيها أحد اللاعبين . فهنا يكون الشخص الذى يقع بديلا له ينفس بطريقه عن مخاوفه المكبوتة من الوقوع .

رابعا – ومن الخبرات المألوفة لنا جميعا ونتذكر حدوثها فى طفولتنا ما كنا نحلم به من سقوطنا من شاهق . ولعل بعض من كانوا يحيطون بنا من كبار كانوا يفسرون لنا ذلك الحلم بأنه إنذار لنا بالرسوب فى الامتحان . والواقع أن ذلك الحلم هو تعبير رمزى يقرب من التعبير الصريح عن خوفنا من الوقوع . فأخشى ما يخشاه الطفل أن يسقط من شاهق . وقد قلنا إن ذلك الخوف مكبوت فى دخائلنا فى لاشعورنا الجمعى الذى يرثه كل طفل وتتبدى فيه المخاوف التى عانى منها الأسلاف القريبون والأسلاف البعيدون .

خامسا – ويسير جنبا لجنب مع هذا الحلم حلم آخر هو حلم الطيران ثم الخوف من الوقوع فى أثناء عملية الطيران فى الحلم أو السقوط بالفعل كما يتراءى للنائم فى حلمه . فالطيران يشير فى الحلم إلى النجاة والتفوق والسيطرة على الطبيعة والتغلب على قوانينها التى تقيد حرية المرء وحركته . ولكن تلك السيطرة وهذا التغلب ما يفتأ أن يصاب بالتصدع عندما يجد الطفل نفسه وقد بدأ فى الترنح فى الفضاء . ثم أخذ فى السقوط من علو شاهق إلى الأرض . فمثل هذا الوقوع أو التهديد به إنما هو شاهد على اعتمال غريزة الخوف لديه ، أو بالتعبير الذى آثرناه مكبوتات الخوف التى انحبست فى نطاق الجبلة البشرية وقد أخذت تتوارثها وتضيف إليها جيلا بعد جيل . ولعلك إذا قمت بعمل إحصائية لتعرف بواسطتها مدى انتشار حلم الطيران والسقوط – وأيضا حلم السقوط من شاهق بغير طيران – فإنك سوف تذهل عندما تجد أن جميع الأطفال تقريبا يمرون بهذه الخبرة ويشاهدون نفس الحلم مما يؤكد أن جميع الأطفال قد ورثوا نفس الجبلة وما تحتويه من لاشعور مفعم بالمخاوف المتعلقة بالوقوع من أعلى إلى الأرض وما يتبع ذلك من تهديد بالموت .

الخوف من الألم :

أن يتألم الطفل شىء وأن يخاف من أن يتألم شىء آخر . فالشعور بالألم يرتبط بالدرجة الأولى بالناحية الجسمية ، أما الخوف من الألم فانه يرتبط بالدرجة الأولى بالناحية النفسية . ولعل أن الطفل يمر بالمرحلة الجسمية قبل أن يرتقع إلى المرحلة النفسية . فهو يختزن خبرات الألم التى مر بها أو قل إن تلك الخبرات الجسمية تنعكس على صفحات وجدانه وتترسب هناك بحيث تتأتى له حصيلة خبرية تتعلق بمفهوم الألم . فهو لا يحس فقط بالألم بل إنه يشكل له مفهوما فى ذهنه ، كما أن لاشعوره يختزن مجموعة من الرواسب النفسية المتعلقة بذلك القطاع من خبرته الوجدانية التى تتخذ لها مفهوما ذهنيا وجدانيا معينا .

بيد أن تلك الحصيلة الخبرية لدى الطفل لاتظل على حالها ، بل تتضخم عن طريق تفاعلها بعضها مع بعض وتستحدث مركبات خبرية على جانب أكبر من التعقد . وشأن خبرات الألم

كشأن جميع الخبرات الأخرى التي يتلقاها الطفل من العالم الخارجي . فما يتلقاه من خبرات من البيئة المحيطة به لايظل كما هو ، بل يتفاعل بعضه مع بعض بطريقة في غاية الدقة والتعقد . وينشأ عن هذا استحداث مركبات خبرية متباينة في الكيان النفسي للطفل بضمنها تلك المركبات الخبرية المتعلقة بالخوف .

ولا شك أن الخيال يلعب دورا هائلا لدى الطفل في استحداث تلك المركبات الخبرية الأليمة . فبالخيال يصير الصغير كبيرا ، ويصير قصير الأجل مستمرا ، ويصير المحتمل غير محتمل على الاطلاق . ومعنى هذا أن الخيال يعمل بصفة عامة على استحداث مركبات خبرية أليمة متضخمة ومستمرة في التضخم .

والواقع أن الخيال لايقتصر على تضخيم الألم ، بل إنه يلعب دورا بازائه خاصا بتكرار وقوعه . فالخبرة المؤلمة التي مر بها الطفل يمكن أن تتكرر عدة مرات كلما عمد خياله إلى ذلك . فهو ينهض من فراشه مذعورا لأنه يمر بنفس الخبرة المؤلمة أو مركباتها بينما يكون في أعماق نومه . فخياله ينشط في أثناء النوم عن طريق الأحلام التي يحركها وينسجها ذلك الخيال للطفل في منامه . وهل هناك من قوة تستطيع أن تلجم خيال الطفل في أثناء نعاسه ؟ انه يخضع لأحلامه كما يخضع لسلطان النعاس .

ويلعب التوقع دورا كبيرا لدى الطفل في الخوف من الألم . والتوقع هو درجة من درجات التنبؤ . إنه إحالة المستقبل الوشيك إلى حاضر آني . فالطفل في توقعه لشكة الابرة في ذراعه أو في إليته ، انما يتنبأ بالألم الذي سيقع له في ذلك الجزء المشكوك من جسده . وكذا فان التوقع المتعلق بتلك الشكة هو في الواقع إحالة ما سوف يحدث جسميا إلى واقع يحدث ذهنيا . فالطفل يتألم قبل وقوع الألم بالفعل . إنه يحيل الواقع المستقبلي إلى واقع راهن مع تجسيد وتضخيم ذلك الواقع المستقبلي إلى درجة أكبر من حقيقته .

وإذا نحن استمررنا في تناول المثل الخاص بخوف الطفل من الألم يحدث له نتيجة الشكة بالإبرة في ذراعه أو إليته ، فإننا نستطيع أن نتناول ذلك الألم من ثلاث زوايا زمانية . فهناك كما قلنا – الخوف التوقعي السابق على عملية إيلاج الإبرة في العضلة ، ثم هناك الزاوية الزمانية الثانية وهي الزاوية الآنية حيث يخاف الطفل في أثناء عملية الايلاج ذاتها . وأخيرا فان ثمة الزاوية الثالثة وهي الزاوية البَعْدية ، ونعني بها ذلك الخوف الذي ينشأ بعد الانتهاء من عملية الايلاج ذاتها .

أما عن الزاوية الأولى التوقعية – وهي الزاوية التي عرضنا لها قبلا – فاننا نستطيع أن نضيف إلى ماقلناه مايقوم الطفل بنسجه من أخيلة مستقبلية خاصة بما سوف يقع له . إنه في

الغالب لايكون واقعيا فيما سوف يقع له ، بل يكون صاحب خيال خصب . إنه يستمر فى تخيل الألم إلى درجة لانهائية . فهو لايستطيع أن يحد الألم يقع عليه بحدود معينة ، بل يطلقه إطلاقا لانهائيا . فخياله الخصب يسمح له بتلك اللآنهائية فى تخيل الألم . واذا أنت سألت الطفل عما يمكن أن يقع له فى اللحظات التالية عندما تشكه الإبرة فانه قد يجيبك بقوله إنه سوف يموت . والموت هو اللآنهائية التى يستطيع خيال الطفل أن يبحر فى لجتها ولا يصل إلى نهايتها .

وبالنسبة للزاوية الثانية – وهى الزاوية الآنية أعنى وقت ايلاج الإبرة فى جسم الطفل – فاننا نستطيع أن نجد فيها ما يلى :

أولا – إن الطفل يضيف خلال شكه بالابرة الآماً نفسية مريرة تفوق عدة مرات آلامه الجسمية البسيطة فى الواقع التى تنجم عن شكة الابرة .

ثانيا – إنه يجد فى المحيطين به الذين يتجاوبون مع آلامه فرصة سانحة أو قنطرة يمرر فوقها أخيلته . فلكأن كل واحد من المحيطين به قد تآمر عليه لكى يوقع عليه الآما لا تحتمل .

ثالثا – إنه يوحى لنفسه بعدم القدرة على الاحتمال . من هنا فان كثيرا من الأطفال قد يغشى عليهم نتيجة ذلك الايحاء الذاتى بعدم القدرة على التحمل .

وأخيرا فانه بالنسبة للزاوية الثالثة – أعنى الزاوية البعدية التى تتلو عملية شك الابرة – فاننا نستطيع أن نجد فيها أيضا ما يلى :

أولا – إن الطفل يضيف إلى الصور التخيلية السابقة والتى تأتت له خلال الزاويتين الزمانيتين السابقتين صورا تخيلية أخرى مما ينشأ عنه تكاثر وتعقد الأخيلة التى تتدفق على ذهن الطفل .

ثانيا – الألم النفسى الذى يعتصر الطفل بازاء ما سوف يحدث له بعد عملية إيلاج الحقنة . انه يقول لنفسه « أليس من الجائز أن تقتلنى تلك الحقنة ؟ » ان الطفل فى كثير من الأحيان يذهب بخياله إلى عكس الواقع الحادث بالفعل . انه يبدأ فى التشكى لمن حوله . ان الحقنة أحدثت له ورما فى مكان الشكة ، إنه صار أسواء حالا مما كان عليه قبلا إلى غير ذلك من أوهام نفسية .

ثالثا – إن الطفل قد يضيف إلى آلامه السابقة آلاما جديدة كأن يحس بالرغبة فى التقيؤ ، أو بأن زغللة فى عينيه قد تودى به إلى فقد بصره ، إلى غير ذلك من أعراض أو مخاوف نفسية يضيفها الطفل بخياله إلى واقع مرضه . ولقد نقول أيضا إن الطفل يميل هستيرياً إلى استحداث مجموعة من الأعراض الجديدة التى ليس لها أساس من الواقع المرضى لديه .

والتناغم الوجدانى يلعب دورا كبيرا من خوف الطفل فى الألم . فاذا كانت هناك حول الطفل مجموعة من الأطفال المصابين بنفس مرضه أو بغيره من أمراض ، فإنه يقوم بتضخيم ما يحس به من ألم . ولكأنه يجمع جميع أمراض أقرانه لكى يحملها على عاتقه . فالأمراض وأعراضها تنتقل إليه عن طريق التناغم الوجدانى .

وعندما يقوم الطبيب باعطاء حقنة لأحد الأطفال – أو حتى لأحد الكبار من حوله – فإن ما يتخيله من ألم يصيب ذلك الطفل أو هذا الكبير ينتقل إليه ويحس به بخياله. فكل ألم يصيب الآخرين ينتقل إليه مع ما يستطيع خياله أن يضيفه ويجسده فى خياله .

والواقع أن ما يجعل الخوف من الألم فى حياة الطفل رهيبا هو ذلك الغموض الذى يكتنف الألم فى واقع حياة الإنسان بعامة . فجميع الناس فى جميع الأعمار يخشون الألم . فنحن نخاف من الموت لأننا نعتقد أنه مصحوب بالألم الشديد . ونحن نخاف من الأمراض لأنها مشفوعة بالالم فى مخيلتنا . ولا يعزب عن بالنا أن الألم لايكون فى معظم الحالات ألما جسميا فحسب ، بل يكون ألما جسميا ونفسيا فى نفس الوقت .

فإذا كان هذا هو حال الكبار فما بالك بالطفل الذى يغلب عليه خياله متغلبا على الواقع فى حياته . إنه لايستطيع أن ينظر إلى الألم بمنظار الواقع ، ولا يستطيع أن يحجِّمه فى حجمه الطبيعى ، بل هو يطلق لخياله العنان فى تضخيم الألم وصبغه بصبغة نفسية مخيفة .

وعلينا ألا ننسى ما ورثه الطفل فى أعماق لآشعوره (بالمعنى العام للكلمة) من مخاوف تتعلق بالالآم التى سبق أن عانت منها البشرية عبر الأجيال المتعاقبة . فالطفل يخاف من الألم لا لأنه اكتسب ذلك الخوف ممن يحيطون به أو ممن قاموا على تربيته وتنشئته ، بل إنه يخاف الألم نتيجة ما أفعم به فطرياً من مخاوف كامنة فى أعماق نفسه نتيجة ما تلقفه من خبرات سلفية . بيد أن البعض يتساءلون : أليس هناك أطفال لا يعرفون إلى الخوف من الألم سبيلا ؟ هذا صحيح فى الواقع ، ولكنه نتيجة ما اكتسبه أولئك الأطفال من طمأنينة تغلبت على المخاوف المغروزة فيهم . ولقد سبق أن قلنا زاعمين إن الأصل فى جوهر شخصية الطفل هو الخوف وليس الطمأنينة . بيد أن التربية الصحيحة هى تلك التربية التى تنجح فى الإبقاء على المخاوف السلفية فى حالة كمون وعدم تهيج . إنها التربية التى تغطى على المخاوف الموروثة بطبقة من الطمأنينة .

ومعنى هذا أن أولئك الأطفال الذين لا يخافون من الألم يمكن أن يصيروا خائفين منه بسرعة اذا ما حدثت ظروف خارجية بيئية تحملهم على تهييج كوامن نفوسهم المفعمة بالخوف . ولكن طالما أن تلك المخاوف السلفية راكدة وساكنة ، فان الطفل يظل يشعر بالطمأنينة تغلف حياته ، فلا يستشعر الخوف من الألم .

الخوف من الكبار :

لسنا بحاجة إلى القول بأن الكبار يخيفون أطفالهم لأنهم أقوى شكيمة منهم ، وأن ليس بمقدور الأطفال مقاومتهم ومقابلة الإيذاء بمثله . وشاهد ذلك أن الآباء والأمهات والمدرسين يتوقفون عن إيقاع العقوبات البدنية على الصغار عندما يشتد عودهم وتصير لديهم القوة الباطشة التى يخشى الكبار من أن يستخدمها الصغار لوقفهم عند حدهم أو الانتقام منهم .

والواقع أن الغالبية العظمى من الحالات التى يستخدم فيها الكبار العضا لتأديب أو لتعليم أبنائهم لاتكون ثمة حاجة إلى استخدامها . ولعلنا نقول إن استخدام القسوة مع الأطفال فى التأديب والتعليم يخفى وراءه هدفا نفسيا آخر يعتمل لدى الكبار هو ممارسة القوة لتأكيد الذات ولاشباع ما غرس لدى معظم الناس من سادية عنيفة أو ضعيفة . بيد أن الكبار يقومون بتبرير ما يتذرعون به من قسوة بأن يزعموا أن ما يدفع بهم إلى استخدام القسوة مع أبنائهم وبناتهم هو حرصهم الشديد على مستقبلهم ولأن أولئك الأبناء والبنات لا يعرفون مصلحتهم . فاذا هم تركوهم وشأنهم ، فانهم سوف ينحرفون عن جادة الصواب ويتخبطون فى حياتهم ، بينما تقع المسئولية الخلقية فى النهاية على رءوس أولئك الآباء والأمهات والمعلمين .

والواقع أن مايعانى منه أطفال اليوم من الكبار ، سواء كانوا آباء أم أمهات أم معلمين ، لايمكن أن يقاس إلى ما كان يعانى منه الأطفال قديما فى البيئات المتباينة . لقد كان العرب فى الجاهلية يئدون البنات ، وكان أهل اسبرطة يتخلصون من الأطفال غير الأسوياء بأن يلقوا بهم على سفوح الجبال لكى يموتوا وتأكلهم الضباع . وفى المجاعات يذكر أن الناس كانوا يتبادلون أطفالهم حتى يأكلوا أطفال غيرهم بينما يأكل الآخرون أطفالهم . وفى القبائل البدائية كان الأطفال يقتلون لأتفه الأسباب ، وطبعا لم يكن هناك قانون وضعى يحميهم من قسوة الأباء والآمهات وكانت الذبائح البشرية تقدم فى الغالب من الأطفال وبخاصة أولئك الأطفال الذين وهبوا جمالا وصحة ونضارة . وكان الاعتقاد السائد أن الألهة لا تتقبل كذبيحة الا أولئك الأطفال الذين صحت أبدانهم ونضر جمالهم .

ومع هذا فان أطفال اليوم ما يزالون فى كثير من المجتمعات الانسانية يعانون من قسوة معاملة الكبار بعامة وبضمنهم الآباء والأمهات . ونادرا ما تقابل شخصا فى البلاد العربية لم يذق طعم العصا يقرع بها قرعا شديدا . ولعل أن تكون أيديولوجية القسوة هى تلك الأيديولوجية السائدة فى أوساط الكبار حتى الآن . واذا ما نادى أحد المربين بالامتناع عن استخدام الضرب مع الأطفال ، فانه يجد معارضة شديدة واتهاما صارخا بأنه قد خرج عن نهج التفكير التربوى السليم ، وقد يتهم بالجهل المطبق أو بالشعبذة والباس الباطل ثوب الحقيقة .

ونحن نعلم يقينا أن هناك تيارين يدعمان الخوف فى قلوب الأطفال . أما التيار الأول فهو تيار الوراثة السيكلوجية . فلقد قلنا إن الأطفال يولدون ككائنات خائفة وليس ككائنات مطمئنة كما يذهب الكثيرون . فالطفل منذ ميلاده يخاف من كل شيء ثم يبدأ شيئا فشيئا يحس بالطمأنينة تجاه الاشياء والأشخاص بسبب الألفة وعن طريق الخبرات المواتية القليلة التى قد تحمله على الاحساس بعدم الخوف . أما التيار الثانى فهو تيار خارجى بيئى . ذلك أن الكبار من حول الطفل – وقد أحسوا بأنه كائن خائف – فانهم ينهالون عليه تخويفاً وارهابا . فبدل أن يعمد الكبار من حول الطفل إلى التخفيف من حدة ما يحس به من مخاوف فطرية تعتمل لديه ، فانهم يؤكدون تلك المخاوف التى يستشعرها بتجاه الكبار .

والمخاوف التى يحس بها الطفل من الكبار ترتبط بادىء ذى بدء بالألم الجسمى يوقعونه عليه . ولكن ما يفتأ الكبار أن يستخدموا الأساليب النفسية ، أو قل الأساليب الرمزية التى تشير إلى الايلام الجسمى المباشر بشكل أو بآخر . وتبدأ مع نمو الطفل سلسلة من وسائل التخويف المتباينة التى تفتك بما كان يمكن أن يتكون لديه من طمأنينة .

وكلما تقدم الطفل فى مراحل نموه يوما بعد يوم فانه يجد أمامه محاور تخويفية جديدة تقشع الطمأنينة من قلبه . ولعل من أخطر تلك المحاور ما يتصل بالمدرسة والامتحانات والأساليب السلوكية التى يتذرع بها وما يقوله عنه الآخرون وما ينقدونه به .

ونستطيع أن نقول إن عالم الكبار برمته يقف بالمرصاد لعالم الصغار . ولكأن الكبار يستشعرون فى بواطن قلوبهم أن أولئك الصغار يتقدمون فى سلك الحياة بحيث يحرزون القوة والصلابة ، بينما يزحفون هم إلى الوراء حيث الضعف والوهن . من هنا فان إحساسهم هذا يشكل لديهم نوعا من الخوف من تلك النبتات الصغيرة التى تشتد عودا وتتمكن صلابة وتقوى بصفة مستمرة . ويدفع بهم ذلك الخوف الى شن الحرب على الصغار مبكرا حتى يبطلوا لديهم أية دافعية مستقبلية تعمل على زلزلة عروشهم . فالتجبر الذى يبديه الكبار تجاه الصغار أساسه نفسى فى الواقع . فصراع الأجيال حقيقة واقعية وليست من نسج الخيال .

ولسنا نغالى اذا ما قلنا إن الصغار بدورهم يحسون بأن المستقبل لهم وليس للكبار من حولهم . فلسوف يتسلمون الزمام فى المستقبل ، ولسوف ينتقمون لأنفسهم من جميع الكبار الذى سيكونون عندئذ فى مرحلة الشيخوخة والهرم والضعف والوهن . من هنا فانك تلاحظ أن أجيال الشباب يبدون امتعاضا – أو قل قسوة – تجاه الطاعنين فى السن . ولكأن لسان حال الواحد منهم يقول « لقد جاء دورى لاستذلك كما أذللتنى . »

وفى تاريخ البشرية ما يشير إلى أن أجيال الشباب كانت تتخلص من الشيوخ بالبيع أو

بالمبادلة . وكانت القبائل البدائية تقوم بالمبادلة مع القبائل الأخرى حتى يتمكنوا من ذبح والتهام الشيوخ من غير أقربائهم ، بينما يقوم أبناء القبائل الأخرى يعمل نفس الشيء مع آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم . ولسنا نقول بدعا من نسج الخيال . فلقد اكتشفت حديثا عظام آدمية متحجرة تم امتصاص نخاعها مما حمل العلماء على التأكيد بأن تلك العظام الآدمية قد تم التهام أصحابها مع الاتيان على العظام وامتصاص ما فيها من نخاع .

وفى العصر الحديث نجد أن الكبار من الآباء والأمهات والمعلمين يضفون على قسوتهم صبغة تبريرية كثيرا ما تنجح فى إقناع الصغار بأن الكبار يصدرون فى قسوتهم عليهم عن رحمة بهم . إنهم يقولون « لو علم الصغار كم نحن نحبهم لما حسبوا ضربنا لهم وقسوتنا الظاهرية عليهم إلا نعمة نسبغها عليهم . » ولا شك أن الكثير من الأطفال يقتنعون بذلك ويقدسون أولئك الذين أذاقوهم العذاب فى الطفولة . فالخوف لديهم من الكبار قد استحال فى أنظارهم وقلوبهم إلى احترام وتبجيل يصل فى بعض الأحيان إلى حد التقديس . ولا يخفى علينا أن الكبار كثيرا ما ينشطون لدى الصغار ما يسمى بالنزعة الماسوكية . والماسوكية هى الالتذاذ بتلقى العذاب من الآخرين . فيجد الواحد منهم التذاذا خاصا فى أن يضرب ، لدرجة أن بعض الأطفال بالمدارس الابتدائية يتقدمون إلى مدرستهم يطلبون منها أن تضربهم على أيديهم بعصاتها الغليظة . وبعض أولئك الأطفال يبكون من شدة الألم بسبب ضربهم ، ولكنهم يجدون فى نفس الوقت فى ذلك الضرب لذة لهم . فهم يجمعون بين اللذة والألم فى آن واحد .

ونحن نعلم أن الحب والكراهية قد يتداخلان أشد التداخل بحيث يمكن أن يحدث ما يسمى بالتناقض الوجدانى **ambivalence** حيث لا يعرف المرء حقيقة مشاعره . فهو لا يكون واثقا من حبه للشخص . انه يحبه ويكرهه فى نفس الوقت . وهذه الحالة النفسية تعتبر حالة مرضية أو قل إنها تشكل مشكلة نفسية اذا ما شاعت وانتشرت فى الحياة النفسية للناشيء . من هنا فانك قد تجد الطفل يخاف من الكبير ولكنه يظن أنه يحبه . إنه يظن أنه يحبه لأنه يظن أيضا أنه يكرهه .

ومخاوف الأطفال من الكبار تستمر معهم طوال حياتهم . فمن كنا نخاف منه فى طفولتنا ، نخاف اليوم أيضا من كل شخص يشبهه فى ناحية ما من نواحى سماته الجسمية المتباينة . وكثيرا ما يحس المدير أو الوزير بخوف من منظر أو من هيأة أحد الموظفين الصغار ، فيحيل إحساسه بالخوف إلى كراهية وقسوة يتبديان فى معاملته له مع أن ذلك المرءوس الصغير لا يحمل لذلك المدير أو الوزير سوى الحب والاحترام . ولكن ماذا تقول عن خبرات الطفولة التى تستمر معنا ؟ فنحن نخاف من أشباه من خفنا منهم فى طفولتنا ، ولا نستطيع أن نتخلص من تلك المخاوف مهما حاولنا أو افتعلنا سلوكا غير ما يعتمل فى مقومات شخصياتنا .

ولا يقتصر الأمر على الشكل الخارجى للشخص المشابه للشخص الذى أحسسنا بالخوف منه فى طفولتنا ، بل يتعدى هذا الخوف الشكل إلى الصوت . ثمة أصوات ما نزال نخاف منها بعد أن كبرنا لأنها تشبه أصوات أشخاص أشاعوا فى قلوبنا الخوف ونحن بعد أطفالاً . وأيا ما يكون الأمر ، فالكبار يستغلون رهافة حس أبنائهم لكى يخلقوا منهم شخصيات أكثر خوفا مما جبلوا عليه أصلاً ككائنات خائفة .



نحن الكبار نخاف أيضاً

الفصل السادس
الخوف فى حياة الكبار

استمرار مخاوف الطفولة :

سبق أن ألمحنا إلى أن المخاوف التى نلقاها فى طفولتنا تظل تعمل عملها طوال حياتنا وفى مراحل العمر المتتالية . فالأشخاص الذين أوقعوا الخوف فى قلوبنا ونحن بعد صغاراً ، نخاف من أشباههم عندما نقابلهم فى حياتنا اليومية . وقد يختلط خوفنا منهم بالكراهية لهم أو بالقسوة عليهم والإشاحة عن مطالبهم منا .

وتبعا لما ذهبنا إليه كفرض أساسى طوال هذا الكتاب ، وهو أننا نولد كائنات خائفة ورثت مخاوف الأسلاف القريبين والأسلاف البعيدين على السواء ، فإن ما نحمله بالوراثة من مخاوف ، متمثلا فيما يطلق عليه عادة اسم غريزة الخوف ، يظل معتملا فينا ومطلا برأسه فى مواقف الحياة المتباينة . ويسير جانبا لجنب مع هذا الفرض فرض آخر مؤداه أن الطمأنينة نكتسبها من الظروف والأحوال المطمئنة التى تشيع فى البيئة التى ننشأ فيها والتى نتعامل معها ، لا تعدو أن تكون قشرة رقيقة قابلة للانقشاع فى أية لحظة إذا ما جدت ظروف أو أحوال تهدد أمننا النفسى .

وطالما أن الأمر كذلك فمما لا شك فيه أن ما نولد به كوراثة ، ثم ما نكتسبه خلال طفولتنا من مؤثرات تدعم مخاوفنا أو تزيد عليها مخاوف جديدة ، وكذا ما نحظى به من مؤثرات تشيع الطمأنينة فى قلوبنا يظل مواكبا لنا خلال مراحل عمرنا التالية . بيد أن الطمأنينة التى قد نحظى بها فى طفولتنا لا تظل ملكا مؤبدا لنا . فهى فى وجودها مرتهنة بما نصادفه من مواقف وبما يمر فى وجداننا من خبرات . فإذا ما ظلت حياتنا مستقرة آمنة ، فإن ما نكتسبه من طمأنينة فى طفولتنا يظل ملكا لنا . أما اذا اكتنف حياتنا ما يقلق بالنا أو ما يشيع فى قلوبنا المخاوف ، فإن ما نكون قد اكتسبناه من طمأنينة سرعان ما ينقشع كما تنقشع سحابة الصيف بفعل حرارة الشمس .

والواقع أن فرويد كان محقا عندما أولى مخاوف الطفولة أهمية خاصة فى دراسته للعقد النفسية ، أعنى الخبرات اللاشعورية التى تم كبتها فى اللاشعور . فالطفل قد يتعرض لمواقف مخيفة ولكنه لسبب أو آخر لا يستطيع أن يعبر عن مخاوفه ، ولا يستطيع أن يستبين حقيقة تلك المخاوف ، فيقوم جهازه اللاشعورى بكبت تلك المخاوف بينما ينسى الطفل الموقف الذى أثار لديه الخوف . ويرجع الفضل إلى فرويد فى التنبيه إلى أن ما ينساه المرء من مواقف مخيفة لا ينمحى

من حياته النفسية .وأكثر من هذا فإن تلك المخاوف المكبوته تظل تعمل عملها بحيث.تتحين الفرص المتباينة لكى تطل برأسها من خلالها بغير أن تتمكن من التعبير عن نفسها التعبير الكامل والصريح . فتلك المخاوف المكبوته تعبر عن نفسها بطريقة رمزية وناقصة فى نفس الوقت . ولقد كانت مهمة فرويد فى العلاج بالتحليل النفسى تعتمد على مبدأ تداعى الأفكار بحيث تجد تلك المخاوف فرصة للانطلاق من معاقلها بمساعدة المحلل النفسى . فهو يحاول أن يطلق تلك المخاوف من محبسها بشكل صريح غير رمزى .

ولعلنا نتساءل عن أنواع المخاوف التى تظل تعمل عملها فى حياة المرء خلال مراحل النمو التالية وطوال الحياة . إننا نستطيع أن نحدد تلك المخاوف فيما يلى :

أولا – المخاوف الفطرية الموروثة التى سبق أن عرضنا لها فى الفصل السابق وأهمها الخوف من الأشكال الغريبة وبخاصة تلك الأشياء التى تتحرك بطريقة خاطفة . ثم الخوف من الأصوات المرتفعة المفاجئة . ثم الخوف من الوقوع أو فقد السند .

ثانيا – الاستمرار فى الخوف من الأشكال والأشخاص الذين يرتبطون بخصائص مشتركة مع أشكال أو أشخاص حاليين . والخصائص المشتركة تتعلق بالصفات المرئية أو بالصفات المسموعةأو بغير ذلك من مقومات إدراكية . فالجانب الذى كان يحس المرء وهو طفل بالخوف منه يظل يعمل عمله فى وجدانه بغض النظر عن الموضوع الذى يرتبط به . فتغير الموضوع الذى يحمل تلك الجوانب المشتركة لا يغير من الارتباطات الوجدانية لدى المرء من قريب أو من بعيد .

ثالثا – الجوانب أو المواقف التى تركز فيها الخوف فى أثناء الطفولة . فإذا كان الشخص وهو بعد طفلا يخاف من الانعزال فى حجرة أو أنه كان يخاف من الظلام ، فإن ذلك الجانب الذى تركز فيه الخوف يظل على حاله ، ويظل الشخص حتى بعد بلوغه الرشد يستشعر الخوف من ذلك الجانب .

رابعا – قد تحتدم المخاوف التى كان الشخص فى طفولته يحس بها فى أثناء المرض والضعف والتعب والشيخوخة . ومعنى هذا أن بعض المخاوف التى كانت تأخذ بمقاليد الشخصية فى الطفولة تبدو ضعيفة أو حتى لقد يظن أنها اختفت وقد تخلص منها الشخص تخلصا تاما . ولكن ما أن يتعرض ذلك الشخص للمرض أو الضعف أو التعب أو الأرق ، أو عندما يبلغ الشيخوخة ، فإن نفس تلك المخاوف تبدأ فى البزوغ من جديد فى حياته كما لو أنه عاد طفلا مرة أخرى . فلكأن تلك الحالات الجسمية والنفسية تكشف الغطاء عما كان مخبوءاً فى أغوار الشخصية .

خامسا – وكذا فإن مخاوف الطفولة ينكشف عنها الغطاء إذا ما حقن الشخص بمواد تخدر قشرة المخ وتبطل سيطرة والجام الانفعالات وكوامن الشخصية . ونفس الشئ يحدث فى حالات التنويم وفى جلسات التحليل النفسى حيث تتبدى مخاوف الطفولة صارخة بحيث يبدو الشخص المنوم أو الواقع تحت تأثير المحلل النفسى وكأنه شخصية أخرى ذات مواصفات نفسية مباينة تماما للصفات التى يبدو عليها المرء بعد أن يستيقظ من التنويم أو بعد أن يخرج من إطار سلطة المحلل النفسى . فجميع ماكان يتبدى فى حياة الشخص فى أثناء طفولته يبدو واضحا بينما يكون فيما نسميه بحالة اللاوعى .

سادسا – ولا نستطيع أن ننسى بالطبع ما يتبدى للشخص البالغ فى الأحلام من مخاوف فيما يراه وهو نائم . لقد نجده يعود إلى طفولته فيبدو صغيرا فى حلمه . لقد يكون أستاذا بالجامعة حاليا ، ولكنه فى منامه يرى نفسه طفلا باحدى المدارس الإبتدائية بينما يقوم المدرس بضربه أو بتوبيخه أمام زملائه .

وبعد أن عرضنا لبعض المخاوف التى تظل مستمرة فى حياة الشخص الراشد ، فإن لنا أن نتساءل : أيهما الأصل وأيهما الصورة ؟ فهل طفولتك التى تعتمل لديك بمخاوفها هى القوام الأصلى بشخصيتك ، أم أن حياتك الراشدة الآن هى التى تحتل مكان الصدارة فى حياتك النفسية ؟

لا شك أن مثل هذا التساؤل قد يجد له إجابتين متباينين . فإذا نحن نظرنا إلى الشخصية من الخارج ومن منظور اجتماعى ، فإننا لا نتردد لحظة واحدة فى التأكيد على أن القوام الأصلى للشخصية يتمثل فيما بلغه من نمو جسمى ونمو نفسى ونمو اجتماعى . وهذه النظرة تحمل فى طياتها افتراضاً ضمنيا مؤداه أن كل مرحلة نمائية تجب مراحل النمو السابقة عليها . فالمراهقة تجب الطفولة ، والشباب يجب المراهقة ، والكهولة تجب الشباب واخيراً فإن الشيخوخة تجب الكهولة .

أما الإجابة الأخرى عن التساؤل السابق ، وهى إجابة من منظور نفسى ، فإنها تؤكد أن الطفولة هى جوهر الشخصية . وأكثر من هذا فإن المرحلة الجنينية وما تحمله فى طياتها من مقومات وراثية تشكل ذلك الجوهر . وبتعبير آخر فإن جميع المراحل التالية للمرحلة الجنينية ومرحلة الطفولة إنما هى مراحل تنقيحية وليست مراحل تكوينية . فالجنين والطفل هما المسئولان الوحيدان عن وضع اللبنات الأولى بالشخصية وليست المراحل التالية سوى تغذيةواستمرار لما سبق تحديده من ملامح للشخصية .

والمتحمسون للمرحلة الجنينية والمرحلة الطفلية يعترضون على ما يعتقد فيه أصحاب الإجابة الأولى من أن كل مرحلة نمائية تالية تجب مراحل النمو السابقة عليها . فهم يعتقدون على العكس من هذا أن كل مرحلة نمائية تالية تستمد قوتها وملامحها من مرحلتى التكوين الأولى للشخصية ، أعنى المرحلة الجنينية والمرحلة الطفلية .

ومعنى هذا أن المخاوف الفطرية الموروثة والتى حملها المرء وهو جنين فى بطن الأم ، ثم المخاوف المكتسبة فى أثناء الطفولة تشكل الأنماط الأساسية للمخاوف التى تعتمل بعمق فى قوام شخصية البالغ . فإذا صح لنا أن نصنف مخاوف المرء فى فئات أو صنوف أساسية ، فإننا نستطيع أن نرد جميع المخاوف التى يكتسبها البالغ إلى فئاته الخوفية التى تحددت خلال مرحلتى التكوين الأولى ، أعنى المرحلة الجنينية والمرحلة الطفولية . وبتعبير آخر فإن مخاوفنا التى نكتسبها ونحن فى المراهقة أو الشباب أو الكهولة أو الشيخوخة يجب أن تجد لها رصيدا سابقا فى مخاوفنا التى تحددت معالمها ونحن بعد فى بطون أمهاتنا ، ثم بعد ذلك خلال طفولتنا .

الخوف الغامض والقلق :

قلنا ان هناك استمرارية فى الحياة الوجدانية للمرء . فالمخاوف التى يستشعرها فى طفولته لا تنمحى ، بل ربما تتغلف بغلاف من الطمأنينة المستمرة أو المؤقتة . والواقع أننا فى كثير من الأحيان ننسى بذاكرتنا أسباب ومصادر الخوف ، ولكن حياتنا الوجدانية فى أعماقنا تستمر فى تدفقها كأنها نهر جار لا يتوقف تياره عن الاستمرار فى التدفق والسيلان . فالمخاوف التى تأتت لنا فى طفولتنا فى تواكبها مع المخاوف التى ورثناها عن أسلافنا القريبين وعن أسلافنا البعيدين تظل معتملة فى أعماقنا . بيد أن ذلك الاعتمال شئ وتذكر أسباب مخاوفنا شئ آخر . وأكثر من هذا فاعتمال تلك المخاوف فى أوصالنا شئ وادراكنا لها فى ذات الآن شئ آخر . فنحن لا نتذكر أسباب ومصادر تلك المخاوف من جهة ، ولا نستبين وقوعها وتأثيرها فينا حاليا من جهة أخرى .

ولا يجوز لأحد أن ينكر تلك المفارقة بين الذاكرة والإدراك للمخاوف من ناحية واستمرار اعتمالها وتأثيرها فى حياتنا النفسية من ناحية أخرى . فمن المؤكد أن الكثير جدا مما يقع لنا فى دخائلنا الجسمية ودخائلنا العقلية ودخائلنا الوجدانية ، إنما يقع ونحن ساهين عنه لا نلم بأطرافه من قريب أو من بعيد . فالحياة اللاشعورية لدينا أضخم حجما وأفعل تأثيرا من حياتنا المشعور بها والتى ندرك أطرافها ونلم بمسارها واتجاهاتها . ولسنا نبالغ اذا ما قلنا إن ما نعيه من واقعنا الجسمى والعقلى والوجدانى أصغر بكثير جدا مما يغيب عنا . فكثيرا ما تكون بالجسم معركة محتدمة تهدد القوام الحيوى للمرء بينما هو غافل عنها . فكثيرا ما يكتشف الشخص المريض

إصابته بالأورام الخبيثة بعد أن تكون قد تبلورت واستفحل أمرها أو بعدما تكون قد قهرت الجسم ووضعته تحت إمرتها بحيث لا يفلح مبضع الجراح أو العلاج بالعقاقير فى استئصالها . وكثيرا ما يعمل الوجدان – ذلك العالم المجهول – بينما نحن لا نعلم عنه شيئا . فكثيرا ما يصاب الواحد من عظماء المفكرين بالمرض النفسى بينما يكون منغمسا حتى أذنيه فى الأمور الفلسفية أو العلمية . فبينما يكون ذلك الشخص مهتما كل الاهتمام وأعظمه بأمور الفكر يكون المرض النفسى آخذاً فى الانسراب إلى كيانه النفسى وينخر فيه كما ينخر السوس فى العظام ببطء واستخفاء . وكثيرا ما تعتمل المقومات الفكرية فى ذهن الشخص وهو نائم بحيث تتأتى عن ذلك الاعتمال أو الاختمار أفكار مركبة ومعقدة ودقيقة لم يكن له أن يقوم بتركيبها على ذلك النحو المتقن والمبتكر وهو فى حال اليقظة .

ونفس الشئ يقال عن مخاوفنا التى نكون قد نسيناها ذهنيا ولم نفقدها أو بتعبير أدق لم نقهرها وجدانيا . فمخاوف الطفولة تظل قائمة فينا وقد تفتك بأمننا وراحتنا بحيث نحس بها فى غموض وغبش . ففى كثير من الأحيان يحس المرء بأن ثمة مخاوف غامضة تلفه وتحيط به من كل جانب . فمهما تساءل مثل ذلك الشخص عن أسباب مخاوفه تلك ، فإنه لا يجد جوابا. والواقع أن المحللين النفسيين يحاولون تذكرة أولئك الخائفين بأسباب مخاوفهم حتى يتسنى لهم اقناعهم ببطلان تلك المخاوف . فأولئك المحللون يعتقدون أن الوقوف على أسباب الخوف يشكل أول خطوة فى السيطرة عليها وقهرها . فالتبصر بأسباب الخوف فى رأيهم كفيل باضعاف ما تحمله من قوة وفاعلية ضارة فى دخيلة النفس وفى السلوك الظاهر للعيان . ولا شك أن موقفهم هذا يذكرنا بموقف سقراط الذى اعتقد أن الفضيلة علم وأن الرذيلة جهل . فهو كان يعتقد أن المعرفة الصحيحة والدقيقة تكفل للإنسان حياة أخلاقية سليمة . ولكأن فرويد وأتباعه من محللين نفسيين قد نقلوا مذهب سقراط من مجال الأخلاق إلى مجال الصحة النفسية . فهم يقولون إن المعرفة بالنفس وتذكر أسباب المخاوف الغامضة كفيل بتبصير المريض بطريق الحياة السوية .

ونحن نعتقد أن المخاوف الغامضة اذا لم تعالج بسرعة ، واذا لم يكشف عنها الغطاء ، فإنها سوف تستحيل إلى عرض نفسى خطير هو القلق . فالقلق ليس مجرد الشعور بالمخاوف الغامضة ، بل هو النتيجة السيئة المترتبة على اعتمال تلك المخاوف الغامضة فى القوام النفسى للمرء . ولكن لعلنا نتساءل عن معنى القلق . يعرف علماء النفس القلق بأنه عرض نفسى غير سوى يصيب الشخصية التى اعتملت لديها المخاوف الغامضة لمدة طويلة وبشكل عنيف. وللقلق أضلاع ثلاثة :فثمة ضلع المشاعر الوجدانية العنيفة التى تتسم بالتوتر الشديد ، ثم هناك الأفكار

المتعلقة بأشياء متضاربة أو بحالات متباينة ، والتفكير فى أهداف لا يمكن تحقيقها . أو الخوف على فقدان القدرة على تحقيق أهداف كان يجب تحقيقها . وبتعبير آخر وأدق فإن القلق يتخذ له موضوعات خارجية ينصب عليها الفكر كتعلة أو كتبرير لما يحس به المرء . فالشخص القلق يحاول أن يرد مشاعره الوجدانية المتوترة إلى أسباب صحية أو أسرية أو إلى أسباب تتعلق بالعمل أو بالجهد الشاق الذى يبذله فى تربية الأولاد أو بغير ذلك من أسباب تبريرية يكون الشخص القلق صادقا فى التعبير عنها مع أنها ليست فى الواقع الأسباب الحقيقية التى تختفى خلف مشاعره الوجدانية المتسمة بالتوتر الشديد . أما الضلع الثالث فى القلق فهو الضلع السلوكى التصرفى . فالقلق شخص متردد فى أعماله وتصرفاته من جهة . كما أنه شخص متقلب فى علاقاته الإجتماعية من جهة أخرى. انه لا يستطيع أن يستقر على حالة واحدة ، كما أنه لايستطيع أن يطمئن إلى صديق ولا يستطيع أن يتخذ حذره من عدو .

ولعلنا نتلمس العوامل المساعدة التى تؤدى إلى ظهور القلق بأضلاعه الثلاثة التى ذكرناها . اننا نجد أن تلك العوامل يمكن أن تتخلص فيما يلى :

أولا – العوامل الوراثية : فبعض الناس قد ورثوا أجهزة عصبية على جانب كبير جداً من الحساسية والرهافة . من هنا فإنهم يكونون عرضة للضعف والخور أمام مخاوفهم التى ورثوها عن الأسلاف القريبين والأسلاف البعيدين من جهة ، وتلك التى وقعوا تحت سطوتها وتأثيرها فى طفولتهم الأولى من جهة أخرى. فضعف وحساسية ورهافة الجهاز العصبى تجعل الشخص ضعيف المقاومة بالتالى لتلك المخاوف الموروثة والمكتسبة على السواء .

ثانيا : – التغيرات الكيميائية بالجسم : فمن المعروف أن إحداث تغيرات معينة بكمياء الجسم يمكن أن يؤدى إلى استنهاض ومساعدة المخاوف الغامضة ، ومن ثم تتبدى الاضلاع الثلاثة للقلق ، وهى الضلع الوجدانى والضلع المعرفى والضلع التصرفى . وشاهد ذلك ما يسمى بفقدان الاتزان الهورمونى الذى يتأتى عن زيادة إفراز واحد من الهورمونات التى تفرزها الغدد الصماء بالدم مباشرة. من ذلك مثلا زيادة إفراز هورمون الأدرنالين الذى تفرزه الغدتان فوق الكيليتين بالدم . ويمكن أن يقال نفس الشئ فيما يتعلق بالتغيرات الكيميائية إذا ما تناول المرء مواد كيميائية مثيرة للأعصاب أو منبهة لها أو مخدرة أو مغيبة عن الوعى . فالكثير من حالات الإدمان للمخدرات أو للخمر تشكل عوامل مساعدة على ظهور القلق فى حياة المرء .

ثالثا : – التغيرات الجسمية المتعلقة بالسن : فمن الحقائق المعروفة أن انتقال المرء من مرحلة عمرية إلى مرحلة عمرية تالية يكون مصحوبا بتوترات نفسية أو حتى بمخاوف غامضة وقلق . والواقع أن مراحل النمو– وان كانت متصلة ومتداخلة فانها فى نفس الوقت مراحل متميزة بحيث نستطيع أن نقول إن لكل مرحلة من مراحل النمو خصائص فريدة مباينة للخصائص التى

كانت تتسم بها المرحلة السابقة عليها . فالمراهق والمراهقة يتعرضان للتوترات النفسية الناجمة عن التغيرات الجسمية الهائلة التى تصاحب المراهقة وبخاصة ما كان متعلقا بالنشاط المحتدم للغدد الجنسية الداخلية والخارجية. ونفس الشئ يمكن أن يقال عن سن اليأس بالنسبة للمرأة وكذا انخراط الرجل فى مرحلة الشيخوخة . فالكثير من النساء والرجال يتعرضون للتوترات النفسية لدى خروجهم من سن الكهولة التى تقع فيما بين الثلاثين والخمسين إلى سن الشيخوخة التى تبدأ فى حوالى الخمسين .

رابعا : – **الصدمات النفسية بسبب الأحداث المفاجئة** : من ذلك مثلا إهانة خطيرة تلحق بالمرء أو تعرضه لفضيحة أو لخسارة فادحة أو لمرض أو وفاة شخص عزيز إلى قلبه أو فقده لشئ ثمين . ونفس الشئ قد يحدث بسبب الحنين للوطن بالنسبة لمن يهاجر ويترك أهله وأحباءه ويبدأ فى الانخراط فى مجتمع جديد له تقاليده وقيمه المباينة لقيم مجتمعه الأصلى .

خامسا : – **الاحساس بالخطر سواء كان خطرا يهدد الحياة أم خطرا يهدد الأمن** :

ومثل هذا الاحساس يمكن أن يهيمن على مشاعر واحدة من الأسر التى بينها وبين أسر أخرى ثأر كما هو الحال فى بعض قرى الصعيد بمصر . ونفس الشعور يمكن أن يتعرض له الأسير أو السجين أو الرهينة أو غير ذلك من أشخاص تتهددهم المخاطر فتثور لديهم المخاوف الغامضة والتوترات النفسية التى تشجع على ظهور حالات القلق النفسى .

الخوف من المفاجآت :

المفاجأة بمثابة إنتقال مفاجئ من حالة نفسية معينة إلى حالة نفسية أخرى مباينة لها تمام التباين ، أو حتى متعارضة معها تمام التعارض . والواقع أن مثل هذا الانتقال المفاجئ لما يهز الجهاز النفسى هزا عنيفا ، فهو بمثابة انتزاع من تيار نفسى إلى تيار نفسى آخر . ولا شك أن انتزاع النفس من تيار الى تيار مخالف أو مضاد لما يحدث ألما نفسيا يخشاه المرء إذا ما توقع حدوثه .

فنحن نخشى المفاجآت بسبب هذا الانتزاع النفسى المفاجئ الذى يشبه أن يكون خطفا للمرء مفاجئاً من مكانه والإلقاء به من إرتفاع رهيب . فالنقلة المفاجئة تحدث صدمة نفسية رهيبة . ولا يختلف فى هذا أى نوع من أنواع المفاجآت . فجميع المفاجآت تخيفنا بما فى ذلك المفاجآت السارة . فالنجاح المفاجئ أو الثراء العظيم بعد فقر مدقع ، أو العثور على شخص عزيز بعد اليأس من العثور عليه وغير ذلك من مفاجآت سارة جدا تحدث فى النفس الأثر الذى تحدثه الصدمة المتأتية عن إبلاغ المرء خبرا مفجعاً . فالمفاجأة التى تنتقل بالمرء من حالة فى أقصى اليمين إلى حالة فى أقصى اليسار أو العكس ، لهى زلزلة خطيرة للاستقرار النفسى . ونحن نسمع

قصصا عن أشخاص فقدوا عقولهم عندما ربحوا مالاً وفيرا فجأة بعد فقر شديد ، وفى بعض الحالات يموت بعض الناس من شدة الفرح وما يصحبه من إنفعال غامر.

صحيح أننا لانخاف من المفاجآت السارة المعقولة كأن ينجح ابن أو بنت فى إمتحان . ولكن من الخطر على عقولنا وقلوبنا وكل وجودنا أن نفاجأ بشئ مفرح جداً فيقتلنا الفرح . تخيل مثلا قصة أم علمت بمقتل وحيدها المجند فى الحرب فحزنت وانتحبت وهى تبكى ليل نهار بدموع لا تجف . ولكن بعد أسبوع واحد وهى فى هذه الحالة المريرة واذا بجرس الباب يدق وتفاجأ بابنها واقف سليم أمامها . أليس هذا الموقف المفرح جدا مخيف فى نفس الوقت ؟ إن شدة فرح الأم المسكينة بإبنها قد تصرعها فى الحال أو تذهب بعقلها .

ولسنا فى الواقع بحاجة إلى البرهنة على أن المفاجآت المخيفة أو المحزنة ترهبنا . ولكنا بحاجة إلى أن نثبت أن المفاجآت السارة جدا تحدث لنا نفس الأثر المدمر والمخيف بالتالى . ذلك أن شدة الانفعال تجعل الحالة النفسية غير متعينة . فالشخص الذى يفرح جدا قد ينخرط لشدة فرحة فى بكاء مرير بحيث أنك لاتستطيع أن تحدد ما اذا كان ذلك الشخص فرحا أم حزينا . فنحن نعرف أن البكاء يرتبط بالحزن والألم ، ولا يرتبط بالفرح واللذة بيد.أن الفرح الشديد قد يصل بالشخص الفرحان إلى نقطة اللاّتعين ، أو قل إنه قد يصل به إلى حالة من الامتزاج والخلط والتداخل بين الانفعالات المتباينة . ولا تندهش أيضا اذا قلنا إن شدة الحزن يمكن أن يتبدى من خلالها سلوك يشبه أن يكون سلوك البهجة والفرح . فلقد تجد بعض النساء وهن يشيعن جنازة شخص عزيز جدا إلى قلوبهن وقد أخذن فى الرقص المصحوب بالزغاريد . ولا يكون مثل هذا السلوك تقليدا متبعا فى مثل تلك المواقف ، بل يكون سلوكا هستيريا يختلط فيه الحزن مع الفرح . وقد قيل فى المثل الشائع « شر الأمور ما يضحك » . فالبلاء الشديد يجعل البكاء مختلطا بالضحك ، تماما كما يحدث فى حالات الفرح الشديد حيث يختلط الضحك بالبكاء .

من هنا فإننا نخشى المواقف التى نفقد فيها ضبطنا لانفعالاتنا . إننا نحس بالخوف يملأ صدورنا خشية أن تصل إلينا مفاجأة شديدة الوقع علينا فنفقد اتزاننا الوجدانى . ذلك أن تلك المفاجآت تحدث فينا هزة نفسية تفقدنا استقرارنا الداخلى وتدفق تيار وجداننا بشكل طبيعى . والواقع أن المثل الإنجليزى الذى يقول No news good news والذى ترجمته عدم ورود أخبار هو فى حد ذاته أخبار طيبة يعنى أن استمرار الحياة على نحوها العادى يشكل النموذج أو المثل الأعلى الذى نبغية. فنحن فى قرارة نفوسنا لا نريد –أو قل إننا نخشى – أن تصل الينا أخبار مكدرة أو سارة تفقدنا اتزاننا الوجدانى .

ولكن لا يعنى هذا أننا نرفض أو نتأبى عن الاستماع إلى الأخبار السارة ، بل نتمنى أن تكون الأخبار السارة التى تصلنا سارة بدرجة معقولة فلا تضطرب عقولنا بسبب وصول أخبار سارة جدا إلينا تميتنا فرحا أو تصيبنا بالجنون المفاجىء .

ولعلنا فيما يلى نستعرض أنواع المفاجآت التى نخاف منها والتى نتمنى عدم وقوعها لنا فى الحياة .

أولا : – ما يتعلق بكياننا الحيوى : فمن المفاجآت الخطيرة أن ينقلب حالنا من النشاط والصحة إلى العجز عن إبداء النشاط وإلى المرض يخيم بعباءته الكريهة علينا . فنحن نخشى كل الخشية من أن نصاب بعاهة مفاجئة كأن يبتر أحد أطرافنا على أثر حادث أو أن تشتعل فينا النار فنفقد القدرة على مواصلة العمل . ونحن أيضا نخشى أن تصاب أجسادنا بمرض خبيث يقضى على كل أمل فى حياة مشرقة وفى مستقبل باسم . فكياننا العضوى هو بمثابة المملكة الفردية الشخصية التى نتمنى من كل قلوبنا ألا تتزلزل أو تصاب بما يعجزها عن تسيير أمورها على خير وجه وبنشاط وهمة وتدفق كما نفعل اليوم ونحن فى صحة ونشاط وتدفق .

ثانيا : – ما يتعلق بسلامة أحبائنا : فالإنسان ليس مجرد كائن بيولوجى فردى لا تربطه بأحد رابطة ، بل هو كائن مرتبط بمجموعة من الأحباء إلى قلبه . وعلى رأس هؤلاء جميعا الأب والأم الزوجة (أو الزوج) والأولاد (ذكورا وإناثا بالطبع) والأخوة والأخوات والأقرباء والأصدقاء . فنحن نستحيل إلى جسم اجتماعى كبير كلما قامت وشائج متينة بيننا وبين الآخرين من حولنا . ونحن نخشى وقوع مفاجآت تتعلق بأى من هؤلاء الذين نحبهم . نخشى أن يصيب أيا منهم ضرر فيضربنا ذلك فى صميم القلب . بيد أن المفاجآت التى نخشى وقوعها لاحبائنا تنحصر فى المفاجآت المحزنة . ذلك أننا نستطيع فى الغالب أن نرى أولئك الأحباء كموضوعات خارجية بحيث أن وقع المفاجآت السارة جدا علينا تكون شبه مهضومة . غير أن هناك استثناءات لهذا . فثمة شخص أعرفه كان له ابن بالجامعة يعقد عليه آماله الكبرى . رسب ذلك الابن وهو الذى لم يرسب مرة واحدة طوال دراسته من الابتدائى حتى تلك السنة . وكان عليه أن يؤدى امتحانه فى الملحق . وبعد أداء الأمتحان وذلك الأب كان يائساً من نجاح ابنه وقد توهم أنه صار شخصا لا يستطيع النجاح بالدراسات الجامعية فوجئ ذات يوم بابنه ينبئه بخبر نجاحه . كان الأب غير مستعد نفسيا لتقبل النبأ السار . فماذا حدث له ؟ لقد انخرط فى بكاء شديد كما لو أنه سمع خبرا مفجعا . فهذا يدل على أن الأخبار السارة جدا تشكل خطرا علينا حتى ولو لم تكن تلك الأخبار متعلقة بنا مباشرة ، بل متعلقة بأحد أحبائنا .

ثالثا : – ما يتعلق بالأحداث العامة : من ذلك موت شخصية عامة التفت حولها قلوب الملايين من البشر. فلقد اهتزت الدنيا عندما اغتيل الزعيم غاندى ، وفجع المصريون عندما

أعلن نبأ وفاة عبد الناصر. وعندما مات المطرب عبد الحليم حافظ فإن أحدى الفتيات المعجبات بصوته إنتحرت لدى سماعها نبأ وفاته. والواقع أن التفاف قلوب الملايين حول شخصية ما يجعل ثمة تناغما شديدا يحدث فى صفوف تلك الملايين إذا ما فارقت الحياة، وبخاصة اذا لم يكن الموت متوقعا. ونفس الشئ يقال عن انهيار إحدى العمارات على سكانها وعن غرق إحدى السفن بالنيل فثمة تناغم عام يسرى فى قلوب الناس. وكلما بعد الحدث عن المرء كان تأثيره بالتالى أخف وقعا. ونحن فى الواقع نخشى ما قد يقع من مفاجآت شبيهة بما مر فى خبرتنا من أحداث عامة مثيرة لأعصابنا.

ثالثا : — ما يتعلق بالسمعة أو الشرف : فالمهندس أو المقاول الذى يعتبر المسئول عن العمارة المنهارة، أو البحار المسئول عن غرق الباخرة، أو الطبيب المسئول عن موت أحد المرضى بسبب خطأ فى إجراء الجراحة أو بسبب وصفه لدواء قاتل، إنما يصيبهم جميعاً ما يشبه الضربة القاصمة لكيانهم الإجتماعى. ونحن فى الواقع نخشى على أنفسنا وعلى أحبائنا من مفاجأة من هذا القبيل حتى ولو ثبت بعد الدفاع عن النفس أننا من الاتهام براء. فالواقع أن وقع المفاجأة رهيب على النفس التى لا تتوقع مثل هذا الهجوم على مقدساتها الذاتية، أعنى الشرف والكرامة والاعتداد بالنفس.

رابعا : — ما يتعلق بالمقدسات والقيم الروحية التى يعتز بها المرء :

من ذلك مثلا إعتداء بعض اليهود على المسجد الحرام بالقدس. ونفس الشئ إذا ما وقع اعتداء على رجال الدين المرموقين والقاء القبض عليهم أو نفيهم أو إزاحتهم عن مناصبهم لأنهم أغضبوا صاحب السلطان بمواقف معينة أو بتصريحات أو باتصالات على غير هواه. والواقع أن المقدسات تشكل أهمية خاصة مطلقة فى قلوب الناس. من هنا فإن المفاجآت المتعلقة بالاعتداء عليها تحدث تناغما شديد الوقع على قلوب المؤمنين بها والمقدسين لمقوماتها.

الخوف من فقد الاعتبار :

من أهم العمليات النفسية التى يقوم بها المرء فى جميع أنحاء حياته عملية التقييم. فنحن نقوم بتقييم كل ما تقع عليه حواسنا، بل وكل ما نقوم بتذكره أو حتى تخيله. ولعل من أهم الموضوعات التى يقوم المرء بتقييمها شخصيته. فنحن طوال حياتنا نقوم بتقييم ذواتنا فى جميع الأنحاء وفى جميع العلاقات والمواقف.

ويخلص الواحد منا إلى تقييم نفسه بأن يقدرها تقديرا معينا. فبعد كل تصرف نضطلع به، وبعد كل فكرة تراودنا، وبعد كل موقف نمر به، فإننا نعيد تقييم ذواتنا. ولعل أن تكون الأخلاق برمتها مستقاة من هذا المبدأ النفسخلقى الذى نسير وفقه فى حياتنا. فكل واحد منا —

صغيرا كان أم راشدا ، غنيا كان أم فقيرا ، عالما كان أم أميا – إنما يدأب على تشكيل صورة ووضع ومكانه لذاته . ولا يشذ عن هذه القاعدة أحط الناس أخلاقا أو أكثرهم إدمانا فى اقتراف الجرائم على تباينها . ولكن التقييم الذاتى للشخصية لا يعنى بالضرورة تعديل السلوك . فالمجرم يقوم بتقييم شخصيته ويضعها فى نظره فى مكانة دنية ، ولكنه مع هذا قد لايقوم بتعديل سلوكه على النحو الصحيح المستقيم ، بل هو يستمر فى غيه لا يرعوى ولا يزدجر بوحى من ضمير أو نتيجة باعث نفسى لتعديل مسار حياته .

والناس على تباينهم لا يقيمون أنفسهم من زاوية واحدة ، بل هم يقيمون أنفسهم من زوايا متابينه عديدة . ولعلنا نقول إن كل فرد من أفراد الناس يقوم بتقييم نفسه من زوايا كثيرة متباينة . خذ مثالا لذلك بأحد أساتذه الجامعة . كم زاوية يقوم بتقييم نفسه منها ؟ لعلنا نستطيع استعراض بعض من تلك الزوايا . إننا نجد أولا الزواية النفسية . فهو يسائل نفسه : « هل أنا شخصية سوية أم أنى شخصية مجنونة ؟ واذا كنت شخصية عاقلة ، فهل توجد بشخصيتى جوانب غير سوية ؟ وبتعبير آخر : هل أنا مصاب ببعض الانحرافات ؟ » ومن جهة ثانية فإن ذلك الأستاذ الجامعى قد يقيم نفسه من الناحية الجسمية ، فيسأل نفسه : « هل صحتى جيدة أم أنى مريض ؟ وهل بنيتى متينة أم أن تلك البنية مضعضعة ؟ » أما الزاوية الثالثة التى يمكن أن يقيم ذلك الشخص نفسه منها فهى الزاوية الإجتماعية . فهو قد يتساءل « هل أنا شخصية مقبولة محترمة فى أنظار الناس ؟ وهل أنا ناجح فى علاقاتى الاجتماعية ؟ هل أنا ناجح كزوج وكأب وكزميل ؟ هل أنا شخصية محبوبة ومحترمة من جانب الطلبة ومن جانب من يتعاملون معى ؟ » وثمة رابعا الزاوية العلمية . فلعل ذلك الأستاذ يتساءل : « هل أنا متمكن من مادتى التى أقوم بتدريسها ؟ وهل أنا أقوم بملاحقة ما يستجد من بحوث أو مكتشفات فى مجال تخصصى ؟ وهل أنا موفق فى إيصال معلوماتى إلى طلبتى بالطريقة التربوية الصحيحة ؟ » وثمة زاوية خامسة يمكن أن يقيم ذلك الأستاذ نفسه فى ضوئها هى الزاوية الدينية أو الروحية . فهو يتساءل : « هل أنا شخص يعرف ربه بقلبه ولسانه ؟ » وهل أنا أطبق تعاليم ووصايا دينى فى حياتى العملية ؟ وهل أنا شخصية متعصبة أم أنى متسامح وأتعامل بحيادية مع الطلبة والزملاء بغير تحيز لأحد وبغير تعصب ضد أحد ؟ إلى غير ذلك من تساؤلات تقييمية عديدة .

والواقع أن الباعث الرئيسى لدى هذا الأستاذ الذى ضربنا مثالا به على إثارة مثل تلك التساؤلات وغيرها حول تقييم نفسه ، هو خوفه من فقد الاعتبار . فهو يتمنى أن يجيب عن هذه التساؤلات جميعا بما يسعده ويثلج صدره . وأخشى ما يخشاه هو أن تأتى إجاباته مخيبة لأمله فى أن يكون شخصية مرموقة فى المجتمع . فهو يتمنى أن يكون شخصية ذات سمعة طيبة بين الناس ، بل إنه – أكثر من هذا – يتمنى أن يأتى تقييمه لنفسه مرضيا لضميره ومريحا لوضعه

أمام نفسه . فنحن لا نهتم فقط بأن يكون الناس من حولنا راضين عنا ومقدرين لنا ، بل إننا نهتم بالإضافة إلى هذا – وربما أهم من هذا – بأن نكون راضين نحن عن ذواتنا ، وألا نكون برمين بأنفسنا وساخطين على وضعنا ومكانتنا التى نحددها لشخصياتنا .

والواقع أن الخوف من فقد الاعتبار يتبدى فى صيغ متباينة لعلنا نلخصها فيما يلى :

أولا : الخوف من إحتقار الآخرين لنا :

فمنذ الطفولة وحتى نهاية العمر ونحن نكلف بموقف الآخرين منا . ولعل أن تكون هناك صورة عامة لتقدير الناس لنا نبغى أن تكون صورة مشرفة . والواقع أننا نحاول جاهدين أن تكون الصورة التى يرسمها لنا الآخرون فى أذهانهم عنا صورة مشرفة . فإذا ما حدثت مواقف قد تؤدى إلى تشويه تلك الصورة المرتسمة فى عقول الناس عنا ، فإننا عندئذ نحزن ونبئس . على أن الواحد منا يحاول دائما قبل أن تتشوه صورته فى أنظار الناس أن يتجنب بطريقة تكاد تكون لاشعورية ما يؤدى إلى الحكم علينا بأننا شخصيات غير جديرة بالاحترام والتقدير أو بالأحرى جديرة بالاحتقار والازدراء .

ثانيا : الخوف من العجز عن العطاء :

فأخشى ما يخشاه المرء أن يصير عاجزا عن العطاء فى الحياة . ذلك أن الحياة الإجتماعية ترتكز على مبدأين هما مبدأ الأخذ ومبدأ العطاء . والشخص الذى يعطى أكثر تكون له قيمة فى أنظار الآخرين أكبر . من هنا فإن الذى يعمل يكون أكثر قيمة من الذى لا يعمل . والواقع أن الشخص يحس بأن الآخرين يقدرونه لأنه مفيد لهم ولغيرهم فى الحياة . أما الشخص الذى لا فائدة منه ولا ضرر ، فهو شخصية هامشية لا وزن لها ولا قيمة تناط بها .

ثالثا : الخوف من فقد التأثير فى الآخرين :

وهنا نجد أن التأثير غير العطاء برغم وجود تداخل بينهما . فالشخص الذى يعطى يكون مؤثرا ، ولكن من الممكن أن نجد شخصا مؤثرا ولكنه لا يعطى شيئا . فالجد الشيخ أو الجدة الشيخة قد يتوقفان عن العطاء ، بل ربما يكونان فى وضع المتلقى والآخذ من الآخرين . ولكن مع هذا فإن ما يقدمانه من نصح أو تأثير نفسى ربما يكون على درجة كبيرة من الأهمية فى أنظار الأبناء والأحفاد . والواقع أن المجتمع الحضارى يتضمن الكثير من الأعمال التى يعتمد المشتغلون بها على التأثير فى غيرهم . من ذلك مثلا رجال الدين والمعلمون والمؤلفون ومن اليهم من أصحاب وظائف أو مناشط تعتمد على التأثير وليس على العطاء المادى المباشر .

رابعا : الخوف من فقد ثقة الآخرين فى قدرتنا على التفكير السليم :

فنحن نخشى من أن يتهمنا الآخرون الذين نتعامل معهم بالجنون أو بالتخلف العقلى أو

بالعجز عن التفكير السليم . والواقع أن من أهم الركائز التى يعتمد عليها تقدير الآخرين لنا هى تلك الركيزة العقلية ، ولعل تقدير الآخرين بالقدرة على إجالة الفكر بطريقة سديدة وعميقة يفوق كثيرا فى نظر المرء تقديرهم له لأنه صاحب جاه أو سلطان . فليس هناك ما يعدل العقل فى شخصية الإنسان .

خامسا : الخوف من فقد ثقة الآخرين فى قدرتنا على الابانة ومراعاة المقام فيما نقوله .

فنحن نخشى من أن ينبو الناس عما نريد الافصاح عنه من كلام . ولعلنا نطمع فى أن ينصت إلينا الآخرون ونحن نتحدث باحترام وتقدير لمضمون كلامنا ولطريقة سوق ما نريد الإبانة عنه من أفكار . ونحن نخشى من أن يتهمنا الآخرون بالنزق والتعجل أو باللجلجة والتهتهة وغير ذلك من عيوب الكلام . ذلك أن تقدير الآخرين لنا وإقامة الاعتبار لشخصياتنا يرتبط بشكل مباشر بما نجريه على ألسنتنا من كلام وبما نفصح عنه من أفكار وباستخدمنا للمناسب من الألفاظ والعبارات فى المواقف المتباينة .

سادسا : الخوف من فقد الاعتبار بسبب قبح الخلقة أو بسبب عاهة تصيبنا أو بسبب مرض يقعدنا أو يكون معديا فيهرب منا أقرب الناس الينا :

فنحن نحب أن يقبل علينا الناس ولا ينفرون منا . نحب أن نكون مقبولين فى أنظار الآخرين ، فلا ينفرون منا بسبب حرمان وجوهنا من جمال الطلعة ، أو بسبب ثقل الدم وعدم احراز القبول بسبب فقدان الجاذبية الطبيعية . إن الشاب الذى يحس بأن أنظار الجنس الآخر تتحاشاه يحزن حزنا شديدا . وكذا فإن الفتاة الشابة التى تحس بأن الشبان لا ينظرون إليها بإعجاب بل يعتبرونها كما مهملا فى الجلسة التى تضمها معهم ، إنما تنقم على حظها العاثر . من هنا فإن الشاب والشابة اللذين حرما من الجمال الخلقى الطبيعى يحاولان تعويض ما فاتهما من جمال فى الخلقة بأن يتحليا بخفة الروح ورشاقة الحركة والإبتسامة المشرقة وبغير ذلك من أساليب سلوكية تعويضية تجعل أفراد الجنس المقابل ينجذبون اليهما بحيث يشاهدون فيهما جمالا من نوع آخر غير جمال الوجه والقد وتناسق التكوين الجسمى .

سابعا : الخوف من فقد الاعتبار الوظيفى :

فالطبيب الذى يثبت فشله فى علاج مرضاه ويواجه فى أكثر من موقف بالاتهام بأنه جاهل فى مسائل العلاج ، والمدرس الذى يهيج عليه تلاميذ الفصل وهم يحتجون عليه قائلين إنه مدرس فاشل ، وأى موظف أو عامل كائنا من يكون يحس بالفشل فى عمله وبأنه لا يلقى من الآخرين سوى الازدراء والتحقير ، إنما يعيش نهاره يائسا كما يسهر ليله مؤرقا . ونحن فى مواقعنا الوظيفية نخشى من فقد اعتبار الآخرين لنا فيما تخصصنا فيه من أعمال ، وفيما أوكل إلينا من وظائف ومسئوليات.من هنا فإن كل واحد منا يحاول بقدر مستطاعه أن يكتسب الخبرات التى

تجعله جديرا بأداء ما عليه من واجبات باتقان ، فيحظى بذلك بتقدير الآخرين له وبالتالى فإنه يذب عن نفسه الخوف من فقد الاعتبار .

الخوف على الآخرين :

نستطيع أن نقول إن الحب يجمع بين قلوب الناس ويلحمهم بعضهم إلى بعض بوشائج متينة ، ويجعل منهم كائنا حيا روحيا وجمعياً فى نفس الوقت . فالزوج الذى يحب زوجته لا يعودان بعد اثنين ، بل يصيران شخصية واحدة مركبة منهما معا . وعندما ينجبان أطفالا فإن أولئك الأطفال يلتحمون بهما التحاما روحيا بحيث تشكل تلك الأسرة المتحابة والمترابطة كيانا مركبا هو شخصية متمايزة لتلك الأسرة .

وفى مثل هذه الأسرة المتماسكة بوشائج الحب العميق تجد أن التضحية المتبادلة هى القاعدة المتبعة بطريقة لاشعورية غير مقصودة . فكل واحد منهم يقدم رغبات الآخرين على رغباته ، بل إن كل واحد منهم يهتم بمصالح ومشاعر وآمال والآم الآخرين أكثر مما يهتم بمصالحه ومشاعره وآماله والآمه . بيد أن هذا لا يعنى أن أبناء وبنات تلك الأسرة المتحابة يظلون بنفس القدر من التعلق والارتباط بالوالدين حتى بعد أن يكبروا ويصيروا مؤهلين لتحمل مسئولية تكوين أسر جديدة خاصة بهم . فالواقع أن هناك بالطبيعة ما يدفع بالأولاد والبنات إلى الفطام الوجدانى . فهم مع نموهم يبدآن فى التخلص من تلك الروابط التى كانت تحصر نطاق الوجدان فى أفراد الأسرة اذ تتفتح آمامهم مجالات جديدة يصبون اليها اهتمامهم ويبأورون حولها عواطفهم .

على أن ذلك الاستقلال العاطفى من جانب الأولاد والبنات حال نضوجهم لا يتبعه فى الغالب استقلال عاطفى من جانب الوالدين . صحيح ان الوالدين يرضخان للأمر الواقع ، ولكن شدة لهفتهما على ابنائها وبناتهما تظل معتملة فى أوصالها بحيث نجد أن تعلق الوالدين بهم تكون أكثر بكثير من تعلق أبنائهما وبناتهما بهما .

ولكن هذا لا يعنى أن الأبناء والبنات الذين نشأوا فى أحضان مثل تلك الأسرة المتحابة يصيرون فى موقف اللاأمبالاة بتجاه الوالدين أو بتجاه سائر الأخوة والأخوات . فالواقع أن بذور الحب التى غرست فى قلوب الأبناء والبنات تظل مؤثرة فيهم على الدوام وبخاصة اذا لم يحدث من المشكلات والخلافات ما يعكر الصفو ويمزق الوشائج الوجدانية التى ربطت بينهم منذ الطفولة . فالأبناء والبنات يظلون فى العادة مهتمين كل الاهتمام بجميع أفراد الأسرة . وهكذا يظل الشغف بالوقوف على أخبار الجميع والاطمئنان على حسن سير أحوالهم الشغل الشاغل لكل واحد منهم .

وهذا فى الواقع هو الذى يفسر لنا خوفنا على أحبائنا . فنحن لا نخاف على أنفسنا فحسب ، بل نخاف أيضا على من تربطنا بهم صلات روحية متينة . ولا يقتصر خوفنا على أحبائنا فى نطاق الأسرة التى نشأنا فيها ، بل إن ذلك الخوف قد يغطى بعباءته الكثير من الأقرباء والأصدقاء ولقد تربط العواطف خارج نطاق الأسرة بين القلوب بوشائج أقوى من تلك الوشائج التى تربط بين قلوب أفراد الأسرة الواحدة بعضهم وبعض . فلقد تجد صديقين يحبان بعضهما البعض بوشائج أقوى من تلك الوشائج التى تربطهما بأخوتهما وأخواتهما ، بل وأيضا بالوالدين ذاتهما .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الديناميات السيكولوجية التى تعتمل بدخائلنا ونحن نخاف على أحبائنا . وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل ينبغى أن نستعرض ثلاثة أجهزة نفسية أساسية تلعب أدواراً رئيسية فى مشاعرنا وفى علاقاتنا بالآخرين . وأول هذه الأجهزة جهاز « الأنا » . وهذا الجهاز يهتم اهتماما خاصا بشخصياتنا من جميع الجوانب الجسمية والوجدانية والعقلية واللغوية والاجتماعية . ونحن فى استعراضنا لجهاز الأنا لا يهمنا اذا كان ما نعزوه اليه مطابقا لما ذهب اليه فرويد أو لا ينطبق . فنحن وان استعرنا المصطلحات الفرويدية ، فإننا قد نلبسها نفس الأثواب التى ألبسها لها فرويد ، أو قد نجدد فى تلك الأثواب قليلا أو كثيرا .

وبالنسبة للجهاز الثانى ، أعنى « الهم » فإننا نعنى به إحساسنا الداخلى بالموضوعية التامة غير التعلقية بالآخرين . فعندما أشاهد شخصا ما لا أعرفه سائرا فى الطريق ، فإنى لا أحس قبالته بالحب أو بالكرهية . انه يشكل فى نظرى « هو » واذا كان ذلك الشخص الذى يقع عليه بصرى امرأة لا أعرفها وأنا لا أحس قبالتها بأى انجذاب أو نفور ، فإنها لا تشكل فى نظرى سوى « هى » واذا ما صادفت مجموعة من الناس لا أعرف منهم أحدا ولا تربطنى بهم أية صلة ، فإنهم يشكلون فى نظرى « الهم » فتعريفنا « للهم » يؤكد على الحيادية فى المشاعر تجاه مجموعة من الناس لا تربطنى بهم مشاعر محددة يمكن وصفها بأنها حب أو بأنها كراهية .

أما الجهاز النفسى الثالث فهو جهاز « النحن » . فأنا وزوجتى وأولادى نشكل فى أعماق كل واحد منا جهازا نفسيا هو جهاز النحن . وجهاز « النحن » الذى يوجد فى شخصية كل منا قد يتسع بحيث يضم فى نطاقه الأقرباء والأصدقاء وقد لا يتسع إلا لأفراد الأسرة المباشرين أو هو قد يضم بعض الأصدقاء أو بعض الأقرباء ، بينما يطرد منه أفراد الأسرة المباشرين اذا كانت هناك أسباب قد عملت فى فصم عرى الحب بين ذلك الفرد وبين جميع أفراد أسرته المباشرين ، أعنى الوالدين والأخوة والأخوات ، بفرض أن ذلك الشخص هو أحد الأبناء .

ولقد نجد بالنسبة للشخص الواحد تباينا فى قوة أجهزته النفسية الثلاثة فتجد أحد الأجهزة لديه أقوى من الجهازين الآخرين . فمثلا يكون لديه جهاز « الأنا » أقوى من جهازى « الهم »

« والنحن » ولقد يكون جهاز « الهم » لديه هو أقوى الأجهزة وقد يكون جهاز النحن هو أقوى الأجهزة النفسية التى تلعب دورا أساسيا فى حياة ذلك الشخص .

وبالنسبة للشخصيات التى يبدو لديها الخوف الشديد على أحبائها ، فإننا نؤكد أن جهاز النحن لديها – أعنى لدى تلك الشخصيات – يكون أقوى بكثير من جهازى « الأنا » « والهم » فهم يغلبون حبهم للآخرين الذين يحبونهم على حبهم لأنفسهم ، كما أنهم لا يجعلون جهاز « الهم » هو المسيطر على أعنَّة حياتهم الداخلية فينظرون إلى من هم حولهم بنظرة اللاآمبالاة أو الحيادية الباردة الخالية من الدفء الوجدانى .

والواقع أن التأكيد على جهاز من هذه الأجهزة الثلاثة واعطاءه نصيب الأسد على حساب الجهازين النفسيين الآخرين يجرنا إلى تقسيم الناس جميعا إلى ثلاث فئات أساسية : فثمة فئة الأنانيين وهم الذين يلتفون بوجداناتهم حول أشخاصهم ، ثم هناك فئة الهميين (وقد تجنبنا استخدام لفظ « الغيريين » altruists حتى لا يفهم بمعنى مضاد لمعنى « الأنانيين ») والهميون لفظ مشتق من كلمة « هم » وهؤلاء هم فئة الأشخاص الذين ينظرون بعدم اكتراث إلى ما قد يصيب الآخرين بمن فى ذلك أقرب الناس اليهم – كالوالدين مثلا – من أضرار أو مخاطر . أما الفئة الثالثة فهى فئة « النحنيين »(اشتقاق من كلمة نحن) فهم أولئك الذين يكون جهاز النحن لديهم قويا بحيث يحسون بأنهم وأحباءهم يشكلون جسما واحد وقلبا واحدا وروحا واحدة .

ويهمنا التركيز على هذه الفئة الثالثة – فئة النحنيين – لأنها هى التى تهمنا فى هذا المقام . ولقد يصح لنا أن نتساءل عن المظاهر السلوكية التى تتبدى لدى أفراد هذه الفئة قبالة أحبائهم وتنم على خوفهم عليهم . إننا نستطيع تلخيص تلك المظاهر السلوكية فيما يلى :

أولا : القلق بسبب الغياب أو التأخر عن الوصول :

فالأم من فئة « النحنيين »تبدى الهلع اذا ما تأخر ابنها بالمدرسة اذا كان طفلا ، واذا تأخر بمقر العمل اذا كان موظفا . ولعل من الظواهر السلوكية الشائعة بهذا الصدد التردد على النافذة والترقب من بعيد ، وكذا الاتصال تليفونيا بالمكان أو الأمكنة التى يحتمل أن يكون الشخص المحبوب قد اتجه اليها أو انشغل بها .

ثانيا : التناغم وجدانيا مع مشاعر الحبيب وبخاصة اذا تعرض ذلك الحبيب لأزمة نفسية أو لمشكلة فى دراسة اذا كان طالبا أو بالعمل اذا كان موظفا .

فالأسرة المتلاحمة وجدانيا – وهى الأسرة التى نجد جهاز النحن عند كل فرد من أفرادها أقوى من الجهازين الآخرين – أعنى جهاز الهم وجهاز الأنا – تتناغم وجدانيا مع أى مشكلة

أو أى هم أو ألم يصيب أى فرد فيها . ولا شك أن ذلك التناغم يساعد العضو صاحب المشكلة على تحمل مشكلته بسبب المشاركة الوجدانية التى يلقاها من جميع أفراد أسرته .

ثالثا : القلق على الحبيب فى حالة إصابته بمرض أو اذا تعرض للاصابة فى حادث :

ذلك أن النزعة النحنية التى تستولى على مجموعة الأحباء تجعلهم فى حالة من التوتر الشديد قلقا وهلعا على صحة وحياة المحبوب . ولقد تكون المخاوف على الحبيب مخاوف موهومة أو مبالغا فى تخيلها بسبب ما يمكن أن ينسجه الخيال من أوهام تتعلق بما يمكن أن يفضى اليه المرض ، أو بما يمكن أن تؤدى اليه الإصابة بعاهة تقعد ذلك الشخص المحبوب عن مزاولة مناشطه ووظائفه المنوطة به فى المجتمع .



هل تتطابق مخاوف أهل الريف مع مخاوف أهل المدينة ؟

الفصل السابع
المخاوف عند أهل الريف وعند أهل المدينة

المخاوف المشتركة والمخاوف المتمايزة :

الواقع إن المدينة ظهرت وثبتت أركانها بعد أن استمر وجود القرية حقبا كثيرة . ومن هنا فان أهالى المدينة – مهما بعد بهم العهد بها وقد امتدت جذور آبائهم وأجدادهم فيها – فانهم قبل ذلك كانوا من أهل الريف . فالمدينة ولدت فى حضن الريف ، أو قل إن المدينة نشأت عالة على الريف ، وما تزال وستبقى عالة عليه . فالمدينة هى الامتداد الطبيعى للريف وليست شيئا مقطوع الصلة به .

من هنا فثمة قطاع مشترك بين أهل الريف وأهل المدينة ، سواء فى الناحية الوجدانية أم فى الناحية العقلية ، أم فى الناحية اللغوية ، أم فى الناحية الاجتماعية . فطالما أن الريف والمدينة ينخرطان فى اطار قومى واحد ، فان قطاعا مشتركا من الناحية النفسية يجمعها . ولعلنا لا نخطىء اذا ما قلنا إن الريف يستحيل تدريجيا إلى مدينة ، وذلك بفعل عاملين أساسيين : الأول – عامل الهجرة الداخلية من الريف إلى المدينة ، والثانى – انتقال الحضارة بما تتضمنه من أفكار وقيم وتكنولوجيا من المدينة إلى الريف فتغير الملامح الوجدانية والعقلية واللغوية والاجتماعية لدى سكانه .

وهناك فى الواقع مخاوف مشتركة تتبدى لدى أهل الريف وأهل المدينة على السواء يمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا – الخوف من المرض والموت : فلا شك أن الناس جميعا يخشون الإصابة بالأمراض التى تفقدهم حيويتهم وتعوقهم عن ممارسة مناشطهم والتى قد تؤدى بهم إلى الموت . والواقع أن العدوين اللدودين للانسان يتمثلان فى المرض والموت . وحتى عندما يتسنى للإنسان أن يتغلب على بعض الأمراض ، فان ثمة أمراضا أخرى تستعصى على العلاج ، أو تكون أمراضا مستحدثة أو متكثرة بسبب عوامل حضارية كالاشعاعات الذرية ونحوها مما يتواكب مع المكتشفات والتجارب التى يجريها العلماء أو التى يفتنون فى تطويرها وتعقيدها . أما الموت فإن الإنسان لا ولن يطمع أو يطمح إلى مغالبته ، وان كان يتمنى محاولا التخفيف من حدة أسبابه .

ثانيا – الخوف من القوى الغيبية والحسد : فأهل الريف وأهل المدينة على السواء يخافون من الانتقام الآلهى نتيجة ارتكاب خطايا أو نتيجة الإهمال فى العبادة . ويخافون أيضا من عين

الحسود من الناس المحيطين بهم . فالحسود شخص يوقع الضرر بعينه عندما يعجب بشىء أو بشخص ما . أو يوقعه بلسانه اذا امتدح ذلك الشىء أو ذلك الشخص . فالانبهار عند الحسود تكون له نتائج وخيمة على الشىء أو الشخص الذى ينبهر به .

ثالثا – الخوف من الفقر : فأهل الريف وأهل المدينة على السواء يخشون الفاقة والعوز . ولقد ينتشر الخوف من الفقر حتى بين صفوف الأغنياء جدا ، بحيث يصير للمال قيمة قدسية هائلة . فهم عندما يفقدون جانبا من أموالهم الطائلة ، فانهم يخافون من أن تُكتسح جميع أموالهم فيصيرون من الفقراء . والواقع أن الكثير جدا من الكماليات تستحيل إلى ضروريات مع تواتر استخدامها والاعتياد عليها . فالسيارة الخاصة مثلا لا تصير من الكماليات بعد الاعتياد على استخدامها دون المواصلات العامة . فاذا ما تهشمت السيارة وصارت غير قابلة للاستعمال ولا يوجد المال الذى يكفى لشراء سيارة جديدة لتحل محل السيارة المعطوبة ، فإن صاحبها غالبا ما يحس بأنه قد صار فقيرا . فهو برغم قدرته على أن يعيش بنفس المستوى المعيشى الذى اعتاده . فإنه يحس بالخوف من الفقر يحيق به ويتربص به الدوائر . وأهل الريف وأهل المدينة فى هذا الشأن سواء . فكلاهما يخاف من الفقر والضياع الاقتصادى .

أما من حيث المخاوف التى تستولى على قلوب أهل الريف ولا تكاد تهدد الأمن النفسى لأهل المدينة . فانها تتلخص فيما يلى :

أولا – الخوف من الضغوط الأسرية والعشائرية : فبينما نجد أن أهل المدن قد تحرروا إلى حد بعيد من ضغوط الأسرة ، فاننا نجد أن أهل الريف يخشون خشية كبيرة من الخروج على التقاليد الاجتماعية أو على ما تريده الأسرة . فنحن نجد للكبار فى القرية سطوة ونفاذ رأى على الصغار حتى فيما يتعلق بالأمور الشخصية جدا بما فى ذلك الزواج . فليس بمستطاع الريفى أن يتزوج من غير بنات أسرته . واذا كان هذا هو حال الشاب الريفى ، فما بالك بحال الشابة الريفية . إنها تخاف من أن تخالف عن رأى الوالدين . بل إن الوالدين أيضا قد يكونان مسوقين فى أمور زواج أبنائهما وبناتهما بأعراف وتقاليد الريف أو بما يرتئيه الكبار من أهل القرية . ويتبدى الخوف أيضا من جماعية الرأى فى القرية فيما يتعلق بالأخذ بالثأر وبخاصة فى قرى الصعيد بمصر . فالأمر فى أيدى الكبار . فهم الذين يحددون من يقوم بأخذ الثأر من أعداء الأسرة أو من أعداء القرية بكاملها من القرية المجاورة .

ثانيا – الخوف من الأعمال السحرية : فبينما نجد أن أهل الريف وأهل المدينة على السواء يخافون من الحسد ، فاننا نجد أن أهل الريف يخضعون للخوف من أن يحاك لهم سحر فتقع عليهم أضرار بالغة . فيقال مثلا فى القرى إن السحر يمكن أن يعطل الزواج ، أو أن يعمل على إفساد

عرى الزوجية أو أنه يسبب الشجارات بين الأهلين ، أو يسبب المرض أو يصيب المواشى بالأمراض التى تفتك بها وتأتى عليها . فعندما تقع المصائب على إحدى الأسر ، فإن أهل القرية يبدأون فى التهامس بأن عدوا لتلك الأسرة قد حاك ضدها سحرا فأفقدها قدرتها على الدفاع النفسى عن كيانها . ومن هنا فان أهل الريف يتملقون الأشخاص الذين يزعمون أن لديهم قدرة خارقة على حوك السحر أو ذبه عنهم اذا ما حيك ضدهم . ويتبدى مثل هذا الخوف فيما يقدمونه من هدايا للساحر ، أو فيما يرضخون له ويبدونه من طاعة لما يفرضه عليهم الساحر الذى يتخذ لنفسه فى الغالب صفة التقوى والورع زاعما أن ما يحوكه من سحر ليس بسحر ، وإنما هو قوة روحية تأتت له نتيجة تقواه وورعه العميقين.

ثالثا – الخوف من أصحاب النفوذ ومن بيدهم المنح والمنع : فأهل الريف ينظرون بالاجلال إلى العلماء فى كافة المجالات . وأصحاب النفوذ فى أنظارهم هم أشخاص يعرفون كيف يتصرفون وكيف يفكرون بالطريقة الصحيحة والعلمية وذات الفاعلية . وقد يصل الاحترام إلى درجة الخوف . ومن هنا فإن بعض الذين يوكل اليهم خدمة أهل الريف يستغلون مشاعر السذج منهم لاشاعة الخوف فى قلوبهم بحيث يحسون بأن فى أيديهم سلطة مطلقة لا راد لها ، فيأكلون حقوق الفلاحين أو يستغلونهم فى تحقيق مآربهم الخاصة .

أما المخاوف التى تسيطر على أهل المدينة دون أهل الريف ، فانها تتلخص فيمايلى :

أولا – الخوف من حوادث الحضارة : فثمة الخوف من الدعس تحت عجلات السيارات أو الترام ، والخوف من الانصعاق بماس كهربى نتيجة خطأ أو إهمال . والخوف من انهيار العمارة التى يقطنها المرء أو حتى انهيار عمارة مجاورة تتسبب فى انهيار ما يجاورها من عمائر وما يترتب على ذلك من موت وخراب ، والخوف من نشوب الحرائق نتيجة إهمال أو نتيجة انفجار احدى أنابيب البوتاجاز أو نتيجة ماس كهربائى .... الخ .

ثانيا – الخوف من الجوع أو العطش : فسكان المدينة يقطنون بيئة اصطناعية تمام الاصطناع . فالشوارع بها لا تنبت قمحا ، بل القمح يستورد من الريف أو حتى من دولة بعيدة بقارة أخرى كأمريكا مثلا بالنسبة لمصر . والماء يستمد من النيل ولكنه يسير فى مواسير ومضخات والآت تقوم بتنقيته . فماذا يحدث اذن اذا لم يستورد القمح وغيره من مواد غذائية كاللحوم والأسماك والدواجن من خارج نطاق المدينة ؟ وماذا يحدث اذا ما تعطلت أجهزة تنقية الماء وضخها بالمواسير؟ إن أهل المدينة يعيشون فى خوف من حدوث مفاجآت دولية – كقيام حرب أو حدوث قحط – فتحدث الواقعة الرهيبة وهي التعرض للجوع حتى الموت . إن الواحد منهم عندما يقرأ عن وقوع مجاعات فى الهند مثلا ، فإنه يتساءل بينه وبين نفسه : هل يمكن أن يقع لنا مثل هذا فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد ؟

ثالثا – الخوف من المجرمين : فساكن المدينة يخاف من أن ينشل أحد النشالين حافظة نقوده ، ويخاف من أن يرجع إلى بيته فيجده قد نهب بواسطة إحدى العصابات . ويخشى صاحب السيارة أن يجد سيارته قد سرقت أو نهبت . وفى أطراف المدينة تخشى السيدة من أن تسير وحدها لئلا تقع بين أيدى عصابة من الشباب يعتدون عليها ويغتصبونها ويسرقون ما تحمله من مصاغ بالاكراه . ويخاف ساكن المدينة من الوقوع فريسة فى أيدى النصابين الذين يوقعونه فى شرك شركة وهمية للبناء مثلا ويسرقون نقوده . أو يخشى صاحب العمارة من أن يقوم شخص مجهول باحتلال احدى الشقق الخالية فى عمارته بغير عقد وهو الذى كان يحتفظ بها لتزويج ابنته فيها إلى غير ذلك من مخاوف يوقعها المجرمون بكافة صنوفهم فى قلوب سكان المدينة

توارث الخوف عند أهل الريف :

الواقع أن أهل الريف يكونون جسما معنويا مترابط الأجزاء المتفاعلة بعضها مع بعض أشد التفاعل . وهذا الجسم له امتدادان أساسيان : الأمتداد الأول – هو امتداد آنى ، بمعنى أن سكان القرية الواحدة فى الوقت الواحد يشكلون كيانا عضويا واحدا . أما الامتداد الثانى – فهو امتداد تعاقبى أو تاريخى . وفى هذا الامتداد الأخير نجد أن الاجيال المتعاقبة فى القرية الواحدة يشكلون قواما روحيا مستمرا غير مجزأ . ومعنى هذا أن مجتمع الريف يتصف بالاستمرارية فى نطاق المكان من جهة ، وفى نطاق الزمان من جهة أخرى .

ومما يساعد على هذه الظاهرة الاستمرارية فى القوام الروحى لأهل الريف الزواج من داخل القرية فى الغالب وليس من خارجها . وأكثر من هذا فان معظم الريفيين يتزوجون من الأقرباء المباشرين ، أعنى الزواج بابناء وبنات العم وبأبناء وبنات العمة ، وأبناء وبنات الخال أو الخالة . فثمة تقاليد مترسخة بهذا الصدد تتأبى على التطور والتليين فى الغالب . فتلك التقاليد تقضى بعدم الزواج من الخارج . والشأن هنا كالشأن بالنسبة لنظام الزواج فى القبائل المتباينة .

من هنا فان ما يعتمل فى قلوب أهل الريف من مخاوف يظل يعمل عمله فى قلوب الأجيال التالية بالقرية . فكما أن الوراثة الفردية للمخاوف تتبأور فى هيئة غريزة نسميها بغريزة الخوف ، كذا فان الوراثة الجمعية فى الريف تتبأور فى هيئة تقاليد اجتماعية وأعراف تقاوم التطوير أو التليين . فالواقع أن التقاليد والأعراف بالريف هى خبرات متراكمة ومركزة ومضغوطة بحيث تشبه أن تكون غريزة جمعية . فسلطان التقاليد والأعراف الاجتماعية بالريف لايقل سطوة وتسلطا على أهل الريف من الغريزة تسيطر وتتحكم فى السلوك الفردى .

واذا كان لنا أن نقول إن الغريزة الفردية كغريزة الخوف تقبل بعض التهذيب والتعديل ولكن بدرجات بسيطة ، كذا فاننا نستطيع أن نقول بنفس الدرجة من الصدق ان التقاليد

والأعراف الاجتماعية قد تقبل التعديل والتطوير والتليين وان كانت تقاوم مثل ذلك التعديل والتطوير والتليين. فكما أن الغريزة بمثابة طبيعة ثانية للمرء . كذا فان العادات والتقاليد الاجتماعية تشبه أن تكون طبيعية ثانية للمجتمع الريفى.

فالمخاوف عند أهل الريف تنزل من جيل سابق إلى جيل لاحق كما هى اللهم الا اذا قامت المدينة بغزو الريف وعملت على إحالته من كونه مجتمعا ريفيا إلى كونه مجتمعا حضرياً. فاذا ما حدث مثل هذا التطور فى القوام الذاتى للقرية فيكون معنى هذا أن تستحيل عن طبيعتها الأصلية إلى طبيعة أخرى مغايرة ، وبالتالى فإن جميع الأحكام التى نطلقها عليها كقرية لاتجوز عليها اذن . وذلك لأنها تكون قد فقدت طبيعتها وغيرت جلدها ولم تعد قرية . بل تكون فى هذه الحالة قد استحالت إلى ما يشبه المدينة أو إلى مدينة بالفعل.

وثمة فى الواقع مجموعة من العوامل المساعدة فى توارث الخوف عن أهل الريف نستطيع تلخيصها فيما يلى :

أولا – تغلب الوجدان على العقل : فالواقع أن من أهم خصائص أهل الريف انغماسهم فى الناحية الوجدانية مع عدم قدرتهم على التحكم بالمنطق فى العواطف والانفعالات . فهم يناظرون مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة بالنسبة لحياة الفرد العاقل من الناس . فكما أن الطفولة والمراهقة تتسمان بشدة واهتياج العواطف والانفعالات وعدم تحكيم العقل فى المواقف المتباينة . كذا فان أهل الريف ينساقون وراء عواطفهم وانفعالاتهم بحيث لايستطيعون تمحيص ونقد مايلم بهم من مخاوف تساورهم وتستولى على قلوبهم المرتجفة . بيد أن هذا لاينطبق بالطبع على جميع أبناء الريف . انه لا ينطبق على الحكماء الموجودين بالريف . بل ينطبق على عامة الفلاحين الخاضعين لتوجيه الكبار الحكماء من حولهم . فأولئك الكبار الحكماء يتمتعون فى الواقع بقدر من التفكير لا يتطامن إليه سائر أهل القرية .

ثانيا – القابلية الشديدة للإيحاء والتقليد : فأهل الريف يخضعون لما يتلقونه من ايحاءات مقصودة أو غير مقصودة . كما أنهم يميلون إلى تقليد الآخرين فيما يبدونه من انفعالات واهتياج فى الوجدانات . وانك لتجد أن النزعة لدى أهل الريف نحو تقبل الايحاءات واقتباس الحركات المتطابقة لما يشاهدونه حولهم ، إنما يساعد على طبع أهل القرية بنوع من التطابق الوجدانى والانفعالى . فجميع أهل القرية يخافون من نفس الشىء وبدرجات متقاربة من الخوف . والواقع أن القابلية الشديدة للايحاء والتقليد لما يسمح بأن يكون توارث المخاوف جيلا عن جيل سابق أمرا ممكنا بل أمرا محتوما .

ثالثا – التناغم الوجدانى : وهذا يرتبط بالقابلية للايحاء والتقليد ، ولكن يتميز منهما بأنه طفرى وفورى ولا يحتاج لوقت يعتمل خلاله . فاذا ما وقع ذعر بين جمهرة من الناس .

فان تناغما وجدانيا انفعاليا يحدث بشكل مباشر حتى بغير تبين لأسباب ذلك الذعر . إنه ارتجاف قلبي مباشر ليس بحاجة إلى خطوات معينة يمر خلالها . فالمخاوف الجمعية تنساب فى قلوب الجميع بغير أن تكون بحاجة إلى مرحلة إيحائية أو إلى مرحلة تقليد تحتل وقتا . بيد أننا نستطيع القول بأن التناغم الوجدانى يسير جنبا لجنب مع العامل السابق ، أعنى القابلية الشديدة للايحاء والتقليد . ففى بعض المواقف يكون الأمر بحاجة إلى فترة يتم خلالها حدوث الايحاء أو التقليد ، وفى بعض المواقف الأخرى لايكون الموقف بحاجة إلى ذلك ، بل يتم انتقال الخوف طفرة واحدة وبغير احتلال أى وقت ، فيكون انتقاله طفريا وفوريا بالتناغم الوجدانى .

رابعا – التطابق المعرفى والوجدانى بين أهل الريف : فالواقع أن القرية غير المتطورة تشكل مستوى معرفيا ووجدانيا تطابقياً بالنسبة لجميع الافراد المشكلين لها . فثمة مستوى محدود من المعرفة من جهة ، وثمة تغيرات معرفية ضئيلة تطرأ عادة على عقول أهل القرية من جهة أخرى . ونفس الشيء بازاء الحالة الوجدانية التى تشيع بين القرويين . فثمة ما يشبه أن يكون تطابقا معرفيا ووجدانيا بين الجميع . وحتى الأطفال فانهم سرعان ما يصلون إلى ذلك المستوى المعرفى والوجدانى غير النامى وغير المتطور الذى بلغه الكبار من حولهم . ونذكر مرة أخرى بأننا لا نعرض هنا للقرية التى تم غزوها من الخارج من جانب المدينة ، بل نعرض للقرية المنغلقة على ذاتها .

خامسا – العقل الجمعى وانخفاض الذكاء : فمن الحقائق المعروفة أن المجتمع المتكتل يسير فى أموره المتباينة بحصيلة عقول أفراده ، وهو ما يطلق عليه اسم العقل الجمعى . والواقع أن العقل الجمعى يكون عادة أخفض ذكاء من عقول أفراده . ومن المعلوم أن الذكاء كلما انخفض فان العواطف والانفعالات تصير هى المتحكمة فى مقود الشخصية . وبالتالى فان المخاوف التى تعتمل فى أوصال مثل ذلك المجتمع الذى تتحكم فيه العواطف والانفعالات بسبب انخفاض الذكاء الجمعى تصير ذات فاعلية فى جميع أنحاء سلوكه ومناشطه المتباينة .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن النتائج التى تترتب على توارث المخاوف بالمجتمع الريفى . وهنا نقع على مجموعة من تلك النتائج من أهمها مايلى :

أولا : اذا لم تتطور القرية ، واذا لم تغز الحضارة المجتمع الريفى ، فان المخاوف تأخذ فى التزايد بصورة مطردة . ذلك أن عوامل الخوف القديمة تتضاف إلى عوامل الخوف المترتبة على مواقف الحياة الجديدة . ولكن من حسن حظ المجتمع الريفى أن غزو الحضارة له واستحالة مجتمع القرية إلى مجتمع مدينة أو شبه مدينة يعمل على تفكيك الأوصال والتخلص من مركبات الخوف المتوارثة جيلا بعد جيل .

ثانيا : الأخذ بكثير من ألوان السلوك ونشوء كثير من العلاقات الاجتماعية التى تترتب على

انتشار الخوف الجمعى . من ذلك مثلا نشوء ظاهرة الأخذ بالثأر أو قيام المعارك المستعرة بين قرية وأخرى . والواقع أن الكثير من مظاهر الغضب أو القسوة إنما ينشأ عن اعتمال الخوف فى النفوس . فلا يكون الغضب أو القسوة شاهدين على الشجاعة والبسالة ، بل يكونان شاهدين على الارتجاف والارتعاد والهلع .

ثالثا : الأخذ بالتقاليد المتحفظة جدا والمتحجرة جدا والرجعية جدا . فكثير من ألوان السلوك التى تبدو كما لو أنها استمساك بالخلق الكريم لا يعدو أن يكون شاهدا على المخاوف المعتملة فى النفوس . ذلك أن الخوف لايقتصر على الخوف من أشياء محسوسة ، بل قد يمتد الخوف إلى معان وأفكار وقيم تكون بمثابة سيف مصلت على الرقاب . فمن الصعوبة بمكان أن يتخفف الريفيون من تلك الأغلال التى يرزحون تحتها والتى ينوءون بحملها .

رابعا : الخوف من الغرباء والتحرز فى معاملتهم والاتصال بهم والأخذ عنهم . فتجد أن اعتمال الخوف لدى الريفيين يحول بينهم وبين الافادة من خبرات غيرهم من الغرباء عنهم .

جماعية الخوف عند أهل الريف :

قلنا ان المجتمع الريفى مجتمع كتلى تتناغم فيه الوجدانات والانفعالات بدرجة كبيرة ، كما لو أن جميع أفراد ذلك المجتمع يشكلون جسما واحدا له نبض وجدانى واحد ؛ وهذا يسوقنا إلى مدارسة ظاهرة جماعية الخوف عند أهل الريف . ونقصد بجماعية الخوف ذلك الشعور الجمعى بالخوف يسرى فى شرايين ذلك المجتمع بشكل دائب ومتواتر . صحيح أن الخوف الجمعى يتزايد شدة من موقف لآخر ، ولكن نستطيع القول بأن السمة السائدة بذلك المجتمع هى الخوف الذى يغطى بعباءته القوام الجمعى لذلك المجتمع الريفى .

ولعلنا نتدارس الأسباب التى تجعل جماعية الخوف بالمجتمع الريفى أمرا واقعيا خاليا من الخيال أو المبالغة . ونستطيع أن نحدد تلك الأسباب فيما يلى :

أولا – فالمجتمع الريفى يدافع عن وجوده واستمرار ذلك الوجود بأن يتحاشى الاتصال بالمجتمعات الأخرى ، وبخاصة مجتمع المدينة . فهو يخاف بشكل جماعى من تفكك الأوصال والتشتت . فأهل الريف يعلمون أن إقامة اتصالات مستمرة بالمجتمعات الأخرى سوف تحملهم على إضاعة الكثير جدا من التماسك بل ووقوع الاندماج مع تلك المجتمعات ، وبالتالى فانهم يفقدون إنيتهم وهويتهم .

ثانيا – إن المجتمع الريفى يتمسك بالتقاليد والعادات والقيم التى ينوطها بالإجلال والتقديس ، وهو يرى أن تلك التقاليد والعادات والقيم أهم بكثير من أية فائدة مادية محسوسة . ومن هنا فانه دائم الخوف من زلزلة أسسها وضياعها اذا ما خالط مجتمعات أخرى

لها تقاليد وعادات وقيم أخرى مباينة لما دأب على الأخذ به والسير فى هديه .

ثالثا – إن المجتمع الريفى يندم على كل تطور أو تغير لحق بقوامه نتيجة احتكاكه بمجتمعات أخرى غريبة عنه . وهو يخشى من أن تضيع باقى ملامحه الذاتية إذا هو استمر فى التطور والتغير . من هنا فاننا نجد زعماء ذلك المجتمع الريفى يحذرون من الاستمرار فى التطور من جهة ، ويدعون إلى الرجوع إلى الأصول القديمة والأخذ بها وخلع الأثواب المستعارة من المجتمعات الغريبة عليه من جهة أخرى . والواقع أن جماعية الخوف المعتملة فى أوصال المجتمع الريفى هى التى تجعله متصفا دائما بالرجعية .

رابعا – إن جماعية الخوف التى تسيطر على المجتمع الريفى هى التى تجعله ينظر بكثير من التشكك والتخوف ، بل وبالنبذ والازدراء إلى جميع الأفراد الذين ينادون بالتطوير والتغيير برغم أن أولئك الأفراد مفروزون من صلبه وقوامه وليسوا غرباء عنه .

خامسا – قد تغطى جماعية الخوف بالمجتمع الريفى بعباءتها على جميع الأنحاء فى حياة ذلك المجتمع بما فى ذلك الأشياء التى لاصلة لها فى الواقع بالقوام الروحى لذلك المجتمع . فالتعميم هو الذى يشيع – أو قل الذى يشيعه ذلك الخوف الجماعى – فى جميع أنحاء الحياة بالمجتمع الريفى . من ذلك الخوف من تغيير الأدوات المستخدمة فى الصناعات اليدوية وغيرها . فثمة اعتقاد سائد عند أهل الريف مؤداه أن الأدوات والمخترعات المستحدثة تحمل فى طياتها هدما للقيم المتأصلة بالمجتمع الريفى . فتلك المخترعات والأدوات الوافدة ليست مجرد وسائل ، بل هى قيم مجسدة فى هيئة وسائل ، بل هى قيم مناوئة وخطيرة ومفعمة بالسموم الفتاكة التى تأتى على الأسس والأصول الروحية بالمجتمع .

ولعلنا نعمد بعد هذا إلى تناول المعتقدات الريفية التى تشيع فيها وتسيطر عليها جماعية الخوف . ونستطيع أن نلخص تلك المعتقدات فيما يلى :

أولا – المعتقدات الجنسية : ففى هذا المجال الاعتقادى نجد أولا إخفاء المرأة عن أنظار الرجال خوف الفتنة والمروق عن فضيلة العفة . وفى بعض المجتمعات الريفية يتحتم إخفاء الأطفال من الأثاث بمجرد بلوغهن سن المراهقة . وتظل المرأة بعيدة عن أنظار الرجال الغرباء عن الأسرة حتى الشيخوخة . ويتبع هذا بالطبع عدم انخراط الفتيات فى سلك التعليم وعدم الاشتغال بالأعمال التى تضم الجنسين . ومن المعتقدات الجنسية بالريف إجراء عملية الطهارة للإناث وهن صغيرات حتى تفقد البنت جانبا هاما من الرغبة الجنسية حالما تشب عن الطوق . وفى كثير من المجتمعات الريفية يحرم على العريس مشاهدة عروسه حتى ليلة الزفاف . وتعتبر كثير من الأسر الريفية أن معرفة الشاب شكل وملامح عروسه بمثابة انتهاك لحرمتها وحرمة القيم المعمول بها بالقرية . وينظر إلى تعارف شريكى الحياة فى المستقبل باعتباره جريمة شنعاء . وفى

حالة ضبط شاب وشابة معا فى خلوة يتناجيان على أمل لم الشمل والزواج فان الأمر لايقف عند حد اللوم أو التوبيخ أو حتى الضرب ، بل تكون عقوبة تلك الفعلة النكراء هى القتل للعاشقين . ولدينا فى التراث الشعبى قصص كثيرة تؤكد هذا . فالخوف الجماعى يسيطر على أهل الريف باعتبار أن الجنس والمسائل الجنسية يجب أن تسير وفق قوالب جاهزة تظل ثابتة الأركان لايمسها أحد بتعديل من قريب أو من بعيد .

ثانيا – المعتقدات الدينية : لاشك أن أهل الريف بصفة عامة أكثر تقوى من أهل المدينة . بيد أن الكثير من المعتقدات الدينية بالريف يلتزم بالجزئيات وبالحواشى وبالتفسيرات والأقوال التى ربما لا يعتقد فيها المتفقهون فى المسائل الدينية من أئمة نفس الدين . فلقد تجد بعض الريفين يحتقرون المرأة ويعاملونها معاملة قاسية اعتقادا منهم أن المرأة ناقصة العقل ومارقة بطبعها ، بل إنها مصدر كل خطيئة وكل فساد على الأرض . ولقد يستند الريفى فى مثل هذا المعتقدات إلى أقوال أو إلى تفسيرات أو قصص ليست من صلب الدين فى شىء ، بل هى دخيلة على الدين أو قال بها بعض المتصدرين لتعليم الريفيين الدين من أصحاب العقول الرجعية أو المعقدة أو الكارهة للنساء لأسباب نفسية مرضية معتملة فى شخصياتهم السقيمة .

ثالثا – المعتقدات السحرية : بينما نجد أن الريفيين يأخذون ببعض المعتقدات الدينية التى ليست من الدين فى شىء كاحتقار المرأة والخوف من معاملتها بالرفق حتى لا يخرجوا عن التعاليم التى آمنوا بها مع أنها ليست من صلب الدين ، فاننا نجد من جهة أخرى أن الريفيين يعتقدون فى كثير من المعتقدات السحرية التى كثيرا ما تتداخل مع معتقداتهم الدينية . من ذلك إطلاقهم للبخور وقت صلاة الجمعة اعتقاداً منهم أن الشياطين تنتشر فى ذلك الوقت بين الأهلين لكى تنتقم منهم . ويقول بعض الريفيين بالتطير لدى مشاهدة بومة أو غراب وقد وقف على سطح البيت ، أو عندما يعوى أحد الكلاب كما يعوى الذئب . فهو لاينبح كما تنبح الكلاب ، بل يعوى كما تعوى الذئاب . اذن فلا بد أن مصيبة وشيكة الوقوع . وكثير من السحر بالقرية تستخدم فيه أسماء لشخصيات دينية مما ورد ذكرهم بالكتب المقدسة كالنبى سليمان وغيره .

رابعا – المعتقدات الاقتصادية : فالمجتمع الريفى يخاف كل الخوف من أن يغير الوسائل والمهارات التى استخدمها الآباء والأجداد القريبون والبعيدون ، وهو غير مستعد نفسيا للبحث عن وسائل أفضل أو عن مهارات أنجع يستعين بها فى تحصيل رزقه . فهو يتأبى على تعديل نمط حياته لأن خوفا يجثم عليه يهدده اذا هو أقدم على مثل هذا التغيير . وحتى القروى الذى يقوم بصيد السمك من الترعة أو من النيل ، وقد نزل فى الماء إلى حيث شبكته التى يجمعها وهو غائص حتى صدره فى الماء الآسن لا يسهل عليك تطوير ما أخذ به نفسه واعتاد عليه . فهو

يخاف من استخدام الوسائل الحديثة فى صيد السمك . فمها أخذت فى اقناعه بأن يعدل عن النزول إلى الماء حتى لايتعرض للاصابة بالبلهارسيا فانك لاتفلح فى ثنيه عما اعتاده . وكذا يقال عن الكثير من الوسائل غير السليمة أو غير الصحية أو غير الاقتصادية التى يستعين بها أهل الريف فى تسيير حياتهم الاقتصادية .

خامسا – المعتقدات الاجتماعية : فالكثير من المعتقدات الاجتماعية تنم على الرضوخ لها بغير أن تقبل التطوير أو التعديل . من ذلك مثلا الخنوع الفكرى لما ساد المجتمع الريفى من علاقات اجتماعية . كالطاعة العمياء من جانب الصغار للكبار حتى ولو كانت آراء واتجاهات أولئك الكبار فجة غير ناضجة . ومن ذلك أيضا القطيعية السائدة بذلك المجتمع . فالآراء الشخصية تعتبر فى نظر أهل الريف خروجاً على الاجماع . أو بمثابة عصيان إرادة المجموع . فأهل الريف يخافون من مروق أحد الأفراد عما يأخذ به الجميع . فالتقاليد الأجتماعية واجبة الاتباع بغض النظر عن وجود ما هو أفضل منها ، وبغض النظر عن الأضرار الناجمة عن اتباع تلك التقاليد الاجتماعية والخضوع لها . فالخوف الجماعى عند أهل الريف يلجمهم عن التخلص أو حتى عن التخفف من بعض التقاليد الاجتماعية الضارة كتلك المتبعة فى المياتم والأفراح ونحوها .

خوف أهل المدينة من طاحونة الحضارة :

على الرغم من أن الحضارة قد وفرت للإنسان الكثير من وسائل الراحة والترفيه . فانها من جهة أخرى قد أثقلت على كاهله وأرهقت أعصابه وجعلته فى حالة من التوتر الشديد مما انتهى بالكثير من أبناء الحضارة إلى الأصابة بالأمراض النفسية التى يطلق عليها البعض بحق اسم أمراض الحضارة .

والواقع أن أهل المدينة هم أكثر الناس تأثرا بما تضربهم به الحضارة الانسانية من قلق . وهم فى هذا الصدد أكثر من أهل الريف تضررا من طاحونة الحضارة التى تعمل على طحن أعصابهم وتفتيت ما تبقى لهم من شجاعة . ولعلنا نستعرض الجوانب التى تؤذى بها الحضارة إنسان المدينة وتضربه بالخوف والتوتر النفسى .

أولا – أن ابن المدينة يحس بالاغتراب والوحدة برغم الزحام البادى للعيان وبالرغم من تلاحم الأجسام فى وسائل المواصلات وفى الأسواق وأماكن الترفيه . ذلك أن الروح الجماعية مفقودة تماما أو إلى أبعد حد ممكن بالمدينة . فبقدر تقارب الأجسام بعضها من بعض ، فإن القلوب التى تسكن تلك الأجسام متباعدة بعضها عن بعض أشد البعد وأنآه . فكل واحد من أهل المدينة بعد أن يغادر بيته ويودع أفراد أسرته فى الصباح وينخرط فى ركب المدينة ، فانه يحس بأنه قد صار وحيدا فى ذلك المعمعان المضطرب وفى التيار الجارف . فذلك الإنسان اذا

ما احتاج للغوث فانه لايجد من يغيثه ، وأذا دعس أو صدمته سيارة أو حتى اذا اصطدم بأحد المارة وهو سائر على الرصيف ووقع على الأرض ، فانه لايجد من ينهضه من كبوته ، ولايجد من يسعفه اذا كان بحاجة إلى إسعاف . والواقع أن ابن المدينة يعرف هذا جيدا ، لأنه شاهد مواقف مثل هذه أصابت غيره ممن كانوا بحاجة إلى مساعدة سريعة ولكنهم لم يجدوا سوى عيون تنظر بلامبالاة أو بأسف أجوف بلا نخوة تعبر عن نفسها فى شكل تصرف ومبادأة وسرعة فى التصرف .

ثانيا – إن ابن المدينة يحس ، بل ويعلم جيدا أن المدينة مجتمع عيِّل على غيره فاذا ما حدث شيء من الاضطراب فى وسائل النقل أو فى صنع الخبز أو فى غير ذلك من وسائل إعالة أهل المدينة ، فان مجاعة فورية تقع . فكيف يعيش امروء فى مثل هذا المجتمع الذى لايعول نفسه بنفسه ولا يستولى عليه الخوف والتوتر الدائمين ؟ إن ابن المدينة قد ينبهر فى بعض اللحظات بما تعج به المدينة من أضواء ومواصلات ووسائل اتصال ونحوها ، ولكنه فى نفس الوقت يعرف أنه فى خطر محدق به اليوم أو غدا لأن مجتمع المدينة كالعملة الزائفة المبرقشة من الخارج والفارغة المضمون من الداخل .

ثالثا – إن مجتمع المدينة بتكنولوجيته يهدد الكثير جدا من سكانها العاملين بالبطالة الحقيقية أو بالبطالة المقنعة على احسن تقدير . بيد أن البطالة هى البطالة مهما اختلفت أشكالها ومهما ارتدت من أثواب أو تسمت بمسميات متباينة . والواقع أن للبطالة خطرين نفسيين على الإنسان : الأول هو الخطر الاقتصادى ، أعنى قلة الدخل أو امتناع وجوده نتيجة الاستغناء أو نتيجة العمالة الزائدة المدسوسة دسا فى مجالات العمل كتغطية أو كتمويه حتى لا تظهر مشكلة البطالة صارخة أمام الأعين وما قد يترتب على ذلك من تقلقل سياسى أو هياج شعبى . ولسنا بحاجة إلى أن نبرهن على أن الفقر ، أو حتى مجرد انخفاض مستوى المعيشة ، ينتهى إلى آثار نفسية مريرة . أما الخطر الثانى فهو خطر الاحساس بأن الشخص غير مطلوب أو أنه عالة على غيره أو أنه زائد عن حاجة المجتمع ، أو أن ما يوكل إليه من أعمال هو مجرد سد خانة ، أو بتعبير آخر فان وجود الشخص أو عدم وجوده سواء . والواقع أن ما يفت عضد إنسان المدينة هو تشاؤمه من المستقبل . فهو يرى بأم عينيه أن التكولوجيا آخذة فى جرف الأيدى العاملة أمامها بحيث أن كل آلة جديدة تستحدث وتنزل إلى سوق العمالة يستغنى بواسطتها عن مئات إن لم نقل الآف العمال . يكفى أن نضرب مثالا واحداً بالبلدوزر وكيف أنه يقوم بالعمل الذى كان يقوم به مئات من العمال وينجزه فى وقت قياسى .

رابعا – إن أخطار التكنولوجيا متزايدة باطراد . فكلما تقدم الإنسان تكنولوجيا زادت المخاطر التى تحيق به . ونستطيع فى الواقع أن نقسم المخاطر التى تحدق بانسان المدينة وتخيفه بالتالى

إلى نوعين أساسيين : النوع الأول – مباشر كأخطار وسائل المواصلات على الركاب والمشاة ، وأخطار الكهرباء ، وأخطار التسمم من العقاقير ومن المبيدات الحشرية ونحوها . أما النوع الثانى – فهو غير مباشر كتلوث البيئة مما تتسبب عنه الأمراض الصدرية والأمراض السرطانية أو الأمراض العصبية . ومن أمثلته التلوث الصوتى الناجم عن ارتفاع الأصوات وتداخلها مما يفسد الجهاز العصبى للانسان . ومن أمثلته أيضا الأمراض التى تتأتى عن تناول عقاقير لها أضرار مستخفية لم يكشف علماء الطب النقاب عنها بعد أو هم يكتشفون تلك النتائج الخطيرة والأمراض القاتلة بعد وقت يقصر أو يطول من استخدامها على نطاق واسع .

خامسا – مخاوف نفسية تتأتى عن تزلزل القيم الروحية والاجتماعية مما يهدد الاستقرار النفسى للإنسان الذى يقطن المدينة . من ذلك مثلا قيمة كقيمة التكافل الاجتماعى عن طريق مساعدة المحتاج . فلقد دأب ساكن الريف مثلا على أن يمد يد المساعدة إلى كل من يطلب منه إحسانا . ولكن ساكن المدينة يكتشف عن طريق أحد البرامج التلفزيونية أن الغالبية العظمى من المتسولين يثرون بشكل مدهش على حساب من يتسولون منهم . فلقد عرض التلفزيون فى مصر لمجموعة من المتسولين أقر بعضهم أن دخله من التسول يزيد عن عشرة جنيهات فى اليوم الواحد . فهل يستمر ساكن المدينة فى العطاء لمن يطلب منه المعونة من المتسولين ؟ الواقع أن قيمة روحية واجتماعية تتزلزل فى المدينة وهى التى كانت وما تزال مترسخة بالريف . وثمة قيم أخرى كثيرة تتزلزل كل يوم بسبب التدفق الحضارى الذى يجرف بكثير من التقاليد الاجتماعية والقيم الروحية أمامه . من ذلك مثلا مساعدة المرأة الحامل أو المرأة التى تحمل طفلا أو الشيخ أو المعوق فى وسائل المواصلات . إنك تلاحظ أن الكثير من الشباب بالمدينة قد فقدوا قيمة مساعدة الضعيف والتضحية فى سبيله وتحمل المشقة من أجله . فاليوم فلما تجد شابا لديه نخوة فيقف للسيدة الحامل أو للسيدة التى تحمل طفلا على كتفها أو لشيخ أو شيخة هرمين أو لمعوق كأن يكون شخصا ضريراً أو مفلوجا أو أعرج فيتنازل عن مقعده له فى المواصلات .

ولعلنا نتساءل بعد هذا فى عجالة عن الأسباب التى تكمن خلف خوف انسان المدينة مما أسميناه بطاحونة الحضارة . ولعلنا نلخص تلك الأسباب فمايلى :

أولا – ان إنسان المدينة يحس بأنه قد صار بمثابة طين صلصال يراد صبه فى قوالب مجهزة له من قبل . فالحضارة صارت ذات ملامح مسبقة ومحددة يراد تحقيقها فى أبنائها وبالدرجة الأولى فى أبناء المدينة . فالشخص الواحد لم يعد سوى رقم فى مجموع هائل من الأفراد . فسواء كان هذا الفرد أو ذاك فالأمر لا يختلف ولايقدم أو يؤخر . فاذا كان المطلوب هو تجهيز بضع مئات من المهندسين للمستقبل ، فان المصنع المسمى بكلية الهندسة يقوم باستقبال تلك المئات من الأفراد لكى تخرجهم بعد تصنيعهم مهندسين . وقل نفس الشىء بالنسبة لأى انسان يقطن

المدينة . فلسنا نحن الذين نحدد ملامح حياتنا ، بل إن تلك الحياة بتفصيلاتها تتحدد من قبل الممسكين بزمام الحضارة وبزمام الحركة الحضارية بالمجتمع .

ثانيا – إن ساكن المدينة يجد أن غزوا أجنبيا غريباً عن أفق شخصيته وعن أفق شخصية أسرته يسبر الأغوار ويخترق الجدران . ويتمثل هذا الغزو الخطير فى الاذاعة والتلفزيون بالدرجة الأولى . ناهيك عن الكتب والمجلات ، بل وعن كل اختراع أو تكنولوجيا وافدة الينا من الخارج . فلقد تحطمت الأسوار التى كانت تحافظ على الأسرة قديما بقيمها الثابتة والمستمرة . ولسوف يحمل المستقبل خطرا تلفزيونيا أبعد غورا وأعمق أثرا عندما تقوم الأقمار الصناعية بنقل جميع البرامج المتلفزة من أقصى الأرض إلى أقصاها . إننا اليوم فى مصر (مثلا) نتحكم فيما يبثه التلفزيون من برامج . ولكن هل ستستمر السلطة فى أيدينا عندما يستطيع ابنك الشاب أو ابنتك الشابة مشاهدة برامج الجنس التى تبث فى فرنسا وأمريكا والمانيا . وربما تكون برامج تلفزيونية جنسية إباحية إلى أقصى حد ؟ لقد فقد أبناء المدينة قيمة أساسية هى قيمة الرعاية الأبوية والأمية (من الأم) المباشرة . فدار الحضانة تتسلم الأبناء والبنات ومن بعدها المدرسة ثم الجامعة بحيث يتشكل الابن أو البنت بعيدا عن التأثير المباشر للأب والأم المشغولين بدورهما فى الجرى وراء لقمة العيش . وفى عصر صار العالم كله بمثابة جسم واحد له نبض واحد ، فقد كثير من الناس الاحساس بالانتماء والغيرة على بلدهم بعد أن اتسعت رقعة الانتماء إلى مالانهاية فتشتت الولاء للمجتمع من القلوب إلى غير رجعة .

الخوف من الضياع فى المدينة :

عرضنا لماما فى الموضوع السابق لشعور ابن المدينة بالضياع فيها . وهنا علينا أن نتناول هذا الاحساس بشىء من التفصيل . ذلك أن ابن المدينة يحس بالخوف المتزايد بسبب قلقه على ذاتيته الضائعة فى التيار الجارف بالمدينة .

والواقع أن الخوف من الضياع بالمدينة له جوانب متعددة علينا أن نعرض لكل جانب منها على النحو التالى :

فثمة أولا – ضياع قيمة الفرد بالمدينة : فقيمة الفرد بالمدينة ترتبط بالعمل الذى يقوم به ، وبما يحوزه من مال أو سلطة . فإذا ما فقد العمل أو إذا ما تلاشى من يده المال أو إذا هو فقد السلطة التى كانت فى قبضته بفضل المنصب الذى كان يتولاه ، فانه يفقد قيمته بالتالى تماما كانسان وسط مجتمع المدينة . ولعلنا نتساءل عن قيمة أحد كبار الموظفين بعد أن يحال إلى المعاش ؟ إنه يكاد يحس أنه قد صار صفرا على الشمال بعد أن كان ذا صولة وجولة . ماذا يكون حال صاحبنا عندما يضطر إلى الذهاب إلى نفس الادارة أو المحافظة أو الوزارة التى كان

مرموقا فيها ؟ إن من يقابلونه هناك سوف لايبجلونه ويطأطئون له الرأس كما كانوا يفعلون قبلا . ولعل العكس هو الصحيح . ربما يتشفى الموتورون منه بافتعال الامتهان له والتحقير لشخصه بكافة الوسائل والعبارات . فابن المدينة لايحس بأن قيمته مرتكزة على ذاته ، بل هى مرتكزة على ما فى جيبه أو فيما أسند إليه من أعمال . أليس حال كهذه أدعى إلى الشعور بالقلق يعتصر قلوب شباب المدينة مسبقا لأن المصير المأساوى ينتظرهم إن آجلا أم عاجلا ؟

وثمة ثانيا – **زيف المجاملات والابتسامات والمجاملات الفارغة من المضمون الودى الحقيقى** : فالعلاقات بين أبناء المدينة الواحدة علاقات لا تحتوى مضمونا حقيقيا من الحب . فأنت فى وسائل المواصلات أو فى الشارع أو فى مقر العمل تبدى علامات الود ، وغيرك يبدون لك أيضا ودا ، ولكنك تعلم وغيرك ممن يعاملونك بود يعلمون أنهم إنما يبتسمون ويجاملون بقشرة فارغة من السلوك الأجوف الذى لايعبر عن مشاعر حب حقيقية . وحتى بالنسبة لعلامات الأسى والأسف أو حتى إمارات الحزن إنما تكون علامات وامارات وملامح وقسمات لا تحتوى الاعلى خواء . فالصواوين تقام للعزاء ويحتشد فيها المعزون وكل واحد منهم يرسم على وجهه علامات الحزن المزيفة . وما يكاد ينفرط الصوان حتى ينخرط فى الضحك أو يتبادل الدعابات مع أولئك الذين صاحبوه لأداء واجب العزاء . ولعلك تقع على بعض المعزين ينسون أنفسهم وينخرطون فى أحاديث مسلية بعيدة كل البعد عن موضوع العزاء الذى حضروا هم ومن يتسامرون معهم فى الصوان من أجله . فلا يكون هناك فرق بين أن يكون الشخص جالسا فى الصوان للعزاء وبين أن يكون جالسا على مقهى أو فى أحد الأندية . ولاشك أن كل واحد من المنتدين بالصوان يعلم جيدا أنه سيعامل بالمثل عندما يحين دوره ويكون هو موضوع تعزية الآخرين لأهله فى مثل ذلك الصوان .

وثمة ثالثا – **العلاقات السطحية وغير المستمرة بين أهل المدينة** : فابن المدينة يقيم علاقاته بالعديد من الأشخاص . ولكنها جميعا علاقات سطحية وعابرة ومؤقتة . فبينما تجد أن ابن القرية يقصر علاقاته على مجموعة قليلة من الناس يدير حولها وجداناته وعواطفه وأفكاره . فان ابن المدينة – على العكس من هذا – دائم التوسع فى علاقاته . انه فى كل يوم يتعرف على شخصيات جديدة لم يكن على علاقة بها . فوقته وعواطفه واهتمامه موزعة جميعا على عدد من الناس لايكاد يقع تحت حصر. فبقدر عدد من تتعامل معهم يكون تركيز حبك . فاذا كنت على صلة بخمسمائة شخص مثلاً . فانك فى الغالب توزع عواطفك عليهم بنسب متفاوتة . ولكن اذا كانت صلتك مقتصرة على خمسين شخصا فقط . فان نصيب كل واحد من أولئك الخمسين يكون عظيما اذا ما قيس إلى ما يمكن أن يحظى به الواحد من الخمسمائة شخص الذين افترضنا أنك تتعامل معهم فى الحالة الأولى . ناهيك عن أن الكثير من العلاقات التى أقمتها فى

مواقف متباينة مع أشخاص فى معترك الحياة تذبل وتموت ، بينما تنشأ علاقات جديدة مع شخصيات أخرى . والأغلب أن تكون العلاقات التى تقوم فيها بين ابن المدينة وغيره علاقات مصلحية فى صميمها . فاذا ما انتهت المصلحة أو المنفعة فان تلك العلاقة تكون إلى زوال فى الغالب إن آجلا أو عاجلا .

وثمة رابعا – **خوف ابن المدينة من أعداء غير متعينين لا يكون هناك سبب شخصى لعدائهم له** : فاذا كان أهل الريف يحسون بالأمان باستثناء الخوف الناشىء عن الضغائن بين الأسر ، فان أهل المدينة يخشون من انقضاض أعداء لا يعرفونهم على أرواحهم أو على ممتلكاتهم . فكلما كانت المدينة أكبر ، فان عدد المجرمين بأنواعهم وفئاتهم المتباينة يتزايدون . وعلى نفس النحو ، فكلما كانت المدينة أكثر رقيا ، فان مجرميها يكونون بدورهم أكثر ذكاء وأكثر قدرة على استخدام الوسائل الماكرة ، بل وعلى تسخير التكنولوجيا فى جرائمهم . إنك تطالع كل يوم بالجرائد اليومية أنواعا من الجرائم التى تتمشى مع مستوى الحضارة التى بلغتها المدينة . وابن المدينة يساوره القلق لأنه لايعرف هوية من سينقض عليه بالقتل أو بالسلب أو بالتهديد . لقد يخطف المجرم الزوجة من زوجها بينما يكونان فى نزهة فى مكان خال بعيد عن ضوضاء وسط المدينة . ولقد يرجع الزوجان السعيدان من المصيف ليجدا أن اللصوص قد سرقوا القيم من مقتنياتهم . ولقد يفتن المجرمون فيقلدون إمضاءك بالتزوير على تنازلك عن شقتك بينما تكون مشتغلا فى إحدى الدول العربية . فتعود لكى تجد آخرين قد سكنوا مكانك . وهيهات أن تتمكن من استرداد حقك . وان استرددته فان استردادك لشقتك لايكون الا بعد أن تكون قد استهلكت صحتك بسبب الغيظ والتوتر المستمرين . وبعد أن تكون قد أنفقت الكثير من مالك ووقتك بين الشرطة والنيابة والمحاكم . ولاشك أن ابن المدينة دائم الترقب لما سوف يقع له أو لأحبائه من قبل أعداء يخططون للإيقاع به وهو لا يعرف منهم شخصا واحدا .

وثمة خامسا – **الخوف من عدم الاستقرار الاقتصادى** : ولعل أوضح مثال على هذا ما يشاهد اليوم فى مدينة كمدينة القاهرة وغيرها من مدن بمصر . فى السنوات الأخيرة (أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات) ازدهرت الحرف اليدوية من جهة ، وظهرت فئة المليونيرات من جهة أخرى . فماذا صار حال الموظفين الاقتصادية ؟ إنهم صاروا فى الحضيض بمعنى الكلمة بمن فى ذلك أكبر الموظفين فى الدولة . فبحسب جداول المرتبات – وبالأحرى جداول المعاشات – فان ما يمكن أن يتقاضاه الموظف الكبير لايساوى شيئا قياسا إلى دخل السباك وسائق التاكسى وعامل البناء والكهربائى . ناهيك عن الدخول المذهلة التى تأتت للتجار (تجار الأحذية وأصحاب البوتيكات ونحوهم) وناهيك أيضا عن المشتغلين بالتجارة الخارجية تحت شعار الاستيراد والتصدير . ولكن هل يأمن أى واحد من أبناء المدينة على نفسه اقتصاديا . هل

يعرف ماذا يخبىء له المستقبل القريب ؟ بالطبع لا . ذلك أن من طبيعة المدينة التعرض للتغيرات أو بتعبير أدق التقلبات والتحولات الجذرية . إن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ بما سيئول إليه حال الحرفيين خلال الخمس سنوات القادمة ونحن اليوم وأنا أكتب هذا الكلام – فى ابريل من عام ١٩٨٣ . إننا نستطيع أن نقرر أنه كما أن الوظائف الحكومية كانت لها فترات ذهبية ثم ذوت وقل شأنها . كذا يمكن أن يتقلب الحال بأصحاب الحرف وبالتجار وحتى بالمليونيرات لأسباب لانكاد نستبينها الآن لأنها ما تزال فى طيات المستقبل الغامض .

واذا اعترض علينا معترض على ما سقناه قبلا من أن أبناء الريف يعانون بنفس العوامل ونفس الأسباب التى سقناها قبلا . فاننا نجيبه بأن الزحف الحضارى لا يقتصر على المدينة بالمعنى التقليدى . فواقع الأمر أن مفهوم المدينة هو الآخر فى تطور مستمر . ونحن نعتقد أن الكثير من قرانا قد استحال إلى مدن بالفعل أو هو فى طريقه إلى الاستحالة إلى مدن . فالقرية التى كانت تكفل لأبنائها الدقيق والخبز الذى تقوم الفلاحات بخبزه ، ربما تستورد الخبز الآلى من المدينة الكبيرة المجاورة . وربما بدأت الفلاحات فى اقتناء الثلاجة وشراء الدجاج المستورد المثلج . فهل نسمى أهل قرية مثل هذه – وهى قرية بالاسم فحسب – قرية . أم نزعم أنها قد استحالت إلى مدينة صغيرة ؟ إننا نعتقد أن التمدن هو نمط حياة وليس صفة مؤبدة كتبت على بقعة من الأرض يسكنها مجموعة معينة من الناس . فاذا ما رأينا نفس الضياع الذى يحس به ابن المدينة وقد انتشر ببعض ما زلنا نعتبره قرى . فعلينا أن نعدل مفهومنا إذن ونعتبر أن تلك القرى ما هى سوى مدن مقنعة بأقنعة القرى .



نحن فى كون غامض يلقى بالرعب فى قلوبنا

الفصل الثامن
الخوف من الظواهر الطبيعية

عندما تزمجر الطبيعة :

قد يظن البعض خطأ أن الإنسان قد استطاع أن يسيطر على الطبيعة وأن يستذلها لمصلحته ولتحقيق مآربه . والواقع أن الإنسان ما يزال بمثابة قزم صغير ضعيف أمام قوى الطبيعة الجبارة . إنه كطفل يعبث على شاطىء البحر بأن يحفر الرمل أو بأن يشيد القصور منه أو يسبح قليلا قرب الشاطىء ثم يعتقد أنه بذلك قد امتلك زمام البر والبحر جميعا .

ولعلنا نشبه الطبيعة بالمارد الهائل أو بالوحش الجبار الذى يترك صغار المخلوقات تلهو بالعبث إلى جانبه أو بمداعبة أطرافه بغير أن يأخذ به الغضب كل مأخذ . ولكن هذا لا يحول دون ضجر ذلك المارد أو الوحش بعبث الصغار ، فيكشر عن أنيابه ويظهرهم على ما يمكن أن يفعله بهم اذا هم ظنوا أو اعتقدوا أنهم قد امتلكوا زمام القوة التى تسمح لهم بالسيطرة عليه وتحطيم كيانه .

على أن هذا لايحول دون القول بأن الإنسان قد استطاع أن يؤثر إلى حد ما فى الطبيعة . ولكن فى كل حالة من حالات تأثير الإنسان فان الطبيعة تتأبى على التماشى معه أو الموافقة على عبثه . فكل تدخل فى نظام الطبيعة لم يكن فى مجموعه لصالح الإنسان ، بل كان فى الواقع ضارا به إن لم يكن قاضيا عليه فى المدى البعيد .

والطبيعة فى غضبها من الإنسان وسخطها عليه تنتحى إلى اتخاذ طريق من طريقين : الأول – الطريق الهادىء المستأنى . أما الطريق الثانى – فهو الطريق الصاخب المتململ . وفى كلا الطريقين فان الطبيعة تريد أن تكشر عن أنيابها للإنسان لكى تلقى بالرعب فى قلبه فيلزم حدوده ويراعى قوانينها وينفذ إرادتها ويجعل إرادته متمشية مع رغباتها وأهدافها .

ولعلنا نذكر أنه بازاء الطريق الأول الهادىء المستأنى الذى تتخذه الطبيعة حيال تصرفات الإنسان الطائشة معها ، فاننا نلاحظ أن رد فعل الإنسان بالخوف يكون هادئا أيضا ، بل ويكون لاشعورياً فى الغالب . فهو يحس بالخوف الدفين ينسرب إلى أعماقه . وهو مايمكن تسميته بالقلق . أما رد فعل الإنسان بازاء الطريق الثانى الذى تتخذه الطبيعة حيال نزقه وتجبره وغروره – وهو الطريق الصاخب المتململ – فانه يكون بدرورة خوفاً صاخبا مضطربا كأشدما يكون الاضطراب .

وعلينا هنا أن نتدارس النوعين من الخوف المعتملين فى أوصال الإنسان وماسبق كلاً منهما من فعل من جانب الإنسان ، ومن رد فعل من جانب الطبيعة . وعلينا أن نقول إن النوع الأول الهادىء المستأنى من جانب الطبيعة الذى تتخذه كرد فعل على عتو الإنسان وتجبره وغروره بمثابة تنبيه وتحذير وتخويف لعله أن يرعوى ويزدجر . بيد أن الطبيعة عندما تتأكد من أن الإنسان قد خالف عن تحذيراتها وضرب بها عرض الحائط فانها عندئذ تسخط عليه فتبدأ فى التنكيل به والاطاحة بعرشه المزعوم الذى اصطنعه لنفسه ونصب نفسه ملكا عليه ، بينما هو عرش واه كخيوط العنكبوت .

ولكن ما هى قصة هذين النوعين من غضب الطبيعة ؟ وما الأسباب التى تؤدى إلى كل منهما ؟ وما طبيعة الخوف الذى يسيطر على الانسان فى كلا الحالين ؟ فلنبدأ بالإجابة عن هذه الأسئلة الثلاثة . وليكن السؤال الثانى هو أول الأسئلة التى نقوم بالإجابة عنها .

فما الأسباب التى تؤدى إلى غضب الطبيعة على الإنسان ؟ إن الطبيعة عندما تحس بالخطر يتهددها كأن تنقلب موازينها أو أن تفقد توازنها ، فانها تغضب أيما غضب . بيد أن غضبها يكون بطيئا اذا كانت الاضرار الحادثة متعلقة بالإنسان نفسه أو بما يعود عليه بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر . أما اذا كانت الاضرار الحادثة أضرارا تصيب كيان الطبيعة ذاته وصلب قوامها ، فانها تزمجر وتقلب له ظهر المجن ويضيع من قلبها كل شفقة وحنان تبديانه عادة عليه .

ولنأخذ بعض الأمثلة لكى يتضح ما نقصده هنا وما نرمى إلى تبيانه . فالإنسان أحل الزراعة محل النبات . لاشك أن الإنسان عندما اخترع الزراعة فإنه اعتبر اختراعه هذا رائعاً للغاية ولكن من الطبيعى أن تغضب الطبيعة من فعل الإنسان فى أشجارها الطبيعية . إنها تعتبر أن اقتلاع الغابات والأعشاب الطبيعية جريمة فى حقها . فماذا تفعل ؟ إنها تترك معولها الطبيعى يعمل عمله . لقد أخذ الضعف ينسرب شيئا فشيئا إلى الأرض المنزرعة مما اضطر الإنسان إلى استخدام الأسمدة لمساندة الأرض . ولكن ماذا فعلت الأسمدة بالإنسان ؟ إنها بمثابة سموم بطيئة المفعول . ناهيك عن قلة فائدة الثمار والبذور الغذائية التى يحصل عليه الإنسان من زراعته .

والإنسان اخترع النار وفرح بها أشد الفرح . ولكن الطبيعة حزنت لأن الإنسان تطاول عليها . فماذا تفعل ؟ إنها تسلطه على ذاته . لقد استمر الإنسان يلهو باختراعه إلى أن اخترع التفجيرات النووية التى ستأتى عليه وعلى كل ما حوله . فاذا ما وقف إنسان الغابة من فوق قمة جبل عال ، فأنه سيأسف على أبنائه وعلى ما اقترفوه فى حق أنفسهم عندما أشعلوا أول عود ثقاب أو عندما صدموا حجرا بحجر لكى تخرج النار .

والإنسان اخترع الطب للحفاظ على أبنائه . من الطبيعى أن يعم الفرح ويشيع السرور فى

القلوب لحماية الأحياء من الهلاك تحت وطأة المرض . ولكن الطبيعة لم ترض عن اختراع الإنسان للطب وتركت الانتقام من الإنسان للنتائج المترتبة على تقدم الطب . فماذا حدث ؟ لقد أخذ الطب عبر أجيال متعاقبة كثيرة فى مساندة الضعفاء الذين لايستحقون البقاء من وجهة نظر الطبيعة لفرط ضعفهم . فكبر الضعفاء وتناسلوا وأتى نسلهم أكثر وهنا منهم . وبذا فان الأجيال المتعاقبة مطردة الزيادة فى الضعف والذبول .

والإنسان اخترع الحروب وامتلأ تراث البشرية بالملاحم وسير أبطال الحروب . فماذا كانت النتيجة ؟ لقد غضبت الطبيعة فسلطت الإنسان على نفسه . لقد أخذ قادة الشعوب فى اختيار أقوى الرجال وأكثرهم لياقة للحياة لكى تقدمهم قربانا على هياكل الحروب الطاحنة . فبينما ظل الواهنون على قيد الحياة يتناسلون . فقد زج بالأقوياء إلى ساحة الوغى فقتلوا وحرمت منهم الإنسانية ومن قدرتهم على الإنسال الجيد .

وواضح من هذه الأمثلة القليلة – وهى قليل من كثير – أن الطبيعة كثيرا ما تتخذ الطريق اللولبى لترد به على غرور الإنسان وطيشه ونزقه . وطبيعى أن يعم التوتر والتوجس من المستقبل . فما صنعه أسلافنا البعيدون والقريبون نحصده نحن . وما نفعله نحن اليوم سوف يحصد نتائجه الوخيمة أبناؤنا وأحفادنا من بعدنا . ولكن ما النتائج النفسية المترتبة على هذا ؟ القلق من مستقبل أكثر إظلاما وقتامة .

أما بالنسبة لما يقدم عليه الإنسان من انتهاك مباشر لحرمة الطبيعة . فانها لاتجد مناصا عندئذ من أن تهاجمه فى سفور وانكشاف . وبعد أن يفيض الكيل وبعد أن يبلغ السيل الزبا . فان الطبيعة تكشر عن أنيابها ، بل وتأخذ فى الانقضاض على الإنسان فى وحشية قاسية . فثمة غموض يعتور سير تطور الأمراض التى تهلك الإنسان . وليس بمقدور العلماء أن يكشفوا عما تخبئه الطبيعة للإنسان لتنقض به عليه من أمراض تفتك به وهو واقف عاجز عن الوقاية منها . ألا يقول لنا العلماء إن الفيروسات تتطور بشكل مذهل بحيث لايستطيع أحد ملاحقة تطورها ؟ وألا يقولون لنا إن هناك أمراضا فتاكة غامضة يمكن أن تصل إلى الإنسان من أجواء الفضاء البعيدة ؟ وماذا عن ثوران البحار وعن ذوبان الثلوج على الجبال وعن الزلازل والبراكين وعن الآفات الزراعية ؟

الواقع أن الإنسان يحس بالهلع والخوف العارم عندما يجد أن الطبيعة قد كشفت عن ضعفه الشديد وعن عجزه البالغ عن حماية نفسه اذا ما قلبت له ظهر المجن ، واذا ماقررت محاربته علانية بالقسوة والجبروت . إننا نستطيع أن نقول إن العلماء يعجزون عن مجرد التفكير فى كيفية درء قوى الطبيعة الهائجة التى تأتى على الحضارات بكاملها ، والتى يمكن أن تخفى قارات برمتها من وجه البسيطة .

الزلازل والبراكين :

أن أخوف ما يخافه المرء أن تميد الأرض من تحته ، أو أن يسقط بيته على رأسه ورءوس أهل بيته ، أو أن تنفتح بطن الأرض فتخرج منها الحمم الملتهبة والأبخرة الساخنة القاتلة ، فتأتى عليه وعلى ما يحيط به من حيوانات وأشياء . فالزلازل التى تهز القشرة الأرضية وما أرسى عليها ، والبراكين التى تخرج ماكمن فى أعماق الأرض من نيران حبيسة تهددان الإنسان فى أية لحظة من لحظات وجوده . فنحن عندما نطمئن أنفسنا بأن الدنيا بخير ، فاننا بذلك نكون كمن يخدر نفسه حتى لايفيق على واقعه المؤلم . فمهما سعدنا بحاضر ننعم فيه ، فاننا لا نعلم ما اذا كان زلزالا مفاجئا يمكن أن يطيح بنا فى أية لحظة لانستطيع تعيينها وتوقعها .

بيد أن الإنسان الذى لايعيش فى المناطق القريبة من مراكز الزلازل ربما يكون أكثر شعوراً بالأمن من أولئك الذين تتهددهم الزلازل من وقت لآخر ، وما يواكبها من مصائب أخرى كالفيضانات ونحوها . فثمة مناطق كثيرة تتعرض فى أوقات متلاحقة للزلازل تقوض الحضارة وتأتى على كل ما اصطنعه الإنسان لنفسه مع ملامح مدنية .

وعندما يشعر الناس بالزلازل تقض مضجعهم وهم يغطون فى النوم ، أو وهم يجلسون إلى المائدة يتناولون الطعام ، أو وهم فى مقار أعمالهم ، فان الهلع يسيطر عليهم جميعا ومعهم فى ذلك ما يقتنونه من حيوانات . فالكلاب تنبح باحثة عن مكان تختبىء فيه وهى ترتجف بشدة . والناس يتخبطون فى اتجاهات متباينة . ولقد ينجم عن تصادم الناس بعضهم ببعض فى الأماكن الغاصة بالناس – كدار للسينما مثلا – وقوع بعضهم على الأرض ودوس الباقين عليهم وما ينجم عن ذلك من موت لمن تدوسهم الأقدام بالمئات .

ولقد يستغرق الزلزال بضع دقائق بحيث أن الطمأنينة تعاود من استولى عليهم الهلع . ولكن اذا استمر الزلزال مدة طويلة ، وقد أخذ الناس يسمعون صوت انهيارات المنازل القريبة من البيوت التى يقطنونها ، وقد أخذوا فى نفس الوقت يسمعون أصوات الصراخ تنبعث من كل جانب ، فان روح الخوف تنتشر بينهم وتتزايد وطأتها عليهم . لقد يفقد المرء القدرة على التفكير الواقعى أو حتى لقد يفقد التفكير تماما . من هنا فانه يأتى بالتصرفات العشوائية التى ربما يكون فيها حتفه وحتف من يحيطون به . إنه قد يدفع بنفسه وبأولاده من النوافذ فيهوون إلى الإرض من ارتفاعات عالية حيث يرتطم بالإرض هو ومن دفع بهم إلى الهاوية معه .

وعندما تتواتر الزلازل فتقع من يوم إلى آخر بغير نظام أو تحديد فان الأعناق تظل مشرئبة فى توقع مخيف لما يمكن أن يحدث فى لحظة غير متوقعة أو محسوبة . ولا شك أن الخوف من المجهول غير محدد الوقوع يكون أشد هولا وأبعد غورا فى النفس من الخوف من الشىء المعلوم

والمحسوب والذى يمكن معرفة وقت وقوعه . فالتوقع المستمر والترقب المفعم بالهلع يقتل النفس ويصيب المجموعات من الناس بالهستيريا . فالكثير من الأشخاص يصابون فى مثل تلك الأحوال بما يمكن أن نسميه بالهلوسات الحركية . ذلك أنهم يشعرون بأن الأرض تهتز من تحتهم مع أنها ثابتة . فهم لتوقعهم شديد التركيز لوقوع الزلازل ، يحسبونها واقعة بالفعل بغير أن تقع . وعندما تصيب تلك الهلوسات الحركية مجموعة من الأفراد ، فانها تنتقل فى نفوس جميع الناس من حولهم فتشيع لديهم روح الذعر وتهيج المشاعر وتندفع الجموع فى شكل هادر كأنها الطوفان فتأخذ أمامها كل شيء فى طريقها بما فى ذلك الأطفال والعجائز والضعفاء والمرضى .

ومخاوف انهيار المنازل على من فيها لا تنحصر فى وقوع الموت لمن تسقط عليه الحوائط فحسب ، بل إن هناك ماهو أخطر من الموت بكثير . ذلك هو الانحشار بين الحوائط المتساقطة بحيث يظل المرء على تلك الحال . فهو يصير محشورا لايستطيع أن يفلت من القبضة من جهة ، ولايستطيع أن يستنشق الهواء . بل يستنشق الأتربة الناجمة عن الانهيار من جهة أخرى . ناهيك عن الظلام الدامس الذى يبقى به المرء لايسمع فى دياجيره سوى أنات من هنا ومن هناك لايستبين أصحابها . وأصحاب تلك الأنات بحاجة إلى مساعدته . ولكن أنى له بمساعدة غيره وهو الحبيس تحت الأنقاض يريد من يغيثه ولايجد ؟

وعندما يقع الزلزال . فان الناس لايعرفون مداه ولا القدر المخبوء وراء هزاته العنيفة . فهل سيسقط البيت ؟ وهل ستهدم المنازل على من يسيرون فى الطرقات ؟ وهل ستقلع الأشجار من جذورها ؟ وهل ستنفتح الأرض وتبتلع المدينة أو القرية بما ومن عليها ؟ وهل هى الحادثة العارضة التى سوف تمر فى النهاية بسلام ، أم أنها نهاية العمر أو حتى نهاية العالم ؟ وهل سيهلك الأهل والأقرباء ويموت الأحباء ولا يجد المرء له بعد لحظات من حبيب بل يجد نفسه وحيدا فى هذا الوجود ؟

ان الزلزال لا يزلزل المكان ولايهز الأرض وحدها ، بل إنه يزلزل النفوس أيضا ويهز المشاعر بعنف شديد . إن الناس وقت الزلزال يصيرون وكأنهم أرواح بلا أجساد . فالمؤمن يبكى ضارعا إلى الله لنجدته وحمايته . والملحد يتوب عن إلحاده ويصرخ مستنجدا عله يجد فى صراخه من يسمع لتوبته ومن يصغى لصوت ضراعته . فالكل يقول يارب أغثنا . ذلك أن الروحانية تنبثق فى تلك اللحظات الحرجة بينما تختفى المشاعر الحيوانية لتتجلى المشاعر الروحانية على الوجوه والشفاه جميعا .

وعندما يحس الناس بخطر الموت الوشيك ، فان عواطفهم قبالة بعضهم البعض ترتق وتشف . فالأعداء ينسون عداواتهم ، والأحباء تزداد وتحتدم محبتهم فيحتضنون بعضهم بعضا

ويقبلون بعضهم بعضا وكأنهم مسافرون إلى أماكن متفرقة بعيدة حيث لايرى أحدهم الآخر إلى الأبد . وفى تلك الأثناء قد تفصح الأفواه بما كانت تخبئه من حب ووله . فيفشى العاشقون بأسرارهم وتظهر العواطف المخبوءة على سطح السلوك الخارجى وفى التصرفات العلنية . ولقد يندم المعترفون على ما فاهوا به فى أثناء ارتعادهم ويعتذرون عما بدر منهم وكأنه لم يكن إلا من قبيل السهو والخطأ غير المقصود وذلك بمجرد زوال الخطر والاحساس بالأمان والرجوع إلى العقل والمنطق السوى .

والخوف من البراكين لايقل شدة عن الخوف من الزلازل ، بل إن الزلازل والبراكين صنوان مرتبطان على الألسنة والأقلام . فثمة رابطة سببية بين الزلازل والبراكين . فالزلزال قد يكون مقدمة لانفجار بركان . فالسبب الرئيسى فى وقوع الزلزال هو عدم استقرار القشرة الأرضية لأن باطن الأرض العميق الملتهب لا يعرف الاستقرار . فاذا ما وجد جانبا ضعيفا من القشرة الأرضية فانه يتجه نحوه ويشق طريقه من خلاله ويخرج على هيئة حمم ونيران ملتهبة تحصد أمامها كل شىء وذلك لأن درجة حرارتها تكون عالية للغاية بحيث تحيل الصخور إلى سوائل ، وبحيث تصهر المعادن الكامنة فى باطن الأرض وتقذف بها إلى مسافات بعيدة .

فماذا يكون شعور الناس عندما تفتح الأرض فاها وتخرج منه تلك اللهب المدمرة ؟ إنهم فى ذعرهم الشديد يهرعون فى أى اتجاه . وفى حركة جماعية يتدفق الناس فى كتل متراصة علهم ينجون من ذلك الجحيم الذى فتح عليهم فجأة بغير إنذار . وهنا تجد أن الناس فى خوفهم وذعرهم ينسون كل شىء وكل شخص فارين بجلودهم إلى حيث لا يعرفون ولا يقصدون .

ومن حسن الحظ أن البراكين تتحدد فى أماكن معينة بشكل احتمالى . بيد أن البركان الذى هدأ لأكثر من مائة عام يمكن أن يصحو من جديد ليدمر كل شىء أقيم إلى جانبه . وعندما ينشط البركان الهامد من جديد فان الناس القاطنين حوله يفقدون الثقة فيما كان يطمئنهم به العلماء من أن ذلك البركان قد همد وأصبح فى خبر كان . والواقع أن كثيرا من الناس لايكادون يصدقون العلماء فيما يتنبأون به وذلك لأنهم يجدون أن وقائع الحياة كثيرا ما تكذب نبوءات المتنبئين من العلماء . ولو أن كل شىء قد خضع للتنبؤ الدقيق ، لحسب الناس حسابا لكى شىء ، ولما انتابهم الذعر وأخذ بهم الخوف كل مأخذ ، ولتوقعوا الأوقات التى تحدث فيها الزلازل وتتفجر فيها أفواه البراكين . والواقع أن الإنسان مايزال كطفل يتمطى بغرور معتقدا أنه قد استطاع أن يفك ألغاز الطبيعة وأن يتنبأ بما سوف تحمله اليه من أحداث وهو اعتقاد ظاهر البهتان .

عندما يغضب البحر :

يفتخر الانسان بنفسه كل الافتخار عندما يمتطى ظهر البحر ببواخره الجبارة التى تشق عبابه وتمر بين أمواجه . ولكنه من جهة أخرى يحس بضآلته عندما يصير كقشة فى مهب الريح ، وقد غضب البحر واهتاج متحديا غروره.وسكان البحار من البحارة يعرفون جيدا كيف أن غضبة البحر تخيف أشجع الشجعان منهم ، فترتعد فرائصه وتتفكك أوصاله ويصير كطفل يبكى باحثا عن حضن أمه وقد امتلأ ذعراً من عدو لدود يهاجمه .

والواقع أن البحر يخيف الإنسان من زوايا متعددة علينا أن نستعرض أهمها فيما يلى :

أولا – إغراق السفن بمن عليها : لقد اعتقد الإنسان قديما أن البحر مفعم بالآلهة التى قد ترضى عنه أو قد تغضب عليه . فاذا ما غضبت على ركاب إحدى السفن ، فان عليهم أن يقدموا منهم ذبيحة لكى يهدئوا من غضب تلك الآلهة عليهم . وفى التوراة نجد قصة يونان النبى (يونس) الذى كلفه الرب بمهمة ولكنه قام « ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب ، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيس فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب . فأرسل الرب ريحا شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم فى البحر حتى كادت السفينة تنكسر . فخاف الملاحون وصرخوا كل واحد إلى الهه وطرحوا الأمتعة التى فى السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم . وأما يونان فكان قد نزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوما ثقيلا . فجاء إليه رئيس النوتية وقال له مالك نائما . قم اصرخ إلى آلهك عسى أن يفتكر الاله فينا فلا نهلك . وقال بعضهم لبعض هلم نلقى قرعا لنعرف بسبب من هذه البلية . فألقوا قرعا فوقعت القرعة على يونان ..... فقالوا له ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنا . لأن البحر كان يزداد اضطرابا . فقال لهم خذونى واطرحونى فى البحر فيسكن البحر عنكم لأننى عالم أنه بسببى هذا النوء العظيم عليكم ... ثم أخذوا يونان وطرحوه فى البحر فوقف البحر عن هيجانه . فخاف الرجال من الرب خوفا عظيما وذبحوا ذبيحة للرب ونذروا نذورا .. (يونان الاصحاح الأول) .

ثانيا – لايخاف الإنسان من تحطيم سفنه بسبب هياج البحر فحسب ، بل انه يخاف أيضا من الكائنات الروحية التى اعتقد باستمرار أنها تقطن البحر . وفى الأساطير اليونانية القديمة عقيدة راسخة بأن البحر مأهول بالكائنات الروحية . وقدماء المصريين أيضا اعتقدوا أن النيل مأهول بالكائنات الروحية . وتلك الكائنات يمكن أن تتربص بالإنسان حتى وهو يتنزه وحده على الشاطىء فتخرج إليه وتجذبه إلى قيعان المحيطات حيث تغرقه أو حيث تمنحه قدرة خارقة على الحياة معها فى تلك الأعماق بسلام . إنه فى تلك الحالة يستحيل إلى كائن آخر ذى صفات مباينة للصفات البشرية التى نعرفها . ولكن الويل له اذا هو حن إلى أهله وذويه على البر

وحاول الاتصال بهم أو الرجوع اليهم . إنه عندئذ يصير عرضة للهلاك يوقعه به سكان البحر اذ يلاحقونه حتى الشاطىء ويغرقونه بعد أن ينكلوا به أشد تنكيل .

ثالثا – يخاف الإنسان أيضا من وحوش البحر ومن أسماكه المتوحشة كأسماك القرش وغيرها . والواقع أن المملكة الحيوانية بالبحار والمحيطات متنوعة وتجمع فى أكنافها وحوشا أشد ضراوة من الوحوش المفترسة بالغابات . فكم من أسماك هاجمت الإنسان بعد أن تجرأ ونزل يغوص فى الأعماق . إنها ترى فيه فريسة تقوم بالتهامها وقد وجدت فيه وليمة شهية .

رابعا – لقد وجد الكتاب والشعراء فى البحر مادة خصبة لكتاباتهم الأدبية . وانك لتجد للبحر جلالا وعظمة وهيبة ووقعا مهيبا فى نفوسهم وعبروا عن ذلك فيما ساقوه من أدب . فالبحر ذو هيبة خاصة . إنه الطبيعة التى لم تعمل يد البشر فيها شيئا . فالبحر اذا ما قورن بالجبال ، فاننا نجد أن الكثير من الجبال قد خضع لمعول الإنسان ، فشق فيها طرقه وغير الكثير من معالمها . أما البحار فانها باقية على حالها . وحتى ما يقام على شواطئها من فنارات أو من موانىء ، فانها لا تعد شيئا مذكورا . فتلك المنشآت لاتغير من طبيعة البحر من قريب أو من بعيد . من هنا فان البحر يمثل المجهول على أقلام الكتاب والشعراء . ولقد يمثل لديهم اللانهاية المخيفة التى تبعد أغوارها عن أن تفحص أو أن يسيطر عليها بالفكر . فما يزال البحر – وبالأولى المحيط وهو بحر كبير – كالقارة المجهولة بالنسبة للإنسان . فما تزال أسرار كثيرة مخبوءة فيه مما يبعث على إشاعة الرهبة فى القلوب .

خامسا – الخبرة الشخصية المباشرة . فالشخص الذى نزل إلى البحر ذات يوم للسياحة ثم أحس ببطش الموج به وسحبه إلى الداخل إلى العمق مهددا إياه بالغرق ، يعرف جيدا كم أن البحر مخيف . فالفرد من الناس لايكون بالبحر سوى مخلوق مسكين . صحيح ان الإنسان كثيرا ما يحس بالثقة بالنفس وكأنه يمتلك ناصية الوجود بيمينه وقد استطاع أن يعوم على سطح البحر وهو هادىء . ولكن ما أن يرغى ويزبد ذلك المخلوق الهائل ، حتى يحس المرء بأنه قشة تافهة . إنه يخاف ويهرب إلى الشاطىء لائذا بالفرار .

وربما يكون من بواعث خروج الناس فى الصيف إلى شواطىء البحار إحساسهم بالطمأنينة لأنهم يعتقدون أن البحر ملجم بالحدود التى يبدأ عندها الشاطىء . فطالما أن الإنسان على الشاطىء فانه يكون فى أمان ويجب عليه الأ يخاف . إن موقفه كموقف الشخص الذى يذهب إلى حديقة الحيوان ليشاهد الوحوش الضارية والنسور الكاسرة وهى حبيسة فى اقفاصها . فهو يلهو من حولها وقد وجد فى استثارة الخوف المفتعل من مشاهدته لها لذة معينة . ذلك أن الإنسان يحب بطبعه الاستثارة . وكأن شعورة بالخوف ملذ له اذا كان ذلك الشعور غير غامر

لجميع أنحائه . فهو اذا كان بقَدَرٍ فأنه يكون مثيرا لديه ما يشبه الدغدغة الملذة . ولقد يحب المرء أن تتزايد تلك الدغدغة بعض الشيء عندما ينزل إلى البحر ليصارع الأمواج . ولكنه لايستمر فى مغامراته الا إلى الحد الذى تصل فيه تلك الدغدغة حدا معقولا . وعند نقطة معينة ، فانه يبدأ فى عدم تحمل الاحساس بالخوف من الغرق ، فيهرع إلى البر وهو منتعش الفؤاد لأنه قام بمخاطرة ناجحة لم يصب فيها بأذى .

وقس على هذا جميع المغامرات التى يقوم بها الإنسان بتجاه ذلك المارد الضخم – أعنى البحر . فالشاب الذى يستأجر قاربا ليتنزه به فى عرض البحر ، إنما يكون فى الواقع السيكلوجى لديه ممارسا لتلك الدغدعة الملذة .فاذا ما تقاذفت الأمواج ذلك القارب ، ولكنه ظل متحكما فيه وفى أعصابه إلى أن عاد بسلام إلى البر ، فانه يحس عندئذ بالنشوة تملأ أنحاءه . ولقد يأخذ فى قص قصة مغامرته لأصدقائه مستعيدا تلك اللحظات التى أحس خلالها بالخوف من الغرق بدرجة معقولة .

والطفل الصغير الذى يحمله أبوه من الشاطىء إلى البحر يحس بالخوف فيصرخ ضارعا إلى أبيه أن يعود به إلى الشاطىء . بيد أن ذلك الأب ما يكاد يرجع بالابن إلى الشاطىء حتى يعود الطفل إلى مطالبة أبيه بأن يعيد الكرة من جديد بشرط أن يصغى إلى توسلاته عندما يطالبه بالعودة إلى الشاطىء . فهنا نجد أن ذلك الطفل يحس بتلك الدغدعة التى تحدثها تلك المخاوف المعقولة من البحر .

والواقع أن البشرية ما تزال تتخوف من غدر البحر بها . ولعل السؤال الذى يراود سكان الشواطىء هو : هل سيغدر بنا البحر فى ذات يوم ويبتلع مدينتنا ؟ ذلك أن الكثير من المدن قد ابتعلت ، كما أن البحر كان فى أماكن غير الأماكن التى يقطنها الآن . من يصدق أن البحر كان فى يوم ما يغطى جبال المقطم بالقاهرة ؟ إن علماء الجيولوجيا يقولون لنا إن أى شىء يمكن أن يقع . وتآكل الشواطىء قصة معروفة نعيشها فى السنوات الأخيرة فى مصر.فلقد زاد تآكل الشواطىء بعد إقامة السد العالى . ومن يدرى فلربما يكون للتجارب النووية الأثر فى تغير توازن القشرة الأرضية فيتغير نظام القارات الموجود حاليا . ربما تغوص قارات بكاملها إلى قيعان المحيطات بينما تظهر رقعة جديدة من الأرض مشكلة قارة أو أكثر لم يكن لها وجود من قبل. وأفكار كهذه اذا ما استولت على ذهن المرء لفزع اذن من نومه اذا نام ، ولتوجس خيفة عندما يشاهد البحر وقد استولى عليه الغضب وأخذ يهاجم الشواطىء مهددا بغزوها والاستيلاء عليها .

اذا ما ذابت الثلوج :

هناك ما يعرف بقانون التوازن البيئى . فطالما أن البيئة فى حالة من التوازن ، فان وجود الأرض وما عليها ومن عليها يظل مستمرا قائما . ولكن اذا فقد ذلك التوازن أو اختل ، فان ذلك الوجود ينهار أو يتزلزل . وفى كثير من الأحيان ظن الإنسان أنه يغير شكلاً مامن أشكال الأرض لصالحه واذ به يكتشف أن التغيير الذى أحدثه لم يكن لصالحه ، بل إنه كمن يحفر قبره بيديه . فالغابات والجبال والجليد الذى يغطيها – وان بدت كما لو كانت عقبات أمام انسياب الحضارة وانتشارها – فانها فى الواقع تشكل مراكز اتزان بيئى تحمى الأرض من الانهيار .

ولقد يتساءل البعض : ماذا يمكن أن يحدث اذا ما ذابت الثلوج بالقطبين الشمالى والجنوبى بفعل قدرة الانسان الحضارية كأن يستخدم فى ذلك القوة أو الحرارة التى تنجم عن التفجيرات النووية ؟ إن الجيولوجيين يحذرون من تفكير كهذا يمكن أن يساور بعض المغامرين من بنى الإنسان . ذلك أن الأساس فى أى تصرف يعتزم الإنسان القيام به يجب أن يكون أساسا تكامليا . فالاجتزاء بالنظر إلى جانب واحد أو إلى العملية الصغيرة التى يراد القيام بها ابتغاء فائدة محدودة يشكل خطراً عاما لايمكن درؤه بعد ذلك .

ولكن بافتراض أن الثلوج بالقطبين وفوق الجبال الشاهقة قد ذابت بحادثة كونية ما أو بفعل الإنسان ، فماذا يمكن أن يترتب على هذا من نتائج ؟ إننا نستطيع أن نلخص تلك النتائج الممكن حدوثها فيما يلى :

أولا – فقدان توازن الكرة الأرضية مما قد يترتب عليه وقوع تغيرات بعيدة المدى فى نظام القارات الموجود حاليا والثابت نسبيا . فلقد تغرق قارات ويرشح لذلك الغرق قارة أوربا فى أول القائمة ، ثم قد تظهر قارات جديدة غير القارات المعروفة حالياً .

ثانيا – ومن ناحية أخرى فانه اذا لم يحدث انبعاج فى شكل الكرة الأرضية بسبب فقدانها لتوازنها ، فما لاشك فيه أن ذوبان الجليد بالقطبين يسبب فيضانات هائلة تغرق مساحات شاسعة من أرض المعمورة المأهولة بالسكان والتى قامت فيها أعمدة الحضارة .

ثالثا – ولاشك أيضا أنه يترتب على ذلك الذوبان للجليد بالقطبين حدوث تغيرات بعيدة المدى فى نظام توزيع الحرارة والضغط والرياح على الكرة الأرضية . فنجد مثلا أن بلادا كانت تتسم عادة بانخفاض درجة الحرارة طول العام وقد صارت شديدة الحرارة أو معتدلة . وعلى العكس من هذا فثمة بلاد تتسم الآن بأنها شديدة الحرارة تصير شديدة البرودة .

رابعا – اذا ذابت الثلوج فجأة بالقطبين الشمالى والجنوبى وغرقت مساحات شاسعة من الكرة الأرضية ، فان مستوى الحضارة البشرية سوف يتأثر بذلك إلى حد بعيد . فنعتقد أن

الإنسانية سوف تتقهقر فى هذه الحالة إلى عهد أناسى الكهوف أو إلى عهد الرعاة غير المستقرين فى مكان واحد . ويرجح أن البقية الباقية من بنى الإنسان سوف لا تتحمل الوضع الجديد . ذلك أنها لا تستطيع أن تتكيف بسهولة للخواء الحضارى الذى ستجد نفسها فى مواجهته . ومن ثم فان تلك البقية الباقية تهلك فى الغالب .

خامسا – من الطبيعى أيضا فى مثل هذه الظروف تتقطع الأوصال بين البقية الباقية من شعوب الأرض . ذلك أن وسائل المواصلات ووسائل الاتصال التى بلغتها الانسانية حاليا سوف تفقد وتضيع الأصول العلمية والتكنولوجية التى تقوم عليها ، ويستحيل الإنسان إلى كائن منعزل يحس بالاغتراب عن باقى الناس من حوله .

ومن يتخيل أوضاعا كهذه يحتمل أن تحدث لأسباب كونية أو لأسباب تكنولوجية عندما يسىء المسكون بمقود التكنولوجيا الحربية استخدام ما فى حوزتهم من متفجرات نووية ، فانه بلا شك يتمزق فرقا ويستولى عليه الخوف استيلاء تاما . ناهيك عن أن ذوبان الجليد حاليا على الجبال كثيرا ما يحدث فيضانات هائلة فى كثير من المناطق –كما حدث بأفغانستان أخيرا – حيث تقذف المياه بالقرى والمدن بلا هوادة وتدفع أمامها الأحياء والممتلكات وتمحو من وجه المناطق المنكوبة كل الملامح الحضارية بها .

بيد أن ثمة مجموعة من الناس الذين يتمكنون من الهرب بأنفسهم من وجه الطوفان الناجم عن ذوبان الجليد على سفوح الجبال فيهرعون إلى الأماكن المرتفعة نسبيا والتى لايبلغها السيل ويظلون فى العراء إلى أن تتلقفهم أياد رحيمة تقدم اليهم الماء والغذاء والمأوى . وطبيعى أن يعتمل لديهم الخوف وما يصاحبه من نتائج نفسية وخيمة لعلنا نلخصها فيما يلى :

أولا – أن أولئك الناجين بأنفسهم من الغرق يحزنون أيما حزن على من فقدوهم من أقرباء وأحباء وممتلكات وقد صاروا محرومين كل الحرمان من قلوب كانت متعاطفة معهم ، ومن أمن وأمان كانا يتمتعان بهما قبل وقوع النكبة .

ثانيا – لاشك أن المباغتة التى تحدث بها السيول نتيجة ذوبان الجليد على سفوح الجبال ، لما يضرب الكثير من الناجين بصدمة عصبية عنيفة لأنهم لايكادون يصدقون ما وقع لهم . فهم بين ليلة وضحاها قد صاروا نهبا للجوع والعطش والتخبط فى العراء بما يحمله لهم ذلك العراء من برد وحر ومخاطر .

ثالثا – يستولى الخوف على الفارين من وجه السيول العارمة لمشاهدتهم ما يتعرض له بعضهم من افتراس بين أنياب الوحوش الضارية أو لمهاجمة الطيور الجارحة المتوحشة التى تمزق الأجساد بأظافرها ومناقيرها الحادة .

رابعا – يتعرض كثير من الفارين من وجه السيول الناجمة عن ذوبان الجليد فوق سفوح الجبال للأوبئة بعد أن تتعرض جثث القتلى من الآدميين والحيوانات للتعفن . ومن الطبيعى أن يستولى الخوف على أهل من تصيبهم العدوى وقد صاروا فى حالة احتضار بين أيديهم ، كما أن جميع الذين لم يصابوا بعدُ بالمرض يتوقعون لأنفسهم المصير المشئوم الذى تعرض له ذووهم الذين ابتلوا بالمرض واكتسحهم الوباء .

خامسا – يعتقد كثير من الناجين أنهم يشاهدون أشباح الموتى تظهر لهم فى جنح الظلام مما يلقى بالرعب فى قلوبهم فيختبئون بقدر الامكان بعيدا عن الأماكن التى تظهر فيها تلك الأشباح . ولقد يؤكد بعضهم أنهم سمعوا أشباح اقربائهم تناديهم أو تنذرهم ، أو أنهم سمعوا أصوات صراخ تصدرها تلك الأشباح وهى تجرى فى العراء لا تلوى على شيء .

والواقع أن الناس منذ القدم قد اعتقدوا أن القوى الروحية تستطيع أن تلجم قوى الطبيعة من جهة ، كما أنها تستطيع أن توقفها عن الاستمرار فى عدوانيتها على البشرية من جهة أخرى . فمنذ عهود القبائل البدائية اعتقد البدائيون فى قدرة الآلهة على التحكم فى قوى الطبيعة وفى ترويضها . وكذا فإن الناس فى العصور الحديثة يعتقدون أن قوى الطبيعة محكومة بالقدرة الآلهية . فبالصلاة والذبائح والبخور والصيام وبجميع وسائل التقرب من الله ، يستطيع الانسان أن يترجى رفع غضب السماء على سكان الأرض ،وأن تتوقف السيول عن الاستمرار فى اكتساح الإنسان وحضارته ، وأن يظل التوازن على الكرة الإرضية قائما وطيدا ومستمرا مكينا .

ومن الطبيعى أن يلتمس الإنسان فى القدرة الآلهية قوة أكبر من قوى الطبيعة فيرتمى فى أحضانها ، وهو يعلم أن الله الذى خلق الكون ومايضمه من أحياء وأشياء هو القادر الوحيد وهو المتحكم القوى فى تسيير دفة ما قام بخلقة من أشياء . فمقدوره أن ينظم ويرتب ذوبان الثلوج على سفوح الجبال بحيث تكون بمقدار يؤدى إلى الفائدة لا إلى الضرر وبحيث ينعش الأرض بالزرع ويروى ظمأ الإنسان ويوفر له الرخاء بدلا من تدميره بالسيول العارمة . وايمان كهذا يخفف بلا شك عن قلوب الناس ما يعتمل لديهم من مخاوف تصيبهم بالهلع الشديد وتحطم نفوسهم المرتعدة وقلوبهم الخائرة من شدة هول ما يسببه لهم فيضان السيول من مصائب وما يتركه خلفه من خراب .

ومهما يكن من شيء فان الإنسان عندما يتعرض للسيول – أو حتى عندما يقرأ عن أحداثها أو عندما يشاهد صورا حية لها على شاشات التلفزيون – فانه يحس عندئذ بضالة بنى جنسه ، ويقول مرتعدا « سترك يارب » .

النار من فوق رؤوسنا تتربص :

العجيب أن البشرية وجميع الأحياء والجمادات الموجودة على سطح القشرة الأرضية محصورة بين نارين : نار من أسفل فى بطن الكرة الأرضية ، ونار من فوق فى الشمس والنجوم الملتهبة والتى نرتبط بها برباط وثيق لافكاك لنا منه ، ولاغناء لنا عنه . ذلك أن الحرارة شرط أساسى لوجودنا ، ولاستمرار الحياة على سطح الكرة الأرضية . أفليس من المخيف حقا أن نكون هكذا محصورين بين نارين ، وأن نكون مهددين فى أية لحظة بالاحتراق بالبراكين من تحتنا ، وبالصواعق تحرقنا أو تحرق كوكبنا كله مباشرة اذا ما اقتربنا به من الشمس أو اذا ما انزلق نجم ملتهب عن مداره واحتك بالأرض ؟

ان العلماء لايقطعون بامكان استمرار الأرض على النحو الذى هى عليه الآن . فمن المحتمل أن يحدث اختلال كونى بسيط تكون نتيجته ضياع كرتنا الأرضية واحتراقها ، وهى التى لا تعد شيئا مذكورا اذا ما قيست بالأرضين الكثيرة جدا المنتشرة فى الفضاء . فكرتنا الأرضية ليست الا بمثابة ذرة من رماد اذا ما قيست إلى الكون الهائل المدبج بالنجوم والكواكب ، بل قل بالشموس الكثيرة التى تدور حول كل شمس منها نجوم وكواكب كثيرة منها ما هو أضخم حجما من كوكبنا الأرض ، ومنها ما هو أصغر منها قليلا أو كثيرا .

والواقع أن من حظ الانسان أنه يلهو عما يحيط بالكون من أخطار . فلدى الإنسان قدرة هائلة على تركيز الانتباه على الأشياء المباشرة فى حياته ، بل انه فى كثير من الأحيان – ان لم يكن فى معظم الأحيان – يطمئن نفسه بأن الدنيا بخير ، وأنه لاخطر يحدق به وبجنسه فى القريب العاجل أو فى البعيد الآجل ، بل إن الدنيا ستظل قائمة ومستقرة لابأس عليها ولاخطر يتهددها ولا مستقبلا مفجعا ينتظرها . فنحن أميل إلى طمأنة أنفسنا بأن المصائب التى يمكن أن تقع إنما هى مصائب فردية نحن منها فى مأمن ولن يصيبنا منها شىء . وحتى الموت نفسه برغم أنه حقيقة واقعة ومستقرة ومتواترة أمام أعيننا كل يوم ، فان كل إنسان يستبعد شعوريا أو لاشعوريا الموت عن نفسه مهما بلغ من العمر أرذله ، ومهما كان مريضا ومضعضعا . فنحن نتشبث بالبقاء أو قل إن فينا بذرة من الخلود تحملنا على استبعاد امكان الفناء عن ذواتنا حتى ولو كان ذلك الفناء عالقا بأجسادنا .

تخيل أنك جالس فى إحدى المقاهى أنت ومجموعة من أصدقائك ، واذ بمجموعة من الصبية قد أخذوا يرشقون الجالسين بالمقهى بالحجارة فأصيب واحد منهم كان يجلس إلى جوارك بزلطة فأخذ ينزف الدم بغزارة . فماذا عسى أن يكون تصرفك وقد شاهدت ما أصاب جارك المسكين بسبب التصرفات الطائشة التى كان يأتيها أولئك الصبية اللاهون بما يفعلون ، والذين

لم يقصدوا إصابة ذلك الشخص بالذات ، بل كانوا يعبثون بالقاء الحجارة جزافا بتجاه المقهى ؟ أغلب الظن أنك سوف تلوذ بالفرار وقد استولى عليك الخوف . ولكن ربما تتجه نحو أولئك الصبية مهددا ومتوعدا ، وبدل أن يغشاك الخوف ويأخذ بك كل مأخذ ، فانك قد تحاول إشاعة الخوف فى قلوب أولئك العابثين لتبطل عبثهم ، ولتثنيهم عن الاستمرار فى العدوان .

ولكن افترض أنك لم تجد إلا حجارة ترشق بها المقهى بغيرأن يكون هناك مصدر محدد يأتى منه الزلط . إنك أخذت فى البحث عن ذلك المصدر فلم تعثر على أحد . فماذا يكون إحساسك عندئذ ؟ الخوف والذعر بالتأكيد . ذلك أنك فى تلك اللحظة التى تعجز فيها عن تبين مصدر الخطر ، تكون ذاتها اللحظة التى تعجز فيها عن إبطال مفعول الأذى . فلا يكون فى وسعك سوى الفرار اذا كانت أمامك فرصة للفرار .

ونفس الشيء فى الواقع هو إحساس الإنسان الذى يكون سائرا فى أحد الحقول مع مجموعة من أصدقائه ، واذ بكتلة من حجارة مشتعلة بنار حارقة تهبط على رأس واحد من أولئك الأصدقاء فترديه قتيلاً فى الحال بل وتحرقه تماما . من المقطوع به أن أولئك الأصدقاء يهربون فى أى اتجاه لايلوون على شيء وقد سادهم الذعر والخوف الذى يعجز القلم عن وصفه . ولكن من الطبيعى أن يأخذ الناس فى تهدئة الخواطر مؤكدين لأولئك الأصدقاء أن تلك الحادثة إنما هى حادثة فردية نادرة الوقوع وأنها لن تتكرر على الاطلاق بعد ذلك . وربما يذهب البعض من سكان تلك القرية إلى أن تلك النار التى هبطت من السماء وقتلت ذلك الشخص كانت بمثابة انتقام الهى منه لأنه ارتكب خطيئة ما استحق عليها تلك العقوبة الفورية الشنعاء . ولقد يقول آخرون ان تلك الحادثة كانت قدرا مكتوبا على ذلك الشخص منذ ميلاده ، وأنه لم يكن من سبيل لرد القضاء . ومن ثم فلا خطر على أحد من سكان القرية . فلن تنزل صواعق أخرى لأن تلك كانت الصاعقة الوحيدة التى تعد بمثابة إنذار لجميع أهل القرية لاتباع الصلاح والاستقامة فى الحياة .

ولاشك أن تلك التفسيرات وغيرها تعمل على تهدئة الخواطر وأيضا على إشاعة الطمأنينة فى القلوب المرتعدة والنفوس الممزقة والأعصاب التى حطمها الخوف وأخذ بها كل مأخذ . ولكن من المؤكد أن الخوف يظل معتملا فى القلوب على نحو أو آخر . ولكن ربما يكون ذلك الخوف مشوبا بالايمان بالعناية الالهية تبعد الخطر وتقى المرء من تلك النار الملتهبة اذا ما سقط مثلها مرة أخرى من السماء .

ومن حسن حظ بنى الإنسان أنهم سرعان ما ينسون ما وقع لهم أو لغيرهم من أحداث أو

مصائب . فالأصدقاء الذين ضربنا مثلا بهم وقد قتل أحدهم بصاعقة مفاجئة سرعان ما ينسون تلك الواقعة ، أو هم يذكرونها كقصة مثيرة بغير أن تبدو على وجوههم أمارات الخوف . ولو أن أولئك الأصدقاء لم يكونوا لينسوا تلك الواقعة الخطيرة ، لما غمض لهم جفن ، ولظلوا طوال حياتهم هائمين على وجوههم هلعين مرتجفين .

بيد أن التكرار يجعل الخوف من مصادر الخطر المتكررة والمتواترة مستمرا . افترض أن الصواعق تقتل من أسبوع لآخر شخصا أو أكثر ، أو أن بعض الصواعق يتكرر وقوعها على السيارات فتحرق هياكلها ومن بداخلها . لاشك أن الوضع فى مثل هذه الحالة يختلف تماما . فالخطر المعلق على الاعناق بصفة مستمرة والمهدد للناس بشكل لا ينقطع يجعل مصادر ذلك الخطر عالقة بالذاكرة باستمرار . فشرط نسيان الأخطار ندرة وقوعها . فبعد الواقعة عن الذاكرة لمدة طويلة هو الذى يؤدى إلى نسيانها . أما اذا ثبتت الواقعة فى الذاكرة لأنها ما تكاد تخفت فى الذهن حتى تتجدد مرة أخرى ، فان ذلك يجعلها تحتل مكان البؤرة فى ذاكرة الناس الذين يقطنون تلك المناطق التى يتكرر فيها سقوط الصواعق على الناس .

وفى بعض الحالات التى يشتد فيها الذعر ، فان البعض من أولئك الذين يصيبهم الذعر لايستطيعون استرداد صحتهم النفسية ، بل يكونون بحاجة إلى العلاج النفسى أو العصبى إن كان ثمة أمل فى علاجهم بعد أن تكون أجهزتهم العصبية قد انهارت وتمزقت إربا إرباً وذهبت شتاتاً . ونحن نعلم أن بعض حالات الخوف الشديد تؤدى إلى الموت الفورى بغير أن يتسنى إنقاذ الخائف من الموت . ولقد يأخذ الخوف المكبوت صيغا وأشكالا سلوكية متباينة . لقد يصاب الشخص بالهستريا أو قد تتراءى له الهلوسات المرئية والمسموعة التى لا ترتبط ارتباطا مباشرا بما أشاع الخوف فى قلبه .

وفى بعض الحالات يكون للخوف من الصواعق صدى فى أحلام الشخص الذى مرت فى خبرته الوقائع المخيفة كما حدث للشخص الذى ضربنا مثالاً به والذى أصابت الصاعقة صديقا له كان يسير إلى جانبه بالحقل . وقد يكون الحلم مباشرا بأن تتكرر الخبرة ذاتها مع أحد أصدقائه ، أو أن تتجه الصاعقة فى الحلم نحوه مباشرة . ولقد يتخذ الحلم شكلا رمزيا كأن يشاهد ذلك الشخص الذى كبت لديه الخوف وحشا ضاريا فاتحا فمه ومكشرا عن أنيابه وقد استعد للانقضاض عليه ، أوكأن يرى نسرا هائلا يهبط من السماء محددا أنيابه وموجهاً منقاره الحاد نحوه . ولا يكون الوحش الضارى أو النسر الكاسر سوى تعبير رمزى عن الخبرة المخيفة المكبوتة .



هل يخاف الناس جميعاً من الظلام ؟

الفصل التاسع
الخوف من الظلام

الظلام والشعور بالوحدة :

عندما يجد المرء نفسه فى الظلام الدامس ، عندئذ يحس بأنه قد صار وحيدا فى هذا الوجود المحيط به . ذلك أن النور بالنسبة للإنسان يعتبر فى الواقع بمثابة الوسيلة الرئيسية فى الإتصال بالواقع من حوله . فعندما تبطل هذه الوسيلة ، فإنه يضحى مقطوع الصلة بكل ما يحيط به ، فيسارع بالبحث عن وسيلة أخرى للاتصال تعوضه عن الوسيلة الضوئية التى كانت تربط بينه وبين العالم . ولعله يجد وسائله الجديدة التعوضية فى الكلام المسموع أو فى أية حاسة أخرى من الحواس الثلاث الباقية ، أعنى حاسة اللمس وحاسة الشم وحاسة الذوق .

ونحن نعتقد أن الحواس الخمس جميعا تشكل وسائل اتصال بالعالم الخارجى المحيط بالإنسان . ولعل أقوى وسيلة اتصال يستعين بها الإنسان للإتصال بالواقع من حوله هى حاسة البصر . تتلوها فى الأهمية حاسة السمع ، ويتلو حاسة السمع فى الأهمية حاسة اللمس ، ومن بعدها حاسة الشم . وتقع حاسة الذوق فى آخر القائمة ، بمعنى أن حاسة الذوق هى أضعف وسيلة اتصال بالعالم الخارجى اذا ما قورنت بالحواس الأربع الأخرى .

وعندما يكون أحد الأطفال فى مكان وحده فى أثناء الليل ونور المصباح مضىء وهو يقظان ، ثم انقطع التيار الكهربى فجأة وانتشر الظلام من حوله من كل جانب ، فإنه يحس بأنه قد صار وحيدا فى هذا الوجود الموحش . إن تلك اللحظة التى انقطع فيها النور عن عينيه هى ذاتها اللحظة التى يكون قد انتقل خلالها فجأة من حالة إلى حالة مضادة لها تماما . وكلما كان الظلام أكثر دموساً ، كان احساس ذلك الطفل بالمفارقة فيما بين الوجود الذى كان فيه – وهو وجود مضىء – وبين الوجود السلبى المتمثل فى حالة الظلام أكثر شدة .

ولعلنا نزعم أن حالة الظلام اذا كانت تامة ، بمعنى اذا أنه اذا لم يكن هناك مصدر للضوء من شدة قتوم ذلك الظلام ، فإننا فى هذه الحالة نستطيع القول بأن المسألة لم تعد مجرد تضاد بين حالة النور وحالة الظلمة ، بل إنها تستحيل إلى حالة أخرى هى حالة التناقض . فالتضاد يعنى وجود تدرج بين الحالتين المتقابلتين . ولكن اذا لم يكن هناك أى شكل من أشكال التدرج بين الحالتين ، أو بتعبير آخر اذا كان الظلام غير مختلط بأى نور من جهة واذا كان الضوء غير مشوب بأى ظلام من جهة أخرى ، عندئذ تكون الحالة هى حالة تناقض بين النور والظلام .

وفى مثل هذه الحالة فإن انقطاع الصلة بين هذا الطفل وبين الوجود يكون انقطاعا تاما بمعنى الكلمة . فهو ينتقل بصدمة نستطيع تسميتها بالصدمة الإظلامية من حالة إلى حالة مناقضة لها تماما ، أو قل إن ذلك الطفل يقذف به قذفا من الوجود الخارجى المحيط به إلى الوجود الداخلى النفسى بغير تمهيد وبغير تدرج . ولا شك أن تلك الصدمة الاظلامية – اذا صح زعمنا – تعنى فى نفس الوقت حدوث حالة نفسية عنيفه لديه . إنه يحس بهزة عنيفة تصيب جميع أنحائه وتشمل جميع مشاعره . إنه كمن يلقى به فى جب عميق ، أو كمن يقذف به من سطح الأرض إلى قاع المحيط ، أوكمن تصيبه صدمة كهربائية تهز كيانه هزا عنيفا .

ونحن هنا نشير إلى ما يصيب الطفل من صدمة نفسية عندما ينتقل من حالة النور الساطع إلى حالة الظلام الدامس ، ولم نضرب مثلا بالشخص الراشد . ذلك أن الشخص الراشد العاقل يجد فى مبرراته العقلية ما يسعفه بالتخفيف من شدة وقع تلك الصدمة عليه . فأنت تسارع–عندما ينقطع النور الكهربائى بالليل فى حجرتك وقد ضارت الدنيا من حولك دامسة الظلام – إلى التعليل من جهة ، وإلى التخطيط للخروج من ذلك الموقف من جهة أخرى . إنك تفسر انقطاع التيار الكهربائى بمجموعة من الاحتمالات . لقد يكون المصباح الكهربائى قد احترق ، وقد يكون المنصهر قد انصهر بسبب حدوث ماس كهربائى بشقتك ،وقد يكون العطل ناجما عن حدوث عطل فى الأجهزة الكهربائية التى تغذى المنطقة التى تقطنها بالكهرباء . وأنت فى جميع هذه التفسيرات تعمد فى نفس الوقت – أو بعد الوقوع على التفسير الذى ترتضيه وتقتنع به – إلى التخطيط للخطوة العملية التى عليك اتخاذها حتى تعيد سريان الكهرباء ، ومن ثم إعادة الضوء منتشرا من حولك فيتبدد الظلام الذى يفصل بينك وبين الواقع المحيط بك . لقد تستبدل بالمصباح المعطوب مصباحا جديدا ، وقد تقوم بتركيب منصهر جديد ليحل محل المنصهر الفاسد وقد تسارع إلى الإتصال بالمسئولين عن الكهرباء فى منطقتك لاصلاح العطل .

والواقع أنك – مهما كنت شجاعا وصلب العود – فإنك تخاف من الظلام ، أو بتعبير آخر فإنك تخاف من انقطاع صلتك المفاجئة بالواقع من حولك . بيد أنك تحاول جاهدا إخفاء إحساسك بالخوف عمن يحيطون بك ، بل إنك قد تتخذ من هذا الموقف مادة للسخرية أو الضحك . ولكن لا يخفى على المدقق فى أساريرك انك قد خفت ولو بعض الخوف ، وانك أحسست بمثل ذلك الانتقال المفاجئ من حالة إلى حالة مضادة أو إلى حالة مناقضة إذا كان انتقالك من إضاءة شديدة للغاية إلى حالة ظلام دامس كل الدموس .

ولا شك أن تذرعك بالتفسير والتعليل لما يحدث يخفف عن كاهلك الشعور بالخوف . ولا شك أيضا أن الطفل يحس بالخوف أكثر من إحساسك لان تفكيره لا يسعفه بالتعليل العلمى

الواقعى كما تفعل أنت . وهذا ما يجعل خوفه وفزعه من الظلام أشد من خوفك وفزعك . وشأن الطفل فى هذا الحال هو نفسه شأن البدائيين . بيد أن إحساس البدائى بالخوف من الظلام يزيد كثيرا عن خوف الطفل الناشئ فى أحضان الحضارة ، وذلك لأن الكبار من حول الطفل المتحضر لا يبدون خوفا - أولا يكادون - من الظلام . ناهيك عن أن الطفل الحديث يحمل فى رأسه الكثير من المعلومات والعديد من الإتجاهات المستنيرة التى تذب الخوف عنه ، ولا تجعل للظلام الوطأة التى كانت له بازاء البدائى .

فالبدائيون كانوا - وما تزال البقية منهم تفعل نفس الشيء فى الظلام - نقول كانوا يتكدسون بعضهم إلى جانب بعض بحيث تتلامس أجسامهم ، ويستمرون فى مخاطبة بعضهم بعضا وذلك حتى يقشعوا أو يتخففوا مما يحسون به من وحدة ووحشة بسبب انقطاع صلتهم بالعالم الخارجى وقد خيم عليهم الظلام . فهم يتجمعون بعضهم إلى جانب بعض فى أضيق مكان ممكن وقد يهربون من وحشتهم بالانخراط فى النوم اذا ما توقف الاتصال فيما بينهم بواسطة الكلام . فهم يكتفون بأن يحتضنوا بعضهم بعضا والهروب إلى الأحلام السعيدة أو الموحشة .

بيد أن هناك وسيلة أخرى يلتمسها البدائيون عندما يعم الظلام بالليل فى كهوفهم ويبدأ الخوف ينسرب إلى قلوبهم . إنهم يحاولون ذب الشعور بالوحدة من قلوبهم بالاتحاد بعضهم ببعض ، لا عن طريق ملامسة الأجساد بعضها ببعض فحسب ، بل بالاتحاد الفعلى بين تلك الأجساد عن طريق الاتصال الجنسى وما يتضمنه من معانقة وارتماء فى الأحضان .

ومن الطبيعى أن يجد أطفال البدائيين ملاذهم فى أحضان أمهاتهم وآبائهم . فهم يتشبثون بهم ويخفون وجوههم فى صدورهم بينما يشتد احتضان وضغط الأمهات والآباء عليهم لتأكيد حمايتهم لهم ولاشاعة الاحساس بالجماعية فيهم . ولا شك أن انتشار الخوف من الظلام لدى البدائيين وتجمعهم بعضهم إلى بعض يجعل منهم وحدة قوية تكاد أن تكون وحدة عضوية بمعنى الكلمة . فكل واحد من القبيلة يحس بأحاسيس الجميع ونبض قلب الواحد منهم هو نبضهم جميعاً . والخطر الذى يحدق بواحد منهم هو خطر محدق بالجميع . وبذا تتوطد العرى وتتوثق العلاقات ويتجاوب الجميع مع كل واحد من أفراد المجموع .

فالظلام اذن وما يتبعه من خوف واحساس بالوحشة ليس شرا كله بل انه عامل جوهرى أيضا فى تجميع القلوب والأجساد وجعل الكل واحدا غير متفرق وغير ممزق الأوصال .

الخوف من المباغتة :

من أسباب الخوف يصيب الشخص الذى يجد نفسه محوطا بدياجير الظلام خشيته من أن يباغت . والمباغته أن تصطدم بشئ لا تتوقعه . فنحن فى حياتنا الشعورية واللاشعورية نستشعر

الطمأنينة اذا كنا معدين أنفسنا للوقوع على الشئ الذى يحدث . وعلى العكس من هذا فإننا نستشعر الخوف اذا ما جوبهنا بموقف ما بغير أن يكون لدينا أى استعداد لمجابهته .

ولنضرب مثالا على هذا بموت أحد الأشخاص الذين نحبهم ونرتبط بهم وجدانيا برباط عميق . إن موت ذلك الشخص المحبوب اذا كان متوقعا كأن يكون قد أصيب بمرض عضال أرقده مدة طويلة بالسرير وقد يئس الأطباء من علاجه يكون أخف وطأة علينا منه اذا ما مات فجأة وبغير أن نكون متوقعين موته . فاعتزازنا بذلك الشخص لا يتغير فى الحالتين . ولكن الذى يتغير فى الموقفين هو مدى توقعنا للحدث . فبالنسبة للحالة الأولى التى يكون ذلك الشخص المحبوب قد مات بعد مرض عضال جعلنا نتوقع له الموت ، فإن إحساسنا بالخوف من تلقى النبأ يكون أقل شدة من الحالة التى يكون الشخص المحبوب فيها قد مات بغير أن يكون لدينا استعداد نفسى لتقبل النبأ . ونحن هنا نميز بين الخوف من تلقى النبأ وبين حالة الحزن التى تنتابنا بعد تلقينا للنبأ المفجع .

ونفس الشئ يمكن أن يقال عن مدى احساسك بالخوف نتيجة حدوث فرقعة شديدة إلى جانبك . انك اذا كنت واقفا بجوار أحد المدافع التى تطلق لحظة الإفطار فى شهر رمضان وكنت مترقبا لحظة انطلاقه ، فإن ما تحس به من خوف يتبدى فى انتفاضك لحظة سماعك للفرقعة إنما يكون أخف وطأة عليك بكثير من خوفك وانتفاضك اذا ما سمعت نفس تلك الفرقعة أو ما فى قوتها بغير أن تكون قد اعددت نفسك لتلقيها . ذلك أنك تعد نفسك بطاقة حيوية نفسية فى الحالة الأولى ، بينما تكون مفتقدا لمثل هذا الاعداد النفسى فى الحالة الثانية .

وعلى نفس النحو يكون حال الشخص الذى يلتحف بالظلام من حيث أنه لا يكون مستعداً نفسيا لتوقع المجابهة بأى شئ . وكيف يتسنى له مثل هذا التوقع وهو مقطوع الصلة بما حوله وبمن حوله . فقنوات الاتصال بينه وبين ما يحيط به من أشياء تكون مقطوعة تماما . صحيح أنه اذا ما سمع صوت شخص يعرفه جيدا ، فإن سماعه لذلك الصوت يعتبر قناة اتصال بديلة بينه وبين الواقع من حوله . وصحيح أيضا أنه عندما يلامس الأشياء المحيطة به ويتعرف عليها ، فإن تلك الملامسة تعتبر أيضا قناة اتصال بينه وبين ما يحيط به من أشياء .ولكن افترض أنك لم تستطع ترجمة الصوت الذى سمعته إلى صوت شخص تعرفه يطمئن اليه قلبك ، أو أن ما قمت بملامسته لم تستطع أن تتبين هويته . فماذا يكون شعورك عندئذ ؟ لا شك أن الخوف سينتابك وذلك لأن قنوات الاتصال بينك وبين العالم الخارجى تكون عندئذ قد انقطعت وسدت أمامك تماما . وأكثر من هذا فإن خوفك قد يتضاعف لأنك ربما تترجم صوت الشخص الغريب الذى ليس هو بصديق أو ليس هو بالشخص الذى تطمئن إليه إلى صوت

لص اقتحم منزلك لكى ينهب متاعك ، وربما تترجم ملمس الشئ الذى لم تستطع تبين هويته إلى ملمس كائن غريب يمكن أن يضربك أو يهاجمك أو يقتلك .

فانت لا تستطيع أن توقف نشاطك الذهنى عندما تجد نفسك فى الظلام الدامس . اننا نستطيع أن نزعم أكثر من هذا بأن خيالك وأنت موجود فى الظلام يكون أقوى واشد منه وأنت محوط بالضوء من كل جانب بحيث ترى الأشياء وتتبينها وتتعرف عليها . ففى حالة تبين الأشياء ووجود قنوات اتصال بينك وبين العالم الخارجى المحيط بك ، فإن طاقتك النفسية تكون موزعة على ما يحيط بك من أشياء . ولكن عندما لا تستطيع تبين الأشياء وعندما تنقطع الصلة بينك وبين العالم الخارجى بسبب عدم توافر قنوات الاتصال بينك وبينه ، فإن طاقتك الذهنية تتركز بداخلك . وبدلا من أن تجد لها منافذ خارجية عن طريق الإدراك بالحواس أو ببعضها على الأقل ، فإنها تتمركز بدخيلتك حيث يلعب خيالك الدور الأساسى ، أو قل الدور الوحيد . والخيال كما نعلم هو القدرة الذهنية التى تشتغل على ما ترسب لدينا من خبرات إدراكية سابقة . فنحن بالخيال نقوم بعمل تركيبات ذهنية جديدة .

والواقع أن المباغته فى الظلام تختلف شدة وعمقا باختلاف الأشخاص والمواقف . ولعلنا نستعرض ذلك التباين فيما يلى .

أولا : من حيث السن :

فالأطفال بوجه عام أكثر تأثرا بالمباغته من الراشدين . ونستطيع أن نزعم أن وقع المباغته يخف كلما تقدم المرء فى العمر حتى بلوغ الشيخوخة الهرمة . فالشيخ الهرم أكثر تأثرا بالمباغته فى الظلام من الشخص الراشد الواقع فيما بين الشباب والفترة الأولى من الشيخوخة . ولعلنا نعزو شدة وقع المباغته على الطفولة فى الظلام إلى شدة الحساسية التى يتسم بها الأطفال وإلى رهافتهم الشديدة . أما شدة وقع المباغته على الشيوخ الهرمين فإنها تعود إلى أن الشيخ الهرم يكون قد أصيب بضعف فى قشرة المخ مما يجعل قوة الضبط أو الكبح **inhibtory** لديه ضعيفه وفى مقابل هذا تكون لديه فى مخه قوة الاثارة **excitatory** عنيفة . من هنا فإنه يكون سريع الاستثارة ولا تسعفه القدرة المنطقية على التفكير والتعليل واشاعة الطمأنينة فى القلب .

ثانيا : من حيث الجنس :

فوقع المباغته على فئة الاناث يكون فى العادة أقوى من وقعة على فئة الذكور . ولعل أن ذلك يعود إلى كون النساء بصفة عامة أقوى عاطفة وأشد انفعالا من الرجال . فالمرأة فى أى سن تكون أكثر حساسية مما يتصف به الرجل . ناهيك عن أن مدى استعداد المرأة للشعور بالخوف أقوى منه لدى الرجل . والمرأة بطبعها لا تطمئن إلى الأشياء الغريبة بل تنبو عنها أو حتى

لقد تخاف منها . وهى تخشى المباغته بوجه عام وفى الظلام بوجه خاص لأنها تحمل فى طياتها مقومات جديدة لا تستطيع التعرف عليها بسرعة ويسر ، وبالأحرى لا تستطيع التنبؤ بمضامينها وما يمكن أن تحمله لها من أخطار .

ثالثا : من حيث مدى المستوى الخبرى :

فكلما كان الشخص أكثر معرفة بالأشياء ، وكلما كان حائزاً على الخبرات المتعلقة بالواقع من حوله وأكثر ألفة بالأشياء والأشخاص ، فإنه يكون أكثر قدرة على مجابهة المواقف المباغته وذلك بفضل سرعة مبادرته إلى تفسيرها والوقوف على كنهها وأهدافها وما يمكن أن تشتمل عليه من مخاطر وكذا الوقوف على الكيفية التى يستطيع أن يجابه بها تلك المخاطر . على أن اتساع مدى الخبرة لا يعنى اتساع مدى المعرفة فحسب ، بل إنه يعنى أيضا إتساع مدى القدرة على التصرف والقدرة على التخطيط السريع والتنفيذ السريع لما يخطط له المرء . من هنا فإننا نجد أن سكان المدن بوجه عام أكثر قدرة على مجابهة المواقف المباغته التى تتصل بمقومات المدينة . وعلى العكس من هذا فإن سكان الريف يستطيعون مجابهة المباغتات التى تتعلق ببيئتهم الريفية بأكثر كفاءة من أهل المدينة .

رابعا : من حيث المكان والظروف المحيطة :

فعندما تكون محوطاً بالظلام الدامس وأنت فى بيتك ، فإنك تكون أكثر اطمئنانا مما لو كنت فى الظلام الدامس وأنت فى إحدى الغابات أو فى العراء بصفة عامة . ولكن من جهة أخرى فإن شدة المباغته تكون ذات وقع أكبر عليك عندما تكون أكثر طمأنينة . بيد أن نوعية المباغته أيضا يجب أن تؤخذ فى الاعتبار . فمباغتة حيوان مفترس لك فى الغابة يكون أخطر بكثير من مباغتة كسر طبق فجأة إلى جانبك وأنت فى شقتك . وطبيعى أن احساسك بالخطر بغير أن تكون على استعداد لمجابهة ذلك الخطر أو عندما تكون عاجزا عن مجابهته ، يكون ذا اثر بعيد فى قوامك النفسى .

خامسا : أثر الخبرات السابقة المترسبة فى اللآشعور :

فالخبرات المكبوته منذ الطفولة فى اللآشعور تظل تعمل عملها فى حياة المرء وبخاصة فى الوقت الذى يجد خلاله نفسه فى الظلام الدامس . فتلك المكبوتات تطفو على سطح السلوك فتجعل المباغته شديدة أو بالاحرى تجعل توقع المباغته قويا ومحتدما . فالشخص الهستيرى الذى يصرخ ويرتعد فى الظلام هو شخص صاحب خبرات مكدرة اكتسبها خلال طفولته وكبتت لديه .

قطاع الطرق والمتربصون فى الظلام :

إن الجرائم التى تحدث فى الظلام أكثر بكثير من تلك التى تحدث فى النور . ذلك أن الظلام كما قلنا يحول بين المرء وبين الواقع الخارجى . من هنا فإن قاطع الطريق يكون مستعدا للانقضاض على السائر فى الظلام حتى بغير تمييز لشخصيته . ولعلنا نتناول فى عجالة سيكولوجية قاطع الطريق فى الظلام حتى تظهر لنا الصورة النفسية التى يكون عليها فى أثناء قيامه بتلك العملية الانقضاضية الشنعاء .

هناك أولا – قطع الوشائج النفسية فيما بينه وبين فريسته البشرية التى ينقض عليها فى دياجير الظلام : فقاطع الطريق عندما ينقض فى الظلام على أحد الأشخاص أو على مجموعة من الأشخاص فإنه يكون عندئذ قد هرب من الصدمة المتأتية عن تعرفه عليهم ، أو عن تعرفهم عليه . فهو فى الظلام يكون قد ضمن قطع الوشائج النفسية والمعرفية بينه وبين أيٍ من يكونون أولئك الذين ينقض عليهم . وبتعبير آخر فإنه يجعل من فرائسه البشرية مجرد أشياء لا ترقى إلى المستوى الآدمى . انه يبتزهم ويمتص ما فى جيوبهم من مال ، وما بأيديهم من أمتعة كما لو أنه كلب ينقض على قطعة من اللحم . ذلك أن الواقع ان قاطع الطريق – مهما يكن خاليا من بواعث الرأفة وواعز الضمير – فإنه فى النهاية إنسان يصعب عليه مهاجمة من يتبين شخصيته وبخاصة اذا كانت الشخصية ممن سبق له التعرف بهم وإقامة أية علاقة معهم . ناهيك عن أن قاطع الطريق يريد أن يظل متمتعا بالشرف والكرامة أمام الناس فى النور . فما يرتكبه فى الظلام من جرائم يكون بطريق الاستخفاء وتجنب الظهور أمام الملأ .

ثانيا : إخفاء الشخصية :

إن قاطع الطريق فى الظلام يرغب فى إخفاء شخصيته خوفا من الوقوع تحت طائلة القانون . فهو يعتقد أنه يستطيع أن يرتكب جريمته بغير أن يتعرف عليه أحد . فهو كمن لبس طاقية الاخفاء التى تجعله فى مأمن تام من أن يكشف أمره . والواقع أن الكثير من قطاع الطرق يكونون من أولئك الأشخاص المتسمين بالخجل الشديد والمرتعدين من مواجهة أنفسهم فى ساحة القضاء . ولقد يتضح أن بعض قطاع الطرق من الشخصيات التى يكون مشهودا لهم بحسن السمعة والمتمتعين بالوضع الاجتماعى الطيب بين ذويهم .

ثالثا : الجبان المستأسد

أن قاطع الطريق يكون فى الغالب من الشخصيات الجبانة التى لا تستطيع ايقاع الخوف فى قلوب الناس من حولهم فى واقع الحياة . من هنا فإن قاطع الطريق يجد متعته فى مشاهدة من ينقض عليهم فى الظلام وهم يتضرعون اليه بالعفو عنهم وقد أخذ بهم الخوف كل مأخذ

وتفككت مفاصلهم وتدفقت الدموع من أعينهم.ولعلنا نقول أكثر من هذا ان معظم العتاة من المجرمين يكونون فى واقع أمرهم النفسى من أكثر الناس جبنا وارتعادا . ولكنهم يتخذون من المغامرات المبالغ فيها والتى تذهب إلى نهاية الشوط برهانا نفسيا يؤكدون به لأنفسهم – توهما وخداعا – أنهم ليسوا جبناء ، بل ان الجبن لا يعرف طريقه إلى قلوبهم الصلبة . فالجرائم التى يرتكبها مثل أولئك العتاه الجبناء تفسر بأنها جبن مقلوب أو بأنها خوف يتلبس بقشرة زائفة يوهم بها المجرم نفسه بأنه شجاع .

رابعا – التذرع بعنصر المفأجاة :

إن قاطع الطريق يعتمد فى سطوه على عنصر المفاجأة وعدم التوقع من جانب الأشخاص الذين يسطو عليهم . فأولئك الناس الذين يسيرون فى الظلام يكونون عزلا من الدفاع النفسى عن الذات . ذلك أنهم لا يستطيعون تقدير حجم الخطر الذى يتهددهم وهم مقطوعى الصلة بالواقع من حولهم بسبب الظلام الدامس المحيط بهم من كل جانب.فبينما يكون قاطع الطريق واقفا عليهم ومتتبعاً لخطواتهم بغير علم من جانبهم . فإنهم يكونون فى غفلة من أمرهم بازائه ولا يعرفون من أمر سطوه عليهم شيئا . من هنا فإن القوة كل القوة تكون فى قبضته . بينما يكون الضعف كل الضعف من نصيب أولئك المساكين .

خامسا – الاستحواذ المادى والجنسى :

وحالما يجد قاطع الطريق أن فرائسه البشرية قد انهارت أمامه – وهو الشخص النذل الرعديد – فإنه يغتنم الفرصة راغبا فى الاستحواذ على فرائسه بكل أنحائها . ولذا فإن قطاع الطرق – بينما يكون هدفهم الرئيسى هو ابتزاز الأموال – فإنهم فى كثير من الأحيان يعتدون أيضا على الأعراض ، فيستحيل الواحد منهم إلى هاتك للعرض وليس فقط مغتصبا للمال . ولعله فى فعلته الجنسية الشنعاء يكون مؤكدا لنفسه أنه صاحب القوة والاقتدار وأنه قادر على التصرف فى كل شئ بالموقف بما فى ذلك أجساد أولئك المساكين الذين وقعوا فى قبضته التى لا ترحم . وفى حوزته التى لا فكاك منها ولا خلاص من براثنها .

واذا كنا بدأنا حديثنا بسيكولوجية قاطع الطريق المتربص فى الظلام بالسائرين بالطريق . فإن علينا بعد هذا أن نتفحص المخاوف التى تنتاب أولئك السائرين فى الظلام وبواعث خوفهم . ولعلنا نلخص تلك المخاوف والبواعث فيما يلى :

أولا – إن الناس السائرين فى الظلام يخافون على أنفسهم من القتل.فالتعلق بالحياة من جهة . والاحساس بأن تلك الحياة معرضة للضياع فى أى لحظة من جهة أخرى ، إنما يعمل على إشاعة الخوف فى قوام شخصية المرء . فمن يتوقع أو يترقب أو يخشى مهاجمة شخص مجهول عليه لقتله لا بد إن يتلبس بمشاعر تقترب من مشاعر من يساق إلى حبل المشنقة .

ثانيا – وإذا كان السائر فى الظلام شجاعا ومدججا بالسلاح ، فإنه يخاف أيضا وإن كان يسيطر على جانب مما يصيبه من خوف . فهو يضع فى اعتباره أنه اذا كان ذا حظ سعيد ، فإنه سوف لا يقتل بل سيقوم هو بالقتل ولكن القتل حتى دفاعا عن النفس شئ رهيب للغاية بالنسبة لشخص لم يسبق له أن خدش شخصا بجرح صغير . فتخيل مثل ذلك الشخص نفسه وقد صار قاتلا فى لحظة غير مرسومة فى حياته يكون بلا شك تخيلاً مخيفا يكاد المرء لا يتحمل التمادى فيه . والواقع أن الكثير من المدججين بالسلاح لا يتمكنون من استخدام سلاحهم ضد من يهاجمونهم فى الظلام من قطاع الطرق والمتربصين بهم خفية ، وذلك لعدم الدربة من جهة على مقابلة الهجوم بمثله ، وللمباغتة التى يهاجم بها قاطع الطريق فريسته البشرية من جهة أخرى .

ثالثا – الخوف على حياة الأحباء :

عندما يكون الشخص مصاحبا لأحبائه فى الظلام ، فإن خوفه لا يكون ملتفاً حول ذاته فحسب ، بل يكون ملتفا أيضا حول أولئك الذين يعتبر أن وقوع الضرر عليهم هو فى نفس الوقت وقوع على شخصه ان لم يزد . فالأم والأب يخافان على أطفالهما لئلا يقعا فى أيدى قطاع الطرق . ذلك أن بعض قطاع الطرق يخطفون الأطفال للمطالبة بفدية كبيرة نظير إطلاقهم وعدم قتلهم .

رابعاً – توقع انتقام المنتقمين :

فى حالات الأخذ بالثأر وتراكم الضغائن بين الأسر بالريف ، فإن السير فى الظلام يكون مخيفا للغاية . ذلك أن الشخص السائر فى الظلام فى تلك الظروف لا يحس بالأمان بأى حال من الأحوال . إنه يتوقع الهجوم عليه فى أية لحظة وخاصة فى الوقت الذى يكون الظلام مخيما فيه على القرية ولا يوجد أحد يغيث المستغيث أو يساعد على دفع الخطر أو الحيلولة دون وقوعه .

خامسا – الخوف من فقد أشياء ثمينة :

وعندما يكون المسافرون حاملين لأشياء قيمة . فإن خوفهم لا يتركز فقط على حياتهم وحياة من معهم من أشخاص ، بل يتركز بالدرجة الأولى على تلك الأشياء القيمة التى يحملونها وهم يعلمون أن قطاع الطرق ربما يكونون قد عرفوا قيمة ما فى حوزتهم فنصبوا لهم الكمائن التى يتسنى لهم بواسطتها السطو والنهب ثم الفرار فى جنح الظلام .

ولا شك أن الناس الخائفين وهم يسيرون فى جنح الظلام يستعينون ببعض الوسائل التى تذب عنهم الخوف من قطاع الطرق والمتربصين بهم فهم يستعينون بالوسائل التالية :

أولا – الاستعانة بالحرس :

أو السير فى جماعات كبيرة مدججة بالسلاح . فمثل هذا الاجراء يشعر السائرين فى الظلام بالأمن نسبيا بسبب كثرة العدد وبسبب التسلح بما يسمح بالدفاع عن الجماعة ككل .

ثانيا – اطلاق القذائف النارية فى اتجاهات متباينة وذلك لارهاب قطاع الطريق وقتلهم اذا كانوا فى حالة تربص وانتهاز أول فرصة للهجوم .

ثالثا – التستر تحت عباءة الظلام :

والامتناع عن استخدام أى ضوء بما فى ذلك السجائر حتى تتخفى الجماعة بعيدا عن الأنظار وهى سائرة ككتلة متراصة فى الطريق .

رابعا – الانقطاع عن الكلام وكتم الأنفاس :

أعنى التزام الصمت التام فى المسير لأن انبعاث الصوت منهم يدل على مكانهم وهذا فى حد ذاته يشكل خطرا عليهم .

الخوف من الارتطام :

ان الإنسان بطبيعته ومنذ طفولته الباكرة يخاف من فقد السند . أعنى التعرض للوقوع من مكان مرتفع إلى مكان آخر منخفض . ويتبدى هذا النوع من الخوف فى الحلم الذى نجد أنفسنا فيه معرضين للوقوع فتهتز أجسادنا ونقوم من الحلم فزعين ، ثم ما نلبث أن تطمئن قلوبنا بعد أن نكتشف أننا ما نزال فوق أسرتنا فى أمان من الوقوع .

وهناك فى الواقع علاقة وثيقة بين الحالة التى نكون عليها فى أثناء انخراطنا فى النعاس وبين حالتنا ونحن سائرين وحدنا فى الظلام . ذلك أننا فى الحالين نكون قد انفصلنا عن الواقع الخارجى من حولنا . ففى حالة النعاس فإننا ننسحب من حالة الشعور إلى حالة اللآشعور . وفى حال السير فى الظلام الدامس فإننا نخرج من الحالة التى تكون بيننا وبين الواقع من حولنا قنوات اتصال أو منافذ نطل منها على العالم من حولنا إلى الحالة التى نجد أنفسنا فيها وقد انقطعت طرق المواصلات بيننا وبين ما حولنا من أشياء ، وأننا قد صرنا محبوسين فى إطارنا الداخلى بحيث يكون فى مقدورنا أن نطل على العالم الخارجى من حولنا . إننا نصير فى حالة ترقب للأحداث التى يمكن أن تقرع باب عالمنا الداخلى المنعزل بستارة فولاذية عن عالمنا الخارجى .

ونحن فى الظلام لا نستطيع أن نقدر المسافات كما لا نستطيع أيضا أن نقدر أعماق الحفر أو اتساعها . من هنا فإننا نفقد القدرة على تخطى عتبات الأخطار التى يمكن أن تحيق بنا اذا ما زلت أقدامنا وتعثرت خطانا . ومن المعروف أننا نجهز طاقة حيوية نفسية لكل عملية مهما صغرت نزمع القيام بها . وعندما نضطر للقيام بنشاط ما – سواء كان نشاطا جسميا أم نشاطا

وجدانيا أم نشاطا عقليا أم نشاطا اجتماعيا – بغير أن نكون قد جهزنا له الطاقة اللآزمة للقيام به . فإننا نحس عندئذ بالاحباط وما يتبعه من مخاوف غامضة .

والسير فى الظلام لا يكون مشفوعا بالواقع الآنى ولا بالمستقبل الوشيك . فنحن من جهة نكون قد فقدنا التبصر بالأبعاد التى يتضمنها النشاط الذى نضطلع به آنيا . كما أننا لا نتمتع بالبصر بما سنقدم على القيام به فى خطواتنا التالية . والواقع أن الغموض الذى يكتنف حاضرنا ومستقبلنا . أو بتعبير آخر ما يكتنف خطواتنا الراهنة وخطواتنا التالية – لما يجعلنا فى حالة من التوجس بازاء ما ما عسى أن يحدث لنا من ضرر أو هلاك .

ولعلنا نعرض فيما يلى لأهم الجوانب التى تتسم بها سيكولوجية الخائف من الارتطام فى الظلام . وتتلخص تلك الجوانب فيما يلى :

أولا : فقدان الاتزان الوجدانى نتيجة فقدان الاتزان الجسمى :

فالواقع أن هناك توازيا فيما بين الحالات الجسمية وبين الحالات النفسية الوجدانية . فكل ما يصيب الجسم من صدمات أو مفاجآت يعكس صداه فى نفس الوقت على صفحة الحياة الوجدانية للمرء . والشخص المرتطم بجسمه أو المنزلق به فى هوة سحيقة أو غير سحيقة إنما يجد نفسه فى نفس الوقت وقد انغمر فى حالة من الخوف والفزع لما أصاب جسمه أو لما هدد ذلك الجسم بالخطر .

ثانيا : الخوف من الانحباس فى حفرة :

فالارتطام فى الظلام يرتبط فى اللآشعور الجمعى الذى ورثه الفرد عن أسلافه البعيدين بالوقوع فى حفرة والانحباس فيها والعجز عن الخروج منها . وانه لشئ مفزع حقا أن يجد المرء نفسه مسجونا فى جب أو أن يجد نفسه واقعا فى قاع بئر مظلمة وقد انحشر بين حوائطها الضيقة والظلام يحيط به من كل جانب.ولقد نقول ان مثل تلك الخبرة قد عانى منها أسلافنا البعيدون بل وأسلافنا القريبون أيضا مما يجعلنا نخاف ونرتعد لمجرد أن فكرة كهذه تراودنا وتجول بخاطرنا .

ثالثا : الخوف من الوقوع فى جب للأسود أو فى مخالب حيوان راقد فى مكمنه أو فى جحر للحيات والعقارب :

والانسان قد ورث فى لا شعوره الجمعى المترسب فى أعماقه هذا اللون من الخوف القريب من اللون السابق . فالإنسان الأول الذى نشأ أول ما نشأ فى أحضان الغابات لا بد قد عانى فى كثير من الأحيان من مواقف وجد نفسه فيها معرضا للوقوع فى جب للأسود أو النمور أو فى مخالب أى من الحيوانات المفترسة أو فى جحور للحيات والعقارب . وليس بالضرورة أن يكون الإنسان القديم قد عانى هو شخصيا من تلك المواقف المفزعة الخطرة . بل يكفى أن يكون قد شاهد أو قد سمع عن آخرين من بنى جلدته قد تعرضوا لمثل تلك المواقف الخطرة .

رابعا : الخوف من الانتزاع من عالم الناس فيصير المرء وحيدا :

ذلك أن الانسان كائن اجتماعى بالطبع . فهو فى تطوره كان غائصا حتى أذنيه فى الشعور بالنحنية . أعنى بالجماعية . إن سلوكه كان سلوكا قطيعيا اندماجيا مع غيره من أشخاص ، ولم يكن سلوكه فرديا مستقلا عن سلوك الآخرين من حوله . ولعلنا نزعم أن استقلال الإنسان بفرديته فى بعض المواقف قد ظهر فى عهود حضارية تالية بعد أن قيض للإنسان أن يجد نفسه صاحب مصالح ورغبات وميول متباينة – بله متعارضة فى بعض الأحيان – مع مصالح ورغبات وميول الجماعة التى ينخرط فيها أو ينتمى إليها . وكلما تقدم الإنسان فى سلسلة التطور . كان بالتالى أكثر ميلا إلى الفردية وأكثر انسلاخا من الجماعية .

خامسا : الخوف من زلزلة الأرض تحت القدمين :

فالواقع أنه عندما يفقد المرء صلته بالواقع الخارجى من حوله . فإنه لا يستطيع أن يستبين ما اذا كان ارتطامه بشئ فى طريقه أو وقوعه فى حفرة نتيجة لعدم انتظام سطح الأرض التى يسير عليها . أم أن ارتطامه ووقوعه فى حفرة نتيجة لتغير مفاجئ حدث بالقشرة الأرضية . فالارتطام والوقوع فى الحفرة هو فى الحالتين بمثابة زلزلة الأرض من تحت قدمى الشخص . ولا شك أن انتشار الظلام من حول المرء يجعل تمييز الواقع مستحيلا . فالأمور تختلط فى الذهن ولا يعرف المرتطم جلية الأمر أو مقومات الموقف الذى يحيط به .

ولعلنا نعرض للعوامل التى تساعد على تأجج الخوف من الارتطام فى الظلام فنلخصها فيما يلى :

أولا : عدم القدرة على تحديد المواقع :

إن الشخص السائر فى الظلام وقد نعه بمعالمه القائمة لا يستطيع أن يحدد مواقع أطرافه وبخاصة قدميه من الأشياء الموجودة بالمكان . فالمرء فى مثل هذا الموقف يفقد القدرة على إقامة العلاقات بينه وبين الأشياء المحيطة به . ولا شك أن فقدان المرء لمثل تلك القدرة فى أثناء السير فى الظلام لما يؤجج الشعور بالخوف لديه .

ثانيا : العجز عن التنبؤ بما سيلاقيه :

لقد يستعين المرء –كما سبق أن ذكرنا – بحاسة أخرى غير حاسة البصر ليحدد موقعه من الأشياء كأن يتحسس طريقه بيديه أو بقدميه ، أو كأن يستهدى بما يسمعه من أصوات قريبة منه . ولكن افترض أن المكان الذى يسير فيه الشخص يبدو منبسطا أمامه مع أن به حفرا عميقة أو افترض أيضا أنه لا يوجد أى صوت يصل إلى أذنيه يستطيع أن يستشف بواسطته حدود المكان أو أن يتنبأ بواسطته عن وجود أشياء واقفه أمامه فيتجنب الاصطدام بها . فماذا يكون حاله عندئذ ؟ لا شك أنه عندئذ يحس بالخوف يملأ جنباته لأنه يتوقع لجسمه أن يرتطم أو

لقدميه بأن تزلا فيقع فى حفرة فيهلك ، فما يؤجج مخاوف المرء السائر فى الظلام عدم قدرته على التنبوء بما يتحرك قبالته .

ثالثا : فقد الصلة بين الادراك والخيال :

وما يعمل أيضا على تأجيج الخيال لدى الشخص الذى يسير فى الظلام فقدان التوازن الذى كان قائما – فى أثناء وجوده فى النور – فيما بين الادراك وبين التخيل . فعندما يسير المرء فى الظلام ، فإنه يفقد قدرته الادراكية بينما يشتعل لديه أوار الخيال . فهو يركب صورا ذهنية **خيالية مما سبق أن ترسب لديه من صور مدركة . ولاشك أن تلك الصور الخيالية التى يقوم بتركيبها تكون مصطبغة بصبغة وجدانية قاتمة متشائمة لأنه يتوقع فى أثناء حياكته لها الارتطام والسقوط . فلكأن الخيال قد صار عاملاً مؤججًا للخوف فى أثناء السير فى الظلام .**

ارتباط الظلام بالأشباح :

فى الظلام الدامس يرتع الخيال كيفما يشاء ويركب صورا ذهنية كيفما يريد . وفى الظلام يتفاعل الخيال مع الوجدان فترتعد الفرائس وتنهار القوى وتتفكك المفاصل . وفى الظلام تنشط الهلوسات المرئية والمسموعة فيرى الخائف فى دياجير الظلام بأم عينيه أشباحا وتصل إلى أذنيه تهديداتها ووعيدها . فينهار وهى مقبلة عليه فى أشكالها المرعبة مهددة باقتناص روحه أو سحقه ومحقه وتشويه خلقته .

وكما قلنا فإن الانسان الموجود فى الظلام الدامس يكون مقطوع الصلة بما حوله من أشياء وأحياء . ومن ثم فإن نشاطه الذهنى لا يكون انعكاسا لما تستقبله حواسه من الواقع الخارجى ثم يترجم فى مراكز الترجمة بالمخ . بل يكون ما يستقبله المخ من دخيلة المخ نفسه . فالمخ فى هذه فى هذه الحالة يكون مصدرا من جهة ، ومستقبلا من جهة أخرى . ولكن المخ يستعين بالعملية العقلية التى تعرف بالاسقاط الخارجى . فهو يعكس التيار . فبدلا من أن يستقبل من الخارج بواسطة الحواس ثم بواسطة مراكز الترجمة الإدراكية به ، فإنه يصدر ما يصنعه بدخيلته من صور ذهنية مركبة بحيث تمر من مراكز التصنيع به إلى الحواس ومنها إلى الواقع الخارجى ، أو هكذا يبدو له أن ما يلقيه إلى الحواس يستحيل إلى واقع خارجى موضوعى مجسد فى صورة مرئية أو مجسدة فى صورة مسموعة .

فالخائف يمكن أن يرى أشباحا بأم عينيه ، كما يمكن أن يسمع أصواتا بأذنية فيؤكد لمن يحيطون به أنه يرى أشخاصا وأنه يسمع أصواتا ، وهو لا يدرى أن ما يشاهدهم من أشخاص أو من كائنات حية أخرى ، وأن ما يستمع إليه من كلمات إنما هو ناجم عن صناعته الذهنية فى لا شعوره .

والواقع أن الأمر هنا لا يعدو أن يكون كالأمر بازاء الأحلام التى يراها النائم . فكما أننا نرى

فى أحلامنا أشخاصا أو كائنات حية متباينة ، وكما نستمع إلى أقوال نكون صادقين عندما نزعم أننا خبرناها بالفعل ، سواء من حيث رؤيتنا لها أم من حيث سماعنا لها ، كذا فإن ما يراه الشخص الخائف فى الظلام من هلوسات مرئية أو من هلوسات مسموعة إنما يكون خبرة صحيحة من حيث عدم افتعالها ومن حيث مدى تماسكها وقوة تأثيرها . بيد أن الخطأ يكمن فى التفسير لا فى تقرير ما يشاهده أو ما يسمعه ذلك الشخص الخائف وهو مرتعد فى دياجير الظلام . فكما أن الحلم المرئى أو المسموع يكون خبرة حقيقية وغير زائفة ولكن مع هذا فإن ما يشاهده النائم وما يسمعه لا يعدو نطاق ذهنه ، كذا فإن ما يراه المهلوس الخائف وهو سائر فى الظلام الدامس وما يسمعه لا يعدو نطاق ذهنه أيضا . وبتعبير آخر فإن ما يزعمه المهلوس من وجود أشياء أو أشخاص يراهم بعينيه أو يسمعهم بأذنيه انما هو زعم نصفه صادق ونصفه الآخر كاذب . فهو صادق عندما يقول إنه رأى وسمع ، وكاذب عندما يزعم أن ما رآه من كائنات وما استمع اليه من أصوات لها وجود خارجى موضوعى راسخ الوجود .

بيد أننا نعتقد مع هذا أن الظواهر الروحانية ليست جميعها من صنع الانسان . فهناك فى الواقع مجموعتان من الظواهر الروحانية . النوع الأول لا يعدو أن يكون هلوسات من صنع مخ الشخص الخائف . أما النوع الثانى فهو موجود بالفعل خارج نطاق الانسان ولا يعتبر من صنع المخ البشرى بسبب الخوف أو التوهم . فهناك شواهد مؤكدة تثبت أن العالم الروحانى موجود وأنه لا يعتمد فى وجوده على ما يقوم المخ بحوكه من صور ذهنية اسقاطية . ولعل ما كان يشاهده وليم بليك من صور أو من أشباح يؤكد الوجود الموضوعى لتلك الاشباح. وهناك فى الواقع دراسات علمية حديثة كثيرة تؤكد وجود الكائنات الروحانية وجودا موضوعيا راسخ القوام وثابت البنيان .

ولسنا هنا بصدد البرهنة على وجود الكائنات الروحانية ، بل نحن بصدد ما يتراءى للشخص الخائف من أشباح أشخاص فى الظلام سواء كانت تلك الأشباح التى يراها أو يسمعها أشباحا حقيقية ذات قوام موضوعى أم كانت مجرد حياكة يحوكها خياله بحيث لا تكون سوى اسقاطات ذهنية على الواقع الخارجى .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الأشكال والصيغ التى تتبدى فيها الأشباح التى يراها الشخص الخائف فى الظلام . إن تلك الأشباح يمكن أن تتبدى فى الأشكال والصيغ الآتية :

أولا : اشباح أشخاص ماتوا :

وهى أشباح أشخاص يعرفهم الشخص الخائف وقد ماتوا منذ زمن قريب أو منذ زمن بعيد . فالخائف قد يرى فى الظلام الدامس شبحا قريب الشبه جدا من شخص مات كان يحبه أو كان يكرهه . وفى الحالتين فإن مشاهد الشبح أو سامعه يخاف منه ويرتعد ويهرب من طريقه

لأن مشاهدته له أو سماعه لصوته يلقى فى روعه أنه مقدم على إيذائه والاضرار به .

ثانيا : أشباح الغرباء :

وهى أشباح أشخاص لم يسبق له أن رآهم وهم يكونون عادة ذوى وجوه غريبة وأشكال مخيفة . فهى مسوخ لها خلقة غير مألوفة . لقد تكون أجسادا بغير أدمغة ، أو لقد تكون أجسادا آدمية برءوس حيوانية ، أو قد تكون أجسادا آدميه ولكنها ذوات أرجل كأرجل الماعز أو نحو ذلك من تركيبات شاذة أو شائهة .

ثالثا : اشباح حيوانات غريبة :

لقد تتبدى الأشباح على هيئة حيوانات ذات أشكال غريبة أو تركيبات شاذة . لقد يبدو الشبح على هيئة حمار بأرجل طويلة جدا ، أو لقد يبدو على هيئة ثور له خرطوم كخرطوم الفيل أو نحو ذلك من أشكال حيوانية ممسوخة . ومن جهة أخرى فإن تلك الأشباح الحيوانية الممسوخة قد تصدر أصواتا مزعجة تنشر الرعب فى الأوصال وتدفع بالشخص الخائف إلى أن يولى الأدبار .

رابعا : الأشباح الغامضة :

قد تبدو الأشباح على هيئة هواء ساخن أو هواء بارد يعمل على فتح النوافذ المغلقة أو قلب الموائد وتحطيم الأشياء برغم بقاء النوافذ والأبواب مغلقة . وقد يكون الهواء العاصف مصحوبا بالصفير أو بالضحكات أو بالصراخ أو بالأنين أو بغير ذلك من أصوات تثير الرعب فى قلب الخائف فى الظلام .

خامسا : تنهدات الأشباح :

قد يحس الخائف بأن هناك شخصا معه فى الحجرة المظلمة أو فى المكان المظلم الذى يوجد به مع أنه لا يوجد أحد معه . ولقد يسمع الشخص الخائف بعض التنهدات أو تنفسا عميقا ينبعث إلى جانب وجهه مباشرة أو قد يسمع بعض الأنات المتتالية كما لو أن هناك شخصا مريضا بجانبه يتأوه ويئن من شدة وطأة المرض عليه .

وإذا نحن تساءلنا عن التصرفات التى قد ينتحى اليها الخائف وقد تراءت له الأشباح فى صورة أو صيغة من الصور أو الصيغ التى عرضنا لها ، فإننا نجد أنه يسارع إلى اتخاذ تصرف أو أكثر من التصرفات الآتية :

أولا : اللوذ بالفرار :

قد يتخذ الخائف الهرب وسيلة للتخلص من الأشباح التى تحيط به أو تهدده أو تخيفه .

والهرب من المكان ربما يكون أقرب وسيلة تلوح فى الأفق اذا ما ظهرت الأشباح للشخص الخائف فى الظلام .

ثانيا : الصراخ والبكاء :

ولكن فى بعض الحالات فإن الشخص الخائف لا يكاد يقدر على الجرى أو على حمل نفسه على الجرى ، فيلجأ للصراخ والاستغاثة فى انفعال شديد . وربما يكون الصراخ والصياح مصحوبين بالبكاء المرير .

ثالثا : الاغماء كوسيلة للهروب :

ولكن اذا اشتد الخوف بالشخص الخائف ، فإنه قد لا يحتمل البقاء فى حالة الوعى . فينهار مغشيا عليه لفترة تقصر أو تطول فيكون الاغماء وسيلة هروبية لا شعورية .

رابعا : التدثر باللحاف :

واذا كان الشخص نائما بالسرير ، فإنه قد يجد مهربه فى إغماض عينيه بشدة ، ثم الاختباء تحت اللحاف . وكثير من الأطفال الخائفين يفعلون ذلك .

خامسا : التضرع إلى الله :

وفى معظم الحالات فإن الشخص الخائف يلجأ إلى الصلاة متضرعا إلى الله أن يحميه من شرور تلك الأشباح . ذلك أن معظم الناس الذين تتراءى لهم الأشباح يعتقدون أنها شياطين تبغى الحاق الاذى بهم فيذبوها بالصلاة .



هل تؤمن بعالم الأرواح والسحر؟

الفصل العاشر
عالم الأرواح والخوف

الأرواح والسحر :

من أكثر الموضوعات اثارة لمن تتحدث معهم أو لمن تكتب اليهم تلك الموضوعات المتعلقة بالأرواح أو بالسحر . وشاهد ذلك أن الكتب التى تعرض للأرواح أو للسحر تلقى رواجا لا يقل شيوعا عن الكتب الجنسية . على أننا بينما نجد أن الكتب الجنسية تلقى رواجا وانتشارا لأنها تخاطب رغبة جوهرية من رغبات الانسان ، فإننا نجد من جهة أخرى أن الكتب التى تتخذ الأرواح أو السحر موضوعا لها تلقى رواجا لأنها تتعلق بالخوف*.

ولقد يدهش بعض من يقرأون كلامنا هذا من قولنا إن الكتب التى تتناول الأرواح والسحر تلقى رواجا لأنها تتعلق بما يخيف الإنسان . أليس من الأجدر أن نزعم أن الموضوعات التى تتعلق بالخوف يشاح عنها ويتجنبها الناس ؟ أليس الخوف مما يثير الجَنْبة ويبعث عليها ؟ الواقع السيكولوجى يقرر غير هذا ، فالخوف الخفيف يحدث فى النفس ما يشبه الدغدغة اللذيذة . وكما أن الدغدغة اذا ما زادت عن الحد المعقول فإنها تنقلب إلى ألم ، بل إنها قد تحدث الموت نفسه اذا ما استمرت بشدة وعنف كما هو الحال فى القتل عن طريق الاستمرار فى الضحك بالدغدغة . كذا فإن الخوف عندما يكون خفيفاً فإنه عندئذ يكون عاملا من عوامل إشباع غريزة مفطورة لدى الإنسان تتطلع إلى الاشباع وأخذ حظها من التشغيل والتحقق .

وأنت عندما تقرأ عن الأرواح أو عن السحر ، فإنك تستشعر بعض الخوف اللذيذ . ومن ثم يتحقق فى شخصيتك جانب تريد تحقيقه . ولكنك عند بلوغك نقطة معينة أعنى عندما يأخذ بك الخوف كل مأخذ ، فإنك قد تتوقف عن القراءة وتتحاشى التمادى فى سبر غور هذا اللون من الموضوعات المثيرة . وإنك لتلاحظ أنك اذا ما جالست بعض أصدقائك وأقربائك وبدأ الحديث يتطرق إلى الأرواح والسحر ، فإن الأعناق تشرئب ويتركز انتباه الجميع فيما يقال بحيث لا تفوتهم قصة أو حادثة تتعلق بالأرواح أو السحر تكون قد مرت فى خبرة المتحدث ، أو يكون قد سمعها أو قرأ عنها . ولكن البعض من المستمعين قد يبدأ عند مرحلة معينة من الحديث فى التبرم من الاستماع مبديا الخوف ، أو متوجسا خيفة لئلا يأرق بالليل فلا يجد النوم إلى جفونه سبيلا .

ولعل من أهم عوامل التشويق بازاء الحديث عن الأرواح والسحر هو ذلك الغموض

(*) اقرأ كتاب السحر والتنجيم للمؤلف – دار نهضة مصر بالفجالة – القاهرة .

الذى يكتنف ما يسرد من قصص أو نوادر . فكل قصة تقال تكون مما لا يقع للناس العاديين فى حياتهم اليومية . فما يسرد من قصص فى هذا الباب يعتبر فى الواقع جديدا كل الجدة وغامضا كل الغموض . وبالتالى فإنه يكون مثيرا كل الإثارة . فما يصل إلى الأسماع يعد موضوعا غير مستهلك فلا تمله أذواق المستمعين .

ولعل ما يثير الخوف عند المستمعين أو عند القارئين لقصص الأرواح والسحر ما يحسون به من خروج القوى الروحانية والقوى السحرية من قانون السببية المتعلق بالسبب والمسبب ، أعنى قانون العلة والمعلول . فبينما تسير حياتنا اليومية العادية وفق قانون السببية ، فإن القوى السحرية والقوى الروحانية تجب ذلك القانون وتلغيه وتجعل من النقلة الفجائية بغير أن تمر الأحداث فى سلسلة الأسباب والمسببات الأساس فى اعتمال القوى الروحية والقوى السحرية . فالذى يستعين بالقوى الروحانية فى السحر يستطيع أن يوقع الضرر على من يحوك له السحر عن طريق استخدام تلك القوى الروحانية .

والناس يخشون عالم الأرواح والسحر لأن هناك عقيدة شائعة تقول إن استخدام الأرواح فى السحر يمكن أن يؤدى إلى نتيجة من نتيجتين أو إلى النتيجتين معا : الأولى – الحيلولة بين المرء وبين تحقيق أهدافه فى الحياة مع أنه يكون قد أعد جميع أسباب النجاح لبلوغ أو تحقيق تلك الأهداف . فالطالب يرسب فى الإمتحان مع أنه استذكر دروسه جيدا والتاجر يفلس برغم قدرته على إدارة أعماله على خير وجه . والشابة الجميلة لا تجد من يتقدم لخطبتها برغم كل ما تمتاز به من جمال وجاذبية ورقة . والسيدة المتزوجة تجد صداً من جانب زوجها . فهو يكره الاقتراب منها أو مجالستها أو الاصغاء إلى كلامها .

أما النتيجة الثانية التى يمكن أن تترتب على استخدام الأرواح فى السحر فهى إيقاع الضرر المباشر على الشخص أو الأشخاص الذين يحاك السحر ضدهم . فالشخص الصحيح يقع صريع مرض عضال يحار الأطباء فى تشخيصه وعلاجه . والنار تشتعل فى بيت الشخص الذى يحاك ضده السحر لسبب غير متوقع أو لسبب مجهول . والسائر فى الطريق على الرصيف تنحرف سيارة لتقتله أو تصيبه . والموظف الكفء يرتكب تصرفا خطيرا عن غير قصد يؤدى به إلى الفصل من وظيفته ومحاكمته أو حتى إلى سجنه . إلى غير ذلك من أضرار مباشرة تصيب الأشخاص المسحورين .

وهناك فى الواقع مجموعة من الوسائل التى يستعان بها فى تجنيد الأرواح لايقاع الضرر على الشخص المطلوب إيقاع الضرر عليه يمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا : السحر عن طريق وجود أوجه شبه :

فالبدائيون كانوا يصنعون تماثيل من الطين تشبه فى هيئتها العامة الشخص الذى يراد حوك السحر ضده ثم تشعل النار ويوضع التمثال على تلك النار فيحترق . والاعتقاد السائد هو أن تلك النار التى اكتوى بها التمثال تحرق أو تؤذى الشخص المسحور .

ثانيا : السحر بطريق أشياء مأخوذة من جسم المراد حوك السحر ضده أو من متعلقاته :

من ذلك مثلا أخذ قلامة من أظافر الشخص الذى يراد عمل السحر ضده أو أخذ خصلة من شعره أو قطعة من ملابسه تكون فيها رائحته ثم قراءة كلام معين من كتب السحر مع حرق تلك الأشياء فيصاب الشخص صاحب تلك الأشياء والمتعلقات بالأمراض أو نحوها من إيذاءات .

ثالثا : قراءة نصوص سحرية :

تلاوة نصوص معينة من كتب السحر مع ذكر اسم الشخص المراد حوك السحر ضده واسم أمه وبعض ما يدل عليه .

رابعا : العمل :

استخدام مواد معينة مستمدة من بعض الطيور أو الحيوانات أو الحشرات ولفها بطريقة معينة ووضعها خلسة فى بيت الشخص المستهدف بالسحر ، فتجلب عليه تلك المواد الكثير من الأذى أو تمنع عنه الكثير من الخير .

خامسا : السحر بالكلام المعسول أو بالتفرس بالعينين وابداء علامات الانبهار :

وهذا ما يعرف بالحسد . والحسد قد يكون تلقائيا وبشكل غير مقصود ، كما أنه قد يكون وفق تكنيك معين فتراعى فيه أصول سحرية معينة .

وواضح أن أولئك الذين يؤمنون بفاعلية تلك الوسائل السحرية يتخذون وسائل مضادة تكون غالبا وسائل دينية ، فيردد الشخص الذى يخاف من السحر مجموعة من الصلوات ، وقد يرتدى بعض الأحجة التى يعتقد أنها تقيه من شر الحسد . وكذا نجد الكثير من البيوت تعلق الأيقونات والأحجة على مداخلها . وهناك اعتقادات قديمة ما تزال آثارها ورواسبها موجودة يعتقد فى فاعليتها فى درء الحسد . من ذلك تعليق حدوة مستعملة على باب البيت ، أو تعليق فردة حذاء مستعملة خلف السيارة ونحو ذلك من أشياء يعتقد أنها تذب عين الحسود .

وهناك بعض الأماكن التى يخشى بعض الناس ارتيادها أو السير فيها بعد الغروب اعتقادا منهم أنها مسكونة بالجان . وهناك قصص عن شقق مسكونة بالجان . فمن يجرؤ ويقوم بسكناها تلقى عليه الحجارة أو تشتعل النار فى أثاثه بغير تعليل منطقى لذلك . والمثل الشائع يقول « ان البيوت اعتاب ونواصى » . ويعتقد أن الشقة التى يقتل فيها شخص تسكنها الأرواح الشريرة

وتؤذى من يسكنها . ولا شك أن تلك المعتقدات وما ينحو نحوها تشير إلى ما يعتمل من خوف فى القلوب من الأرواح وما يمكن أن تلعبه من أدوار سحرية خطيرة .

الأرواح والحيوانات :

ارتبطت الأرواح بالحيوانات فى الأدب الشعبى ، بل وفى المعتقدات الشائعة فى أذهان كثير من الناس فى مختلف شعوب العالم . فساد الاعتقاد منذ القدم بأن الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة تتبدى فى أشكال حيوانية متباينة . وبالتالى فإن مشاعر الخوف قد ارتبطت ببعض الكائنات الحية التى اعتقد بأن لها صلة على نحو من الأنحاء بالأرواح .

ولقد رمزت الحية للشيطان منذ القدم . فيعزى إلى الحية أنها هى التى أغوت حواء لكى ترتكب أول معصية على الأرض . والكراهية بين بنى الإنسان وبين الحية والثعابين عموما متوارثة عبر الأجيال وهى كراهية مشفوعة بالخوف منها . والعجيب أن الأطفال الصغار قدلا يخافون من أى شئ أو من أى كائن حى باستثناء الثعابين . فلقد وجد فى الاختبارات التى أجراها علماء النفس حول مخاوف الأطفال ، أن الثعابين هى الكائنات الوحيدة التى تثير الخوف عند الأطفال . فالطفل لا يبدى خوفا من مشاهدة الحيوانات المفترسة كالأسد مثلا ، بل قد ينجذب إليه ويرغب فى التقدم نحوه لو ترك وشأنه . ولكن عندما يشاهد ثعبانا ، فإنه يصرخ ويبدى الخوف منه .

ومن المعتقدات الشائعة عند القرويين فى بقاع كثيرة من العالم أن القطط السوداء عندما تظهر بالليل ، فإنها إما أن تكون أرواحا شريرة مجسدة ، وإما أن تكون تلك القطط – وهى قطط حقيقية – قد تلبست بقوى مشيطانة مؤذية . لذا فإن الكبار يحذرون الأطفال من حولهم بألا يتعرضوا لأية قطة سوداء اذا ما شاهدوها بالليل فى أى مكان . وهم بهذا الصدد يلوكون قصصا كثيرة عن أشخاص داسوا عن غير قصد على ذيل قطة سوداء فى الليل ، فصرخت القطة فركبت الأرواح النجسة أولئك الأشخاص فصاروا ممسوسين لا ينفع معهم علاج جسمى أو نفسى . وتفسيرهم لما حدث هو أن الشياطين التى كانت متلبسة بالقطة السوداء قد خرجت مع صراخها منها ووجدت فى أولئك الأشخاص – أو بالأحرى فى الشخص الذى داس ذيلها – مسكنا ملائما له ربما يكون أفضل من مسكنه السابق ،أعنى جسد القطة .

وليست القطط وحدها هى التى ترتبط فى الأذهان بالأرواح الشريرة بل الخنازير أيضا . من ذلك ما ورد بانجيل مرقص الأصحاح الخامس « ولما خرج (يسوع) من السفينة للوقت استقبله من القبور إنسان به روح نجس . كان مسكنه فى القبور ولم يقدر أحد أن يربطه ولا بسلاسل لأنه قد ربط كثيرا بقيود وسلاسل فقطع السلاسل وكسر القيود ، فلم يقدر أحد أن

يذلله . وكان دائما ليلا ونهارا فى الجبال وفى القبور يصيح ويجرح نفسه بالحجارة . فلما رأى يسوع من بعيد ركض .... وسأله ما اسمك ؟ فأجاب قائلا اسمى لجئون لأننا كثيرون . فطلب إليه أن يرسلهم إلى خارج الكورة . وكان هناك عند الجبال قطيع كبير من الخنازير يرعى . فطلب إليه كل الشياطين قائلين ارسلنا إلى الخنازير لندخل فيها . فأذن لهم يسوع للوقت . فخرجت الأرواح النجسة ودخلت فى الخنازير . فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحر . وأما رعاة الخنازير فهربوا وأخبروا فى المدينة وفى الضياع . فخرجوا ليروا ما جرى . وجاءوا الى يسوع فنظروا المجنون الذى كان فيه اللجئون جالسا ولابسا وعاقلا . . . »

ويذكر أن بعض الحيوانات كالقطط والماعز والذئاب كانت تستخدم بو ...عية السحرة فيما يعرف بالطيران فى الأجواء . ويقال إن السحرة وما كانوا يستخدمونه من حيوانات فى أغراض الطيران السحرى كان لا بد أن يدهن بدهن مأخوذ من أجسام أطفال كانوا يقتلون لهذا الغرض بواسطة السحرة .

ويقال إن بعض السحرة كانوا يتمتعون بالقدرة على الاستحالة من حيث الشكل الخارجى ومن حيث طبائعهم وميولهم إلى ذئاب . وتعتبر هذه القدرة دليلا على نبوغ الساحر فى المهارات السحرية . وهناك قصص متعددة عن رجال ونساء كانوا يتحولون فى أثناء الليل إلى ذئاب . ومن ثم فإنهم كانوا يبحثون عن اللحم الآدمى ليأكلوه . فكانوا يهاجمون الشيوخ والنساء والأطفال ويجهزون عليهم . وبهذا فإننا نلاحظ علاقة السحر بأكل لحم البشر Cannibalism وشاهد ذلك أن الكانيبالزم كانت ترتبط بالطقوس السحرية كما هو معروف فى الدراسات الأنثروبولوجية . والساحر أو الساحرة عندما كان يستحيل إلى ذئب . فإنه كان يسير على أربع . كما أن رأسه كان يتحول من رأس انسان إلى رأس ذئب .

وثمة فى الواقع العديد من المحاكمات تمت فى العصور الوسطى فى ألمانيا وجهت فيها الاتهامات إلى بعض الأشخاص بتهمة أنهم اتخذوا فى أثناء الليل أشكالا حيوانية أهمها شكل الذئب . وأنهم كانوا ينقضون على الناس وبخاصة الأطفال ويلتهمونهم .

وكانت تتبع طقوس سحرية معينة للاستحالة إلى شكل الذئب . وكان الساحر فى أثناء أداء تلك الطقوس يرتدى جلد ذئب فى ضوء القمر . أما العودة إلى الشكل الانسانى من جديد فقد كان يتم بمجرد ظهور نور النهار فى الفجر .

وثمة ثقافات عديدة تتضمن قصصا عن أناس كانت لديهم ميول لأن يصيروا ذئابا . فبرغم عدم تغير شكلهم الخارجى إلى ذئاب . فإنهم كانوا من وقت لآخر يعوون كالذئاب . ويجرون على أيديهم وركبهم ويجهزون على الأطفال يأكلون لحمهم ويشربون دمهم . ويفسر هذا فى علم النفس الحديث بأنه من الأمراض العقلية .

وثمة قصص عن مطاردة بعض الذئاب واصابتها فى جزء معين من جسمها . ولكنها سرعان ما تستحيل إلى أناس بهم نفس الاصابات التى أصابتهم وهم فى الحالة الذئبية. ومن أشهر محاكمات التى أجريت بهذا الصدد المحاكمة التى عقدت لشخص اسمه بيتر ستب PETER STUBB بكولونيا فى عام ١٥٨٩. ولقد اعترف هذا الرجل بأنه قد استحال عن طريق ارتدائه لحزام مسحور إلى ذئب متوحش . وقد اقترف العديد من الجرائم وأنه التهم العديد من الأطفال . ولكى يستعيد شكله الإنسانى العادى . فقد كان عليه أن يخلع ذلك الحزام . وطالب المتهم باستخدام الرأفة معه على أساس أنه كان مسوقا إلى أفعاله الاجرامية بقوة السحر وليس بارادته الشخصية . ولكن المحكمة رفضت التماسه وأمرت بسلخ جلده عن جسمه . كما أمرت بتكسير أطرافه ثم حرق جسده إلى أن يصير رمادا .

ولا شك أن البيئة الاجتماعية التى تشيع فيها المعتقدات السحرية من هذه القبيل تتسم فى نفس الوقت بالشعور بالخوف من السحرة . وحيث ان السحرة يلتزمون الكتمان وممارسة أعمالهم السحرية خفية . فإن الناس يتوجسون خيفة من بعضهم بعضا لأنهم لا يستطيعون تمييز السحرة ومعرفتهم .

ومن جهة أخرى فإن مشاهدة أى ذئب فى الجهة التى يقطنونها كان يشار اليه بأنه ساحر مستخف فى هيئة ذئب . ولا شك أيضا أن مثل تلك القصص عن السحر واستحالة السحرة إلى ذئاب قد صارت مادة خصبة لحوك القصص الخيالية . من ذلك مثلا قصة الطفلة المشهورة التى كانت تذهب إلى كوخ امرأة تقدم الحلوى والطعام والفاكهة بدافع من العطف عليها . ولكن الساحر الذئب أراد فى أحد الأيام أن يجهز عليها ليأكلها ولكن بالحيلة . فدق على باب العجوز . وعندما فتحت له هاجمها وأكلها ثم ارتدى ملابسها . وعندما جاءت الطفلة وقرعت الباب . فتح لها الساحر . وبعد الترحاب بالطفلة أخذ يقبلها . وفى أثناء تقبيلها أخذت ملامحه تستحيل إلى ملامح ذئب . فصرخت وتمكنت من الهرب من مخالبه وأسنانه الحادة .

وفى قصصنا الشعبية نجد أن روح الشخص الصالح تستحيل إلى شكل حمامة بيضاء . بينما تستحيل روح الشخص الشرير إلى شكل بومة أو غراب.ولقد نزعم أن تفاؤل الناس بمشاهدة الحمام فى الأحلام وتشاؤمهم لمشاهدة البوم والغربان خلالها إنما يرجع إلى هذا الاعتقاد الذى تكون تلك الطيور بمقتضاه رموزا تشير إلى أرواح الأخيار أو الأشرار . فنحن نتفاءل بالحمام لأنه رمز لأرواح أشخاص صالحين يحومون حولنا فيحيطوننا بالبركة . أما تشاؤمنا من الغربان والبوم فإنه يشير إلى الأرواح الشريرة التى نخشى اقترابها منا ومهاجمتها لنا .

التلبس بالجن :

من المعتقدات الراسخة فى القلوب والأذهان أن هناك علاقات وثيقة ومتنوعة قائمة بين عالم الجن وعالم الناس . ومن أهم تلك العلاقات تلك العلاقة الحميمة التى يمكن أن تقوم بين واحد من الناس وبين جنى ما من الجن . وهناك كما يقال مجموعة من الأشكال التى تتبدى فيها تلك العلاقة الحميمة فيما بين واحد من الناس وبين أحد الجن . ولعلنا نذكر فيما يلى أهم تلك الأشكال :

أولا : قيام عشق أو غرام بين جنى وبين أحد الناس :

فثمة قصص عجيبة يرددها بعض الناس عن علاقات غرامية قامت واستمرت فيما بين أحد الجن من الذكور وبين إحدى النساء . أو بين إحدى الحوريات من الجن وبين واحد من الرجال . على أن تلك العلاقة وإن اتسمت بالشبق الشديد . فإنها فى نفس الوقت تكون محفوفة بالخوف الشديد من جانب المرأة أو من جانب الرجل البشريين العاشقين من محاولة التخلص من العشيق أو العشيقة من أبناء الجن . فيقال ان مجرد التفكير فى التحرر من ذلك الغرام بين واحد من أهل الأرض وبين واحدة من أهل الجن . أو بين واحدة من أهل الأرض وبين واحد من أهل الجن فيه خطر شديد على حياة الآدمى الذى يكون قد عقد عقدا مؤبدا لا فكاك منه ، اللهم إلا اذا زهد الجنى أو زهدت الجنية فى الشخص الآدمى المعشوق . ولسنا هنا لكى نؤكد أو لكى ندحض وجود مثل هذا النوع من أشكال العلاقة الحميمة فيما بين واحد من الناس وبين واحد من الجن . إننا فقط نسجل عقيدة شائعة تتردد القصص المتعلقة بها على كثير من الألسنة وبخاصة لدى أهل الريف .

ثانيا : علاقة التربص والمعاكسة المستمرة فيما يتعلق بجميع شئون الحياة : :

فهناك عقيدة أخرى تسير جنبا لجنب مع العقيدة السابقة مؤداها أن واحدا من الجن قد يتخذ موقفا معاديا لواحد من الناس (ذكرا كان أم أنثى) ويعمل على إتعاسه فى جميع شئون حياته . وبهذه المناسبة نذكر قصة أيوب البار بالتوراة .

« فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح ردىء من باطن قدمه إلى هامته . فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس فى وسط الرماد » (أيوب الأصحاح الثانى) ولا يقتصر إيذاء الشيطان للإنسان على إصابة جسمه فحسب . بل يمتد إلى ماله وعياله وبيته كما هو مذكور فى قصته أيوب هذه .

ثالثا : علاقة إيحائية تقع على فترات متعاقبة : .

وشاهد ذلك ما ورد بسورة الناس « قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . اله الناس .

من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس » والوسواس الخناس هو الجنى الذى يتردد على النفس يصب فيها من وساوسه وأفكاره الخبيثة ما يريد .

رابعا : علاقة تلبسية تتبدى على هيئة مرضية :

فثمة حالات من الأمراض المستعصية يحار فيها الأطباء ولا يجدون لها ما يعللها بما هو معروف فى عالم الطب من أسباب مرضية . ويكون سبب العلة غيبياً متعلقا بمس من الجن .

« وفيما هما خارجان اذا انسان أخرس مجنون قدموه إليه (إلى المسيح) . فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس . فتعجبت الجموع .... » (انجيل متى اصحاح ٩) . وبالنسبة لعلم النفس يقول علماء الصحة النفسية إن امراضا سيكوسوماتية (نفسجسمية) لا يمكن علاجها بالعقاقير أو بالمشارط . بل يجب علاجها بوسائل روحية وجسمية أو بوسائل روحية فحسب كما هو الحال فى قصة المجنون الأخرس الذى شفاه المسيح بعد أن أخرج الشيطان منه .

خامسا : علاقة تلبسية عقلية ووجدانية وسلوكية :

وفى هذه الحالة لا يكون المتلبس بالجن مصابا بمرض ما أو بعاهة من العاهات الجسمية . بل تكون تصرفاته حمقاء وشريرة . وقد يأتى المتلبس بالجن بأعمال خارقة كالكشف عن الأسرار المخبوءة . وتعرف مثل تلك الحالات بازدواج الشخصية أو بتعدد الشخصيات فى الشخص الواحد . والواقع أن هناك خلافا بين علماء الصحة النفسية وبين الدينيين بهذا الصدد . فبينما يزعم أصحاب الصحة النفسية أن ازدواج الشخصية أو تعددها ليس سوى مرض نفسى يمكن علاجه بالأساليب السيكولوجية . فإن الدينيين يؤمنون بأن ازدواج الشخصية أو تعددها إنما هو دليل على تلبس الشخص بالجن وسكناها فيه . والعلاج فى مثل تلك الحالات ليس علاجا طبياً بل علاجاً روحانيا .

ولا شك أن جميع الحالات التى ذكرناها سابقا محفوفة بالخوف من جانب المتلبسين بها . أو من جانب المحيطين بهم . أو من جانب أى شخص يطلع على القصص المتعلقة بها . فهو يخشى أن يصاب بها لسبب أو آخر يعلمه أو لا يعلمه . ومما يزيد المخاوف فى مثل تلك الحالات أن الذين أصيبوا بها لم يكونوا يعرفون أو يتوقعون اصابتهم بها . إنهم كانوا شخصيات سوية عادية . ولكن حظهم المنكود هو الذى أودى بهم إلى الاصابة بمثل تلك الحالات التى قلما يشفى منها الشخص . وقلما يجدى معها الطب النفسى . بله الطب الجسمى . ونحن نعتقد أن الكثير من الأسرار ما تزال تحف بهذا القطاع من الأمراض التى يتنازع عليها أصحاب الصحة النفسية وأصحاب العقائد الروحانية .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن دواعى الخوف من التلبس بالجن بنحو أو أكثر من الأنحاء التى ذكرناها آنفا . الواقع أن هناك مجموعة من الأسباب التى تدعو إلى سيطرة الخوف على المرء من

حدوث مثل ذلك التلبس نلخصها فيما يلى :

أولا : الخروج عن إطار السوية إلى الشذوذ : فالإنسان السوى لا يحب أن يستحيل إلى شخصية شاذة . بيد أن الشذوذ نوعان فى الواقع : شذوذ إلى أعلى وأسمى كشذوذ الفلاسفة والعلماء والقديسين فى طرائق حياتهم عن الآخرين من عامة الناس . وشذوذ إلى أحط وأسفل كشذوذ المجانين والمجرمين ونحوهم . ونحن نخاف أن يمسنا مس من الشيطان أو نلبس بالجن حتى لا يشار إلينا بأننا غير أسوياء .

ثانيا : الشعور بالخطيئة والذنب والنجاسة :

ذلك أن التلبس بالجن قد ارتبط فى الإذهان بأن الجن الشرير لا يسكن إلا فى نفوس وأجساد خبيثة نجسة . فالشيطان لا يسكن فى أجساد القديسين ولا يملك على قلوبهم ونفوسهم . بل ليس له سلطان عليهم ولا يحب معاشرتهم أو الالتصاق بهم . ناهيك عن الحلول فيهم والتكلم بألسنتهم والتصرف بجوارحهم .

ثالثا : العبودية وفقدان الحرية :

فالناس يخشون الوقوع تحت ربقة الجن لأن هذا معناه الوقوع فى أسر الشيطان . بل ومعناه التكبل بسلاسله وأصفاده . فالشخص الذى يتلبس بالجن يفقد ارادته بعد أن يكون قد سلب فكره وانحرف بوجدانه بتجاه ما يميل إليه الجنى وينحو إليه ويبتغيه ويحبه . فالأعمال الخسيسة والتصرفات الدنيئة تصدر عن الشخص المتلبس بالجن . إنه يفقد حياءه ويصير شخصية أخرى دنيئة كأشنع ما تكون الدناءه . ويكون وقحا فظا جسورا فى الشر وفاسقا وبذيئا فى كل ما يصدر عنه من قول أو تصرف .

رابعا : تلقى الاحتقار من جانب الآخرين وفقد الاعتبار :

فالإنسان يخشى من أن يصير ملبوسا بالجن حتى لا ينظر إليه الناس من حوله شذرا واحتقارا . فمن يصير هكذا حاله يفقد أهليته وقيمته كإنسان . إنه يصير شخصا فاقدا لاعتباره البشرى . إنه يتهم بالجنون المؤبد حتى ولو صحت حالته بعد ذلك وتخلص من الجنى الذى يجثم بكلكله عليه . والواقع أن الناس لا يكادون يعترفون لمن يشفى من براثن الجن ومن وطأتها عليه بأنه قد صار إلى حالته الطبيعية بل يصرون على كونه فاقدا لكل اعتبار . وغنى عن القول ان الناس يحتقرون كل من يصاب بالأمراض النفسية بعامة ويحتقرون من يتلبسون بالجن بخاصة . وليس هذا شأنهم بازاء المصابين بالأمراض الجسمية . فهم يبدون لهم الشفقة ولا يحتقرونهم أو يسلبونهم اعتبارهم الإنسانى ولا يسقطون عنهم مكانتهم الإجتماعية .

خامسا : العذاب النفسى والجسمى :

فنحن الأناسى نخاف من التلبس بالجن لأننا نعلم كم يتعذب الشخص الذى يكون فريسة لمثل ذلك التلبس . فثمة الأمراض الجسمية والعاهات التى يمكن أن تصيب الشخص . وثمة إلى جانب هذا – بل وأخطر منه وأدهى – ذلك العذاب النفسى الذى يعانى منه من يتلبس بالجن . فالجنى المسيطر على الشخص وقد استولى على مقاليده لا يكتفى بالسيطرة عليه . بل هو يلح على تعذيبه والتنكيل به واستلابه كل عزة ومنعة وتقدير للذات . وهل من عذاب نفسى أمر من أن يفقد المرء حريته ؟

الانتقام المباشر :

فى مسرحية هملت لشكسبير نجد أن روح الأب القتيل تطالب الابن بالإنتقام له من عمه ومن الأم التى خانت أباه من أجل التزوج بالعم واغتصاب الملك لصالحه . والواقع أن هذه المسرحية وأمثالها تنم على عقيدة متغلغلة فى النفس البشرية مؤداها أن الأرواح المظلومة تحاول أن تنتقم من ظالميها . وفى قصة قايين وهابيل ابنى آدم . عندما قتل قايين هابيل قال الرب لقايين « صوت دم أخيك صارخ إلىَّ من الأرض » (سفر التكوين ص١)

والاعتقاد السائد هو أن روح القتيل تبحث عن وسيلة تنتقم بها . ويقال ان روح القتيل تظل تحوم حول المكان الذى قتلت فيه فترة من الزمن حتى يتم الانتقام لنفسها . ومن الشائع لدى القرويين فى ريف مصر أن روح القتيل يمكن أن تنتقم من أى انسان تصادفه أو تجد فرصة للإنتقام منه بطريق مباشر على النحو الآتى :

أولا – الانتقام البدنى :

كأن تصيب روح القتيل المرء بفالج أو بأحد الأمراض التى يحار الأطباء فى تشخيصها وعلاجها .

ثانيا – التعرض للحوادث المتتالية :

فتجد الواحد ممن يتعرضون لانتقام الأرواح وقد صار معرضا للحوادث المتكررة والمتنوعة بحيث يدهش المحيطون به متسائلين : لماذا هذا الشخص بالذات الذى يتعرض لتلك الحوادث الكثيرة والمتبانية ؟

ثالثا – فى تعطيل المصالح والحيلولة دون تحقيق الأهداف :

ففى تلك الحالات التى تشير إلى تربص الأرواح بالمرء وانتقامها منه ، نجد أن جميع الظروف المواتية كانت متوافرة للشخص ، ولكن يحدث موقف مفاجئ يجعل مقاصده غير متحققة ، بل ويحال بينه وبين تحقيق أهدافه فى الحياة . فهو يجتهد ويخطط ولكن بغير ما جدوى

فى أن يصيب هدفا يترجى التوصل اليه . ولا يكون هناك تفسير يستعين به الناس من حوله سوى قولهم إن حظه نحس والنحس هذا يمكن أن يفسر بأنه معاكسة من روح متربصة بذلك الشخص سواء كان هو الذى آذاها ، أم كان المؤذى هو شخص آخر يهمه أمره .

رابعا – تعقد العلاقات الاجتماعية واصابتها بالخلل :

فمن وسائل انتقام الأرواح من المرء الوقوف فى طريق علاقاته الاجتماعية والعمل على إفسادها . فبدل أن يكون الشخص مرتاحا ومنبسطا فى علاقاته الاجتماعية مع الآخرين . فإنه يجد أن كل الناس متربصون به ومتآمرون عليه . إنه يجد الرئيس يضطهده والمرءوس عاصيا لأوامره ، والزملاء مشيحين عنه بوجوههم أو لا يكترثون به وبكل أموره المتباينة .

خامسا – فى المسائل المالية :

ان الشخص الذى تتربص به الأرواح يجد أن معوقات غير متوقعة تعمل على عرقلة حياته الاقتصادية ، فتبور تجارته اذا كان تاجرا ، وينشل منه مرتبه اذا كان موظفا ، وتتوالى عليه الكوارث المالية التى تجعله مستدينا أو معوزا . بيد أن تلك الحالات التى تعتبر نتيجة لمعاكسة الأرواح تكون ملفتة للنظر اذ تتوالى المصائب المالية بغير أن يكون هناك منطق أو حتى توقع أو احتمال لما سيحدث .

ومن المتوقع أن يصادف كلامنا هذا معارضة شديدة من جانب كثير من القراء الذين اعتادوا ربط المسببات بأسبابها مكتفين بالتفسيرات العلمية الواقعية لكل ما تقع عليه أبصارهم فى الحياة . فهم لا يؤمنون بالغيبيات على الاطلاق ، كما أنهم يستبعدون تدخل الأرواح فى شئون الحياة .إنهم يقولون بدهشة : « وهل هناك خرافة أفحش من القول بتدخل الأرواح فى الحياة اليومية لبنى الانسان ؟ »

ان نفس أولئك الأشخاص الذين سوف يستنكرون ما زعمناه من تدخل الأرواح فى الحياة اليومية ، تجدهم يحملون بين أضلعهم ثنائية عقائدية . فبينما هم يستعينون بالمنهج العلمى العلى فى تفسير كل شئ ، فإنهم من جهة أخرى يؤمنون بالغيبيات ايمانا مطلقا لا تشوبه ذرة من الشك .

ومن أبسط المسلمات التى نأخذ بها جميعا على اختلاف أدياننا ومللنا أن ثمة حسابا فى الآخرة ، وأن المخالفين والخارجين على الوصايا الآلهية مثواهم النار الأبدية حيث سوف يعذبون إلى الأبد بلا نهاية . وأكثر من هذا فإننا نؤمن بأن الله يعاقب الناس أيضا فى هذه الدنيا وينتقم منهم إذا ما خالفوا عن وصاياه واذا هم اقترفوا الجرائم ضد غيرهم من بنى آدم أو تهاونوا فى شئون دينهم .

والمؤمنون بالدين يؤمنون أيضا بوجود السحر والسحرة ، وأن الساحر شخص يتعاون مع

الشيطان لايذاء الناس. فطالما أننا مؤمنون بالقوى الروحية وعلى رأسها جميعا خالقنا ، فإننا بالتالى نذعن للزعم القائل بأن الأرواح تتأثر وتؤثر . تفرح وتحزن وتنتقم . وعلى أية حال فنحن هنا لكى نعرض لمعتقدات موجودة وشائعة بين الناس بالفعل فى جميع أقطار الدنيا .

وما يهمنا التأكيد عليه هو أن من يؤمن بتدخل الأرواح فى حياته سواء آمن بتدخل روح واحدة . أعنى خالقنا سبحانه نفسه دون سواه من أرواح . أم آمن بأن أرواحا أخرى خيرة أم شريرة تتدخل فى حياته فتؤثر فيها بالنفع أو بالضرر . فإنه فى الحالتين لا بد أن يستشعر الخوف من العالم الروحانى ويخشى إغضابه وسخطه . فنحن نخشى من غضب الله لئلا يصيبنا الأذى فى الدنيا والآخرة . كما أننا نخشى الأعمال السحرية التى يستخدم فيها الساحر أرواحا مؤذية . كما أننا نخشى الأماكن المسكونة وخاصة تلك الأماكن التى يسرد بازائها القصص التى تنم على الايذاء وايقاع الضرر .

وما نخلص اليه ونؤكده هو أن العالم الروحانى له علاقة بنا . بحيث نستطيع القول إن بعض الأرواح يمكن أن تؤذى الانسان بشكل مباشر فى صحته أو ماله أو مقاصده أو علاقاته الإجتماعية .

الإنتقام النفسى :

اننا نعتقد أن علماء النفس وعلى رأسهم فرويد – عندما أخذوا يعزون جميع الحالات النفسية الخارجة عن إطار السوية إلى مجرد الاصابة ببعض الأمراض النفسية . وانكارهم لوجود أرواح مؤثرة . إنما كانوا متأثرين بفلسفة القرن التاسع عشر التى غالت فى النزعة المادية . ولقد نستطيع أن نعزو طغيان هذه النزعة المادية البحتة فى علم النفس إلى تاثر المفكرين فى شئون الانسان بنظرية التطور التى ذاعت بصفة خاصة على يد شارلز داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢)

ونحن نعلم أن نظرية التطور قد أنكرت استقلال مملكة الانسان عن المملكة الحيوانية . بل انها ربطت بين هاتين المملكتين برباط وثيق . وجعلت المملكة الانسانية مجرد فرع منشعب عن المملكة الحيوانية . وحيث ان النظرة إلى الكائنات الحيوانية غير الانسانية خلو من الناحية الروحانية . اذ أن الأديان لم تقل بوجود أرواح للحيوانات مفارقة تظل موجودة بعد موت الحيوان أو ذبحه . فيتبع هذا اذن أن يكون الإنسان مجرد كائن حى حيوانى خلو هو أيضا من جميع المقومات الروحانية التى تزعمها له الأديان .

من هنا فإن علماء الصحة النفسية قد صمموا على تحقيق شفاء جميع الحالات النفسية غير السوية بالاستعانة بالوسائل العلاجية النفسية كالتحليل النفسى أو التنويم المغناطيسى أو غير ذلك من وسائل طبية وضعية بعيدة كل البعد عن وسائل العلاج الروحانى التى تتخذ فرضا أساسيا لها وجود أرواح تتلبس بالشخص الصحيح نفسيا فتعوج نفسه . ويشذ سلوكه .

ويخرج عن إطار السوية خروجا تاما .

ولعلنا نزعم أيضا أن سجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) - وهو يهودى - قد بيت ولو على نحو لا شعورى النية على هدم المسيحية من أساسها بالقول بأن المعجزات التى كان يقوم بها المسيح وتلاميذه والتى كانت تعتمد فى أساسها على اخراج الشياطين من الشخص المريض كما حدث فى قصة المجنون الأخرس التى ذكرناها آنفا . انما كانت تقوم فى الواقع على أساس من الايحاء والعلاج النفسى. فالمسيح وفقا لتفسير فرويد-المضمر فى طيات فلسفته- كان عالم نفس ولم يكن يخرج شياطين حقيقية من مرضاه .

ولسنا هنا لكى نتناول علاقة علم نفس الحديث - ومدرسة التحليل النفسى بصفة خاصة بنظرية التطور أو بالمسيحية - ولكننا اضطررنا للتعرض بسرعة لهذه المسألة لأن الشائع اليوم فى الأذهان - تأثرا بعلم النفس الذائع - هو أن جميع الظواهر السلوكية النفسية الشاذة لا تعدو أن تكون أمراضا نفسية يمكن علاجها بالطب النفسى . وما نؤكده هنا بالتالى هو أن من الخطأ أن يعمم علم النفس بأن جميع الحالات النفسية المعوجة ليست سوى انحرافات نفسية . بل يجب أن نقرر أن هناك فئتين من الإنحرافات النفسية : فئة تخضع للعلاج النفسى الوضعى - اذا صح التعبير - وفئة أخرى من الإنحرافات النفسية لا تفسر إلا بالتلبس بالأرواح النجسة والتى لا تجدى معها وسائل العلاج النفسى المعروفة .

وطالما أن الأرواح النجسة يمكن أن تنتقم من بنى الإنسان بشكل مباشر . فإنها من جهة أخرى تستطيع أن تنتقم منهم عن طريق الايذاء النفسى .

ولعلنا فيما يلى نعرض لأهم وسائل الايذاء النفسى التى يمكن أن تستعين بها الأرواح النجسة للانتقام من الأشخاص الذين تلبسهم .

أولا : احتلال عقل المرء :

لعل من أخطر تلك الوسائل استيلاء الأرواح النجسة على عقل المرء وأجهزة النطق لديه . وطالما أن الروح النجسة قد استطاعت أن تستولى على العقل وأجهزة الكلام . فإنها بالتالى تكون قد استولت على مقود الشخصية . ذلك أن العقل والكلام هما الوسيلتان الأساسيتان بالشخصية الانسانية . فبغير العقل وبغير القدرة على التعبير فإن الشخص يكون قد استلب أعز ما لديه . بيد أن استيلاء الأرواح النجسة على العقل وأجهزة النطق لا يعنى ابطال التفكير والامتناع عن الكلام . بل معناه أن يحل عقل الروح النجس وكلامه محل عقل وكلام صاحب الجسم الذى يحل فيه .

ثانيا : سلب الارادة :

وطالما أن الشخص لم يعد هو صاحب أفكاره ولا صاحب كلامه . فإنه بالتالى يكون

مسلوب الإرادة . ذلك أن الارادة هى الأداة التى تقوم بتنفيذ ما ارتسم بالمخ من صور ذهنية تتعلق بالأداء . فالإرادة اذن تنهار بدورها لتحل محلها إرادة أخرى هى إرادة الروح النجس . وبالتالى فإن الانتقام هنا يكون انتقاما فى جهاز الأداء. فالمغتصب – أعنى الروح النجس – يكون قد استطاع أن يحل بكامله فى شخصية الممسوس . أو بالأحرى الملبوس بواسطته .

ثالثا : تلويث العواطف والانفعالات :

ولا شك أن الشخص الملبوس بالروح النجس يكون صاحب عواطف وانفعالات نجسة . فتصرفاته – وهو فى هذه الحالة – لا تكون تصرفاته الشخصية الآدمية . بل تكون تصرفات الروح النجس بما تحمله من عواطف وانفعالات نجسة خسيسة . فالشخص الملبوس بالروح النجسة يصير مشتعلا بالأفكار النجسة وبخاصة فيما يتعلق بالشهوات الجنسية .

رابعا : الخروج على القيم الاجتماعية :

الشخص الملبوس بالجن لا يستطيع أن يتوافق مع ما تواضع عليه المجتمع الذى يعيش فى إطاره . بل هو ينحرف عنه كل الإنحراف . وانحرافه عن قيم المجتمع لا يكون انحرافا عبقريا كما هو الحال لدى النابهين من الفلاسفة والعلماء . بل يكون انحرافا خسيسا هداما . فهو انحراف هدام لكل ما هو جميل ومفيد بالمجتمع . بيد أن الهدم الذى نقصده هنا ليس هدما عشوائيا بلا هدف . بل هو هدم مقصود ومخطط له من قبل الروح النجس الذى استولى على قلاع الشخصية الملبوسة .

خامساً : الأرق الدائم والتجوال :

ومن وسائل انتقام الروح النجس التى يستعين بها ضد الشخصية التى يلبسها إصابة صاحب تلك الشخصية بالأرق الدائم وبالتجوال المستمر . فهو لا يترك الآدمى الملبوس يهدأ لحظة واحدة . بل هو يقلقه ويؤرقه بصفة دائمة . فلا ترى جفونة لحظة نوم . ولا يحظى جسمه بأى قدر من الراحة . وبينما تجد الملبوس من الناحية الجسمية شخصا واهنا ضعيفا . فإن الروح النجسة التى تلبسه تحمله على بذل أضعاف أضعاف طاقته الحيوية الحقيقية . فإذا ما وقف فى طريقه معترض . فإن الروح التى لبسته تقاوم بشدة منقطعة النظير . والقصة السابقة عن المجنون الأخرس الذى أخرج منه المسيح اللجئون . أى الأرواح النجسة المتعددة . تشير إلى تلك القوة والعنف اللذين يتملكان الشخصية الملبوسة بحيث تكون الطاقة المبذولة على حساب طاقة صاحب تلك الشخصية المقهورة . وهى الشخصية الواهنة والمتهالكة بسبب الأرق والتجوال واهمال الطعام وعدم العناية بالجسم بصفة عامة .

ولعلنا نتساءل بعد هذا : لماذا ينتقم الروح النجس من الشخص الذى يلبسه ؟ إننا نعتقد أن الأسباب التى تختفى وراء هذا الانتقام تتبدى فيما يلى :

أولا : العداوة الازلية :

إن هناك عداوة متأصلة بين بيني الانسان وبين الأرواح النجسة بصفة عامة . ذلك أن الانسان قد خلق فى الأصل كائنا نقيا طاهرا . بيد أن الشيطان يجد متعته فى إحالة ذلك الكائن النقى إلى كائن ملوث . فهو بحلوله فيه يهدم مقوماته الروحية وينجس ما كان يجب أن يظل طاهرا نقيا .

ثانيا : تأكيد السلطة الشيطانية :

إن حلول الروح النجس بأحد الأشخاص يعنى فى نفس الوقت زيادة رقعة سلطته وسطوته . فالشخص الذى يحل فيه الروح النجس بمثابة فريسة مقتنصة . أو قل إنه بمثابة فريسه تلتهم التهاما وتزدرد ازدرادا . وهل يستخدم الوحش المفترس الرأفة والرحمة مع فريسته ؟ إن الروح النجسة تعربد وتعبر عن قوامها النجس من خلال تلك الشخصية المنهزمة .

ثالثا : قهر الخير وتأييد مملكة الشر :

ان لسان حال الروح النجسة يقول « ها أنا قد اقتنصت منكم شخصا وفعلت به ما أريد . فها أنا أنتقم فى شخصية هذا الملبوس من جميع الخارجين على ارادتى السائرين فى ركب العناية الالهية الذين يفعلون الخير . والخير هو ألد أعدائى . إنه النور الذى يخطف بصرى ويصيبنى بالعمى . وهو بالنسبة لى بمثابة السم القاتل الذى يفتك بمقوماتى . »

رابعا : تصفية حسابات سابقة :

أخيرا فإن الروح النجس ينتقم من الشخصية الملبوسة بسبب كل خير قدمته فى حياتها السابقة . فكل خير يفعله الإنسان هو فى نفس الوقت شر يهاجم به الشيطان . اذا جاز لنا أن نترجم الخير إلى شر من وجهة نظر الشيطان .



هل يؤدى الخوف إلى الجنون أم أن بعض المخاوف جنون ؟

الفصل الحادى عشر
الخوف والجنون

الخوف من الدم : Haemato-phobia

لايختلف اثنان على أن الخوف فى حد ذاته ظاهرة سلوكية طبيعية . بل إن الخوف يعتبر وسيلة دفاعية سلبية عن حياض الحياة . فلولا الخوف لكانت البشرية – بله الحيوانات – قد هلكت منذ آماد بعيدة . فالخوف من الأخطار التى تحدق بنا يحملنا على الهرب من مصادر تلك الأخطار ويقينا شر التردى فى المهالك . والخوف مرتبط بالانفعال . والانفعال هو مركب من السلوك الفسيولوجى والسلوك الوجدانى معا . فنحن عندما نخاف . فاننا فى نفس الوقت ننفعل فتنشط أجهزة الجسم الخارجية والداخلية استعدادا لبذل الجهد العضلى حتى يتسنى لنا الهروب . فدقات القلب تزداد والعضلات تتوتر وذلك بفعل الأوامر التى تصدر من مراكز المخ الى تلك العضلات وبفعل ما تفرزه الغدتان فوق الكليتين من أدرنالين فى الدم مباشرة .

والواقع أن الخوف اذا كان معبرا عن وظيفة وغاية للكائن الحى تتعلق بأمنه وحمايته من خطر محدق به فى الواقع الخارجى . فانه يكون عندئذ خوفا سويا . أما اذا كان الخوف والانفعال المتعلق به غير مرتبطين بموضوع خارجى يشكل مصدرا للخطر على الكائن الحى . فانه يكون إذن خوفا مرضيا . ويكون الشخص الخائف غير سوى . وحتى اذا كان الموضوع الخارجى يشكل خطراً معينا ولكن الشخص يبدى تجاهه خوفا مبالغا فيه . أو لايبدى أى خوف تجاهه . فانه لايكون عندئذ شخصية سوية . إننا نعتبر مثل ذلك الشخص مصابا بانحراف نفسى يعبر عنه بالجنون بالمخاوف المرضية Phobias

ولقد صنف علماء الصحة النفسية تلك المخاوف المرضية إلى صنوف فى ضوء الموضوع الخارجى الذى يخاف منه الشخص المريض نفسيا . والخوف من منظر الدم واحد من تلك المخاوف المرضية التى نتناولها فى هذا الفصل . ولعلنا نبدأ بالسؤال الآتى : ما المقصود بالخوف المرضى من منظر الدم ؟ المقصود هنا هو أن المصاب بهذا المرض النفسى ينهار نفسيا وقد يغشى عليه اذا ما شاهد الدم يتدفق من جرح يكون قد أصاب حيوانا أو إنسانا . وينبغى أن نميز هنا فيما بين الاحساس بالشفقة والحنان وبين هذا المرض . فالشخص العادى يستشعر جانبا من الشفقة وهو يرى حيوانا يذبح وقد أخذ الدم يتفجر من رقبته بعد تمرير السكين الحاد عليها . وكذا فأن الشخص العادى يحس بالفزع عندما يصاب أحد أحبائه بنزيف يمكن أن يودى

بحياته . بيد أن الشخص العادى يناسب مدى اشفاقه من الدم المتدفق من الجرح وبين مدى الخطر المترتب على نزيف الدم على حياة الشخص النازف . فكلما كان الخطر المتوقع أكبر . كان الخوف المعتمل لدى ذلك الشخص السوى أعظم . ولكن اذا لم يكن ثمة خطر من حدوث النزيف أو اذا كان ظاهرة صحية سوية كما هو الحال بعد خلع سن أو ضرس . فان الشخص العادى السوى لايكاد يحس بالاشفاق من منظر الدم يسيل .

أما اذا اتخذ منظر الدم فى حد ذاته قوة تأثيرية معينة بغض النظر عن ملابسات الموقف . بحيث يرتعد الشخص وتنهار قواه لمجرد رؤيته للدم . فان حالة مثل ذلك الشخص لا تعتبر حالة سوية . بل يجب اعتباره مريضا بهذا النوع من المخاوف المرضية .

ونستطيع فى الواقع أن نميز بين العقل والجنون . أو بين الصحة النفسية والمرض النفسى فى ضوء مدى قدرة المرء على إقامة الاعتبارات لمقومات الموقف . واذا نحن علمنا أن السلوك له أضلاع ثلاثه -- جريا وراء عالم النفس مكدوجال -- هى الادراك والوجدان والنزوع . فاننا نجد أنه فى حالة الشخص العادى . فان الادراك لا ينصب على الدم فى حد ذاته . بل ينصب على جميع مقومات الموقف. فذلك الشخص السوى يأخذ فى اعتباره علاقة كمية الدم بحالة الشخص الذى ينزف صحيا وحياتيا . وهل مثل ذلك النزف مسألة عادية وصحية أم أنه شاهد على خطر يتهدد الشخص النازف ؟وما إذا كان النزيف الحادث بيد جراح ماهر يعرف عمله جيدا ويحرص على حياة وصحة الشخص ف كأن يفتح خراجا أو يجرى عملية جراحية إلى غير ذلك من اعتبارات مواكبة لنزف الدم أو سابقة على حدوثه أو تابعة له .

والشخص العادى السوى يقف نفس الموقف المعرفى بازاء ذبح الحيوانات . فهو يقيم الاعتبار لمسألة مدى ضرورة ذبح الحيوانات للإنسان . وهل يستطيع الإنسان أن يعيش بغير أن يتناول اللحم فى وجباته إلى غير ذلك من تساؤلات يجريها فى ذهنه شعوريا أو لاشعوريا .

أما الشخص المصاب بجنون الخوف من الدم فانه يركز ذهنه فى الخطوة المعرفية فى ادراكه لمنظر الدم لاغير . فهو يعمى عن أى اعتبار معرفى آخر . فمنظر الدم وحده هو الذى يجر إلى المرحلتين أو الضلعين الآخرين فى موقفه السلوكى . فهو مايكاد يشاهد منظر الدم ويدرك أنه دم حتى تتأجج لديه مشاعر الخوف وما يصاحبها من انفعالات عارمة . ثم يأتى الضلع الثالث فى السلوك وهو النزوع أو التصرف الخارجى . فذلك الشخص المريض نفسيا قد ينزع إلى الهروب بهلع من المكان . أو قد يغشى عليه أو يصرخ مستنجدا أو حتى لقد يضرب الطبيب الذى أمسك بالمشرط فى أثناء اجرائه للعملية الجراحية .

وعلى نفس النحو يبدى المجنون بالخوف من الدم مخاوفه لدى مشاهدته حيوانا يذبح . أو حتى عندما يقع على آثار للدم نتيجة ذبح حيوان ما من الحيوانات . فهو لايكتفى بأن يبدى اشمئزاز أو نفورا من منظر الدم ، بل ينهار أمام منظر الدم ولايستطيع أن يلجم خوفه أو انفعالاته . وحتى اذا استطعت أن تقنع ذلك الشخص المريض نفسيا بالحجج والبراهين على زيف مشاعره لأنها لاتقوم على أساس معقول ، فانه برغم اقتناعه بكلامك لا يستطيع أن يلجم ما يغطى شخصيته من خوف وما يأخذ بمقوده من أنفعال لمجرد مشاهدة منظر الدم ، سواء كان دما بشريا أم دما حيوانيا .

وأكثر من هذا فقد يقع بصر ذلك الشخص المجنون بالخوف من الدم على سائل ما لونه كلون الدم فيحسبه دما . فتحدث له نفس المخاوف ونفس الانفعالات التى تحدث له عندما يشاهد دما حقيقيا . وحتى اذا أنت أقنعته بأن ما يقع بصره عليه ليس دما ، بل هو سائل لونه كلون الدم . فانه لا يستطيع الجام عواطفه وانفعالاته . بل يستمر فى خوفه إلى آخر الشوط عاطفيا وانفعاليا ونزوعيا .

ولعل السؤال التالى الذى يفرض نفسه هو : ما الأسباب التى تحمل المجنون بالخوف من منظر الدم على أن يسلك هذا السلوك ؟ أو بتعبير آخر : ما العوامل التى تختفى وراء جنونه هذا ؟ إن علماء الصحة النفسية يقدمون لنا اجابات متباينة عن هذا السؤال نكتفى باجابتين منها فأصحاب التحليل النفسى من تلاميذ فرويد يقولون لنا فلنبدأ بخبرات الطفولة التى تلقاها ذلك الشخص المجنون بالخوف من الدم فى طفولته الباكرة . فلابد أن ذلك الشخص قد تلقى خبرات مؤلمة ارتبطت فى ذهنه بالدم . بيد أن الخبرة التى تؤدى إلى الخوف من منظر الدم قد لا تكون مرتبطة ارتباطا مباشرا بموقف فى الطفولة كان به دم نازف ، بل لقد تكون الخبرة خلوا من الدم ولكنها وجدت لها ارتباطا ما بمنظر الدم . وبتعبير آخر فان الدم لم يكن هو محور خبرة الطفولة المؤلمة ، بل كان ذلك المحور شيئا آخر ولكنه ارتبط بطريقة أو بأخرى بمنظر الدم .

وثمة اجابة ثانية عن السؤال السابق تنحو فى هذه المرة إلى مايسمى بالفعل المنعكس الشرطى **conditioning** فمنظر الدم ارتبط شرطيا بالخوف كما هو الحال عندما يرتبط صوت الجرس بسيلان لعاب الكلب فى تجربة بافلوف وذلك بسماع صوت الجرس قبيل تقديم اللحم للكلب الجائع . فمنظر الدم ارتبط شرطيا بالمجاورة والتكرار . فصار مثيرا شرطيا حل محل المثير الأصلى الذى ربما كان صوتا مرتفعا أو ضربا أو غير ذلك من مثيرات طبيعية لها طبيعة إثارة الخوف فى النفس .

الخوف من الماء : Hydro-phobia

انك اذا شاهدت أحد الأشخاص يخاف من النزول فى البحر للعوم فانك سوف لاتتهمه بالجنون . وحتى اذا كان ذلك الشخص ممن يتقنون العوم ولكن البحر كان هائجا فلاحظت عليه الخوف وهو متردد أو ممتنع عن النزول إلى الماء . فانك سوف لا تتهمه بالجنون . بل قد تصفه بأنه حكيم وعاقل لأنه يقدر مقومات وظروف الموقف التقدير الصحيح . كما أنه يقدر إمكانياته ولا يندفع متهورا ومعرضا نفسه لخطر الغرق . ولكنك اذا لاحظت أن أحد الأشخاص يصرخ مستنجدا لمجرد مشاهدته للبحر الهائج وهو واقف على البر . فان حكمك بازاء ذلك الشخص سوف يختلف عن حكمك على الشخص الأول .

إنك ستدهش من ذلك السلوك العجيب وتأخذ فى اتهام ذلك الشخص بالجنون لأنه يخاف من مجرد مشاهدته للموج الهائج بينما هو فى أمان تام لأنه واقف على البر . ولسوف تعلن صراحة أو تصدر حكما بينك وبين نفسك على ذلك الشخص متهما اياه بالجنون .

ولاشك أنك سوف لا تكتفى باصدار حكمك على سلوك مثل هذا الشخص بأنه سلوك غير سوى . بل إنك سوف تأخذ بعد هذا مباشرة فى إجالة تفكيرك فى الموقف . لقد يذهب بك فكرك إلى استنتاج مؤداه أن ذلك الشخص قد تعرض ذات يوم للغرق . أو أنه قد شاهد واحدأ من أحبائه وهو يصارع الأمواج مستنجدا وليس من ينجده حتى ابتلعه الموج وأرداه قتيلا غريقا . فصار أمام ناظريه جثة هامدة بلا حراك . فأنت تذهب بخيالك إلى استنتاجات تتعلق بما سبق لذلك الشخص تلقيه من خبرات مؤلمة تتعلق بالبحر .

ونحن فى الواقع نذهب جميعا هذا المذهب فى التفسير . ذلك أننا نعتبر أن الخبرات التى سبق لنا تلقيها لم تتلاش . بل هى تنضاف إلى حصيلتنا الخبرية . فما مررنا به من مواقف مخيفة أو محرجة .أو ما شاهدناه أمام أنظارنا من مصائب وكوارث . لابد وأن يترك على صفحات حياتنا النفسية آثارا لا تنمحى ولا تفتر عن الاطلال برأسها من وقت لآخر فى سلوكنا الظاهرى وسلوكنا الباطنى على السواء .

وهناك فى الواقع مجموعة من التفسيرات التى يمكن أن نعزو إلى واحد منها أو أكثر أو إليها جميعا مايمكن أن يبدو من خوف مرضى قبالة الماء . ونكتفى هنا بايراد البعض من تلك التفسيرات على النحو التالى :

أولا – الخبرة المؤلمة المباشرة فى حياة المريض وبخاصة خلال الطفولة : فمن المعلوم أنه كلما كانت الخبرة غائرة فى حياة الشخص . كانت أقوى فاعلية فى حياته . وهنا ينبغى أن نقرر مفارقة شديدة بين مدى فاعلية الخبرة الوجدانية وبين مدى فاعلية الخبرة المعرفية . فبينما نجد أن مدى

فاعلية الخبرة المعرفية يكون ضيقا كلما كانت منذ مدة طويلة فى تاريخ الشخص أى عندما تكون فى الطفولة الباكرة . فاننا نجد أن مدى فاعلية الخبرة الوجدانية الانفعالية يكون واسعا . أعنى أن تلك الخبرة الوجدانية الانفعالية تكون بعيدة الغور بالشخصية وتكون ذات فاعلية قوية وحادة فى سلوكه . واذا صح زعمنا هذا – وهو صحيح بالفعل – فان الخبرات المؤلمة والمكدرة التى مرت بالشخص المريض فى طفولته فيما يتعلق بالماء – كأن يشاهد أمه مثلا وهى تغرق فى الماء وليس من أحد ينجدها ويتلقفها من الماء – تكون فى الواقع أقوى فاعلية من نفس الخبرة لو أنها مرت فى شبابه أو كهولته . فالواجب على المعالج النفسى أن يطرق هذا الباب الخبرى ويبحث فى السجلات النفسية المخبوءة فى طيات نفسه عن الخبرات المؤلمة والمكدرة التى مرت فى طفولته الباكرة .

ثانيا – الخبرات غير المباشرة التى تلقاها الشخص ولها ارتباط غير مباشر بالماء :

ونعنى بالخبرات غير المباشرة تلك الخبرات التى لا ترتبط بالماء مباشرة . بل ترتبط بشىء آخر . ذلك الشىء هو الذى يرتبط بالماء مباشرة . من ذلك مثلا ما مر فى تاريخ أحد المصابين بهذا النوع من الشذوذ النفسى . لقد وجد المعالج النفسى أن السبب الذى دفع به إلى الخوف من الماء لم يكن خبرة مباشرة مرت فى حياته السابقة بالماء . بل كان زوج أمه بحارا . وكان ذلك الرجل قاسيا كل القسوة على ذلك الشخص فى طفولته . ذلك أن أمه تزوجت من ذلك البحار بعد موت والده . فكلما قام ذلك الرجل القاسى بضربه كان إيلامه له وكراهيته له لا يرتبطان بشخص ذلك الرجل فحسب . بل كانا يرتبطان ايضا بالبحر الذى كان يعمل فيه زوج الأم . فالعلاقة المرضية فى هذه الحالة لم تكن رابطة مباشرة بالماء أو بخبرة مؤلمة مباشرة بالماء . بل كانت فى الواقع خبرة غير مباشرة به .

ثالثا – التفسير بالفعل المنعكس الشرطى : وهنا نجد أن الماء قد ارتبط فى حياة المريض بنتيجة أصابته بالهلع والخوف الشديد . من ذلك مثلا قصة أحد المرضى بهذا المرض النفسى مع أمه لقد طلبت منه أمه أن يناولها القلة لتشرب . وكانت تلك الأسرة قد اعتادت أن تشرب من القلل الفخار مباشرة . فبعد أن ناولها الابن القلة وشربت . فانها أخذت تصرخ وتتمرغ على الأرض من شدة الألم إلى أن فارقت الحياة . ويمكن تفسير ما حدث لدى ذلك الشخص من فعل منعكس شرطى على النحو التالى : سم + ماء ← يؤديان إلى الموت وما صاحبه من حزن وهلع .

ماء فقط ← يؤدى إلى هلع وخوف شديد .

رابعا – التفسير الرمزى : وهذا التفسير ينحو منحى تجريديا . فالبحر الذى يضطرب المريض

بالخوف لمجرد مشاهدته له . إنما يرمز فى الواقع لما عاناه ذلك الشخص من طغيان وعبودية واستذلال . فهنا نلاحظ أن الخبرة التى يتلقاها الشخص لا تكون مرتبطة من بعيد أو من قريب بالبحر أو بالماء . فهى لا ترتبط مثلا بالمهنة التى يضطلع بها شخص كان يستخدم العنف مع ذلك الشخص الذى صار بعد ذلك مريضا بالخوف من الماء . بل إن الصلة الوحيدة هى صلة رمزية . فكما أن البطش والعنف لا يخضعان لمنطق . وكما أن البحر أيضا لا يخضع للقدرة على تنبؤ ذلك الشخص ببطشه وطغيانه . فان الرابطة اذن تقوم بين البطش والطغيان وبين ذلك الكائن الذى لايعرف حدودا لطغيانه وعنفوانه اعنى البحر . فبالتجريد والترميز يصير البحر مؤشرا فى نفسية المريض إلى البطش والعدوان والطغيان .

خامسا – التفسير بالخيال وما يحمله من صور وجدانية انفعالية : **ووفقا** لهذا التفسير فان الخيال يكون هو صاحب اليد الطولى فى تضخيم الصورة الذهنية المتعلقة بالبحر والماء . فالمريض بالخوف من الماء يكون قد قرأ شعرا مفعما بالصور البيانية عن البحر فألقت أبيات ذلك الشعر-بما تحمله من أخيلة مفعمة بالرهبة – فى روع المريض الرهبة والخوف من البحر. ونفس الشىء يمكن أن تفعله القصص والمسرحيات . فثمة بعض الأشخاص يكونون حساسين جدا لما يقومون بقراءته أو مشاهدته . إن خيالهم يظل نشيطا بحيث يظل مشغولا بما ألقى فى روعه . وهو لايكتفى باعادة تذكر ما قرأه أو ما شاهده على الشاشة أو بالمسرح . بل انه يقوم بتركيب الصور الخيالية المتباينة التى تحمله على الاحساس المطرد الزيادة بالخوف من البحر ومن الماء عموما . فالشعر والقصة والمسرحية تشكل الشرارة الأولى التى تشعل أوار الخيال لدى مثل ذلك الشخص . وبمرور الوقت وبتراكب الصور الخيالية بصفة دائبة . فان الشخص الحساس يصير مريضا بالخوف من الماء .

ومما لاشك فيه أن المعالج النفسى يبدأ أول ما يبدأ بمدارسة السبب أو الأسباب التى أفضت إلى ظهور أعراض الخوف من الماء عند المريض . ذلك أن الوقوع على الأسباب الحقيقية المخبوءة خلف الأعراض تشكل الخطوة الأولى فى العلاج . فيذهب أصحاب مدرسة التحليل النفسى إلى أن مجرد تبصير المريض نفسيا بتلك الأسباب التى دعت إلى ظهور تلك الأعراض السلوكية لكفيل بتمام الشفاء . وهم يعتقدون أن إحالة الطاقة الوجدانية الانفعالية إلى طاقة ذهنية تفكرية جديرة بملاشاة الأعراض المرضية . ذلك أن مجرد تمكين المريض من مشاهدة حالته بمنظار موضوعى يسمح له بالسيطرة على مقاليد شخصيته والتمكن من الامساك بزمام ذلك السلوك . وعندئذ يقف على ما يحمله سلوكه المريض من سخف وبهتان ، فلا يعود يخاف من الماء بعدُ .

الخوف من القذارة : Miso-phobia

لا يختلف اثنان على أن الشخص السوى المتمتع بالعقل والاتزان الوجدانى يحس بقدر معين معقول من الخوف من القذارة . ونحن لا نبالغ اذا ما قلنا إن التقزز هو على نحو ما تعبير عن الخوف من الشيء الذى يثير التقزز . فنحن نتقزز من الشيء الذى نخشى من أن يلحق بنا أو أن يمسنا من قريب أو من بعيد . ولاشك أن العقلاء يخشون القذارة لعدة أسباب على رأسها الخوف من الاصابة بالمرض . ناهيك عن أن التربية بالمجتمعات المتحضرة تحض على النظافة لأسباب جمالية . فالقذارة ترتبط فى أذهان المتحضرين بالقبح . والطفولة تنشأ وتتشرب بقيمة النظافة فى الحياة لأن فقدان النظافة يتواكب مع فقدان الجمال . ولا ننسى أيضا أن معظم الأديان تحض على النظافة وتربط بين القذارة وبين النجاسة . فالتلوث بالقذارة يذهب الطهارة ويكون على المرء أن يسارع بالاغتسال حتى يتطهر منها أو من النجاسة بالتعبير الدينى .

فالخوف من القذارة اذن سلوك صحى وسوى ولا غبار عليه . بل إنه سلوك ممدوح يستحق الثناء . ولكن الخوف من القذارة قد يدخل فى عداد الأمراض النفسية . ويعتبر نوعا من الجنون وعدم السوية اذا ما اتصف بحالة أو أكثر من الحالات الآتية :

أولا – اذا ما رانت فكرة ثابتة fixed idea **على ذهن الشخص مؤداها أن كل شيء يحيط به أو يمسه يتصف بالقذارة** . فمثل هذا الشخص يكون خاضعا لوسواس النظافة . فهو مهما حاول التخلص من وسواسه المسيطر عليه أو زحزحته عن أفق ذهنه . فانه يفشل وينوء تحته مستذلا له خاضعا لامرته .

ثانيا – اذا ما تبع هذا الوسواس أو الفكرة الثابتة حالات وجدانية وانفعالات كأن يقشعر بدن الشخص الموسوس كلما لامس شيئا أو شخصا . أو إذا أحس بالخوف يسيطر عليه ويأخذ به كل مأخذ فى كل تعاملاته مع البيئة المحيطة به . فالخوف والانفعال يسيطران على جهازه الوجدانى الانفعالى لدرجة أنه لا يستطيع أن يسلم أجفانه للنعاس بسبب هيجان وجدانه بالخوف من أن يكون قد لامس شيئا قذرا .

ثالثا – اذا ما تواكب الوسواس والحالة الوجدانية الانفعالية مع بعض الأداءات المتواترة التى يحتل الاغتسال المستمر مكان الأولوية فيها . فالشخص المصاب بمرض الخوف من القذارة يدأب على البحث عن وسائل للتطهر من براثن القذارة التى لحقت به وأصابته وغطته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . فهو يخضع لمجموعة من الأداءات المتواترة التى تتخذ لنفسها ما يشبه الدورة الثابتة الجامدة التى لا تتعدل أو تتطور فهو يستحم المرة تلو المرة . ويظل يدلك جسمه

بالصابون وعبثا يقتنع بأنه قد صار نظيفا .وعندما يتناول المريض أى شيء -- مهما كان - فانه يشك فى أنه قد تلوث بذلك الشيء . ولابد له اذن من الاغتسال . ولايكتفى بأن يغسل يديه بالماء والصابون . بل يعمد إلى استخدام المطهرات الطبية . بل إنه قد يستعين بفرشاة يدعك بها جلد يديه حتى لقد تدميان وتصابان بالجروح والتقيحات . وبرغم رغبة المريض فى أن يتخلص من الخضوع لتلك الاداءات السخيفة والضارة . فانه لايجد إلى ذلك سبيلا . بل يظل على حاله مستسلما لما ابتلى به من سلوك نمطى ضار .

رابعا - اذا ما أثر هذا المرض على العلاقات الاجتماعية للشخص . فالمصاب بمرض الخوف من القذارة يأخذ فى تجنب الناس - بمن فى ذلك أقرب الناس إليه - وذلك لأن وسواسه يحمله على الاعتقاد بأن جميع الناس قذرون وأن لا سبيل إلى اتقاء شر قذارتهم سوى الابتعاد عنهم . من هنا فانك تجد مثل هذا الشخص وقد تباعد عن الناس محاولا الاختفاء بعيدا عن الأنظار حتى لا يضطر إلى مصافحة أحد بيده . وحتى لا يأخذ شيئا من أحد . إنه يخشى من مجرد تناول فنجان من القهوة عند أحد الأقرباء أو أحد الجيران . ولقد تشتد الحالة المرضية عند بعض المصابين بهذا المرض إلى حد التعرض للهلاك جوعا مما يضطر الأهل بعد فشلهم فى إثنائه عن سلوكه المرضى إلى إنزاله باحدى المستشفيات العصبية والنفسية .

خامسا - اذا ما ظهرت أعراض مرضية جسمية على المريض كاستشراء التقيحات الناجمة عن الاغتسال المستمر . أو اذا ما أصيب بالأنيميا الحادة نتيجة امتناعه عن تناول الطعام أو عندما يذهب به وسواسه إلى حد الخوف من أن يكون جوفه قد تلوث بالقذارة . فيأخذ العقاقير المسهلة بكثرة لتفريغ أمعائه وتنظيفها مما علق بها من قاذورات الأمر الذى يعرضه لأمراض سوء التغذية وغير ذلك من أمراض نتيجة الاكثار من تناول الأدوية المسهلة .

ومن الطبيعى أن يعمد الطبيب النفسى إلى البحث عن الأسباب التى أدت إلى حدوث هذا المرض وسيطرة الخوف من القذارة على جميع أنحاء سلوك المريض وعلاقاته . والواقع أن هناك مجموعة كبيرة من الأسباب التى قد يكمن بعضها أو جميعها وراء تلك الأعراض البادية للعيان لعلنا نكتفى بأن نذكر منها مايلى :

أولا - التربية المتزمتة والمدققة أكثر من اللآزم فيما يتعلق بالنظافة .

فعلى الرغم من أن النظافة من الصفات المستحبة والتى يجب الاخذ بها . فان المبالغة فى أخذ الطفل بالنظافة يعمل على تكبيله واعاقة حركته ومصادرة حريته . فيجد نفسه فى منأى عن الواقع المحيط به خوف الاتساخ وخوف أن تلحق به أو بمتعلقاته أية قذارة من هنا أو هناك . فالوالدان المتزمتان بازاء النظافة قد يصيبان طفلهما بوسواس النظافة وبمرض الخوف من التلوث بالقاذورات .

ثانيا – اقتراف خطيئة جنسية فى الطفولة أو توهم ذلك بحيث يتوطن بنفسية الشخص شعور بالذنب لاينمحى . يترجم عنه بالاحساس بأنه شخص نجس يجب العمل على تطهيره من البراثن النجسة التى لحقت به نتيجة تلك الفعلة الشنعاء التى تجثم لاشعوريا على الجهاز النفسى اللاشعورى . اذن فالاغتسال الدائم هو تعبير عن رغبة المريض فى أن يتخلص من نجاسته واقتلاعها من جذورها . ولكن هيهات أن يتحقق له ذلك . ذلك أن الاحساس بالخطيئة الجنسية يظل راسخا فى قلب ذلك المريض حيث إن مرض الغسال لا يعدو أن يكون تعبيرا جزئيا ناقصا عما شحنت النفس به من شعور بالذنب .

ثالثا – مشاهدة المريض لوالديه فى طفولته عن طريق الصدفة أو خلسة وهما فى أوضاع غير لائقة . مما يدفعه لاشعوريا إلى كبت ونسيان مارآه . بيد أن الطفل يظل شاعرا بشناعة ما شاهده وبخاصة اذا كانت أسرته من ذلك الصنف المتزمت أو المتدين جدا . فالطفل لضيق أفقه وعدم إدراكه لمعنى الزواج يتهم والديه بالنجاسة . وبالتالى فانه يفقد الثقة فيهما . وحيث انه جزء لا يتجزأ من والديه . فانه يعمد إلى تطهير نفسه وكأن لسان حاله يقول لهما« ها انى أتطهر لعل تطهرى يعم عليكما فتصيران طاهرين مثلى » .

رابعا – الاستمرار فى البوال الليلى لفترة طويلة حتى مشارف المراهقة مع مقابلة ذلك من جانب الأهل بالتوبيخ أو بالسخرية ومع عجز الطفل عن تحقيق ضبط المثانة وهو بالسرير . الأمر الذى يجعله يلقى الاتهام ضد نفسه محتقرا ذاته ومعتبرا أنه شخصية حقيرة لأنه لايستطيع الامتناع عن التبول فى أثناء النوم . ومن ثم فانه بعد أن يكبر ويتخلص من ذلك العرض المرضى . فانه يصاب بالخوف من التلوث . فهو فى لاشعوره يخشى من النكوص إلى البوال الليلى . فيستعين بآلية دفاعية لاشعورية هى آلية محاربة القذارة فى نفسه . وهو لايعلم أنه بذلك يعبر عن خوفه من النكوص إلى البوال الليلى .

خامسا – الخوف شعوريا ولا شعوريا من الاصابة بمرض ما من الأمراض التناسلية نتيجة ممارسة الجنس مع عدة أشخاص . ويصاب المتبذلون فى حياتهم الجنسية بمرض الخوف من القذارة نتيجة شعورهم بالخوف من الاصابة بالمرض نتيجة المعاشرات الجنسية المتعددة مع أشخاص متباينين . فتجد المومسات يتعرضن للاصابة بهذا المرض كتعبير لاشعورى عن مخاوفهن من الاصابة بأحد الأمراض الجنسية . ناهيك عن أنهن يؤكدن لاشعورياً لمن يختلطون بهن أنهن نظيفات وخاليات من المرض . ولقد يكون الخوف من القذارة بمثابة مرحلة تتواكب مع مرحلة التوبة والتخلص من براثن الرذيلة والتعفف عن ممارسة الجنس بالطرق غير الشرعية . ويكون الخوف من القذارة هو فى نفس الوقت خوف من الرجوع إلى طريق الرذيلة .

الخوف من الحيوانات : Zoo - Phobia

اذا كنت سائرا وحدك فى غابة فخرج عليك أسد وشعرت بالخوف الشديد . ثم كتبت لك النجاة ورجعت إلى بيتك وأصدقائك سلما وأخذت تقص عليهم قصة مغامراتك فى الغابة وذكرت لهم هذا الموقف وكيف أن الخوف أخذ بك كل مأخذ . فاننا سوف نتقبل كلامك ولا نحكم على سلوكك هذا بالشذوذ . ولكن اذا شاهد شخص أرنباً فغطاه الخوف من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه ثم سرد علينا مخاوفه هذه التى انتابته لدى مشاهدته للأرنب . فاننا سوف ندهش من سلوكه هذا . ونأخذ فى اعتبار مثل هذا السلوك خارجاً عن اطار السوية . وقد ينصحه البعض منا بعرض نفسه على طبيب نفسانى حتى يزيل عنه أسباب الخوف من مجرد مشاهدة الأرنب .

ونحن فى الواقع نعتبر سلوك الواحد من الناس شاذا اذا هو خرج عن اطار ما ألفناه من سلوك . فالمبالغة فى الخوف أو عدم ظهور الخوف مما يخيف الناس جميعا – أعنى الناس العقلاء جميعا – يعتبر خروجا عن إطار السوية ودخولا فى إطار الشذوذ أو المرض النفسى . ولعلنا نعتبر الخوف من الحيوانات مرضا نفسيا فى الحالات الآتية :

أولا – عندما يمتنع ظهور الخوف على الاطلاق مع أن الحيوان الموجود بالموقف من الحيوانات المفترسة وهو طليق ويمكن أن يهاجم ويفترس . فعدم المبالاة أو بالتعبير السيكولوجى بلادة الشعور apathy أعنى عدم القدرة على الشعور بالخوف أو عدم القدرة على الهرب من الموقف الخطر الذى فيه يستعد الحيوان الضارى للانقضاض إنما يعد شذوذا من الشذوذ .

ثانيا – اذا ما استبد الخوف بالشخص مع أن الحيوان الموجود بالموقف غير مؤذ وغير ضار من قريب أو من بعيد . والمثال الذى سقناه عن الشخص الذى يخاف لدى مشاهدته للأرنب يكفى للبرهنة على شذوذية هذا السلوك .

ثالثا – عندما يكون السلوك الهروبى من الموقف الخطر بازاء الحيوان الضارى سلوكا عشوائيا وباندفاع شديد بحيث يكون الشخص غير مميز لحركاته وقد استبد به الخوف بحيث قد يصل به إلى حد الاندفاع الشديد أو التسمر فى المكان بحيث لايستطيع أن يغادره مع أنه يستطيع الهروب بسهولة . ذلك أنه حتى فى الحالات التى يجابه المرء بحيوان ضار فان الشخص السوى فى سلوكه يسارع بتعقل إلى الهروب بحيث يكون هروبه غرضيا . وبحيث تأتى حركاته متسقة بعضها مع بعض . أما اذا فقد السلوك غرضيته وصار سلوكا عشوائيا . أو اذا امتنع التصرف وعجز الشخص الخائف عن الاتيان بالسلوك الهروبى عجزا تماما . فاننا نعتبر عندئذ مثل هذا السلوك خارجا عن اطار السوية ومندرجا فى اطار السلوك الشاذ .

رابعا – اذا اتخذ الخوف شكلا عدوانيا مبالغا به . من ذلك مثلا أن يقوم الشخص الخائف من

الأرانب بقتلها . ذلك أن الخوف قد يتلبس بالغضب فى بعض الحالات وذلك كستار يخبىء الخائف خلفه ما يحس به من خوف . فهو يبدى عدوانية شديدة وقسوة مبالغا بها كتغليف لما يستشعره من خوف .

خامسا – الاستمرار فى الخوف حتى بعد انقشاع الموقف تماما . فتجد أن بعض المرضى بالخوف من الحيوانات يظلون على حالهم من الخوف – كذلك الشخص الذى يخاف من منظر الأرنب – بحيث يطارده منظره حتى فى منامه فهو يظل يترسم صورا ذهنية وقد أخذ يضيف إليها من خياله بحيث تتضخم وتسيطر على مقاليد ذهنه دوما . إنه قد يرى الأرنب فى منامه على هيئة مخيفة . فهو صاحب جثة ضخمة وأسنان حادة . وقد أخذ يكشر عن أنيابه وهو فى موقف استعداد للهجوم والافتراس .

ولا شك أن المعالج النفسى اذا ما عرضت عليه مثل هذه الحالة فانه سوف يسارع إلى مساءلة المريض بمرض الخوف من الحيوانات مستفسرا منه عما يشاهده من أحلام . وباحثا فى سجلات طفولته لعله يستطيع أن يقع على العلاقة فيما بين خوفه من الحيوانات وبين المواقف التى صادفها فى حياته حملته على التعقد من تلك الحيوانات . ولقد نزعم أن المعالج النفسى سوف يوجه لذلك المريض مجموعة من الأسئلة من أهمها مايأتى :

اولا – هل فى طفولتك خبرة مخيفة تتعلق بالأرانب ؟ تذكر جيدا .

ثانيا – صف لى وقص على جميع ما تتذكره من أحلام شاهدت فيها أرنبا .

ثالثا – هل سبق لك أن قمت بذبح أرنب ؟ اذا كانت إجابتك بالايجاب فاذكر لى بالتفصيل بغير أن تترك أى تفصيلة بالمواقف التى قمت فيها بذبح أرنب وما حدث فى ذلك اليوم . لا يهم اذا كان ما تقوله مرتبطا بما تحسه من خوف أو غير مرتبط به .

رابعا – ماذا يكون موقفك اذا ما وجدت على المائدة لحم أرنب . صف لى شعورك . هل تحس بنفس الشعور اذا ما شاهدت أرنبا حيا ؟

خامسا – ما هو شعورك اذا ماشاهدت هيكلا عظمياً لأرنب ؟ هل سبق لك أن شاهدت هيكلا عظمياً لارنب ؟ اذا كان قد سبق لك هذا فماذا كان شعورك عندئذ .

ولاشك أن المعالج النفسى سوف يسترسل فى تساؤلاته وفحوصه فى أغوار ذلك المريض إلى أن يتم له تكوين صورة دقيقة عن حالته قبل أن يمارس علاجه . ومن الطبيعى أيضا أن ينحو كل معالج نفسى النحو الذى تمرس به واعتاد عليه وآمن به . ذلك أن المعالجين النفسانيين يتباينون بعضهم عن بعض بتباين المدارس السيكلوجية التى ينتمون إليها . ولكن مهما كان اختلافهم بعضهم عن بعض فى المنهج الذى يستعين به كل واحد منهم فى الفحص والتشخيص فانهم يتفقون جميعا حول الأسس أو المبادىء الاتية :

اولا – من المؤكد أن التاريخ الشخصى للمريض يحمل فى طياته الأسباب التى أدت إلى ظهور هذا المرض النفسى .

ثانيا – ان الأرنب ككائن حى كان له دور ما بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر فى الشعور بالخوف من مجرد مشاهدته .

ثالثا – إن من المتعذر على المريض أن يكتشف أسباب مرضه النفسى بالخوف من الأرانب وحده ، ولكن ذلك يكون ممكنا بمساعدة المعالج النفسى .

رابعا – إن نجوع العلاج يتوقف على دراسة حالة المريض دراسة مستفيضة ودقيقة . وأنه بغير إجراء تلك الدراسة وسبر أغوار شخصية المريض فان العلاج يأتى سطحيا وبغير فاعلية واستمرارية .

خامسا – إن الثقة بين المريض وبين الطبيب المعالج يجب أن تكون ثقة مطلقة . بحيث لايكون هناك مجال للشعور بالخجل من مكاشفة الطبيب بكل ما يحس به ، وبكل ما يعرفه أو يتذكره .

وثمة فى الواقع ارتباطات يكتشفها المعالجون النفسيون بين العرض المرضى وأسبابه لا تخطر لأحد على بال . من ذلك مثلا ما اكتشفه أحد المعالجين النفسيين لحالة من هذا القبيل . كان المريض فى تلك الحالة يخاف خوفا مرضيا من القطط . فكان اذا رأى قطا ، فانه يرتعد ويأخذ به الخوف كل مأخذ حتى لقد يغمى عليه من هول الخوف . فلما عرض نفسه على المعالج النفسى أخذ فى دراسة حالته بعناية . كان الطبيب النفسى من رجال التحليل النفسى . لقد أخذ فى البحث فى أغوار تاريخ ذلك الشخص ، حاثا إياه على تذكر كل شىء يتعلق بالقطط . فماذا وجد بعد عدة جلسات كان خلالها يشجع المريض على تذكر ماضية ؟

كانت أسرة ذلك المريض فى طفولته تقيم باحدى القرى التى لم يكن بها إضاءة كهربائية . وطبيعى أن البيوت كانت تضاء بمصابيح الكيروسين . وكانت الشوارع فى الليالى غير القمرية حالكة الظلام . كان المريض قد بلغ حوالى الثالثة من العمر . التف هو واخوته حول طبلية ووضعت عليها بالوسط لمبة الكيروسين . وكان الأب شرساً وقد اعتاد أن يضرب الأم أمام أطفالها . وفى تلك الليلة اشتد الشجار بين الوالدين فقام الأب وجرى إلى المطبخ واستل سكينا حادا واتجه ناحية الأم . فى تلك اللحظة حدث هرج ومرج وانطفأ المصباح وعلا الصراخ – صراخ الأم والأطفال – وبعد لحظات سمع الأطفال صوت أنين أمهم لأن الأب كان قد أجهز عليها وقتلها . ومع ذلك الأنين سمع صاحبنا الطفل صوت قطة تموء بصوت كأنه البكاء المرير فارتبط صوت القطة بصوت أنين الأم القتيلة . كان المريض قد نسى تلك القصة تماماً بينما كان لاشعوره ينوء تحت وقعها . ومن هنا بدأت قصة خوفه من القطط .

الخوف من الشخص الغريب : Xeno-phobia

نحن نعلم أن الأطفال جميعا قد فطروا على استشعار الخوف من الغرباء . ونعلم أيضا أن الكبار الراشدين يتهيبون إلى درجة ما من إقامة صلات جديدة مع غيرهم من أشخاص لا تقوم معهم صلات سابقة . ولكن الذى ربما لا نعلمه أن الخوف من الأشخاص الغرباء والتهيب منهم يمكن أن يشكل مرضا نفسيا عند بعض الناس الذين أعوجت حياتهم النفسية وفسدت صحتهم الوجدانية .

والواقع أن الخوف من الشخص الغريب يعد مرضا نفسيا عندما يتصف بحالة أو أكثر من الحالات الآتية :

أولا – عندما يكون الخوف من الشخص الغريب خوفا عارما يغطى أنحاء الشخصية ويلفها بعباءته تماما . فالمريض بالخوف من الشخص الغريب لا يبدى خوفا عاديا لدى ملاقاته لأحد الغرباء . بل ترتعد فرائصه وتتفكك أوصاله وينعقد لسانه عن الكلام وتتبدد شجاعته أشتاتا متفرقة .

ثانيا – وبالنسبة لانعقاد اللسان فاننا نلاحظ أن المريض بالخوف من الشخص الغريب لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة لدى مقابلة أى شخصية لا يوجد بينه وبينها سابق معرفة . إنه يصير كالأبكم الذى لا يستطيع أن يعبر عما يخالجه من أفكار أو مشاعر . فاللغة تضيع من فمه . واذا هو حاول أن يجبر نفسه على الكلام ، فانه يجد لسانه عاجزا عن الابانة . بل انه يجد أن الكلام قد تداخل بعضه فى بعض وتزاحمت الكلمات وكأنها قد صارت خليطا بلا تمايز فيما بين مقوماتها . وطبيعى أن يعمل هذا الارتباك ، وهذا العجز عن الافصاح على تفاقم الحالة الوجدانية لديه بحيث تزيد حالته سوءا . وطبيعى أيضا أنه كلما شجعه الآخرون من حوله على الكلام ، زاد ارتباكه وزاد خوفه من الموقف واشتدت حالته ارتباكاً .

ثالثا - فقدان القدرة على الكتابة المفهومة . فالشخص المصاب بهذا المرض لا يستطيع أن يعبر عن نفسه بالكتابة . فاذا ما طلب إليه الشخص الغريب عليه أن يكتب اسمه وعنوانه مثلا . فانه يجد مشقة هائلة فى الامساك بالقلم وتسجيل اسمه وعنوانه . انه يجد أن الحروف قد تداخلت بعضها مع بعض بحيث لايستطيع أن يكتب كلاما له معنى . فالقلم يتوقف فى يده وكأنه قد حمل عبئا ثقيلا ينوء به ولا يستطيع حمله .

رابعا – فقدان الذاكرة مؤقتا . فالمصاب بهذا المرض النفسى عندما يتوجه إلى أحد المكاتب الحكومية لقضاء مصلحة ما ، فانه ما يكاد يقابل شخصا لم يسبق أن تعرف به حتى تجده قد نسى الهدف الذى توجه إلى ذلك المكتب من أجله . وعندما يسأله الموظف عما يريده فانه

يتصبب عرقا ولايحار جوابا . انه يرتجف وكأنه قد ضبط فى جريمة شنعاء ارتكبها . وطبيعى أن يقابل سلوكه الشاذ هذا بالسخرية التى تزيد ارتباكه ارتباكا وتحمله على محاولة الهروب من الموقف بأقصى سرعة ممكنة . وهو مشيع بابتسامات الهزء والسخرية .

خامسا – الوقوع فريسة لأى محتال أو أى مجرم . ذلك أن هذا المرض النفسى يحمل المريض به على الانصياع لأى امر يصدر إليه . فالشخص الغريب اذا كان أفاقا فانه يستطيع أن يجعل ذلك الخائف الواهن يوقع على كمبيالة أو ايصال أمانة . أو على الاعتراف بأنه المرتكب لاحدى الجرائم. فالارادة تتوقف ولا يستطيع المريض بهذا المرض أن يقاوم أو أن يعترض . واذا ما سأله ذووه عما أصابه حتى يقع فريسة للاحتيال أو النصب . فانه لا يكاد يستطيع أن يدافع عن نفسه . أو قد ينتحل أعذار واهية لا تبرر فعلته وفقدان إرادته .

وعلينا بعد أن قمنا بالتعريف بهذا المرض النفسى أن نتساءل عن العوامل التى يمكن أن تؤدى إلى ظهوره واصابة الشخص السوى به . ولعلنا نعزو وقوع هذا المرض إلى مايأتى :

أولا – الانغلاق البيئى : فثمة بعض الأسر التى لاتسمح لأبنائها بأن يتعرفوا على أحد خارج نطاق الأسرة . وأكثر من هذا فانهم يحذرون من أن يتعرفوا بأى غريب حتى لايقعوا فى قبضته . فالأسرة من هذا النوع تغلق على أبنائها وبناتها أبواب التعرف على العالم الخارجى مما يجعل بينهم وبين جيرانهم وزملاء الدراسة وأى أفراد خارج نطاق الأسرة ستاراً كثيفا لايمكن تحطيمه أو الولوج فيه . فالشخص الغريب قد رسمت ملامحه أمامهم باعتبار أنه وحش ضار أو طائر كاسر أو شيطان رجيم .

ثانيا - عزل الطفل بعيدا عن عالم الكبار : فثمة بعض الأسر يحمل فيها الوالدان مبادىء تربوية رديئة ويظنون أنها مبادىء تربوية سديدة . من تلك المبادىء الاعتقاد فى وجوب عزل الطفل عن مجتمع الكبار وابقاؤه وحده والواقع أن عزل الطفل عن عالم الكبار يجعل من أولئك الكبار غيلانا أو ذئابا خاطفة . ولسنا ندهش اذ نجد أن الصورة المرعبة التى تتشكل فى ذهن الطفل المعزول عن عالم الكبار تظل قائمة لا تريم عنه بحيث أنه عندما ينمو ويصير هو نفسه واحدا من أولئك الكبار . فانه يظل فى واقعه النفسى الداخلى مجرد طفل صغير خائف من أى شخص كبير يقابله فى مجريات الحياة المتباينة .

ثالثا – المبالغة فى عقوبة الطفل بأشد العقوبات وأقساها اذا هو ارتكب ولو خطأ بسيطا تافها . وطبيعى أن تتكون صورة مخيفة عن ذلك الأب القاسى أو عن تلك الأم القاسية . ثم يحدث بعد هذا ما يسمى بالتعميم **generalization** فلا يقصر الطفل خوفه على والده أو على والدته فحسب . بل هو يخاف من كل رجل آخر غير والده ومن كل أم غير والدته . فجميع الرجال والنساء على السواء شخصيات مخيفة . ومن هنا ينشأ مثل هذا الشخص على

الخوف من جميع الغرباء اذ يرى فى كل واحد منهم شخصية مرعبة يمكن أن تسومه شديد العذاب .

رابعا – شدة رهافة الحس عند بعض الشخصيات مما يجعلهم شديدى النقد لأنفسهم . فهم كلما أقدموا على أى تصرف . وكلما قابلوا أحداً أو فاهو بأى كلام . فانهم يأخذون فى عقد محاكمة صارمة لأنفسهم يحكمون بعدها عليها بأشد الأحكام صرامة وقسوة . وبعد كل محاكمة . وبعد صدور كل حكم على أنفسهم يتعهد المذنب أمام محكمة نفسه بأن يتجنب المشاركة فى أى نشاط مهما كان لأن ذلك يمكن أن يجر عليه وابل النقد والتقريع . ومرة بعد أخرى تدفع تلك الرهافة الشديدة فى الحس وما يتبعها من محاكمة وأحكام صارمة بالشخص إلى الانزواء بعيدا عن كافة الناس . فاذا ما اضطر مثل ذلك الشخص إلى مخالطة أحد الغرباء . فانه يقف حائرا بازائه وقد أخذت الدنيا تدور به . ولايعرف كيف يتكلم أو كيف يتصرف . ومن هنا فانه يصير شخصية مصابة بمرض الخوف من الغرباء .

خامسا – حدوث مواقف أو تلقى خبرات ذات فاعلية عميقة الغور فى شخصية الشخص المصاب بمثل هذا المرض النفسى . من ذلك مثلا اعتقاله بتهمة سياسية والالقاء به فى غياهب السجون لسنوات طويلة شاقة ومرة وقد سيم العذاب خلال فترة سجنه . إن مثل ذلك الشخص حتى بعد خروجه من معتقله ورد الاعتبار إليه . يظل متوجسا خيفة من أى شخص غريب يقدم إليه . من ذلك مثلا ما ذكر عن أحد كبار الصحفين كان قد تم اعتقاله لفترة طويلة وزج به فى السجن . ثم أفرج عنه وأعيد إلى منصبه الكبير فى صحيفته . ولكن المحيطين به يقصون عنه قصصا مؤداها أنه يرتجف فرقا اذا ما دخل عليه فى مكتبه أى شخص غريب لم يسبق له أن تعرف به . فهذا الشخص ونحوه من أشخاص ممن تلقوا خبرات مخيفة أو مذلة لعزتهم يصيرون شخصيات خائفة مرتجفة متوجسة من الغرباء . والواقع أن الشخص الذى يجد نفسه متهما فى قضية سياسية ويشهد ضده فى تلك القضية – سواء عن حق أم عن باطل – أحد الأصدقاء الحميمين . إنما يجد نفسه فى خشية من جميع الناس . ولسان حاله يقول « اذا كان صديقى الحميم هو الذى سبب لى كل تلك المصائب التى عانيت منها . فما بالك بالغرباء الذين لا تجمعنى واياهم أى رابطة . »

وفى مثل هذه الحالات التى يصاب فيها الشخص بمرض الخوف من الغريب فان العلاج يكون معقودا على مايسمى باعادة التربية « re-education » ونعنى هنا بوجه خاص تفريغ الشخصية من الخبرات السابقة غير السارة وتحريرها من ربقتها .



العقوبة سيف مصلت على رقاب العباد

الفصل الثانى عشر
الخوف من العقوبة

العقوبات البدنية :

دأب الناس من قديم الزمان على الإستعانة بالعقوبات البدنية كرد فعل على الأخطاء التى يقترفها الأفراد والجماعات . ولقد ذهب علماء الإجتماع إلى تفسير وتعليل اتجاه العقوبات البدنية بالتفسيرات الآتية :

أولا : اخراج الجنى من جسم المخطىء :

عتقدت بعض المجتمعات البدائية أن الشخص الذى يقترف اثما إنما يكون ملبوسا بجنى أو بروح نجسة هى التى تدفع به إلى الخروج عن الخط السوى فى السلوك . ومن ثم فإن إيقاع الألم على ذلك الشخص هو فى الواقع إيلام لذلك الجنى أو الروح النجس . فبالضرب والكى يخرج الروح النجس من جسم ذلك الانسان . وبذا ينصلح حاله ولا يعود إلى ما اقترفه من آثام .

ثانيا : لكل خطأ قصاصه :

تذهب المجتمعات الحديثة إلى إعتبار الشخص المذنب مسئولا مسئولية مباشرة عن ذنوبه . فلكل ذنب قصاص على قده يجب أن يرتد إلى المذنب . فبقدر ما يصدر عن الشخص من تعديات ترد إليه . حتى وأن اختلف نوع القصاص عن نوع التعدى . فلقد يكون التعدى ماديا محسوسا كأن يكون المتعدى قد سرق نقودا . ولكن العقوبة تكون مختلفة . فهى لا تكون برد النقود التى سرقها فحسب . بل تكون بالضرب أيضاً .

ثالثاً : معاقبة النجاسة :

قد يستعان بالعقوبات البدنية للانتقام من شخص يعتقد أنه نجس وقد تلوث بالخطيئة . من ذلك مثلا ما كان يوقع من عقوبات بدنية على الأطفال غير الشرعيين لأنهم أبناء الخطيئة .

رابعا : التعذيب قبل القتل :

فى بعض الحالات يكون الذنب هائلا فى نظر المجتمع . فيكون القصاص الموقع على المذنب هو التعذيب البدنى قبل القتل . وذلك بالكى فى أجزاء حساسة بالجسم . ثم بتقطيع الأطراف . ثم أخيرا بالقتل سواء بقطع الرقبة أم بترك المذنب ينزف دما حتى يموت . وفى بعض المجتمعات لم يكن يكتفى بالاجهاز على المذنب . بل كان جسده يحرق حتى يصير رمادا كما كان يفعل بالسحرة بأوربا خلال العصور الوسطى .

خامسا : العقوبة للتهذيب والتأديب :

ما يزال معظم الناس يعتقدون أن التربية الناجعة للناشئة لا تستغنى بحال عن الاستعانة بالضرب فى تهذيبهم . فبغير الضرب – فى نظرهم – لا تبث الفضيلة فى النفوس . ولا يكتسب العلم والمهارات المتباينة . فالضرب إذن – حسب تلك العقيدة التربوية – هو الوسيلة الفعالة فى تربية الصغار حتى يشبوا شخصيات نافعة من جهة . ومهذبة من جهة أخرى .

ومن الطبيعى أن يتواكب الخوف مع إيقاع العقوبات البدنية على من يعتقد أنهم مذنبون أو على من يراد بهم خيراً . ولعلنا نتساءل عن النتائج التى يمكن أن تترتب على وجود الخوف المواكب للعقوبات البدنية . إننا نستطيع تلخيص تلك النتائج فيما يلى :

أولا : الخوف حتى الموت :

فى بعض الحالات قد يؤدى الخوف بالخائف من العقوبة البدنية إلى الموت حتى بغير أن توقع عليه العقوبة البدنية ذاتها . ذلك أن الخوف عندما يكون شديدا ومفاجئا أو متزايدا بدرجة غير محتملة . فإن القلب يتوقف عن العمل بعد أن تزيد دقاته عن مدى احتماله . أو قد يزيد ضغط الدم بالمخ إلى درجة الإنفجار فيموت الشخص الخائف .

ثانيا : الاصابة بالشلل :

وفى حالات الخوف الشديد أيضا قد يصاب الشخص الخائف بالشلل وينعقد لسانه عن الكلام . فيتوقف نشاطه فى مجريات الحياة . وهناك أمثلة لمثل تلك الحالات ففى بعض السجون من يصابون بالشلل النصفى لخوفهم الشديد من العقوبات البدنية التى توقع عليهم . ونحمد الله أننا فى مصر قد تخلصنا من تلك العقوبات البدنية بسجوننا .

ثالثا : قمع مظاهر سلوكية معينة :

بالنسبة للتربية فإن العقوبات البدنية قد تحول دون طفو السلوك على سطح الشخصية . والخوف لا يعدل السلوك بل يقمع بعض الظواهر السلوكية . فالحب والحنان والرحمة بالضعفاء لا يمكن أن تغرس فى قلب الطفل بضربه . إن العكس هو الصحيح . فالحب والحنان والرحمة تهرب جميعا من قلب الطفل الذى يضرب .وحتى المذنب عندما توقع عليه العقوبات البدنية فإنه لا يستحيل إلى قديس مهما كانت تلك العقوبات شديدة . فالواقع يقول لنا بصراحة إن المجرم التائب لا تتأتى توبته عن الخوف المعتمل فى أوصاله . بل تتأتى عن أسباب أخرى قد يكون من أهمها أمله فى أن يصير انسانا صالحا . أو نتيجة شموله بالعطف والحنان .

فالطمأنينة – وليس الخوف – هى التى تشكل العامل الرئيسى فى تغيير السلوك .

رابعا : تشتيت الانتباه وتركيز الذهن :

يخطئ المدرس الذى يعتقد أن الضرب كفيل بادخال المعلومات فى عقول التلاميذ . فالواقع أن كسب المعلومات بحاجة إلى قدر من الطمأنينة وقدر من المبادرة التى تسمح للتلميذ بأن يجيل فكرة فى الموقف التعليمى . صحيح ان الموقف التعليمى بحاجة إلى قدر معين من التوتر الذهنى حتى يتحقق التركيز . ولكن الضرب والعقوبات البدنية بعامة لا تسمح بتحقيق القدر المطلوب من التوتر والتركيز . ان الضرب والعقوبات البدنية المتباينة تعمل جميعا على تشتيت الانتباه . بل وتعمل على ابطال القدرة على التفكير والتركيز . ومن ثم فإن التعلم يمتنع .

خامسا : النزول بالانسان الى مستوى الحيوان :

إن العقوبات البدنية هى الأدوات التى يمكن استخدامها مع الحيوانات وليس مع الانسان . ذلك أن الانسان يتمتع بمستويات أعلى من تلك التى جبل عليها الحيوان . والواقع أن لدى الانسان رغبة واستعداداً جبليين لاكتساب الخبرات وتعلم العلم بغير أن يستعان فى كسبها له بالضرب وغيره من العقوبات البدنية .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الفئات من البشر الذين تعرضوا للعقوبات البدنية خلال تاريخ البشرية . وفيما يلى هذه الفئات :

أولا : الأطفال والمراهقون والشباب :

فثمة عقيدة ترسخت فى العقول وجثمت على القلوب مؤداها أن الطفولة والمراهقة والشباب مراحل عمر تتسم بالرعونة والميل للخروج على النظام والعادات والتقاليد . ومن ثم فلا بد من قمعها وتأديبها . فبغير أن يقوم الكبار بقمع الصغار . فإن أولئك الصغار سوف يعيثون فى الأرض فسادا . وسوف يخرج منهم جبابرة يطيحون بعروش الكبار من آباء ومعلمين ورؤساء . والعقوبات البدنية هى الوسيلة الوحيدة التى يتسنى بواسطتها قهر أولئك الناشئة المتحفزين للاطاحة بالكبار .

ثانيا : الكبار الذين يتعدون على القانون :

فالشخص الراشد يعد مسئولا أمام القانون الذى يأخذ المجتمع به . ومن هنا فقد حدد لكل تعد قصاص مناسب لحجمه . وعلى الرغم من تباين المجتمعات بازاء حجم القصاص بازاء كل تعد . فإن المجتمعات البشرية فى غالبيتها – تجمع على ضرورة وجود قانون متعارف عليه، أو عرف – وهو القانون غير المكتوب – يجب الإلتزام به. ومن يخرج عليه ويعصى بنوده ، فإنه يلاقى عندئذ قدرا من العقوبة البدنية .

ثالثا السحرة :

لقد ظلت البشرية ردحا كبيرا من الزمن تؤمن بفاعلية السحر وتأثيره . ومن هنا فإنها حرمت جميع الأنشطة السحرية وأخذت تصادر كتبها وتحرقها . وكان السحرة يحرقون بعد أن يمزقوا إربا إربا . واليوم ما نزال نجد للسحر مكانه فى التراث والثقافة البشرية المعاصرة . وما يزال الناس يخافون من السحر والسحرة على السواء .

رابعا : المجانين :

لقد ظل المجانين يسامون العذاب ويتلقون العقوبات البدنية الشديدة . وكان الشائع فى الأذهان أن المجنون شخص ملبوس بالجن . فإذا ما قيد بالسلاسل . فإن الجن أيضا تقيد لأنها تكون فى تلك الحالة مسجونة بداخله . ناهيك عن وسائل التعذيب التى كانت تمارس بازاء المجانين إلى أن تغلبت النظرة الوضعية إلى الجنون واعتبارا أن المجنون شخص مريض بمرض عقلى أو بمرض وجدانى انفعالى أو بمرض عصبى وذلك لوجود خلل معين بالمخ وباقى الجهاز العصبى المركزى .

خامسا : الهراطقة : :

لقد اعتبرت الكنسية فى العصور الوسطى أن الذى يخرج على تعاليمها ويقول بعقائد دينية مخالفة لما تقول به يعد هرطوقيا . وبالتالى فإن من الواجب إنزال العقوبات البدنية عليه حتى يتوب ويعلن بطلان هرطقته . وفى بعض الحالات كان يحكم على الهرطوقى بالموت .

العقوبات المعنوية :

نحن نعلم أن الإنسان يهتم بالرموز أكثر من إهتمامه بالأشياء ذاتها . وقد لا نبالغ إذا ما قررنا أن الحضارة البشرية برمتها إنما تعتمد بالدرجة الأولى على الرموز . فحتى ما يسمى بالثروة لا تعدو أن تكون رموزا. فالورقة المالية والكمبيالات والأرصدة وغيرها من دلائل على مستوى الثروة التى يتمتع بها الشخص أو الشركة لا تعدو فى الواقع النطاق الرمزى . فنحن لا نحمل ثروتنا معنا . بل نحمل ما يرمز لها فحسب .

وبالإضافة إلى ما يتمتع به المرء من ثروة يرمز لها بالرموز . فان هناك أشياء أخرى تتخذ لها قيمة كبيرة فى نظر الناس الحضاريين . فثمة مثلا الألقاب التى تدل على المكانة الاجتماعية . وثمة الألقاب التى تشير إلى المكانة العلمية.وثمة الألقاب التى تدل على المكانة الرئاسية فيقال عن الشخص إنه مدير عام أو وكيل وزارة أو لواء أو فريق أو نحو ذلك من ألقاب تشير إلى مدى ما يتمتع به المرء من سلطة فى القطاع الحضارى الذى يعمل به .

وبالنسبة للأشخاص العاديين فإن هناك صفة أو شرعية يتمتع بها الشخص كشرف

الانتساب إلى وطن معين . وكذا ما يشير إلى كونه شريفا لا تشوب سمعته أو ماضيه شائبة أو سابقة فى مجال الجريمة ونحو ذلك من جوانب معنوية يهتم المواطن العادى بالحفاظ عليها واستمرار الاستمساك بها .

ومن الناس من يتمتعون بموهبة معينة أو يمارسون مهنة معينة فتضفى عليهم مكانة مرموقة بين ذويهم ومعارفهم . من ذلك مثلا ما يتمتع به الملحن من قدرة على صوغ الألحان . وما يتمتع به الكاتب من قدرة على الابانة وعرض أفكاره وآرائه بحيث يؤثر على نحو أو آخر فى غيره ممن يقومون بقراءة ما يكتبه وينشره . وثمة المعلمون الذين يقومون بالتأثير فى الناشئة وصياغة شخصياتهم وفق أفكار وقيم واتجاهات معينة . هؤلاء وغيرهم يحرزون مكانة معينة بسبب ما يؤثرون به فى الآخرين كل بحسب موهبته وبحسب ما جبل عليه أو تمرس به من مهارات وقدرات .

والواقع أن الانسان الحضارى يهتم بالجوانب المعنوية بشخصيته أكثر من اهتمامه بالجوانب المادية المحسوسة . وأكثر من هذا فإن القيمة الوحيدة للناحية المادية وما يمكن أن يحرزه المرء من ثروة إنما يكون لغاية معينة محددة هى الارتفاع بمستواه الأدبى أو المعنوى . فمن يحرز سيارة فاخرة مثلا ، فإن القيمة التى يستمدها من السيارة ليست السيارة نفسها باعتبارها وسيلة لأحراز الرفاهية ، بل الواقع النفسى لصاحب تلك السيارة يقول إنه باحرازه لها انما يكون قد حظى بمكانة أكثر رفعة من المكانة التى يحرزها من ليس لديه سيارة مثلها . ومن الشخص الذى يستخدم وسائل الموصلات العادية.واذا احتج محتج بأن صاحب السيارة يبغى الراحة والرفاهية ولا يبغى إحراز مكانة اجتماعية مرموقة . فإننا نرد عليه بأنه لو كان الأمر كذلك لما تسابق الناس على إحراز السيارات الفاخرة بحيث يبز الواحد منهم الآخر فيما يملكه من وسيلة للانتقال . وما يقال عن السيارة يقال أيضا عن الملابس . فعلى الرغم من أن الناس يرتدون الملابس أساسا للوقاية من شر البرد والحر ، فإنهم فى ظل الحضارة يرتدون الملابس التى تضفى عليهم الأبهة والمكانة الاجتماعية المرموقة . فالشخص يقاس فى أنظار الآخرين بما يرتديه من ملبس وبما يظهر عليه فى هيئته الخارجية .

من هنا فإن العقوبات التى توقع على الناس فيما يتعلق بالناحية المعنوية لهى أشد وطأة من أية عقوبة أخرى يمكن أن توقع عليهم . والواحد من أبناء الحضارة يخشى أن تهبط مكانته الاجتماعية وأن ينظر إليه من جانب الآخرين بنظرة ازدراء . ومعنى هذا فى الواقع أن عاطفة اعتبار الذات **self regarding sentiment** هى التى تسير الناس فى مناشطهم المتباينة . فالطفل الصغير يجتهد فى دراسته حتى يشبع تلك العاطفة وحتى ينال مكانة مرموقة بين أترابه

الصغار . وقل نفس الشئ بالنسبة لجميع الناس فى جميع مجريات الحياة . فإذا ما رسب ذلك الطفل أو اذا هو حصل على درجة لا تؤهله للنجاح ، فإن ذلك يكون بمثابة عقوبة معنوية توقعها عليه مدرسته . ونفس تلك المدرسة اذا لم ينجح أطفالها فى آخر العام فإن الموجه وناظرة المدرسة يعاتبونها أو يوقعون عليها العقوبات الأدبية وذلك بحرمانها من التقدير الأدبى أو بحرمانها من الترقى إلى وظيفة إشرافية أعلى مكانة من الوظيفة التى تضطلع بها كمدرسة .

ونحن نستطيع فى الواقع أن نجد فى العقوبات المعنوية جوانب متباينة لعلنا نلخصها فيما يلى :

أولا : الحرمان من مواصلة النشاط :

من ذلك مثلاً الفصل من الوظيفة أو الحرمان من أداء نشاط معين اعتاد الشخص القيام به . كأن يحرم أحد الصحفيين من نشر المقالات التى أعتاد نشرها بالصحف لأسباب سياسية ، أو عزل أحد الوزراء من منصبه واحلال وزير آخر محله لشبهة ألمت به أو بسبب آراء خرج بها على الناس تخالف عما تأخذ به السلطة الحاكمة .

ثانيا : الإبعاد عن الجماهير :

من ذلك تحديد إقامة إحدى الشخصيات المؤثرة التى لها شعبية معينة فى بعض الأوساط خوفا من ذيوع تأثيرها فيمس ذلك بالإتجاهات العامة للبلاد . فيتم ابعاد تلك الشخصية المؤثرة بعيدا عن الأضواء وبعيدا عن المكان الذى يمكنها أن تؤثر من خلاله ، من أمثلة ذلك ما قام الانجليز بعمله تجاه الزعيم سعد زغلول بنفيه إلى جزيرة سيشيل حتى يبعدوه عن مواطن التأثير فى الشعب المصرى .

ثالثا : الحرمان من المناصب القيادية :

للحيلولة دون تقدم أحد الأشخاص أو مجموعة من الأشخاص لاحتلال مراكز زعامية مؤثرة . من ذلك مثلا حرمان السود فى البلاد التى تنتشر فيها آفة التمييز العنصرى من التقدم لاحتلال المناصب القيادية فى الحكومة أو فى الاحزاب السياسية .

رابعا : حجب الحقوق الوطنية :

ومن ذلك الحرمان من الحقوق الوطنية كحق الترشيح وحق الانتخاب أو حق ابداء الرأى أو حق الانتقال والتنقل بين البلاد المتباينة .

خامسا : التشهير بالشخص :

وذلك بالتنديد بما قاله أو صرح به أو سلك بمقتضاه على الملأ وعبر الاذاعات والصحف . وعدم السماح له بأن يدافع عن نفسه أو بأن يبرر ما قاله أو أن يصحح ما أذيع عنه أنه قاله .

ولا شك أن المجتمع – أى مجتمع يستعين بالعقوبات المعنوية لتحقيق أهداف معينة لعلنا نلخصها فيما يلى :

أولا : بذل جهد أكبر :

قد تتخذ العقوبات المعنوية بقصد حث المرء على بذل جهد أكبر مما أعتاد أن يبذله . فالعقوبة فى مثل هذه الحالات تكون عقوبة حثية أو استنباضية . فالمقصود بها أن تدفع بالشخص نحو التقدم والحصول على مكانة أفضل من المكانة التى أحرزها واستحق بسببها توقيع العقوبة عليه . من ذلك مثلا ما يمكن أن تستعين به المدرسة من توبيخ أو تحقير للتلميذ لكى يفيق من غفلته ويخاف ويأخذ فى بذل جهد أكبر لكى يحرز تقدما ونجاحا فى الاختبارات التالية .

ثانيا : الحط من مقام الشخص المعاقب :

يمكن أن تكون العقوبة المعنوية أداة انتقامية من الشخص لأنه أساء التصرف واستحق من أجل ذلك الامتهان ، كما حدث ذات يوم مع أحد القادة العسكريين المصريين عندما حكم عليه بانتزاع الرتب العسكرية من فوق كتفيه فى احتفال خصص لهذا الغرض بثه التلفزيون والاذاعة على السواء فى مصر . .

ثالثا : العقوبة لغرض سياسى :

قد تكون العقوبة المعنوية لغرض سياسى عام كما هو فى الحالات التى يمنع فيها نشر أحد الكتب أو مصادرة بعض المقالات خوف انتشارها وما يتبع ذلك من تأثير سيئ فى الجماهير . أو حفاظا على مكانة أحد الزعماء السابقين الذين تتعرض لهم الكتب المصادرة أو المقالات المحرمة .

رابعا : لكى يعتبر الآخرون :

قد تكون العقوبة المعنوية هادفة إلى تحذير الآخرين من القفو تبعا للخط الردئ الذى اتبعه أحد الأشخاص . فتوقع العقوبة على ذلك الشخص لكى يكون عبرة لغيره من أشخاص فلا يفكرون فى تقليده أو الاقتداء بمسلكه غير المرغوب .

خامسا : التمهيد لتغيير نظام الحكم :

قد تكون العقوبة المعنوية إيذانا بتغيير نظام الحكم نفسه واحلال نظام حكم جديد محله . من ذلك مثلا عزل الملك فاروق فى عام ١٩٥٢ وكان عزله بمثابة تحول من النظام الملكى فى مصر إلى النظام الجمهورى الذى ظل قائما حتى اليوم . فالعقوبة المعنوية التى وقعت على فاروق لم تكن تعنى شخصه فحسب ، بل كانت تعنى فى نفس الوقت توقيع عقوبة معنوية على النظام الملكى الذى كان فاروق يمثله .

العقوبات المالية :

لعل من أهم العقوبات التى يستعان بها لاشاعة الخوف فى قلوب الموظفين والعمال هذا النوع من العقوبات . ونستطيع أن نقسم العقوبات المالية إلى نوعيات متباينة على النحو التالى :

أولا : الحرمان من الأجر :

خصم أجر بضعة أيام من راتب الموظف أو العامل بسبب خطأ وقع فيه لاهماله فى الاضطلاع بواجبات عمله . وهذا النوع من العقوبات معناه أن الموظف أو العامل يشتغل تلك الأيام التى يخصم أجره عنها بغير أن يحصل عنها أى أجر . ومعنى هذا فى الواقع أن الموظف أو العامل يسخر خلال تلك الأيام المخصومة منه للعمل بالمجان وبغير أجر .

ثانيا : حجب العلاوة :

حرمان الموظف أو العامل من العلاوة السنوية التى يستحقها هو وزملاؤه . فهو يحرم دونهم من أخذ تلك العلاوة . وبذا فإن ما يتقاضاه من أجر كل شهر يظل أقل من أجر زملائه الذين لم يحرموا مثله من تلك العلاوة السنوية .

ثالثا : الحرمان من المكافأة أو المنحة

حرمان الموظف أو العامل من الحصول على إحدى المنح المالية أو من الحصول على مكافأة يصدر بها قرار من الجهات العليا وذلك بسبب التقارير التى كتبت ضده خلال الفترة السابقة على قرار صرف المنحة أو المكافأة .

رابعا : حجب المزايا العينية :

حرمان الموظف أو العامل من بعض المزايا أو المنح العينية كالسكن أو بدل الزى أو بدل التفرغ أو نحو ذلك لمخالفته عن أصول الوظيفة أو المهمة التى يضطلع بها زملاؤه الذين تصرف لهم .

خامسا : الوقف عن العمل :

فى الحالات الجسيمة يمكن وقف الموظف أو العامل عن العمل وبالتالى يوقف صرف مرتبه بالكامل لحين انتهاء التحقيق معه فيما نسب إليه من مخالفات تتعلق بشرف المهنة أو بسبب مخالفات ماليه خطيرة نسبت إليه .

ولا شك أن هذه العقوبات المالية من شأنها أن تشكل عامل تخويف لجميع الموظفين والعاملين بحيث تجدهم يتحاشون الوقوع فى الأخطاء التى يمكن أن تترتب عليها مثل هذه العقوبات المالية . ولعلنا فيما يلى نعرض للآثار النفسية التى يمكن أن تترتب على فرض العقوبات المالية على الموظفين والعمال على النحو التالى :

أولا : كراهية العمل :

وشيوع الكراهية الشديدة فى قلب الموظف أو العامل الذى توقع عليه العقوبة المالية بتجاه عمله وبتجاه المؤسسة التى يعمل بها والتى أنزلت به العقوبة المالية . وبوجه عام فإن المرء لا يستطيع أن يحب مصادر الألم والاذلال والامتهان . فكيف يستطيع الموظف أو العامل أن يحب المؤسسة التى يعمل بها بعد أن تكون قد أضرت به فى لقمة العيش التى تعد عماد حياته وحياة أولاده .

ثانيا : الإنحباس فى حدود الروتين الضيقة :

أعنى الخوف من القيام بأية مبادرات واجتهادات والالتزام بأضيق مفهوم للروتين . فالواقع أن الموظف الذى توقع عليه عقوبة مالية سوف يحمله الخوف على التقوقع فى أضيق نطاق ممكن والانكماش بحيث لا يستطيع أن يتصرف بحرية فى أداء مسئولياته . إن الخوف يجعله مجرد ترس صغير فى آلة كبيرة لا يتحرك إلا اذا حرك من الخارج . ولعلنا نقول إن الموظف أو العامل الذى وقع عليه جزاء مادى لا يبتكر فى حياته الوظيفية ، بل إنه لا يبذل الا أقل جهد ممكن ، كما أنه قد يسوف الأعمال المنوطة به ما أمكنه ذلك مما يترتب عليه تعطيل العمل . فهو يقيس ما يمكن تأجيله فى ضوء مقياس واحد هو ما اذا كان التسويف سوف يترتب عليه إيقاع جزاء مالى عليه أم لا . فإذا ضمن عدم حدوث ضرر مادى له ، فإنه يسوف ولا يحرك ساكنا .

ثالثا : التملق أو القطيعة :

والموظف أو العامل الذى توقع عليه عقوبة مالية يتخذ موقفا من موقفين بازاء الرئيس الذى أوقع عليه الجزاء . فهو إما أن يبدى لذلك الرئيس الكثير من التملق والمداهنة مؤكدا حبه العميق له برغم ما وقعه عليه جزاء مادى ، واما أن يبدى حذره واحتراسه من ذلك الرئيس ويقطع معه كل علاقة وديه . وفى هاتين الحالتين فإن الموظف أو العامل يكون خائفا وكارها لرئيسه فى نفس الوقت . وخوفه وكراهيته ينعكسان على إنتاجيته وعلى علاقاته الاجتماعية مع الرؤساء والزملاء والمرءوسين على السواء .

رابعا : الوسائل التعويضية :

فالموظف يعمد الى البحث عن وسائل أخرى مشروعة أو غير مشروعة لتعويض ما خصم من مرتبه . فهو قد يتقاضى الرشوة من أصحاب المصالح من الجمهور الذين يترددون عليه . واذا كان من النوعية التى لا تقبل الرشوة ، فانه قد يبحث عن مصدر شريف خارج نطاق عمله لكى يتكسب من ورائه ويعوض ما خصم منه . وفى بعض الحالات يكون مثل هذا البحث والتنقيب عن مجال عمل إضافى بمثابة تمهيد لترك العمل الأصلى الذى وقع عليه الجزاء فيه وتركيز الجهد كله فى العمل الإضافى الذى يصير بعد فترة تقصر أو تطول عمله الأساسى .

خامسا : الوسائل الانتقامية :

قد يعمد الموظف أو العامل الذى يوقع عليه الجزاء المادى إلى الانتقام ماديا وأدبيا سواء ممن يعملون تحت إمرته ، أم من العمل نفسه الموكول إليه . فلقد يعمد إلى المبالغة فى التدقيق مع مرءوسيه بحيث يتسبب لهم فى ايقاع الجزاءات المالية عليهم .ولقد ينتقم من مؤسسته التى يعمل بها وذلك بأن يهمل فى الآلات أو يستخدمها استخداما رديئا بحيث يفسدها فى أقرب وقت ، فيحمل ميزانية تلك المؤسسة أضعاف أضعاف ما وقع عليه من جزاء . والواقع أن الموظفين والعمال من هذا النوع يظلون دائبين على الافساد وايقاع الضرر على المنشآت والآلات بغير أن يتسنى لأحد أن يضبطهم متلبسين بالاهمال أو الاستخدام الردئ للمهمات .

ويختلف تأثير الخوف يحسه الموظف أو العامل نتيجة توقيع العقوبة المالية عليه . فنجد ردود أفعال متباينة من موظف أو عامل إلى موظف أو عامل آخر على النحو التالى :

أولا : الانتحاء الى السلبية :

فيحس الموظف باليأس التام من الوظيفة أو العمل المنوط به . فهو لا يستطيع بعد ذلك أن يمارس عمله بأى قدر من الجهد أو النشاط . وهناك حالات تجد فيها الموظف أو العامل يصير كصورة أو كجثة بلا حراك أو نشاط فى عمله بسبب اليأس الذى ألم به بعد إيقاع العقوبة المالية عليه .

ثانيا : الاصابة بالمرض :

وقد يتخذ الخوف وما يتبعه من يأس عند بعض الموظفين أو العمال شكلا مرضيا . فيصاب الموظف أو العامل بالشلل الحقيقى أو بالشلل الهستيرى أو قد يصاب بضغط الدم أو بمرض السكر ، فلا يستطيع ممارسة عمله وبذل الجهد فيه . وفى حالات كثيرة يلجأ الموظف أو العامل إلى الأجازات المرضية الطويلة أو إلى طلب العمل المخفف ويكون ذلك مصحوبا بالكراهية والمقت والزهد

ثالثا : اللوثة أو الجنون :

وفى بعض الحالات النادرة يصاب الموظف أو العامل بعد أن يوقع عليه الجزاء المادى بأحد الأمراض العقلية أو بمرض من الأمراض النفسية . فيحال نتيجة ذلك إلى أحدى المستشفيات العقلية . وفى بعض الحالات الخفيفة نسبيا تدل تصرفات الموظف أو العامل على الشذوذ النفسى ولكن المتعاملين معه يفسرون تصرفاته بتفسيرات أخلاقية لا بتفسيرات نفسية . فهو يتهم فى ضمائرهم بأنه سيئ الخلق ولا يتهم بأنه مريض عقليا أو نفسيا .

رابعا : استحالة الخوف إلى غضب :

فى بعض الحالات ينقلب خوف الموظف أو العامل إلى غضب شديد وإلى هيجان وثورة

عارمة لا تبقى ولا تذر . فلقد يتربص الموظف أو العامل الذى وقع عليه الجزاء المادى برئيسه الذى أوقع الجزاء عليه ويقتله أو يضربه ضربا مبرحا مما يترتب عليه إحالته إلى النيابة فالمحكمة ويزج به فى السجن إن لم ينفذ فيه حكم الاعدام اذا كان قد تربص برئيسه وقتله مع سبق الاصرار والترصد .

خامساً : الانزواء بعيداً عن الأنظار :

نجد فى بعض الحالات أن الموظف أو العامل الذى أوقع عليه الجزاء المالى وقد فقد الثقة فى نفسه . فهو يعتقد أن صورته قد اهتزت أمام زملائه ورؤسائه ومرءوسيه بالعمل . ثم أمام زوجته وعائلتها وأمام أبنائه وبناته . وأمام افراد أسرته الذين تصل اليهم أخبار الجزاء الذى وقع عليه . ومن هنا فإن ذلك الموظف أو العامل يبدأ فى انتهاج سلوك غير سلوكه الذى اعتاد عليه معارفه وأقرباؤه . إنه فى الغالب ينزوى بعيدا عن الأنظار لفترة تقصر أو تطول إلى أن يطمئن إلى أن هذه المسألة قد نسيت . ولكنه قد يظل على هذه الحالة إلى أن يصير من طبعه محافاة الناس ومعاملتهم بغلظة وقسوة وخشونة . واذا كان لذلك الموظف أو العامل أطفال صغار فإنه قد ينقلب عليهم شر منقلب . ولا تسلم زوجته من المعاملة الغليظة هى أيضا .

العقوبات الجماعية

يمكن أن ننظر إلى الناس من زوايتين : الزاوية الأولى – كونهم أفرادا . والزاوية الثانية – كونهم فئات . والفئة من الناس هى مجموعة من الأفراد ينتمون تحت عقيدة واحدة . أو بسبب اشتراكهم فى السلالة . أو بسبب اشتراكهم فى اللغة . أو بسبب انتمائهم إلى وطن واحد . أو لترابطهم بعضهم ببعض لتحقيق هدف مشترك فيما بينهم .

وكما تقوم بين الأفراد علاقات صداقة ومودة فى بعض الأحيان . وعلاقات عداء وبغض فى أحيان أخرى . كذا الحال بازاء الجماعات . ففى بعض الأحيان تنشأ صلات مودة بين فئتين أو جماعتين . وفى أحيان أخرى تنشأ صلات عداء بينهما . ويترتب على صلات المودة نشوء التعاون بين الجماعتين اللتين تظللهما المودة . ولكن عندما تسود الكراهية والتنابذ جو العلاقة بين الجماعتين . فإن التناحر والتنافس يشكلان النتيجة لهذا التنابذ وتلك الكراهية . ولقد تصل الكراهية بين الجماعتين المتنابذتين إلى حد اشتعال الحرب فيما بينهما .

والواقع أن الواحد من الناس ينتسب إلى العديد من الفئات أو إلى العديد من الجماعات . فأنت عضو فى أسرة تتكون من والديك وأخوتك وأخواتك . ثم انك عضو فى أسرة كبيرة حيث تمتد القرابة إلى الأجداد والأعمام والأخوال وأبناء الأعمام وأبناء الأخوال وغيرهم من أنسباء وأقرباء بعيدين . وأنت عضو فى مدرسة أو كلية أو عضو فى إحدى النقابات المهنية .

وأنت عضو أو مواطن من مواطنى مصر أو سوريا أو لبنان أو العراق أو الكويت أو السعودية أو نحو ذلك من بلدان . وأنت عربى تنتسب إلى فئة كبيرة هى فئة العرب الذين يتكلمون بلسان واحد هو اللغة العربية . وأنت مسلم تنتسب إلى جماعة كبيرة هى المجتمع الإسلامى الكبير الذى يتخطى حدود البلدان العربية . أو أنت مسيحى قبطى تنتسب إلى الكنيسة القبطية المصرية . وفى نفس الوقت تكون مسيحيا تنتسب إلى العالم المسيحى الذى يتخطى حدود الأوطان بالشرق الأوسط .

والواقع أن من الصعب علينا أن نعدد الفئات أو الجماعات التى تنتسب إليها وتحتل مكانك فيها . فأنت عضو فى مئات الفئات التى يعد بعضها فئات ثابتة راسخة الأركان . وبعضها مؤقت مرتبط بأهداف قريبة ومحدودة كما هو الحال عندما تكون عضوا فى حافلة (أوتوبيس) ينقلك من مكان إلى آخر . فبمجرد وصولك إلى غايتك وينفض الركب فإن عضويتك فى تلك الفئة تتلاشى بتلاشى الفئة التى كنت منخرطا فيها . أو بمجرد نزولك من الحافلة .

وبمناسبة ذكر الحافلة . افترض أن مجموعة من المساجين أقلتهم حافلة لنقلهم من سجن إلى سجن آخر . إنهم متهمون فى قضية واحدة وقد حكم عليهم جميعا بأحكام متفاوتة يقضونها بالسجن . فماذا عسى أن تكون مشاعرهم ؟ نقول إنهم برغم اشتراكهم جميعا فى الخوف مما سيلاقونه فى السجن الذى ينقلون إليه . فإن وجودهم بعضهم مع بعض فى تلك الحافلة يخفف عنهم الكثير من مشاعر الخوف التى يمكن أن تستبد بكل واحد منهم لو أنه كان وحده .

وهناك فى الواقع أنواع متباينة من العقوبات الجماعية لعلنا نستعرضها فيما يلى :

أولا : التصفية الجسدية :

وهى عقوبة جماعية يحكم بمقتضاها على مجموعة من الأفراد بالموت . وقد تكون العقوبة من هذا النوع بسبب اشتراك أفراد تلك المجموعة فى جريمة واحدة كان لكل واحد منهم دور فيها . من ذلك مثلا اشتراك مجموعة من قطاع الطرق فى تهديد المسافرين بالسيارات أو بالقطارات والأعتداء على من لا يسلمهم كل ما يمتلكه من مال ومتاع بالقتل . فلدى القبض على تلك المجموعة من المجرمين فإن المحكمة قد تصدر عليهم حكما بالقتل جميعا بغير استثناء . وقد تكون العقوبة الجماعية بالقتل لأسباب سياسية كما حدث فى الثورة الفرنسية وغيرها .

ثانيا : مصادرة الأموال :

وهى عقوبة جماعية يحكم بمقتضاها بمصادرة ممتلكات جميع أفراد فئة من فئات الشعب . من ذلك مثلا ما حدث بعد قيام ثورة يوليو من مصادرة وتأميم ووضع تحت الحراسة لممتلكات بعض الأسر الثرية التى كانت تمتلك الآف الأفدنة . فالدعوة إلى الاشتراكية التى أعلنتها تلك

الثورة كانت تعنى ضرورة الحد من الملكية الزراعية وتأميم كثير من المصانع ووسائل الانتاج المتباينة .

ثالثا : عقوبة أدبية نشاطية :

وهى عقوبة جماعية يحكم بمقتضاها بحرمان مجموعة من الأفراد من ممارسة النشاط . من ذلك مثلا حرمان أحد الأندية من الاشتراك فى الدورى بسبب اعتراض بعض أفراده على الحكم فى إحدى المباريات . ومن ذلك أيضا حرمان أحد الأحزاب من ممارسة نشاطه السياسى ووقف جريدته .

رابعا : عقوبة الحرمان الدينى :

وهى عقوبة جماعية دينية . من ذلك مثلا حرمان جميع أفراد فئة معينة فى أحد الأديان اتخذت تفسيرا معينا لأحد المعتقدات الأساسية بالدين كما حدث لمارتن لوثر وأتباعه عندما حرمتهم الكنيسة الكاثوليكية وعاقبتهم بالطرد وتحريم كتبهم ومنعهم من ممارسة أى نشاط دينى فى داخل الكنائس الكاثوليكية .

خامسا : المقاطعة ومنع التعامل :

وهى عقوبة جماعية يتم بمقتضاها مقاطعة دولة بكاملها تجاريا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا . من ذلك مثلا مقاطعة معظم الدول العربية لاسرائيل وتحريم التعامل معها فى جميع المجالات الحضارية .

ولعلنا نتناول بعد هذا دور الخوف فى العقوبة الجماعية . اننا نستطيع أن نتدارس هذا الدور فنجد ما يأتى :-

أولا : التخويف

أعنى إرهاب فئة أو مجموعة ما حتى تمتنع عن ممارسة نشاط معين . من ذلك مثلا الحملات السياسية التى كانت ثورة يوليو تشنها عن طريق الخطب فى المحافل ضد الأحزاب السياسية التى كانت قائمة قبل قيام الثورة . فكان من أهم وظائف التخويف التى كانت ترمى إليها تلك الخطب محاولة منع تلك الأحزاب من ممارسة نشاطها السياسى .

ثانيا : الحد من النشاط :

وتحجيم إحدى المجموعات وتقليص حجمها . من ذلك ما تقوم به الدول من محاربة علنية أو متخفية لعصابات المافيا والعصابات الاجرامية المتباينة . فعن طريق التخويف تحجّم تلك العصابات ويتركها بعض افرادها ، وبالتالى فإنها تضعف ويتقلص نشاطها فى أضيق نطاق ممكن .

ثالثا : التحذير من المشاركة :

أو تخويف من يميل للانضمام إلى المجموعة التى تقع عليها العقوبة . من ذلك تهديد ومحاربة الأحزاب الشيوعية فى كثير من بلدان العالم بقصد تخويف الأشخاص الذين لديهم رغبة فى الانضمام إليها من التفكير فى ذلك . وعليك بالقاء نظرة إلى ايران وحزب تودا الشيوعى وكيف أن حكم الخومينى يحاربه حتى لا ينحو بعض الايرانيين إلى الأنضمام اليه .

رابعا : إحراز الشعبية وتأييد الجماهير :

وذلك عن طريق لم الشمل وجمع الصفوف . ذلك أن محاربة فئة ما تعنى من جانب آخر تقوية المجموعة التى تشن الهجوم وتقضى بالعقوبة . ولنأخذ مثالا لذلك بثورة يوليو لدى قيامها فى عام ١٩٥٢ . إنها باعلانها الحرب على فئة الاقطاعيين كانت تجمع الصفوف حولها ، وكانت تستعين بحربها ضد الإقطاع للم الشمل وجمع صفوف المصريين حول أهدافها .

خامسا : التأصيل العقائدى :

أى تثبيت عقيدة أو اتجاه سياسى بمحاربة عقيدة أو اتجاه سياسى آخر تعتنقه مجموعة من الأفراد . خذ مثالا لذلك روسيا الشيوعية التى اتخذت من التعريض بالنظام الرأسمالى فى معظم كتابات مفكريها وسيلة لنشر الشيوعية وتثبيت معتقداتها السياسية فى قلوب وعقول رعاياها وبخاصة العمال منهم .

والواقع أن الخوف يلعب دورا ذا بال فى العقوبات الجماعية وسواء كانت العقوبة تأديبية أم كانت انتقامية ، فإنها فى الحالتين تعمل على اشاعة الخوف فى قلوب أفراد المجموعة أو الفئة التى يوقع عليها العقاب . بيد أن الخوف يصيب المجموعة المعاقبة قد يستحيل بين أعضائها إلى غضب عارم بحيث تتهيأ للانتقام ومغالبة المجموعة أو الفرد الذى أوقع العقوبة عليها . ولسنا نغالى اذا ما قلنا إن الغالبية العظمى من الثورات التى قامت وأطاحت بنظم للحكم كانت قائمة ، بدأت أول ما بدأت فى القلوب خوفا . ولكن بمرور الأيام استحال الخوف إلى غضب مدمر وقاهر .

العقوبات الدينية

لعل من أهم الانتماءات التى تعتمل فى كيان الانسان الانتماء الدينى . فلقد نزعم أنه أقوى من الانتماء القومى . وشاهد ذلك أن من الأسهل على المرء أن يهاجر عن وطنه وأن ينتحل جنسية جديدة ويصير مواطنا من أبناء وطن جديد عن أن يغير دينه . ولكن لا يفهم من هذا أننا نقلل من أهمية الانتماء الوطنى وشدته فى نفوس المواطنين . فنحن نقرر أن كلا الانتماءين : الدينى والوطنى قويان . ولكن الذى نزعمه هنا هو أن الانتماء الدينى أقوى من

الانتماء القومى . ولقد يعود هذا إلى أن الانتماء الوطنى حدوده الأرض . أما الانتماء الدينى فحدوده الأرض والسماء معا .

من هنا فإن العقوبات الدينية تتخذ لها مغزاً خطيرا فى حياة الناس . واتهام أحد الأشخاص أو مجموعة من الأشخاص بأنهم مارقون عن أصول الدين يعتبر من أخطر الاتهامات . بيد أن المسألة تختلف فى شدتها من مجتمع لآخر ومن عصر إلى عصر آخر بالنسبة لنفس المجتمع . كما تختلف أيضا باختلاف الأفراد ومدى ما يعتمل فى أوصالهم من حساسية دينية . فكلما كان المجتمع والأفراد أكثر تدينا واستمساكا بالمشاعر الدينية . كان بالتالى للعقوبات الدينية وقع أكبر عليهم .

ولقد تكون العقوبة الدينية فردية روحية فحسب كأن يعلن على الملأ أن شخصا ما قد خرج على التعاليم الدينية . وبالتالى فإنه يعد محروما أو مطرودا من رحاب المؤسسة الدينية كما هو الحال فى المسيحية اذا ما خرج أحد المسيحيين على الملأ بتعاليم مناهضة لتعاليم الكنيسة . ولقد تكون العقوبة الدينية روحية وجسدية فى نفس الوقت . ولنأخذ مثالا على ذلك من الديانة اليهودية . فلقد جاء فى سفر التثنية الأصحاح الخامس والعشرون « اذا كانت خصومة بين أناس وتقدموا إلى القضاء ليقضى القضاة بينهم فليبرروا البار ويحكموا على المذنب . فإن كان المذنب مستوجب الضرب يطرحه القاضى ويجلدونه أمامه على قدر ذنبه بالعدد أربعين جلدة لا يزد ..... »

وحتى بالنسبة للعقوبات الروحية فاننا نجد أن هناك نوعين أساسيين : النوع الأول يلقاه الخاطئ فى الدنيا فتوقع عليه عقوبات من السماء كأن تبور تجارته اذا كان تاجرا أو يموت أولاده أو يصاب بالأمراض على تباينها أما النوع الثانى من العقوبات الروحية فإن الشخص الخاطئ يلقاه فى الآخرة يوم الحساب أو الدينونة.وهنا نجد أيضا اتجاهين متباينين يقررها رجال الدين فى الديانات المتباينة . فثمة من يقولون ان العقوبة فى الآخرة تكون بأن يلقى بالخاطئ فى نار جهنم المتقدة بالكبريت إلى الأبد الذى لا نهاية له . فيظل هناك معذبا بغير توقف على الاطلاق . فيكون عذابه مؤبدا ولانهائيا . وثمة من يقولون من جهة أخرى أن العذاب الذى سوف يلقاه الخاطئ فى الآخرة هو عذاب بقدر خطيئته فحسب . سواء من حيث الشدة أم من حيث المدة . وبعد هذا يكون الخاطئ قد تطهر من خطيئته . فيدخل الجنة . ولكن هناك خطايا تستحق العذاب المؤبد . فالتجديف على الروح القدس لا يغفر للمجدف كما يقول المسيح بانجيل متى الأصحاح الثانى عشر :

« لذلك أقول لكم كل خطية وتجديف يغفر للناس . وأما التجديف على الروح فلن يغفر

للناس . ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له . وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى . »

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الدور الذى يلعبه الخوف فى العقوبات الدينية . فنلخص ذلك الدور فيما يلى من نقاط :

أولا : تقويم المعوج :

إن الخوف من العقوبات الدينية يعمل بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر على تقويم المعوج وإصلاح سلوك الخاطئ . فعندما يخاف الانسان مما سوف يلقاه فى الدنيا والآخرة من عذاب وما سوف يوقع عليه من عقوبات . فإنه قد يرعوى ويتوب إلى الله ويندم على ما سبق له اقترافه . ومن ثم فإنه يخرج من زمرة الأشرار لينضم إلى زمرة الأخيار .

ثانيا : الالتزام بالعبادات :

ولا يقتصر الأمر على حد الامتناع عن ارتكاب الخطايا والآثام . بل ان الخاطئ التائب سوف يسارع نتيجة ما يعتمل فى أوصاله من خوف إلى مباشرة العبادات كممارسة الصوم والصلاة والاحسان للفقراء ونحو ذلك من اركان العبادات فى الدين المعين الذى يدين به . والواقع أن كثيرا من الخطاة صاروا قديسين ومتقربين إلى الله بالعبادة والتقشف والزهد فى الدنيا . نذكر منهم القديس أوغسطين فى المسيحية ورابعة العدوية فى الإسلام .

ثالثا : الدور التحذيرى الوقائى :

يعمل الخوف من العقوبات الدينية بأنواعها المتباينة على تحذير غير الخطاة من الوقوع فى براثن الخطيئة . فيكون دور الخوف فى هذه الحالة من العقوبات الدينية دورا تحذيريا وقائيا. فثمة أناس كثيرون ظلوا بعيدا عن الدنايا لا حبا فى انتهاج طريق القداسة والفضيلة بقدر خوفهم من النتائج التى يمكن أن تترتب على مخالفة وصايا الدين .

رابعا : تأكيد هيبة الدين :

ولا شك أيضا أن الخوف من العقوبات الدينية من أهم العوامل التى جعلت وتجعل للدين بصفة عامة وضعا مهيبا فى أنظار الناس . فلو لم تكن هناك عقوبات دينية . لما كانت للدين اذن هيبته ولما تحرى الناس السلوك المدقق والمتحرز من امتهان قدسيات الدين .

خامسا : صيانة الحقوق :

وغنى عن القول إن العقوبات الدينية وما يواكبها من خوف انما تعمل على صيانة حقوق الأفراد والجماعة على السواء . فلقد يخشى السارق الذى تسيطر نزعة اغتصاب حقوق الآخرين على قلبه من اقتراف السرقة بالفعل . ولا يكون سلوكه هذا ناجما عن ايمانه بقيمة الأمانة بل

نتيجة خوفه من العقوبات التى يمكن أن توقع عليه اذا هو تجاسر وسرق أو اغتصب حقوق الآخرين .

والخوف من العقوبات الدينية قد يكون خوفا سويا كما أنه قد ينحرف عن الجادة ويصير خوفا مرضيا ، ويكون الخوف فى مثل تلك الحالة عرضا من أعراض الجنون . ولعلنا فيما يلى نستعرض الأشكال التى يمكن أن يتلبس بها الخوف من العقوبات الدينية ولا يكون خوفا سويا بل يكون خوفا شاذا ومرضا عقليا أو نفسيا . وتتلخص تلك الأشكال فيما يلى :

أولا : تعذيب الذات :

قد يسيطر الخوف من العقوبات الدينية على أذهان بعض الناس فيلجأون إلى البحث عن أسباب ذلك الخوف ، فيتهمون أنفسهم بالنجاسة . ومن ثم فإنهم يأخذون فى معاقبة أجسادهم بشتى العقوبات التى يظنون أنها كفيلة بتطهيرهم من خطاياهم . ولكن دون ما جدوى . ذلك أن ما يصيبهم من مرض نفسى يدفع بهم إلى مثل هذا الاتهام بالنجاسة .

ثانيا : الاصابة بالهلوسات المرئية والمسموعة :

والخوف من العقوبات الدينية وما سوف يلقاه الشخص المريض عقليا من عذاب أليم فى الآخرة بعد الموت قد يدفع به إلى الخضوع لسلسلة من الهلوسات المرئية والمسموعة . فهو يرى أشباحا تطارده حيثما يكون وهى أشباح ذات مناظر مخيفة . ولا يقتصر الأمر على مشاهدته لها . بل انه يسمع منها كلاما ووعيدا . وواقع الأمر أنه لا يكون لتلك الأشباح قوام خارجى موضوعى ، بل تكون بمثابة اسقاط لما يعتمل فى نفسه على الواقع الموضوعى من حوله . ولكن ينبغى ألا نعمم فنقول إن جميع الرؤى الروحية مجرد هلوسات مرئية أو مسموعة .

ثالثا : الأحلام المخيفة :

والخوف من العقوبات الدينية يتبدى أيضا فيما يراه الشخص المريض نفسيا من أحلام مخيفة . فهو يشاهد نفسه مطحونا فى عذاب أليم وقد أخذت بعض الكائنات الروحية فى كيه بالنار أو فى ضربه ضربا مبرحا .

رابعا : التزمت مع الآخرين :

قد تحدث عملية اسقاط من جانب المريض نفسيا على المحيطين به وبخاصة أولئك الذين فى عنقه ومسئوليته . فهو يبالغ فى التدقيق فى تصرفاتهم وفيما يفوهون به من كلام . فهو يحاول نقل الخوف من دخيلته إلى الخارج مسقطا إياه على المحيطين به لعله يستطيع أن يتخلص منه أو يخفف من شدة ضغطه عليه .

خامسا : الانتحار :

أخيرا قد يعمد الشخص المريض نفسيا والذى امتلأ قلبه بالخوف من العقوبات الدينية إلى الانتحار . فهو بعد أن ييأس من قدرته على التخلص مما يفور بداخله من مخاوف مما عسى أن يلقاه فى الدنيا والآخرة ـ فإنه يندفع اندفاعاً إلى إنهاء حياته. ولقد يكون انتحاره بقصد معاقبة نفسه قبل أن يعاقب فى الآخرة وذلك بتعذيب نفسه . فينهى حياته بيديه مع أنه كان يحاول تأديب نفسه فقط والتخفف من شدة ضغط ضميره عليه .



الصحة أغلى ما نمتلكه والمرض أبشع ما يبتلى به إنسان

الفصل الثالث عشر
الخوف من المرض

الخوف من الأمراض المعدية :

لا شك أن جميع الناس يخافون من أن يصابوا بأى مرض من الأمراض المعدية . والواقع أن الأسس التى ينبنى عليها خوفهم متعدده لعلنا نذكر أهمها فيما يلى :

أولا – ان المرض المعدى قد ينتقل إلى المرء بمجرد مخالطته للمريض . ونحن فى حياتنا المعاصرة كثيرا ما نقيم علاقات متعددة ومتغيرة مع العديد من الناس الذين لانكاد نعرفهم أو لا نعرفهم بالفعل على الاطلاق . فنحن مضطرون إلى التعامل مع الآخرين فى حياتنا اليومية . من هنا فاننا نخاف من المجهول -- أعنى المرض المعدى – الذى يحمله الينا التعامل مع أشخاص كثيرين ومتباينين كل يوم .

ثانيا – كثير من الأمراض المعدية يحملها أناس دون أن يصابوا هم بها . فهم حاملو مرض بغير أن يصيبهم ذلك المرض . ومعنى هذا أن الكثير من الأصحاء الذين يعيشون بين ظهرانينا هم فى واقع الأمر بمثابة جسور تعبر عليها الأمراض المعدية الينا وتصيبنا . إن هؤلاء الذين يحملون المرض بغير أن يمرضوا به تكون لديهم مناعة من الإصابة به . ولكن بالنسبة لنا فاننا لانعلم ما اذا كانت لدينا نفس المناعة التى يتمتعون بها أم أننا سنصاب بما يحملونه الينا من أمراض معدية .

ثالثا – إننا نخاف من أن نمرض بأحد الأمراض المعدية حتى لا يتحاشانا الناس ويهربوا منا تبعا للمثل القائل « كما يهرب السليم من الأجرب » . وليس الجرب وحده هو الذى يجعل الناس يهربون من المصاب به ، بل إن هناك العديد من الأمراض المعدية التى اذا ما أصابتنا ، فان الناس الذين نحبهم ويحبوننا يهربون منا مما يجعلنا نحس بالوحشة ، بل قد نحس بأن صداقتهم قائمة على غير أساس ، مع أن المنطق والعقل السليم يقرران ضرورة تحاشى مصادر المرض حتى ولو كانت تلك المصادر من أقرب الناس . بيد أن المنطق والعقل السليم شىء والمشاعر الوجدانية شىء آخر . فنحن وان اقتنعنا بعقولنا بشىء ما ، فانه لايتحتم أن يفرض ذلك الاقتناع نفسه على قلوبنا . وهل من أحد يحب أو يقبل أن يهرب منه الناس ويتحاشوا التعامل معه أو حتى الاقتراب منه والتحدث اليه ؟

رابعا — هناك بعض الأمراض المعدية التى وان شفى منها المريض فانها تترك أثرا بعيد المدى فى شخصيته أو حتى فى عقله وفى طريقة تفكيره .

من ذلك مثلا الحميات التى تصيب الجهاز العصبى والتى تترك بصمتها عليه حتى بعد أن ينجو الشخص من الموت ويتم له الشفاء الظاهرى . ذلك أن الانسان يخشى كل الخشية من أن يصاب فى عقله وتفكيره ومشاعره . أو بتعبير آخر فانه يخشى من أن يفقد سلطانه على جهازه الفكرى وجهازه الوجدانى وجهازه الارادى . ولعل الخوف من الاصابة فى التفكير والوجدان والارادة يرجع إلى خوفنا من أن نفقد اعتبارنا فى أنظار الآخرين . فالواقع أن جانبا كبيرا من مخاوفنا يكون مرده خوفنا من اهتزاز رأى الناس فينا . فنحن نحيا للناس وبالناس . أو قل إننا نحيا وقد حملنا المجتمع بين جنباتنا . ويخطىء من يزعم أنه يعيش فى استقلال عن الناس . أو من يقول لك إنه لايعبأ برأى الناس فيه . فخوفنا من الأمراض المعدية التى ينتج عنها إصابتنا بنوع ما من أنواع الجنون هو فى واقع الأمر خوف من أن نفقد قيمتنا كشخصيات اجتماعية . ومن أن تهبط قيمتنا فى أنظار الآخرين الذين يتعاملون معنا .

خامسا — أخيرا فاننا نخاف من الاصابة بالأمراض المعدية لأنها تعرضنا للموت أو تعرض أحباءنا لهذا المصير المخيف . والخوف من الموت شيء معروف ليس بحاجة إلى سرد البراهين على وجوده . ومهما قيل عن أن الموت مسألة طبيعية فانه بلاشك أخوف ما يخيف الإنسان .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الوسائل التى تذرع ويتذرع بها الناس فى المجتمعات المتباينة لكى يذبوا بواسطتها الخوف عن قلوبهم من الإصابة بالأمراض المعدية . وفيما يلى أهم تلك الوسائل :

أولا — فى المجتمعات البدائية نجد أن الرقى والتعاويذ والفنون السحرية تشكل أهم الوسائل التى يستعين بها البدائيون لكى يتخففوا من الخوف من الاصابة بالأمراض المعدية . فعندما ينتشر وباء ما فى المجتمع البدائى فان البدائى يسارع إلى الساحر لكى يحوك له رقية أو تعويذة أو أى عمل سحرى يقيه شر العدوى من الوباء المنتشر بالمجتمع . ولقد اختلط السحر فى تلك المجتمعات بالوصفات العلاجية الشبه طبية . فكان لدى الساحر مجموعة كبيرة من الأعشاب التى كانت تفيد أحيانا ولا تفيد أو تضر فى أحيان أخرى . فكان السحر ممتزجا بتلك الوسائل العلاجية البدائية . ومن المؤكد فى تاريخ الحضارة أن الطب قد انبعث من أحضان السحر . ولاشك أيضا أن العامل النفسى كان له تأثير كبير فى شفاء كثير من الحالات التى تمرض بالفعل . كما كان له أثر كبير أيضا فى الوقاية من الاصابة بالأمراض المعدية . وها هو الطب

الحديث يهتم بالتأثير النفسى فى الوقاية والعلاج معا . فالنزعة الحديثة فى العلاج هى تلك النزعة التى تسمى بالنزعة السيكوسوماتية . أى الوقاية والعلاج بالتأثير النفسى والجسمى على السواء .

ثانيا – أما الوسيلة الثانية التى ظل الناس منذ قديم الزمان يلجأون إليها لذب الخوف عن أنفسهم من الأمراض المعدية فهى الدين . فالناس عبر العصور المتعاقبة يعتقدون فى أن القوة الالهية أو العناية الالهية ذات تأثير إعجازى فى الحفاظ على المرء من الاصابة بالأمراض المعدية . واذا هو أصيب بالعدوى . فان العناية الآلهية جديرة بأن تشفيه وشاهد ذلك أن الكثير من المعجزات الدينية قد ارتبطت بالشفاء من الأمراض المعدية . وحتى فى حياتنا نحن فان الغالبية العظمى منا لايكتفون بالوسائل العلاجية الطبية الوضعية . بل هم يواكبون الدعوات والصلوات والنذور مع تلك الوسائل العلاجية . ومن الناس المحدثين ضيقى الأفق من يمتنعون عن عرض أنفسهم وذويهم على الأطباء مؤكدين أن الشفاء يمكن أن يتأتى بالوسائل الدينية فحسب . واذا كان مقدرا على المريض أن يموت أو أن يصاب بالعدوى فان الدواء العلاجى أو الدواء الوقائى يكون اذن بلا فائدة على الاطلاق .

ثالثا – أما الوسيلة الثالثة التى يذب بها كثير من الناس الخوف من الاصابة بالامراض المعدية عن أنفسهم فهى وسيلة سلبية وقائية . فتجد أن تجنب الاختلاط بالناس واعتزالهم يشكلان الدعامة الاساسية فى تلك الوسيلة السلبية الوقائية . فعندما ينتشر أحد الأوبئة فى مجتمع ما . فانك تجد الناس ينزوون فى بيوتهم ولا يختلطون بغيرهم الا فى أضيق نطاق ممكن . ولقد ينزح الكثير منهم إلى أماكن بعيدة عن المكان الذى ينتشر به الوباء .

رابعا – أما الوسيلة الرابعة لذب الخوف عن المرء من الأمراض المعدية فانها تتمثل فى التحصينات الوقائية بأخذ الطعم ضد المرض المعدى . وبهذه المناسبة فاننا نتذكر لوى باستير الذى كان رائدا فى هذا المضمار فى فرنسا حيث كان مرض الجدرى منتشرا لوقته فى المنطقة التى كان يعيش فيها . من الطبيعى أن باستير كان خائفا من أن يصاب هو شخصيا بذلك المرض . ولكنه لاحظ أن بائعة اللبن وأقرباءها لم ينتشر المرض بينهم . وبذا فانه باعمال ذكائه العلمى فى الموقف اكتشف فكرة التطعيم بجدرى البقر واخذ فى إعداده معمليا . ومنذ ذلك الوقت تفجرت الدراسات الوقائية جريا وراء بحوث باستير فى هذا المضمار .

خامسا – والوسيلة الأخيرة التى يذب بها الناس الخوف من إصابتهم بالأمراض المعدية هى العلاج الفعلى مما قد يلحق بهم من تلك الأمراض . والواقع أن المريض وذويه يبدأون فى الاحساس بشىء من الطمأنينة بمجرد أن يطمئنهم الطبيب . وبمجرد مباشرة العلاج . ولا شك أن انخفاض نسبة الوفيات بأحد الأمراض المعدية يجعل الناس المقيمين فى أحد المناطق يحسون بقليل من الخوف اذا ما أصيبوا بذلك المرض .

الخوف من الاصابة بالعاهات :

إن المستقبل شيء غامض فى نظر كل إنسان . فالطفل يولد سليم البنية ولكن أحدا لا يستطيع أن يتنبأ بما قد يحمله له المستقبل من حوادث تضمه إلى فئة أصحاب العاهات . والإنسان فى أى عمر حتى آخر لحظة فى حياته لا يستطيع أن يعرف شيئا عما يخبئه له المستقبل من أحداث أو من إصابات .

والأم التى تحمل جنينا فى أحشائها . لاتستطيع أن تتنبأ بالحالة التى سيكون عليها وليدها . فهل ستحظى بطفل سليم خال من العاهات أم أن حظها النكد سوف يحمل لها طفلا به عاهة أو أكثر ؟ وحتى اذا ظل الطفل سليما طوال مدة الحمل . فان الوالدة لا تستطيع أن تضمن لهذا الوليد أن ينزلق من أحشائها سليما . فثمة العديد من الاصابات التى يمكن أن يتعرض لها الوليد فى أثناء هبوطه من عالمه الحشوى الى هذا العالم . وتعرف الاصابات التى تحدث للوليد بأنها إصابات ولادية .

ولقد إصطلح الناس على قصر لفظ عاهة على الجانب الظاهرى من شخصية المرء . فالأعور أو الأعمى أو بطيء السمع أو الأطرش أو الابكم أو الأعرج أو المصاب فى أى جانب ظاهرى من جسمه يعتبر صاحب عاهة . ولكن ما القول بازاء ما قد يصيب الجانب غير الظاهر من الجسم ؟ أليست الإصابة بالمخ والتى يتأتى عنها مرض نفسى أو عقلى تدخل فى نطاق العاهات ؟ إننا نعتقد أن العاهات قد تكون خارجية بادية للعيان . وقد تكون داخلية لا تبدو للعيان ولكن ما يبدو منها هو النتائج المترتبة على الاصابة بالعاهة الداخلية . فالطفل الصغير الذى أصيب فى خصيتيه ولم يلتفت الوالدان إلى إصابته ثم بعد أن كبر وتأهل للزواج اكتشف الأمر الواقع بأنه لا يستطيع أن ينجب أطفالاً بسبب الاصابة بالعاهة القديمة فى الخصيتين . يكون فى رأينا صاحب عاهة حتى وأن اختفت عن الأعين . وكانت مستخفية عن انتباه الناس . ولكننا من جهة أخرى لا نسمى الندبة فى البطن نتيجة اجراء عملية جراحية ليس لها نتائج معوقة فى حياة ونشاط الشخص – كاستئصال الزائدة الدودية – عاهة . ذلك أنه طالما أن تلك الندبة لا تتعلق بعضو من أعضاء الاستقبال الحسية . وطالما أنها لاتشكل مشكلة اجتماعية أو نفسية للشخص الذى أجريت له العملية الجراحية . فاننا نستبعدها اذن من نطاق العاهات .

وبالنسبة للاصابة بالعاهات . فاننا نستطيع أن نميز نوعين من المخاوف : النوع الأول يتعلق بالشخص العادى الذى تساوره المخاوف من أن يصاب فى مستقبل حياته باحدى العاهات . أما النوع الثانى من المخاوف . فانه يتعلق بالأشخاص الذين أصيبوا فعلا بعاهة أو أكثر

وتساورهم تلك المخاوف لأسباب متباينة . والواقع أن هذين النوعين من المخاوف يتباينان فى شدتها باختلاف الأشخاص . فثمة أشخاص لديهم حساسية شديدة نحو أنفسهم . فهم يخافون بازاء ما قد يحمله لهم مستقبلهم من عاهات . كما أنهم اذا ما اصيبوا باحدى العاهات فانهم يظلون مركزين اذهانهم عليها . معتقدين أن الناس لايشاهدون فى شخصياتهم سوى ذلك الجانب أو العضو الذى أصيب بالعاهة .

ولعلنا نستعرض فيما يلى الأسباب التى تدعو الناس إلى استشعار الخوف من الاصابة بالعاهات .

أولا – ان الاصابة بالعاهة تحمل الشخص على التقليل من قيمة نفسه فى نظر نفسه . فثمة تقييم ذاتى يعمله المرء لنفسه ككائن حى . ولاشك أن العاهة تحمل فى طياتها ما يشين كيان الشخص الجسمى . فالمرء فى مثل هذه الحالة شبيه بالآنية الثمينة المصنوعة من البلور . فتلك الانية تفقد الكثير من قيمتها اذا ما شرخت أو أصابها إى تلف من أى نوع ولو فى جانب صغير منها . فهى قبل التشوه غيرها بعده . فصاحب العينين السليمتين يكون تقديره لجمال طلعته غيره تماما بعد أن يصير أعور أو بعد أن يفقد بصره تماما .

ثانيا – وتقدير المرء لنفسه يرتبط ارتباطا وثيقا بتقدير الآخرين له . وتستطيع أن تقول إن ثمة تفاعلا فيما بين النوعين من التقدير . فتقدير المرء لنفسه ينعكس على تقدير الآخرين له . كما أن تقدير الآخرين للشخص ينعكس بدوره على تقدير ذات الشخص لنفسه . وما يقال عن أن تقدير الشخص لنفسه قبل اصابته بالعاهة يختلف عن تقديره لنفسه بعد أن يصاب بها ينسحب بنفس الدرجة من الصدق بازاء تقدير الآخرين له قبل وبعد الاصابة بالعاهة . وأخشى ما يخشاه الإنسان – كما سبق أن قلنا – أن يفقد اعتباره لنفسه ، أو أن يفقد الاعتبار فى أنظار الآخرين من حوله .

ثالثا – ولايخفى علينا أن العاهة تشكل فى الغالب حاجزا بين المرء وبين ما اعتاد عليه من نشاط . وما سبق أن تمرس به من حرف أو أعمال أو وظائف. وبتعبير آخر فان الاصابة بالعاهة تؤثر على انتاجية المرء وفى مدى كفاءته كعضو حى فى المجتمع . ومما يخيف الإنسان أن يصير عاجزا من إعالة نفسه وعن خدمة نفسه بنفسه . ولعل من أهم أهداف الإنسان منذ نعومة أظفاره أن يصير مستقلا عن الآخرين وأن يتمكن من إعالة نفسه ومن خدمة نفسه بنفسه بحيث يكون مستقلاً ومتحررا من ضغوط الآخرين عليه ومن تحكمهم فيه ووضعه تحت رقابتهم ورعايتهم .

رابعا – يخاف المرء من أن يصاب باحدى العاهات فيصير شاذا عن باقى معارفه . فالإنسان

بطبعه لايحب أن يكون موضعا لانتقاد الاخرين له أو أن تتركز عليه الابصار . ولا شك أن تركيز الانتباه والأبصار على صاحب العاهة انما يكون تركيزا على الجانب الضعيف أو الجانب الشائه بجسمه . ولكأن تلك الأعين المحدقة تعاير صاحب العاهة فى صمت ولكنه صمت أكثر ايلاما من الكلام الجارح أو الصريح .

خامسا – ان مخاوف صاحب العاهه تتزايد وتستفحل بسبب اعتمال الخيال فى الموقف . فهو يضخم تأثير عاهته فى حياته أكثر فأكثر . وكلما كبر الطفل صاحب العاهة ، فانه يكتشف جوانب جديدة تؤثر بها العاهة فى حياته وفى علاقاته الاجتماعية . فذلك الطفل المصاب باحدى العاهات وقد صار شابا ، يكتشف أن عاهته قد حالت بينه وبين الالتحاق باحدى الكليات التى يرغب فى الالتحاق بها ، ثم هو يجد أن عاهته قد حرمته من الامتهان باحدى الوظائف ، ثم هى تجعل أفراد الجنس المقابل ينبون عنه فاذا هو أحب فتاة فانها ترفض حبه لأنه مشوه . واذا هى غضت النظر عن عاهته ، فان أهلها يرفضونه لأنه لايليق بابنتهم . وقل نفس الشىء بالنسبة للفتاة صاحبة العاهة . فهى تجد أن الشبان يشيحون عنها ولا يقبلون عليها . وحتى اذا هى صادفت شابا يتقرب منها ، فانها سرعان ما تكتشف أن تقربه منها ليس بغرض شريف ، بل هو يغازلها للعبث والمجون فحسب .

ولعلنا بعد هذا نتساءل عن المواقف المتباينة التى يتخذها المحيطون بصاحب العاهة بازائه . اننا نجد أن تلك المواقف تتباين ويمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا – محاولة التهوين من أمر العاهة وشدتها . فالآباء والأمهات والأخوة والأخوات كثيرا ما يعمدون إلى التخفيف من شأن العاهة وشدتها على نفسية المصاب بها . ولكن أنى لصاحب العاهة أن يصدق ما يقولونه له وما يخففون به من كلام بقصد إظهار أن تلك العاهة لم تؤثر فى قيمته أو فى نشاطه أو فى جماله .

ثانيا – ابداء الشفقة بازاء المصاب بالعاهة . وهذا الموقف ربما تكون له آثار نفسيه أكثر فحشا وجسامة على نفسية صاحب العاهة . فتزيد مخاوفه من تأثيرها على حياته ومستقبله .

ثالثا – موقف اللامبالاة من العاهة . والواقع أن هذا الموقف ربما يكون أحسن المواقف بازاء العاهة التى أصيب بها الشخص . ولكن هل يصدق صاحب العاهة أن الناس من حوله لايعبأون بعاهته ؟ إنه يقرأ فى عيونهم غير ما يحاولون اظهاره له . ومن ثم فان هذا الموقف كثيرا ما يشعل نار الخوف فى نفسية صاحب العاهة بدلا من التخفيف عن كاهله .

رابعا – قد يعمد الناس من حول صاحب العاهة إلى الاستهزاء به وجعل عاهته محور سخريتهم وتسليتهم . والواقع أن بعض أصحاب العاهات قد ينضمون إلى المستهزئين بعاهتهم

ويجعلون منها مادة للاضحاك أو الكسب كما يفعل أحد المملثلين وهو أحول . ولكن السؤال هو : هل يحظى صاحب العاهة بالسعادة وهو يستهزىء بعاهته ؟ اننا نشك فى ذلك ونعتقد أنه يغلف خوفه من أثر عاهته بهذا الموقف المقلوب .

الخوف من أمراض الشيخوخة :

ارتبطت الشيخوخة فى اذهان كثير من الناس - ان لم يكن أغلب الناس - بالضعف والوهن من جهة . ويفقدان القدرة على التفكير السليم وضعف الذاكرة من جهة ثانية . وبالنقص فى الضبط الانفعالى وكبح جماح العواطف من جهة ثالثة . وبالعديد من الأمراض الجسمية إلى درجة عدم القدرة على التحرك فى المكان والانطراح على السرير بغير حراك وفقدان البصر والسمع أو ضعفهما ضعفا شديدا من جهة رابعة . وبالتالى الانزواء بعيدا عن الأضواء والعجز عن مواصلة النشاط فى الحياة من جهة خامسة .

وعلى الجملة فان الشيخوخة قد ارتبطت فى معظم الأذهان بالأفول والضياع وخيبة الأمل واليأس وتدهور الشخصية وانصراف الناس عن المرء ورغبة المحيطين به فى التخلص منه وتمنى موته فى أقرب وقت ممكن . وعلى الرغم من أن الإنسان بطبعه لايرغب فى أن يموت . فانه مع هذا لايتمنى أن يطول به العمر إلى الحد الذى تكون فيه الحياة كريهة ومفعمة بالبؤس والشقاء اللذين يحسهما كثير من الشيوخ الطاعنين فى السن .

ولعلنا نستعرض فيما يلى الأسباب التى تحمل الناس على الإحساس بالخوف من الشيخوخة الطاعنة فى السن :

أولا - ان الشيخوخة تعنى فى أنظار الخائفين منها فقدان الشخصية لقوة التأثير فى الآخرين وفى المجتمع بعامة . وبتعبير آخر فان الخائفين من الشيخوخة يخشون من أن يزاحوا من بؤرة الحياة إلى هامشها أو حتى إلى ما بعد ذلك الهامش . والواقع أنه بازاء هذه النقطة نجد نظرتين متباينتين : نظرة إلى حياة المرء ككل . أعنى إلى محصلة حياته . وفى ضوء تلك المحصلة يكون الحكم على الشخصية . حتى اذا كان ذلك الحكم صادرا من ذات الشخص على نفسه . ونظرة جزئية انفصالية تنظر إلى الحياة آنيا . وبتعبير آخر فان هذه النظرة الانفصالية تعزف عن ماضى الشخص وتركز النظر فى آخر مرحلة وصل اليها. فهذه النظرة تلغى الماضى مبقية فقط على الحاضر الآنى . ومعنى هذا فى الواقع أنه اذا كان الشخص متفائلا فانه ينظر إذن إلى حياته وحياة غيره بنظرة تكاملية حيث ينظر إلى محصلتها وبحيث يأخذ فى اعتباره الآثار التى تركها خلف نضاله كله طوال حياته حتى آخر لحظة فى عمره بالشيخوخة . أما اذا كان الشخص

متشائما . فانه يقصر نظره على النقطة الأخيرة من حياته وهى النقطة أو اللحظة المكللة بالضعف والوهن والمرض .

ثانيا - إن الشيخوخة تعنى فى نظر كثير من الناس الاستحالة مرة أخرى من حالة الاستقلال والاستغناء عن مساندة الآخرين المباشرة إلى مرحلة يصير المرء خلالها عيالا من جديد . ولكأن الشيخ قد صار طفلا رضيعا بحاجة إلى من يضع له الطعام فى فمه وإلى من ينظفه . ذلك أن بعض الشيوخ يصابون بالشلل أو يفقدون القدرة على ضبط التبول أو حتى التبرز . اذ أنهم يلازمون الفراش ليل نهار لا يبرحونه . فمثل هذا العجز عن خدمة الذات يقض مضجع أولئك الذين لم يبلغوا بعد الشيخوخة ولكنهم يتوقعون لأنفسهم مثل هذا المصير المشئوم . فثمة احتمال لبلوغه والتردى فيه . واذا كان الموت قبل الهرم هو الحل المنجى من هذا الحظ النكد . فهل الموت شىء يرتجى ؟ وأليس أمام المرء حلان كلاهما مر وليس ثمة مفاضلة بينهما ؟ فاذا كان الموت هو بعبع البشرية . أفلا تكون الشيخوخة بالتالى هى البعبع التوأم الذى لاتقل مخافته عن مخافة الموت ؟ والواقع أن هذا هو موقف المتشائمين من الشيخوخة . وهو الموقف المناقض للموقف الذى يقفه المتفائلون . فالمتفائلون ينظرون إلى الشيخوخة بنظرة استبشار . وهم يقولون إن المرض المقعد قد يصيب الإنسان فى أى مرحلة عمرية . ولكن مما لاشك فيه أن الإنسان يمكن أن يظل صحيحا لايعجز عن النهوض بالحد الأدنى من النشاط الذى يكفل له خدمة نفسه بنفسه بغير أن يكون بحاجة إلى مساعدة ومساندة . فمن الممكن أن يصير الشخص هرما وفى نفس الوقت يكون فى استقلال وعافية واستغناء عن خدمة الآخرين . انه يكون كالشمعة التى يظل ضوؤها ثابتا راسخا إلى آخر لحظة تضىء فيها . فلا خوف اذن من الشيخوخة فى نظر المتفائلين .

ثالثا - إن كثيرا من الناس يخافون من هتر الشيخوخة أو تخريفها . وبتعبير آخر إنهم يخافون من الجنون . ولاشك أن معظم الناس يخافون من الاصابة بالجنون فى أى مرحلة عمرية بما فى ذلك مرحلة الشباب ذاتها . ولعل من يصابون بمرض الفصام من الشباب يزيدون عددا عن الذين يصابون بالهتر من الشيوخ . بيد أن الخائفين من الجنون فى الشيخوخة يخافون أيضا من ضياع ذاكرتهم بحيث لايتسنى لهم التعرف على أقرب وأحب الناس إلى قلوبهم . أليس من المخيف حقا أن يصير المرء غريبا بين أهله وأحبائه فلا يتذكر أى واحد منهم ؟ ألا يصيب فقدان الذاكرة أو ضعفها المرء بخيبة الأمل وفقدان الثقة بنفسه . بل ويصيبه بالاحتقار لعقليته ؟ وهكذا نجد المقبلين على الشيخوخة - أو حتى بعض الشباب - يتوجسون خيفة من هذا المصير

المؤلم الذى يفقدون فيه قدرتهم على التحكم فى ذكريات الماضى لأنهم يفقدون القدرة على السيطرة عليها والحفاظ بها وذكرها عندما تعوزهم الحاجة إلى ذلك .

رابعا – والخوف من الشيخوخة يتبدى أيضا فى أنها مرحلة مغلقة موصودة الباب . انها مرحلة أخيرة ليس بعدها مرحلة أخرى تجعل ثمة رجاء للشيخ . ولكن الواقع أن المؤمنين بالله والآخرة يعتقدون بصدق أن الشيخوخة مرحلة سابقة على مرحلة أخرى سعيدة هى المرحلة الأخروية . فالموت التالى للشيخوخة ليس فناء ، بل هو انتقال من مرحلة ارضية إلى مرحلة أخرى سامية هى المرحلة السمائية . ففى هذه المرحلة الاخيرة يتجدد الشباب ويتفتح باب الرجاء أمام الإنسان التقى الذى عاش فى خوف الله وطاعته . إنه يخلص من هذا العالم بما فيه من أسقام وأوجاع ويذهب إلى عالم مفروش كله بالورود والرياحين . فهو عالم خال من كل هم ومن كل ازعاج أو مضايقة .

خامسا – ان الشيخوخة ترتبط فى أذهان كثير من الناس بالعوز والفاقة والحاجة ماليا إلى الآخرين . فبعد أن كان الأب هو الذى يعطف على أبنائه ويهبهم من ماله ، فانه ينتظر عطف أبنائه وبناته عليه ، ويتوقع ما يجودون به عليه . ناهيك عن أن أمراض الشيخوخة بحاجة إلى مصاريف علاج كثيرة قد ينوء بها كاهل الشيخ ويعجز عن الوفاء بها جيبه . والواقع أن الأعمال التى يضطلع بها كثير من الناس لا تخضع لنظام المعاشات والتأمينات . فمثل أولئك الناس الذين لايجدون فى شيخوختهم القوة والعافية لمواصلة العمل للكسب . يلجأون فى نهاية المطاف إلى التسول فى الشوارع ويترددون على المقاهى يستجدون ويستدرون عطف الناس عليهم . وانك لتقابل فى الطرقات شخصيات ران عليها الحزن والكآبة من الشيوخ الذين تطالبك أعينهم بالعطف عليهم ومد يدك فى جيبك لمساعدتهم وأنت لا تعلم تاريخهم وأى عز وجاه كانوا يتمرغون فيه . لاشك أن الكثير من الناس لم يؤتوا الحكمة التى تجعلهم ينظرون إلى مستقبل حياهم وإلى مرحلة الشيخوخة فيدخرون لها حتى لايحتاجوا إلى من يحسن إليهم ويعطف عليهم باللقمة يتبلغون بها . أفليست الشيخوخة اذن بأمراضها وأحوالها مرحلة مخيفة حقا ؟

لاشك أن ما يسوقه المتشائمون من حجج تبرر ما يدور بخلدهم من توجس وخوف من هذه المرحلة تعد حججا وجيهة ، ولكن الواقع أن الكثير من المخاوف والتوجسات يمكن التغلب عليها بشرط أن يتبصر الشاب والكهل بالمستقبل ، ولايقصر نظره على حاضره فينعم به مغمضا عينيه عن الأيام والسنوات المقبلة . صحيح ان الشيخوخة مرحلة تبعث على الخوف . ولكن السؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا هو : هل الخوف الذى نحس به قبالة الشيخوخة يحملنا على التفكير فيها والتغلب على صعابها ، أم أنه الخوف الذى يثير فينا اليأس والابتئاس منها فنقف

قانطين غير قادرين على أن نحرك ساكنا بازائها ؟ لاشك أن المتشائمين هم أولئك الذين يخافون فييأسون . ولاشك أيضا أن المتفائلين هم أولئك الذين يخافون فيعملون عقولهم فى الموقف وفيما يحمله لهم المستقبل . بل هم الذين يجعلون من خوفهم وظيفة للاحتراز والاحتراس والتخفيف من وطأة المستقبل والتغلب على ما قد يحمله معه من متاعب . أليست مرحلة الشباب ومرحلة الكهولة بمثابة حلقتين استعداديتين لمرحلة الشيخوخة ؟ فلماذا لا يعمل المرء حسابه لها حتى يلاقيها بترحاب ويكون قد وفر لنفسه عوامل الصحة والوفرة والقوة النفسية التى يتغلب بها على عقبات هذه المرحلة العمرية ؟

الخوف من الأمراض السرطانية :

الأمراض السرطانية كثيرة ومتباينة . وهى من الأمراض التى تقض مضاجع كثير من الناس فى هذه الأيام . وما تزال البحوث على قدم وساق رجاء التمكن من الوقاية من الاصابة بها ، ورجاء العلاج منها اذا ما أصيب المرء بها . وما تزال هذه الأمراض مشمولة بالغموض والرهبة فى أنظار معظم بلاد العالم . وما نزال نقرأ عن العديد من التحذيرات التى يعتقد أنها تسبب الاصابة بتلك الأمراض . فثمة من يقولون إنها تحدث بسبب تلوث البيئة بعادم السيارات والمصانع . وثمة من يقولون إنها تزايدت مع تزايد التجارب النووية . وبعض الناس يقولون إن استخدام الأوانى المصنوعة من الألمنيوم تشكل سببا فى الاصابة بتلك الأمراض أو ببعضها . ومن الناس من يقولون إن ارتداء الملابس المصنوعة من الألياف الصناعية يسبب الاصابة بها . وبعض علماء النفس يقولون إن من بين أسباب الاصابة بتلك الأمراض ما قد يتعرض له المرء من حزن أو اكتئاب أو عندما يتعرض للانفعالات الشديدة . وعلى الجملة فان الآراء كثيرة متباينة حول أسباب الاصابه بتلك الأمراض السرطانية .

أما الجهات الطبية ومراكز البحوث فى جميع أنحاء العالم فانها تجرى البحوث المستمرة والمتدفقة بقصد التوصل إلى عقاقير وقائية وإلى عقاقير علاجية يمكن بواسطتها التخلص من براثن تلك الأمراض الخطيرة التى تهدد الملايين من البشر والتى يستفحل أمرها وتزداد رقعتها سنة بعد أخرى ، بل وتتزايد فصائلها وتتعقد وتتنوع مما يهدد البشرية بالالآم الشديدة التى تصاحب الإصابة بها . ومن المتوقع أن العلماء سوف ينجحون فى نهاية المطاف فى القضاء على تلك الأمراض ، أو فى القضاء على نسبة كبيرة منها على الأقل . ولكن من المؤسف أن الأمراض بعامة تشن حربا ضد البشرية لعلها تكون أخطر وأفعل من الحرب التى تشنها البشرية عليها . فالأمراض السرطانية مثلا تتحصن وتتزايد عددا ونوعا بحيث تدخل فى

مناورات وتكتيكات دقيقة نخشى أن نقول إنها أنجح وأدهى من المناورات والتكتيكات التى يترسمها العلماء ويصطلعون بها .

ولعلنا فيما يلى نقوم باستعراض الأسباب التى تجعل الناس يخافون بشكل رهيب من الاصابة بأحد تلك الأمراض السرطانية على النحو التالى :

أولا – إن هذه الأمراض تبدأ على هيئة أورام عادية ومستخفية وغير مؤلمة ولكنها ما تفتأ تتزايد حجما وايلاما بحيث تزحف على الجسم من النقطة التى بدأت منها فتجعل المصاب بها فى جحيم من العذاب الأليم . فالمصاب يزداد احساساً بما يعانيه من الألم والوجع إلى الحد الذى يطلب معه الموت فلا يجده . ولقد يضطر بعض المصابين إلى الانتحار هربا من شدة الألم وعجزا عن الاستمرار فى تحمله .

ثانيا – إن من يصاب بتلك الأمراض يصاب فى نفس الوقت باليأس من الشفاء مهما حاول المحيطون به طمأنته وبث الأمل فى قلبه بأنه سيحظى بالشفاء . وحتى عندما يحاول الطبيب المعالج اقناعه بأن حالته ليست خطيرة أو بأن المرض المصاب به ليس من الأمراض الميئوس من علاجها ، فانه لايكاد يصدق حتى وان هو حاول ذلك . فهذا المرض وما يحيط به من سمعة رديئة للغاية قد أفعم القلوب باليأس من الشفاء منه اذا ما أصيب به الانسان .

ثالثا – إن من طبيعة تلك الأمراض السرطانية أنها تبث فى المصاب بها حالة من الاكتئاب والارتماء فى حمأة اليأس . ذلك أن تلك الأمراض لا تصيب الجسم فحسب . بل هى تصيب الإنسان ككل متكامل . ولقد سبق أن قلنا إن من بين أسباب الاصابة بتلك الأمراض ما يعتور حياة الشخص النفسية من انقباض أو اكتئاب أو يأس أو انفعال . فالطريق اذن مفتوح فى هذه الأمراض بين الجسم والنفس ، بمعنى أن الجسم يؤثر فى الحالة النفسية . كما أن الحالة النفسية تؤثر فى الجسم سواء بسواء .

رابعا – إن المريض بواحد من هذه الأمراض السرطانية يكون خاضعا لمجموعة كبيرة من الهواجس والعواطف المتضاربة بازاء المحيطين به . فالى جانب ما يستشعره من عطف وحدب يتلقاهما من ذوية ، فانه يحس فى نفس الوقت بما يحسون به من يأس وقنوط من شفاء حالته . فهل هم يتمنون له الموت ، ويتوقعون اللحظة التى يرحل فيها عنهم كضيف ثقيل . أم أنهم يظلون متمسكين بوجوده مهما كانت الأحوال ومهما تجشموا فى سبيله من تعب وخدمة وسهر وقيام على تلبية مطالبه الكثيرة والملحة ؟ إنه يكون فى مهب مجموعة من العواطف المتضاربة . انه فى بعض اللحظات يعتقد أن المحيطين به يحبونه لشخصه وأنهم على استعداد لتحمل التعب مهما كان طالما أن فى بذلهم ما يخفف عنه بعض ما يعانيه من الآم . ولكنه فى لحظة أخرى يحس بأن

أحباءه قد بدأوا فى التبرم بوجوده ويتمنون له الموت فى أقرب وقت حتى يفيقوا لأنفسهم . وحتى تستقر حياتهم بغير تعب أو بذل أو سهر أو مضايقة .

خامسا — ان الاصابة بتلك الأمراض معناه نهاية العالم بالنسبة للمريض . أو بتعبير آخر انها تعنى انتهاء الأهداف وتبخر المطامح وتلاشى أى أمل كان معقودا على أى شيء أو على أى شخص . فالمريض بها حى ميت أو هو فى الواقع ميت ما تزال به نسمة من حياة . فكيف والحال هذه يستطيع مثل هذا الشخص أن ينظر بأى بارقة من الأمل فى لحظة قادمة . أو أن يتطلع إلى خطوة واحدة إلى الأمام ؟ فالدنيا تظلم فى عينيه ولا يرى فى نهارها سوى السواد الكالح واليأس المرير والقبر الوشيك الذى يتهيأ لابتلاعه فى قراره إن كان له قرار على الاطلاق .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن ردود الفعل المتباينة التى تصدر عن مختلف الأشخاص الذين يعلمون أنهم مصابون بأحد الأمراض السرطانية فى المراحل الأولى للاصابة به . اننا نستطيع تخيص ردود الفعل تلك على النحو التالى :

أولا — استيلاء اليأس على المريض وتفكيره فى الانتحار والتخلص من مشوار المرض المصحوب بالآلام الشديدة التى تنتظره حتى آخر لحظة فى حياته . والواقع أن بعض المرضى اليائسين يفكرون فى الانتحار بغير أن يتمكنوا من تنفيذ ما يراودهم وذلك بسبب عجزهم عن القيام بذلك أو بسبب خوفهم من الموت . ولكن البعض منهم ينجحون فى القفز من الحياة إلى الموت باعتبار أن الحياة والموت حالتان متناقضتان تمام التناقض . فليس هناك تدرج بين الحياة والموت . ذلك أن أشد حالات المرض — وحتى لحظة الاحتضار — تعتبر حياة . وبالتالى فانها تناقض الموت .

ثانيا — مقاومة المرض والمواظبة على العلاج وانتظار لحظة الشفاء . وهذه الفئة التى تقدم هذا النوع من ردود الفعل يعلق أفرادها رجاءهم على ما تسنى للطب من تقدم فى هذا المضمار . ناهيك عن أن بعضهم يؤمنون بالمعجزات . فلماذا لا تحدث معهم المعجزة ويفوزون بالشفاء ؟

ثالثا — أما النوع الثالث من ردود الفعل فانه نوع روحى . فالمصاب بالسرطان من هذه الفئة يثق أنه مائت لامحالة . ولكن أليست هذه فرصة عظيمة يغتنمها لتنقية النفس من براثن الخطايا والتطهر تطهرا تاما من المعاصى التى ارتكبها ؟ إنه اذن يكرس الفترة الباقية من عمره للتعبد والتأمل ولعمل الخير لعله بهذا يقترب من حالة الطهر الكامل التى تؤهله للانخراط مع الأبرار والصديقين .

رابعا – والاستجابة الرابعة هى الاستجابة الواقعية التى بمقتضاها يكون الشخص فى موقف واقعى تماما من مرضه . فالمرض فى نظره لايعدو أن يكون حالة كغيرها من الحالات التى تعتور الإنسان . فعليه إذن أن يتقبلها . وعليه بالتالى أن يتدبر أموره . فالفترة المتبقية من حياته هى فترة ترتيب للأمور كمن سيغادر البلاد إلى غير رجعة . إنه إذن ينظم أعماله ويسلم المقاليد لزوجته وأبنائه ويذلل أمامهم كل الصعوبات التى يمكن أن تجابههم بعد موته . فموقف الواحد من هذه الفئة الواقعية هو موقف المدبر والمنظم والمرتب . أو قل إنه موقف من يسلم العهدة قبل فوات الأوان .

خامسا – أخيرا نجد رد فعل المتلذذين والمودعين للحياة قبل أن تفلت منهم . فالواحد من هذه الفئة يقبل بنهم على الجنس والخمر والمخدرات . ولعل لسان حاله يقول « طالما أنى هالك لا محالة فلماذا أحافظ إذن على جسدى من ضرر يمكن أن يلحق به اذا ما أدمنت فى أمور الجنس والخمر والمخدارت ؟ على اذن أن أكون كواحد من الكلبيين الذين يتلذذون إلى أقصى درجة ممكنة من التلذذ . » فموقف المتلذذين من هذه الفئة المريضة هو موقف اليائسين الذين يغتنمون الفرصة بالتهالك على ملذات الحياة قبل فوات الأوان وقبل أن تضيع الفرصة وينتهى الأجل . فملذاتهم هى ملذات المتقمين الناهبين للمتعة .

جنون الخوف من المرض : Noso - Phobia

من الطبيعى أن يخاف الانسان العاقل من أن يصاب بالمرض . ولكن قد يخرج هذا الخوف من نطاق السوية إلى نطاق المرض النفسى اذا ما اتصف بحالة أو بأكثر من الحالات الآتية :

أولا – اذا ما صار ذلك الخوف شاملا لجميع مناشط الشخصية . أو بتعبير آخر عندما تتمركز مناشط الشخصية بأسرها فى بؤرة واحدة هى بؤرة الخوف من الاصابة بالمرض . فالمريض بالخوف من المرض لايكاد يستطيع أن يمارس مناشطه اليومية . بل يجد أن فكرة الاصابة بالمرض قد سيطرت عليه فتشل نشاطه وتحول بينه وبين انجاز أعماله التى كان ينجزها قبل إصابته بذلك المرض النفسى .

ثانيا – عندما يحول هذا المرض بين المريض به وبين إقامة علاقات اجتماعية عادية مع الآخرين . أو الاستمرار فى العلاقات الاجتماعية التى سبق له إقامتها مع غيره . وانك لتجد المصاب بهذا المرض النفسى يقطع علاقاته حتى مع أقرب الناس إليه ، لدرجة أنه قد ينكمش على ذاته ويتقوقع فى أضيق نطاق ممكن .

ثالثا – المبالغة فى اتخاذ الاجراءات الوقائية من الاصابة بالعدوى بالأمراض المعدية . من ذلك مثلا المبالغة فى غسل اليدين بعد استخدامهما فى المصافحة بالأيدى . ومن ذلك أيضا

المبالغة فى غسل الأوانى وتنقية الماء أو غليه لمدة طويلة ثم تقطيره . إلى غير ذلك من وسائل تعتبر مبالغة فى الاحتياط من الاصابة بالعدوى بالأمراض المعدية .

رابعا – القيام بطقوس من صنع عقلية المريض السحرية تشبه الطقوس السحرية ، وهى طقوس خلو من المعنى والوجاهة . من ذلك مثلا أن يعتقد المريض بالخوف من الاصابة بالمرض أنه اذا ألقى رجلا إلى أخرى فى أثناء تناوله للطعام فان الميكروبات التى قد تكون موجودة ومستشرية فى ذلك الطعام الذى يتناوله وهو فى هذا الوضع لاتستطيع أن تغزو جسمه . فالطقس السحرى المرضى لايرتبط هنا من قريب أو من بعيد بالوقاية من الإصابة بالمرض المعدى . ولكن عقلية المريض النفسى السقيمة هى التى تحمله على مثل هذا الاعتقاد وغيره من معتقدات طقسية فردية لا اساس لها من المعتقدات السحرية الأنثروبولوجية التى تأخذ بها بعض المجتمعات البدائية أو بعض المجتمعات المعاصرة .

خامسا – توهم الاصابة بأحد الأمراض بالفعل واستشعار أعراضه المتباينة إلى درجة أن الطبيب المعالج قد ينخدع فى تشخيصه ويقرر أن الشخص مصاب فعلا بالمرض الذى يقوم بوصف أعراضه له بغير أن يعلم أن ما يحسه ذلك المريض من أعراض إنما هو من صنع خياله المريض وليس له أى أساس من الواقع الفعلى فى حياته . بيد أن المريض النفسى يكون فى الواقع صادقا مع نفسه ومع طبيبه ولا يكون مخاتلا أو مخادعا . ذلك أن اللاشعور فى هذه الحالة يكون هو المسيطر على سلوك المريض بحيث يكون الاقتناع والإيمان كاملين فى ضوء ما يمليه اللاشعور عليه من أفكار أو هواجس .

ولعلنا بعد هذا نقوم بمدارسة الأسباب والعوامل التى تؤدى إلى بزوغ هذا المرض النفسى لدى المصابين به . ونستطيع أن نحدد تلك الأسباب والعوامل فيما يلى :

أولا – أسباب جنسية : فقد يتوهم المراهق أو المراهقة أن التغيرات التى تقع لهما فى البلوغ كالحيض عند الفتاة والاستمناء عند المراهق أن تلك الأعراض الجنسية انما هى مرض قد أصابهما بطريق أو بآخر . ومن ثم فأن المسألة تكبر فى خيالها نتيجة الكتمان وعدم الافصاح لأحد بما حدث لهما وشرح ما يحسان به وما طرأ على حياتهما من تغير . ولاشك أن التكتم المحيط بأمور الجنس فى بعض البيئات يجعل تلك التغيرات الجسمية شيئا خطيرا يظن المراهق والمراهقة أنها أمراض فتاكة قد حاقت بهما وأن مآلها الموت لا محالة . وليس بعجيب أن تترسب تلك المشاعر فى النفس بحيث يسيطر على ذهن المراهق والمراهقة الخوف من الاصابة بالمرض بعامة حتى بعد أن يكبرا ويكتشفا الحقيقة وهى أن التغيرات الجسمية التى انتابتهما فى المراهقة كانت من

الظواهر الطبيعية وليس لها أية صلة من قريب أو من بعيد بالعدوى أو بالاصابة بأى من الأمراض الجسمية .

ثانيا – أسباب سلالية : لقد يجول بخاطر أحد الأشخاص أنه نازل من سلالة خسيسة واهنة ومريضة . وربما يكون ذلك الاعتقاد ناشئا عن حديث دار بين الوالدين فى الطفولة الباكرة لذلك الشخص الذى صار مريضا بالخوف من الاصابة بالمرض . فما ترامى إلى سمعه فى طفولته الباكرة يمكن أن يتخذ له أساسا كخميرة تقوم بتخمير أفكاره كلها بحيث تتبلور كل عواطفه وكل ما يدور بخلده من معتقدات واتجاهات حول هذا المحور . أعنى أن أسرته مصابة بكاملها بالأمراض المتعددة . ولقد نجد أن مثل هذا الاعتقاد قد استشرى فى عقول وقلوب جميع أفراد تلك الأسرة بالفعل بحيث يكون قد صار أساسا اعتقاديا راسخا فى عقولهم وقلوبهم جميعا . وفى مثل هذه الحالات يكون هذا المرض قد عم وانتشر فى جميع أفراد الأسرة . وقد يفسر أفراد تلك الأسرة عداء الجيران لهم أو إشاحتهم عنهم وتجنبهم . إلى كونهم مرضى وقد صاروا بوزة للأمراض التى يمكن أن تنتقل اليهم . وفى هذه الحالات يكون الاحساس بالاضطهاد مرتبطا ارتباطا وثيقا بالاحساس بالخوف والهم من أن تكون الأسرة بكاملها مصابة بالأمراض التى تحمل الناس على الهرب والتجنب والفرار من مصدرها .

ثالثا **أسباب تربوية** : لقد نجد إحدى الأسر تتخذ لها بؤرة تربوية تدير حولها كل أو معظم توجيهاتها التربوية للأطفال تتمثل فى الاصابة بالمرض . فيقال للطفل « لا تلعب فى التراب لئلا تصاب بالمرض . ولا تجلس فى الشمس لئلا تصاب بالمرض . ولا تلعب مع الأطفال القذرين لئلا تصاب بالمرض . ولا ولا ولا » وفى المراهقة وقبلها يحذر الاطفال من العبث بأعضائهم التناسلية حتى لايصابوا بالمرض . ونحن بالطبع لا نعترض على توجيه الوالدين لأبنائهم ولا على تحذيراتهم لأطفالهم ومراهقيهم من أن يصابوا بالمرض . ولكن الذى نعترض عليه هو جعل التخويف من الاصابة بالمرض هو المحور الرئيسى أو حتى المحور الوحيد فى تربيتهم . إن جعل محور التربية الوحيد هو التحذير من الاصابة بالمرض قمين بأن يصيب الأشخاص الذين ينشأون فى هذا المناخ التربوى الفاسد بالخوف من المرض وينحرف بهم عن اطار السوية النفسية إلى المرض النفسى المتمثل فى الخوف من الاصابة بالأمراض المتباينة .

رابعا – قد تكون الاصابة بالخوف المرضى من الاصابة بالمرض ناجمة عن اصابة الشخص بالجوع العاطفى . فهو يكون بحاجة إلى أن يحظى بحب الآخرين وحدبهم عليه . فثمة بعض

الناس يكونون قد حرموا فى طفولتهم من عطف الكبار عليهم . فالواحد من أولئك الناس المحرومين من العطف عليهم يصيرون جياعا وعطاشا إلى حب الآخرين لهم وعطفهم عليهم . ومن ثم فانهم يخلقون لأنفسهم لاشعوريا محاور أو تعلات تثير عطف المحيطين بهم عليهم . ولعل من أفضل تلك المحاور أو التعلات التى تصلح لاثارة عواطف الناس وشفقتهم هو ذلك المحور أو هذه التعلة ، أعنى ادعاء المرض . بيد أن هذا الادعاء يكون صادرا عن اللاآشعور . فاللاآشعور هو مصدر ذلك الادعاء ، بينما يكون الشعور أو الوعى صادقا فيما يعلنه على الآخرين . والخوف هنا هو خوفان فى الواقع : خوف من المرض الذى يحسه المريض الواهم وما سوف يجره عليه من أسقام وأوجاع ، وخوف من أن يصاب بأمراض جديدة لا يستطيع استبانتها والتعرف على كنهها . فالمريض يخشى من الاصابة بالمرض المجهول الذى هو فى الواقع أخطر الأمراض جميعا .

خامسا – قد يكون الخوف المرضى من الاصابة بالمرض وسيلة لاشعورية هروبية ينتحلها لاشعور الشخص لتمكينه من الهرب من تحمل بعض المسئوليات التى يخشى من مغبة تحملها . فالموظف الذى يصاب بمثل هذا المرض النفسى يكون من حيث واقعه اللاآشعورى راغبا فى أن يهرب من مسئوليات وظيفته . وقل نفس الشيء بالنسبة للطالب الذى يرغب لاشعوريا فى الهرب من مواصلة دراسته . إن انتحاله اللاآشعورى بالتعرض للاصابة بالمرض ، أو خشيته من ذلك يحمله على تجنب جميع الناس والانقطاع عن المدرسة أو الجامعة . فاذا ما سئل عن سبب ذلك فانه سرعان ما يجيب بأنه كلما انخرط فى ركب التلاميذ أو الطلاب ، فانه يصاب بالعديد من الأمراض . ومن ثم فان الحل الوحيد أمامه للحفاظ على نفسه من الاصابة بالعدوى أن ينقطع عن الدراسة وإن يلازم بيته .



الموت أخوف ما يخيف الانسان

الفصل الرابع عشر
الخوف من الموت

غموض الموت

ألمحنا قبل ذلك إلى أن العلاقة بين الحياة والموت هى علاقة تناقض . والتناقض فى المنطق غير التضاد . ففى التضاد نجد أن الجسر قائم بين المتضادين كما هو الحال بالنسبة للبياض والسواد . فثمة تدرج لونى بين البياض والسواد ، بمعنى أن أسود السواد فيه بعض البياض ، كما أن أبيض البياض فيه بعض السواد . وتستطيع أن تخفف من البياض بأن تدخل عليه بعض السواد ، أو أن تخفف من السواد بأن تدخل عليه بعض البياض . أما المتناقضان فلا يوجد بينهما جسر يمكن عبوره . ومن أمثلة التناقض العلاقة القائمة بين الوجود والعدم . فالشئ إما أن يوجد واما أن يكون غير موجود على الاطلاق . فإذا قلنا مثلا إن الفضاء الخارجى خلو من الهواء ، فإننا نعنى أنه لا يوجد به هواء على الاطلاق وإذا زعم أحد علماء الفضاء بأن الفضاء الخارجى به قليل جدا من الهواء ، فإننا لا نستطيع عندئذ أن نقول إنه فضاء خال من الهواء . فالكثرة أو القلة لا يؤثران فى الحكم بالوجود أو بعدم الوجود

وكذا الحال بالنسبة للعلاقة القائمة بين الحياة والموت . فالكائن الحى إما أن يظل حيا واما أن يموت . فإذا تعرضنا لانسان محتضر وقد قارب الموت جدا ، فإننا لا نستطيع وصفه بأنه ميت . لا بد من وصفه بأنه حى رغم أن الحياة التى به ضعيفة جدا وعلى وشك الانتهاء . فلا يوجد تدرج على الإطلاق فيما بين الحياة والموت . واذا زعم زاعم بأن المرض هو الكوبرى القائم بين الحياة والموت ، فإننا نعترض قائلين إن المرض لا يعدو أن يكون حالة عارضة أو مصاحبة إذا أن المرض ليس من طبيعة الحياة ، كما أنه ليس من طبيعة الموت . فأنت لا تستطيع أن تقول إن المرض كالبياض أو السواد . فأنت تستطيع أن تضيف بعض البياض إلى السواد ، كما أنك تستطيع أن تضيف بعض السواد إلى البياض . فما تضيفه هو ذاته من طبيعة أحد طرفى المتضادين : البياض والسواد . فأنت لا تحضر شيئا ثالثا إلى البياض والسواد ، بل ترجح كفة أحدهما على كفة الآخر بالإضافة والتكثيف .

ونحن الأحياء لم يسبق لنا أن خبرنا الموت . فالموت بالنسبة لنا ليس كالمرض . من هنا فإن خوفنا من الموت أشد بكثير من خوفنا من المرض . ذلك أن العلاقة بين الصحة والمرض

كالعلاقة بين البياض والسواد . فشدة الصحة أو تمامها تشبه البياض ، وشدة المرض تشبه السواد . فثمة قنطرة قائمة فيما بين الصحة والمرض . ولكن الحال ليس كذلك فيما بين الحياة والموت . لذا فإن رهبة الموت هي رهبة لا تعدلها رهبة . ولعل السبب الرئيسي الذي يجعلنا نخاف من الموت هو ذلك الغموض الذي يكتنفه. بيد أن الإنسان لم يقف مكتوف اليدين أو موقوف الفكر بازاء الموت ، بل إن الحضارات الانسانية قد انتحت إلى مجموعة من التفسيرات وذلك حتى تضع حدا للقلق من ذلك الغموض الذي يحيط بالموت . ولعلنا فيما يلي نلقي ببعض الأضواء على تلك التفسيرات .

التفسير الأول – الموت فناء :

فالفلاسفة الماديون أو الوضعيون اعتبروا الموت ليس سوى انعدام الحياة . فإذا ما شبهنا الحياة بالنار المشتعلة في الشمعة ، ثم انطفأت تلك الشمعة ، فإننا لا نصف انطفاء الشمعة بالوجود بل بالعدم . فليس هناك شيء اسمه الانطفاء كوجود موضوعي ، بل إن استخدامنا لكلمة « انطفاء » يعني « الاختفاء » فالوجود لا يناط إلا بالنار المشتعلة بالشمعة . أما حالة ما بعد الانطفاء فإنها ليست سوى انمحاء الوجود . والموت في فلسفة الماديين ليس سوى انعدام الحياة . فجثة الميت لم تعد كائنا حياً ، بل إنها من الجمادات شأنها شأن الحجارة والمياه والطين. وطبيعي أن هؤلاء الماديين لا يعترفون بوجود شيء يبقى من الشخص الميت كالروح مثلا . فانتهاء الحياة في نظرهم هو فناء . والانسان في هذا شأنه شأن النباتات والاسماك والطيور وجميع الحيوانات التي تدب على الأرض .

التفسير الثاني : – الموت نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة من الوجود :

وفي مقابل النزعة المادية نجد النزعة الروحانية واعتبار الانسان كائنا فريدا متميزا من جميع الكائنات الحية الأخرى . فالانسان ليس كالنبات أو كالأسماك والطيور وباقي الكائنات الحية الأخرى . إنه مخلوق فريد في نوعه. إنه كائن يجمع في نطاقه الخصائص الحيوانية من جهة ، والصفات الروحانية من جهة أخرى والجانب الحيواني يموت مثلما تموت الكائنات الحية المتباينة . أما الجانب الروحاني فإنه خالد لا يموت . فالموت في نظر أولئك المؤمنين بالخلود ليس سوى انتقال من حالة أرضية إلى حالة سماوية . وحتى بالنسبة لموت الجسد ، فإن ذلك الجسد نفسه سوف يلتئم شمله من جديد في القيامة ونقوم بأجسادنا حتى وان تغيرت طبيعة الجسد . فالموت في أنظار الروحانيين بمثابة زراعة . فنحن بالموت نزرع كما تزرع البذور ثم يظهر النبات الذي هو في الواقع شكل من أشكال تلك البذور . فالأجساد التي نقوم بها في القيامة ستكون أجسادا نورانية غير قابلة للزوال . وهنا نلاحظ أن موقف أولئك الروحانيين هو موقف تفاؤلي

بالنسبة للأخيار ، بينما هو موقف تشاؤمى بالنسبة للأشرار الذين سوف يلاقون بأجسادهم وأرواحهم الشريرة عذابا مؤبدا فى جهنم وبئس المصير .

التفسير الثالث – التفسير الأفلاطونى :

إننا نجد أن أفلاطون قد فسر الحياة والموت على نحو يبدو مقلوبا . إنه اعتقد أن حياتنا على الأرض ليست هى الأصل ، بل الأصل فى الحياة ما كان قبل أن نهبط على هذه الأرض . فالحياة الحقيقية كانت لنا قبل نزولنا إلى ما أسماه أفلاطون بالكهف. فنحن أشبه بأناس فى داخل كهف عميق . إنهم يشاهدون على جدار ذلك الكهف أخيلة الناس السائرين فى الخارج . فما تقع عليه أبصارهم على الجدار ليس الحقيقة ، بل شبه الحقيقة . أما الحقيقة فإنها مع الآلهة عندما كان الانسان يعيش فى أحضانها قبل أن يهبط إلى هذه الأرض وقبل أن ينحبس فى هذا الكهف . ولعل أفلاطون قد قصد بالكهف جسد الانسان الذى ليس له سوى خمس نوافذ هى حواسه الخمس يقف بها على ما حوله من أشياء وأحداث . فإذا ما إستطاع الانسان أن يتحرر من كهفه – أى جسده – فإنه سوف يعود إلى ما كان عليه قبل أن يسجن فى ذلك الكهف . ولكى يتسنى للإنسان أن يعود إلى سابق عهده من بصيرة نافذة ، فإن عليه أن يتخلص من براثن الجسد وأن يصير حكيما فيلسوفا . فالموت اذن فى نظر أفلاطون هو الوسيلة الوحيدة للخروج من إطار الجسد الذى يعد فى نظره بمثابة سجن . ولكن لكى يكون خروجه سليما ومفضيا إلى أحضان الآلهة ، فلا بد من ممارسة مجموعة من التدريبات والتأملات الفلسفية .

واذا نحن تناولنا المسألة من زاوية مدى الاحساس بالخوف من الموت ، فإننا نجد مجموعة من المواقف نعرضها على النحو التالى :

الموقف الأول : الحياة هى جوهر الوجود :

فمن الطبيعى أن يحس المرء الخوف من الموت ويتشبث بالحياه . والذى يتخذ هذا الموقف يغمض عينيه عن حقيقة لازبة هى الانتهاء فى القريب العاجل أو فى البعيد الأجل إلى الموت بطريقة أو بأخرى . ولكن المتشبثين بالحياة يعتبرون الموت حادثة دخيلة على الحياة . فالأصل عندهم أن يظل الانسان بغير أن يموت . فإذا مات فإن الموت يكون فى نظرهم شيئا غريبا وكأنه شئ لم يكن له أن يقع .

الموقف الثانى : الفناء هو جوهر الوجود :

وهذا الموقف يتناول الموت باعتباره حدثا عاما لا مفر منه . فطالما أنه يشمل الجميع ، فلا لزوم اذن للهلع منه ، بل يجب اعتباره مسألة طبيعية كميلاد المرء تماما . فالموقف هنا موقف

تقبلى تسليمى . فالمتخذون لهذا الموقف يعتقدون أن الهالة المحيطة بالموت إنما هى هالة مصطنعة نتيجة عوامل تربوية وحضارية فحسب .

الموقف الثالث : الموت قنطرة إلى الخلود :

فلابد من تحدى الموت الجسدى بل والفرح به والشعور بأنه انتقال فحسب إلى أحضان الحياة الحقيقية التى نترجاها . فليس هذا الوجود الأرضى سوى فترة أو مرحلة استعداد لحياة مؤبدة . فطالما أن المرء قد استعد لاجتياز الامتحان فإنه يجب أن يفرح وأن يحارب ما قد يستشعره من خوف بتجاه الموت ، لأن الموت بالنسبة للمؤمنين يكون بمثابة تحرر من القيود والبراثن والأصفاد الأرضية وانطلاقا إلى الحرية الروحية فى نعيم لا ينتهى فى الفردوس السمائى .

لحظات الاحتضار :

أكدنا وما نزال نؤكد أن العلاقة بين الحياة والموت هى علاقة تناقض اذ أنه لا توجد حالات وسط بينهما . فالحياة مباينة للموت تمام التباين ولا لقاء بين هاتين الحالتين الجوهريتين : حالة الحياة من جهة ، وحالة الموت من جهة أخرى . ومن هنا فإن الانتقال من هذه الحالة التى يكون المرء فيها حيا الى تلك الحالة التى يكون فيها ميتا يكون انتقالا خطيرا فى خبرة المرء . ومهما حاولنا أن نصف تلك النقلة من حالة إلى حالة أخرى مناقضة لها فإننا نعجز عن الوصف . ذلك أن ذلك الانتقال لا يكون بالمرور على قنطرة قائمة بين الحياة والموت ، بل يكون بالقفز المفاجئ إلى حالة جديدة تماما .

ونحن لا نستطيع أن نصف لحظات الاحتضار بأنها حالة بينية تقع بين الحياة والموت ، ولا نستطيع أن نقول إن تلك اللحظات هى القنطرة القائمة بين الحالتين ، بل نستطيع أن نقول إن تلك اللحظات تشكل الاستعداد الجبرى للقفز من الحياة إلى الموت . فسواء أعد المرء نفسه لتلك القفزة أم لم يعد نفسه لذلك ، ، فإنه سيقفز لا محالة . والأمر هنا شبيه بشخص وقف على منصة عالية يقفز منها السابحون إلى حمام السباحة . فإذا ما اعتلى أحد السباحين تلك المنصة وأعد نفسه للقفز بالتمرين من جهة ، وباتباع أصول القفزمن جهة ثانية ، وباعداد الطاقة النفسية اللازمة لتلك العملية من جهة ثالثة ، فإن قفزه من ذلك الارتفاع العالى إلى حمام السباحة يكون مريحا برغم ما يكتنفه من خطورة ومخاطرة . ولكن افترض أن أحد الأشخاص الذين لم يسبق لهم أن تعلموا السباحة ، ولم يسبق لهم بالأولى أن قفزوا من مثل ذلك الارتفاع إلى حمام السباحة ، قد اقتيد عنوة إلى ذلك الارتفاع العالى ، ثم ألقى به برغم أنفه من العلو الشاهق إلى حيث القاع العميق لحمام السباحة . فماذا يكون حاله ؟ وما المشاعر التى تكتنفه ؟ لا

شك أن تلك اللحظات التى تسبق الدفع به إلى أسفل تكون لحظات رهيبة ، ولا شك أن المشاعر التى تغطيه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه لهى مشاعر مخيفة ورهيبة .

وهذا فى الواقع هو حال الشخص الذى يجد نفسه فجأة قريبا من حافة الموت ، وقد انخرط فى لحظات الاحتضار . إنه يرتعد فرقا وتذهب أعصابه شتاتا وتنهار قواه النفسية ولا يجدما يعزيه فى محنته أو يأخذ بيده . وموقف هذا شأنه يختلف اختلافا جذريا عن حال أولئك الذين أعدوا العدة لتلك اللحظات الخطيرة . ونحن نعرف أناسا كانوا سعداء فى لحظات احتضارهم . لقد كانوا يشاهدون فى تلك اللحظات ما لم تره عين ، وكانوا يسمعون ما لم تسمعه أذن ، وكانو يقفون على ما لم يخطر على قلب بشر .

ولكن مع هذا فليس من شك فى أن جميع المحتضرين يستشعرون الخوف . بيد أن خوف أولئك الذين لم يستعدوا للحظات الاحتضار يتسم باليأس المرير ، أو قل بالخوف الخالى من الرجاء . أما أولئك الذين استعدوا للحظات الاحتضار ، فإن الخوف الذى يحسونه يكون خوفا مشوبا بالفرح والرجاء . إنه يشبه خوف الطالب المتفوق وهو فى مواجهة الإمتحان . فهو يخاف ويفرح فى نفس الوقت ، أو قل إن خوفه يكون تهيبا لا فرقا وفزعا وارتعادا .

ومن الصعب علينا بلا شك أن نصف بدقة مشاعر الخوف التى يحس بها المحتضر . ذلك أن الخبرة التى لم يسبق للمرء أن مر بها يصعب وصفها وبخاصة لأن المشاعر مسألة شخصية بالدرجة الأولى وكل ما يمكن عمله أو محاولته هو استلهام واستقراء ما وقع تحت أبصارنا فى نطاق خبرات الآخرين الذين عايشناهم خلال لحظات الأحتضار . وليس من سبيل أمامنا إلا هذا السبيل الاستقرائى كدأبنا بازاء جميع الخبرات غير المباشرة التى يمر بها غيرنا دوننا . من هنا فإن وصفنا للمخاوف التى يحسها المحتضر لا يكون سوى وصف تقريبى استنتاجى وليس وصفا دقيقا مطابقا تمام المطابقة للواقع . وفيما يلى ما نستطيع استنتاجه من مخاوف وحالات نفسية مصاحبة يمر بها المحتضر :

أولا : المظاهر الخارجية للمحتضر :

من حيث السلوك الظاهرى فإن لحظات الاحتضار تكون مصحوبة برعشة وارتجاف شديدين . فحالة المحتضر تشبه حالة الشخص المصاب بحمى شديدة تهز كيانه كله . فأسنانه تصطك بعضها ببعض وهو فى انتفاضه يتلوى بحيث لا يستقر له حال . وانه ليشبه أيضا الحيوان الذى يذبح وقد أخذ يتلوى حتى تفارقه الحياة . ومن حيث نظرات المحتضر فإنها تبدأ فى الزيغان ، ثم يتركز الابصار فى نقطة واحدة أو فى شخص واحد من المحيطين به . والمحتضر يجد

راحته النفسية – اذا كانت ثمة راحة فى لحظات الاحتضار – فى الاستلقاء على الظهر وقد جعل رأسه بعيدا عن الوسادة .

ثانيا : دخيلة المحتضر :

يبدأ لون الوجه والجسم كله فى الإصفرار ثم يميل بعد ذلك إلى اللون الأزرق . ولا شك أن اختلاف لون الوجه الجسم يكون مصحوبا بحالة نفسية أشبه ما تكون بحالة الشخص الذى يكون معرضا للغرق . فخوف المحتضر يكون مرتبطا بالعجز عن التنفس بينما تكون دقات القلب متراخية وبطيئة وغير منتظمة . والواقع أن تلك اللحظات تتسم بالتذبذب فيما بين التعلق بحبل الحياة وبين انفلات ذلك الحبل من يدى المحتضر .فى غالبية حالات الاحتضار لا تكون القفزة إلى هاوية الموت مباشرة بلا تردد بل يكون هناك تذبذب بين الاقبال وبين الامتناع عنه . فالمحتضر يأخذ شهيقا قويا قد يبشر باسترداد الأنفاس ، ثم ما يفتأ أن يتغلب الزفير على الشهيق ، وكذا فإن القلب المسكين يدق بشدة كما لو أنه قد امتلك ناصية العمل من جديد . ولكن أنى لقلب المحتضر أن يعود إلى سابق عهده وقد نفد أو كاد أن يصل إلى آخر محطة فى طريق الحياة .

ثالثا : الكلمات الأخيرة :

وفى بواكير لحظات الاحتضار نجد أن المحتضر يودع الدنيا بأهم ما يريد قوله من كلمات . فهو – وقد استولى عليه الخوف – قد يعترف بأخطاء ارتكبها وبأسرار ظل يكتمها ربما تبرئ مظلوما سجن ظلما . ذلك أن المحتضر يريد فى الغالب أن يبرئ ذمته ويصحح أوضاعا خاطئة تردى فيها . إنه يشبه الطالب فى الامتحان خلال اللحظات الأخيرة قبل تسليم ورقة الإجابة . إنه يشاهد فى تلك اللحظات الأخيرة الفرصة الأخيرة لتصحيح أخطاء وقع فيها ، أو إضافة معلومات نسى إثباتها فى ورقة الإجابة . فالمحتضر يجد أمامه الفرصة الأخيرة قبل فوات الأوان لتصحيح أوضاع فى حياته ، ولاخراج هموم يرغب فى التخلص من وطأتها عليه ، فلعل أن يكون تخلصه من تلك الهموم واطراحها إلى الخارج عن طريق الكلمات ما يخفف من شدة مخاوفه قبل أن يقفز من منصة الحياة إلى هوة الموت العميقة . ولكن بعد تلك البواكير التى تعد مقدمة للاحتضار ، فإن الكلمات تغيب عن لسانه ، أو قل إن القدرة على الابانة والافصاح عما يراود الذهن تأخذ فى الخفوت والضياع .ولعل أن يكون هناك توازيا بين خفوت الذهن وبين ضياع القدرة على الكلام . وبدل النطق بالكلمات تحتل الأنات والآهات مكان النطق باللسان ، فتتحرك الشفتان ولكن بغير كلام مسموع أو مفهوم . ولقد يأخذ المحيطون بالمحتضر فى محاولة فهم ما يدور بين الشفتين من شبه كلام ولا كلام بغير ما جدوى .

رابعا : الالتفاف حول الذات :

وعلى الرغم من أن الناس يحيطون بالمحتضر ويحاولون التحدث إليه وتشديد قوته وبث الرجاء فى قلبه ، فإنه بعد أن ينخرط فى غمرة الاحتضار يأخذ فى الإنسحاب من عالم الناس والأشياء ، وقد تمركزت مشاعره حول ذاته . فهو خلال لحظات الاحتضار يكون فى مواجهة شاقة بينه وبين ذاته . وكيف له أن يقيم أية علاقة اجتماعية من أى نوع مع المحيطين به وهو على وشك أن يقفزمن تلك المنصة العالية جدا – أعنى منصة الحياة – إلى تلك الهوة السحيقة التى لا يعرف طبيعتها ولا عمق أغوارها ، ولا الجهة التى تقع فيها . فكل ما يستطيع الالمام به هو أنه مقبل على أخطر لحظة فى طول عمره .. أهى لحظة الفناء ؟ أهى لحظة الأبدية ؟ أهى لحظة الرجاء أم لحظة اليأس ؟ إنها ليست أسئلة تراود ذهن المحتضر ، بل هى أحاسيس محتدمة تأخذ بجماع نفسه ولا يستطيع الإجابة عليها . وهل يتسنى لانسان أن يجيب عن أسئلة مشاعره ؟ إن المشاعر تعتمل فى القلب وتأخذ بجماع النفس وتشكل حيرة سوف تتأتى الإجابة عنها والاحاطة بمدلولاتها بعد لحظات هى نهاية العمر . وهكذا نجد أن المحتضر يفارق عالم الناس قبل أن يفارق عالم الواقع من حوله ، أو قل قبل أن يفارق جسده إلى حيث لا نعلم .. إلى المجهول الذى يظل مجهولا حتى نحيط به فى لحظة آتية لا محالة مهما طال الأجل .

انحلال الجسد :

إنه لشئ مخيف حقا أن يتأمل الإنسان جسده المكتمل التركيب والنابض بالحيوية ، ثم يتوقع له الانحلال بالموت وقد دب فيه الفساد والنتن ووجد فيه الدود والذباب مرتعا لها تنهش فيه وتأتى عليه . ولكن لعلنا جميعا نتناول هذا الموضوع بشكل عابر وسريع بحيث لا تمكن أنفسنا من التعمق فيه وفيما يواكبه من مشاعر مخيفة ورهيبة حقا . انظر إلى يديك أو إلى أى جزء من جسمك وفكر فى المصير المروع الذى ينتظره ويتربص به فى مستقبل لا تعرفه . إنك اذا تأملت شيئا ثمينا من ممتلكاتك وأجلت النظر فيه وتوهمت أنه سيسرق منك أو أن يدا عابثه سوف تعبث به ، فإنك بلا شك تحس وأنت فى غمرة تلك التأملات بالخوف مسبقا على ذلك الشئ الذى تعتز به وتقدر قيمته . فإذا كان هذا هو حالك بازاء شئ ثمين تمتلكه ، فما بالك بكيانك الجسدى كله . أليس ذلك الجسد هو أقيم شئ تمتلكه ؟

لقد يكون الشئ الوحيد الذى يعزيك عن الانحلال الذى ينتظر جسدك هو أن موتك يعنى فى نفس الوقت ضياع شعورك بقيمة الوجود المادى تماما وارتباط اهتمامك بالعالم الروحانى الجديد الذى سوف تنخرط فيه اذا كنت من المؤمنين بحياة أخروية هى الحياة الأدوم والأبقى . ولعلك من جهة أخرى – اذا لم تكن كذلك – ستتعزى بأنك ستختفى من الوجود بكليتك .

بمعنى أن انحلال جسدك أو عدم انحلاله لا يساويان شيئا بالنسبة لك . فالانحلال وعدم الانحلال سيان . فلقد سبق أن قلنا إن الشخص المادى أو الواقعى يؤمن بأن الجسد بكل محتوياته إلى فناء مع الموت . فالانحلال ليس سوى ضياع الوجود برمته بعد أن يغشى الموت الانسان .

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الأسباب الأخرى التى تحمل المرء على الخوف من إنحلال جسده بالموت . اننا نستطيع تحديد تلك الأسباب فيما يلى :

أولا : الخوف من فقدان القيمة :

فالواقع أن انحلال الجسد يعنى فى نفس الوقت ضياع قيمة المرء من حيث هو وجود حى وعاقل . ويكفى أن تشاهد موقف المحيطين بالميت منه .

إنهم بعد أن كانوا يرعونه ويحافظون عليه من أى شر يصيبه ، ينظرون إليه كشئ بلا قيمة . ولعلهم يخدعون أنفسهم ومن حولهم بادعاء وجود قيمة لجثة الميت وذلك باحاطتها بهالة من التقديس والهيبة . فالواحد منا – نحن الأحياء – يخاف من انحلال الجسد لأن ذلك الانحلال يعنى فى نفس الوقت فقدانه لاعتزاز الناس به ، واستمساكهم به . فما أن تفقد أجسادنا قوامها البيولوجى حتى تسقط سقوطا تاما ، ونضحى – كأجساد ذابلة منحلة – إلى شئ يجب التخلص منه وابعاده عن مملكة الأحياء .

ثانيا : انحلال أجسادنا متواكب مع وصفنا بالقذارة :

فنحن فى حياتنا نهتم بأجسادنا ونعتنى بنظافتها ونقوم على تطهيرها من أى شئ يلطخها . ولكن ما أن يموت الجسد ويبدأ فى الانحلال حتى يترك هملا ، بل إنه يصير هو القذارة نفسها . فلا اغتسال ولا نظافة . وحتى الطقوس التى يقوم بمقتضاها المؤمنون بها بغسل جسد الميت قبل دفنه ، فإنها لا تستطيع أن تفعل ذلك مع جسد الميت إلا مرة واحدة قبل أن يبدأ الانحلال فى أخذ طريقه إليه . ومعنى هذا فى الواقع أن العناية بجسد الميت لا تعدو أن تكون عناية مؤقتة ومرهونة باللحظات السابقة على دفنه . ولكن أنى للاغتسال أن ينظف ذلك الجسد الذى يتفجر من الداخل نتنا وقذارة ؟ ما من شك فى أن أحب الأحياء إلى شخص الميت يسارعون إلى دفنه حتى لا يتسنى لهم مشاهدة القذارة وقد غلفت ذلك الكائن الذى ربما كانت تضرب به الأمثال فى النظافة والعناية بنفسه .

ثالثا : استحالة الميت إلى شئ كريه : ومن الطبيعى أن يصير كائن كهذا إلى شئ لا تلتف حوله القلوب . والواقع أن أحباء الميت يسارعون فى مواراته التراب حتى يبقوا على صورته التى ارتسمت له فى الأذهان كما هى . ولكأن الناس فى تلك الحالة يشبهون النعامة التى تقوم بدفس

رأسها فى الرمال حتى لا تقف على الواقع الخطر أو الواقع المؤذى لمشاعرها أو المخيف لها . فأحباء الميت يسارعون إلى دفنه حتى يعموا عن مشاهدة الواقع المؤلم المحيط به وهم ينقلون بوعى أو بلاوعى الحب الذى كانوا ينيطونه بشخص الميت من جسده إلى روحه وإلى ذكراه . فهم يحاولون أن يظلوا ممسكين بتلابيبة ولا يفرطون فيه مع أن الواقع يقول إنهم يكرهون ذلك الجسد ويخدعون أنفسهم والمحيطين به بزعمهم أنهم يهفون إليه ويقدرونه ويعتزون به .

رابعا : – استحالة جسد الميت إلى شئ مخيف :

فواقع الأمر أننا نخاف لدى مشاهدة أجسام الموتى . ولكن ما الذى يجعلنا نحس بذلك الخوف ؟ إننا نعتقد أن السبب الرئيسى لنشوء هذا الخوف هو خوفنا من أن نستحيل إلى ما استحال إليه الانسان الذى مات وتحلل جسده . فنحن فى أعماقنا نحب الحياة ونخاف من الموت . فإذا ما وقعت أبصارنا على جُثة ميت ، فإن ما يزعجنا فيما نشاهده هو ذلك المصير الذى ينتظرنا فى القريب العاجل أو فى البعيد الآجل . فعلى الرغم من اقتناع المرء وهو يشاهد إحدى الجثث بأنها بلا حول ولا قوة وأنها ليست كائنا حيا مريدا ، بل هى مجرد شئ له امتداد كقطعة الخشب أو كحجر ما من الأحجار . فإن الخوف أو حتى الذعر يأخذ به كل مأخذ .

خامسا : – الخوف من النسيان :

فالانسان يخاف من أن يتحلل جسده لأن فى ذلك ضياعا لآخر أثر محسوس لوجوده على الأرض . فلكأن ذلك الشخص الميت بتحلل جسده قد صار إلى الفناء من سطح الأرض . وحال كهذه تتعارض تعارضا جذريا مع حب البقاء . من هنا فإن الكثير من الناس قد وجدوا ما يذب عنهم هذا الشعور بالخوف فى تشييد المقابر العظيمة لأنفسهم لأنهم أدركوا من خبراتهم اليومية أن جسم الميت سرعان ما يتحلل بينما تظل الصخور التى تشيد منها المقابر – أو الأهرامات بالنسبة للفراعنة – شامخة وشاهدة على عظمة الميت المدفون بالداخل . ناهيك عن أن قدماء المصريين قد حاولوا مقاومة قانون الطبيعة القاضى بتحلل جسد الميت ، وذلك بالافتنان فى تحنيط جثث الموتى بعد موتهم مباشرة . ولعلنا نزعم أيضا أن الباعث الذى يعتمل فى قرارة نفوس الأدباء والفنانين والمفكرين وما يحملهم على الابداع الأدبى أو الفنى أو الفكرى إنما هو محاولة من جانبهم لمقاومة نسيان الناس لهم . فهم فى خشيتهم من أن يفنوا يقومون بالابداع الذى يأملون فى أن يظل شاهدا لهم فلا يطويهم النسيان . ولعلنا نزعم كذلك أن اقبال الناس على تحمل مسئوليات إنشاء أسرة جديدة ينفقون عليها ويتحملون متاعبها هو ما يعتمل فى قلوبهم من رغبة فى الخلود . فالخوف من التلاشى بالتحلل الجسدى يدفع بالناس لا شعوريا إلى

البحث عن وسائل بديلة تجعلهم عالقين فى الذاكرة فيعوضوا بذلك عن فناء أجسادهم بالبقاء معنويا فى العقول والقلوب

وبالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من أساليب وحيل للتخفف من الخوف المعتمل فى القلوب بسبب تحلل الجسد ، فإننا نستطيع أن نعرض للأساليب التالية :

أولا : التهيئة الجسمية :

أعنى تهيئة النفس لهذه الحقيقة الوجودية وذلك بالاعتراف بالحقيقة المرة أولا ثم مجابهة المستقبل المنتظر بما يشبهه ويهيئ له ويعبد الطريق لوقوعه . من ذلك تعذيب الجسم بالصيام والتقليل من تناول الطعام والسهر ، بل إن بعض الرهبان البوذيين وغيرهم يعذبون أنفسهم بكافة وسائل التعذيب كالنوم فوق المسامير وكى الجسم بالنار ونحو ذلك من وسائل تمهيدية تساعد على تحلل الجسد . وكأن لسان حال هذه الفئة من الناس يقول « وداونى بالتالى كانت هى الداء » فحيث إن الخوف يتأتى من انحلال الجسد ، اذن فلابد من العمل على تحلله فورا ومن الآن .

ثانيا : محاولة تأجيل الموت :

وذلك بالعناية بالجسد لابعاد هذا المصير بقدر الأمكان . من ذلك عناية الأفراد بأجسامهم ورعايتها غذائيا ورياضيا . ومن ذلك أيضا المحاولات الدائبة للعلماء لتجديد الشباب والتغلب على أمراض الشيخوخة وما يزعمونه من إمكان التغلب على وسائل الهدم الحيوى بالجسم **Katabolism** إلى حد كبير بحيث يتسنى اطالة المدة الاحتمالية للبقاء على قيد الحياة . وبهذه المناسبة نذكر الوسائل الوقائية التى أعلنت عنها أنا أصلان وغيرها بزعم أنها تجدد الشباب وتعيد إلى المرء طاقاته الحيوية التى تآكلت وضربت بالذبول .

ثالثا : النسيان والابعاد عن الذهن :

ولا ننسى فى هذا المقام ما يتذرع به كثير من الناس من إغضاء عن المستقبل القاتم الذى ينتظر الجسد بعد الموت . والواقع أن الإنسان يتمنع بالنسيان كما يتمتع بالذاكرة . فنحن كثيرا ما ننسى الحقائق التى نعرفها بوعينا وننساها بلا شعورنا . وأهم ما ننساه هو حقيقة زوالنا وتحلل أجسادنا .

خوفنا على أحبائنا :

الموت سيف مصلت على رقاب جميع الناس بغير استثناء . والخطير فى الموت أنه كشخص معصوب العينين وقد أمسك بيده سيفا يقطع به رقاب من يقابلهم أو من يقفون فى طريقه بغير تمييز بين صغير وكبير ، ولا بين غنى وفقير ، ولا بين رجل وأمرأة . فليس هناك ترتيب فى قائمة المرشحين لأن يتواروا فى الثرى . صحيح أن الناس يتوقعون الموت لمن بلغوا من العمر عتيا .

ولكن التوقع شئ وما يقع شئ آخر . فلقد تجد جدا أو جدة بلغت من العمر ثمانين عاما أو أكثر وقد رقدت فى فراشها مشلولة وينتظر من حولها موتها من يوم لآخر . ولكن يفاجأ الجميع بموت أحدى الشابات أو أحد الشبان بتلك الأسرة فجأة وبغير انذار أو مرض . فمن كان يتوقع له الموت يظل حيا ، ويموت من كان يتوقع له أن يمتد به العمر لسنوات عديدة .

من هنا فإن الموت يشكل خطرا محدقا باستمرار بنا وبمن حولنا . وحتى بالنسبة لأسباب الموت فإنها متعددة ويصعب حصرها . ولعل الحضارة قد زادت من أسباب الموت . من ذلك مثلا زيادة عدد ضحايا حوادث السيارات والحرائق والانصعاق بالتيار الكهربائى ونحو ذلك من أسباب تتعلق بما تم اختراعه وصار من قوام الحضارة الانسانية . فالوالدان يودعان طفلهما فى الصباح وقد وصلت سيارة المدرسة لنقله من البيت إلى المدرسة ثم من المدرسة إلى البيت . ولكن هل يطمئن الوالدان وهما متأكدين من أن سيارة المدرسة سوف توصل طفلهما فى أمان خلال الرحلتين . ونفس مشاعر القلق والتوجس تراود الزوجة بازاء زوجها ، والزوج بازاء زوجته .

ومعنى هذا فى الواقع أن إنسان الحضارة قد صار متوترا خائفا على أحبائه لئلا يدهمهم الموت . فالحضارة لم تضمن لأبنائها الأمن والأمان ، بل إن مخاوف أبناء الحضارة من الموت المفاجئ يصيب أحد الأحباء أو مجموعة من الأحباء دفعة واحدة لا تقل عن شدة الخوف التى كانت تعتمل فى قلوب البدائيين بتجاه الوحوش الضارية والطيور الكاسرة والمخاطر الطبيعية المتباينة .

واذا نحن تساءلنا عن الأسباب التى تجعلنا نخاف على أحبائنا من الموت ، فإننا نستطيع تلخيص الإجابة عن هذا التساؤل فيما يلى :

أولا : بلورة الوجدان :

الواقع أن هناك عملية نستطيع أن نسميها عملية بلورة الوجدانات حول بعض الأشخاص . فالأم الحامل تبدأ فى بلورة وجداناتها حول الجنين الذى ينمو فى أحشائها . ولدى ولادتها فإن ذلك التبلور يزداد ويتأصل . وكلما نما الطفل وقامت علاقات بينه وبين المحيطين به ، فإن عملية تبلور الوجدانات لا تقتصر على الأم والأب ، بل إنها تمتد لتشمل جميع أفراد الأسرة بمن فيهم الطفل نفسه. فهو بدوره يبدأ منذ نعومة أظفارة فى بلورة وجداناته حول والديه وأخوته وباقى أفراد الأسرة ، بل وأيضا حول الخدم اذا كان ثمة خدم بالمنزل ، ثم هو يبلور وجداناته بعد ذلك حول زملاء الدراسة والمدرسين ونحوهم من أشخاص يتعامل معهم وينحو إليهم ويرتبط بهم نفسيا . وبالجملة فإن المرء ينسج حول بعض الأشخاص خيوط الحب بحيث

تشكل تلك الخيوط وشائج نفسية تربطه وإياهم برباط وثيق . ولعلنا لا نبالغ اذا ما قلنا إن تلك الوشائج النفسية العاطفية تصير من المتانة بحيث نستطيع أن نزعم أن مجموع الأحباء يشكلون جسدا واحدا ونفسا واحدة حتى وان تباينت الشخصيات . من هنا فإن موت أحد الأحباء يعتبر بترا نفسيا لعضو من أعضاء ذلك الكيان النفسى الواحد . ويصاحب ذلك البتر ألم نفسى لا تقل أوجاعه عن البتر الذى يحدث لأحد أعضاء جسم الانسان .

ثانيا : الحرمان النفسى :

ان موت أحد الأحباء معناه فى الواقع الحرمان من مشاهدته أو الالتقاء به إلى الأبد . والحب الذى يربط بين الأحباء بعضهم وبعض يجعل بينهم ما نستطيع أن نصفه بأنه توافق نفسى بين المحبين . فحياتنا النفسية واستقرارها يتوقف على ما نستند إليه من حب يربط بيننا وبين أحبائنا . وموت أحد الأحباء معناه فى الواقع تحطيم ذلك التوافق النفسى القائم بيننا وبين أحبائنا . ونستطيع أن نشبه الموقف بمجموعة من المكعبات الخشبية المرصوصة بعضها فوق بعض . فإذا أنت شددت واحدا من تلك المكعبات الذى تستند إليه جميع المكعبات الأخرى ، فإنها تنهار جميعا وتذهب أشتاتا مبعثرة . ونفس الشئ يحدث اذا ما فقدنا أحد أحبائنا . فلكأننا قد رصصنا بعضنا فوق بعض فى توافق وقد شد بعضنا بعضا واستند بعضنا إلى بعض . فإذا ما ضاع واحد منا . فإن الكومة التى تنتظمنا تنهار بعد أن تتزعزع أركانها الأساسية التى تؤازرها وتساند مقوماتها .

ثالثا : الدور الذى يلعبه الخيال :

إننا نخاف من أن يموت أحد أحبائنا لأننا نتخيل ما يمكن أن يتعرض له من ألم ووجع نفسى . ولا شك أن خيالنا يلعب دورا رئيسيا فى تضخيم مقدار الألم والضيق الذى يتعرض له المرء وهو مقبل على الموت ومفارقة الحياة . فخيالنا وتوقعاتنا لضخامة الموت وما يتواكب معه من الآم جسمية ونفسية تجعلنا نتوجس خيفة من أن يهبط الموت على أحد أحبائنا فيعانى مما ترسمناه من شر فى أذهاننا وخيالنا .

رابعا : الصدمة الانفعالية :

لا شك أيضا أننا نخشى من أن يختطف الموت أحد أحبائنا لما يحمله الموت من مفاجأة وصدمة نفسية. ذلك أن الحياة والموت شيئان متناقضان كما سبق أن ذكرنا . ومن هنا فإن النُقْله التى ينتقل بواسطتها أحد الأحباء من حالة الحياة إلى حالة الموت تشكل صدمة انفعالية لنا مهما كان توقعنا لذلك الحبيب بأنه قريب من الموت بسبب المرض أو الشيخوخة . فما بالك اذا ما اختطف الموت أحد أحبائنا فجأة بغير أن نكون متوقعين له أن يصاب بأى أذى ، ويكون مكتمل الصحة ؟ .

خامسا : الخوف على الآمال والأهداف :

اننا نخشى أن يموت أحد أحبائنا لأن موته معناه موت جميع آماله وذبول جميع أهدافه ، بل والقضاء عليها قضاء تاما . والواقع أن لكل واحد من الناس نوعين من الوجود : وجود بيولوجى ، ووجود آخر معنوى . والوجود البيولوجى هو ذلك الوجود المتعلق بنا ككائنات حية تغتذى وتتناسل . أما الوجود المعنوى فإنه يتعلق بما نضطلع به من أعمال وبما نحمله على أكتافنا من مسئوليات ، أو قل إن الوجود المعنوى يعنى عضويتنا فى مجتمع ننتسب إليه وننخرط فيه ونأخذ عنه ونعطيه ، ونتأثر به ونؤثر فيه . ونحن فى الواقع نخاف من الموت ينتزع بمخالبه القاسية أحد أحبائنا لأن مثل ذلك الانتزاع معناه فى نفس الوقت قتل الشخصية المعنوية المؤثرة والمتأثرة فى المجتمع ووقفها عن مداومة التفاعل مع البيئة المحيطة بها . ولذا فإن الشخصية الزعيمة روحيا أو فلسفيا أو أدبيا لا تنتهى بالموت، بل تظل مؤثرة فينا بنفس القدر – أو بأكثر – مما كانت تؤثر به وهى على قيد الحياة . خذ مثالا لذلك غاندى وطه حسين وأفلاطون . ناهيك عن الأنبياء والزعماء الروحيين الذين يؤثرون برسالاتهم وحكمتهم فى الأجيال المتعاقبة . ولكن مع هذا فإن المحيطين بالشخصية – حتى ولو كانت من هذا النمط الفريد كالشخصيات التى ضربنا بها مثلا – يحزنون لفقدها لأنهم يحسون بالصدمة نتيجة فقدانهم لتواجدها معهم وبينهم حية بشكل مباشر وليس بشكل غير مباشر فيما تركته من آثار مكتوبة بواسطتهم أو نقلا عنهم .

ولسنا نشك فى أن الواحد منا يخاف أن يموت هو شخصيا لأنه يعلم أن موته يسبب صدمة نفسية لاحبائه . فنحن لا نخاف فقط من أن ينتزع الموت أحد أحبائنا فيصيبنا هذا الانتزاع بصدمة نفسية ، بل إننا نخاف أيضا أن نموت فنحدث صدمة لمن حولنا . وهذه فى الواقع ضريبة الحب التى على المحبين أن يدفعوها نتيجة لحبهم .

واذا كان المرء محملا بالمسئوليات الرعوية كأن يكون العائل الوحيد لأسرته ، فإنه يكون راهبا الموت كل الرهبة ومتوجسا منه كل التوجس ومتسربلا بالوهم خوف أن يموت فيترك أفراخا صغيرة بحاجة إلى طعام وكساء ومأوى ، وهو الوحيد الذى يقوم على رعايتهم وحمايتهم من الهلاك . ناهيك عن الزوجة التى ستصير أرملة ضائعة فى خضم الحياة .

ويخشى المرء من الموت لأنه يقدر نفسه ويحس بأنه ذو قيمة معينة فى المجتمع الذى يعيش فى إطاره . فمعنى موته أن المجتمع سوف يفقد ترسا عاملا من تروسه فى آلته الضخمة . ولا شك أن كل إنسان شريف – مهما صغر شأنه – يشكل عاملا مؤثرا على نحو ما فى المجتمع . فحبنا لمجتمعنا يجعلنا مشوقين لأن نستمر على قيد الحياة حتى نحقق الأهداف التى ترسمناها فى أذهاننا والتى نصبو لتحقيقها لمجتمعنا . فالغيرة هنا على موكب الحياة هى التى تحملنا على الخوف على ذواتنا من الموت .

جنون الخوف من الموت : Thanato - phobia

من الطبيعى أن يخاف الانسان من الموت . ولكن قد يخرج الخوف من الموت من إطار السوية ليندرج فى إطار الجنون . ولكن كيف نميز بين الخوف الطبيعى من الموت وبين الخوف الجنونى منه . إننا نستطيع أن نعتبر الخوف من الموت عرضا لمرض نفسى ألم بالمرء فى الحالات الآتية :

أولا : من حيث شدة الخوف :

فعندما تجد شخصا يأخذ به الخوف كل مأخذ ، ثم تسأله عن سبب خوفه فيجيبك أنه خائف من الموت ، فإنك سوف تندهش . وتزيد دهشتك عندما تلاحظ أن ذلك الشخص الخائف مفعم بالصحة التامة وأن أحباءه معافون ولم تمر بخبرته حالة وفاة منذ مدة قريبة . وتدهش أكثر اذا لاحظت أن صاحبنا قد أخذ يبكى وينتحب صارخا مستغيثا من فكرة الموت تخيم على أفقه النفسى . وكلما حاولت بث الطمأنينة فى قلبه ، فإنه يزداد فرقا وفزعا . فالرائى لمثل هذا الشخص يقول بينه وبين نفسه « نعم كلنا نخاف من الموت ولكننا لا نخاف منه بهذا الشكل وبهذه الشدة والمبالغة » .

ثانيا : من حيث الاستطالة :

فنحن نذكر الموت فى المناسبة التى نشيع فيه صديقا أو قريبا ، أو عندما يصلنا نبأ وفاة أحد العظماء ، أو عندما نقرأ عن حادثة وقع ضحيتها مجموعة من الناس . ولكن اذا وجدت شخصا لا تبرح فكرة الموت ذهنه طوال الوقت . فهى تستولى على ذهنه فى يقظته ومنامه بحيث لا ينتقل فكره إلى مجالات أخرى يفكر فيها ويجيل تأملاته عبرها . إنك بلا شك سوف تشير بأصبع الاتهام إلى عقلية ذلك الشخص متسائلا عما اذا كانت قد أصابته لوثة . ولكن ربما يتردد تفسيرك لحالة ذلك الشخص بين تفسيرين : أحدهما أنه شخص انتحى منحى روحيا بحيث آثر التفكير فى الآخرة وزوال الدنيا بدلا من أن يفكر فى الدنيا والحياة الأرضية وما تتسم به من زوال وبهرج زائف . أما التفسير الثانى فإنه التفسير النفسى المتعلق بصحه ذلك الشخص النفسية . إنك تذهب – وفق هذا التفسير – إلى أنه لا يمكن أن يكون شخصا سويا ، بل لا بد أنه قد أصيب بمس من الجنون ولم يعد كباقى الشخصيات السوية الذين يعرضون لفكرة الموت كما يعرضون لكثير جدا من الأفكار الأخرى ولا يعطونها أكثر من حقها من التفكير والتأمل .

ثالثا : عندما تستحيل فكرة الموت إلى فكرة ثابتة أو إلى وسواس مسيطر :

فإلى جانب شدة المشاعر الوجدانية المحتدمة لدى الشخص المريض نفسيا بمرض الخوف

من الموت ، وإلى جانب استطالة المدة التى يقضيها ذلك الشخص فى التفكير فى الموت ، فإننا نجد أنه يحاول دائبا أن يتخلص من تلك الفكرة المخيمة على عقله ووجدانه وارادته جميعا ولكن دون جدوى . فهو يجد أن عقله عاجز عن التفكير إلا فى فكرة واحدة هى فكرة الموت . فالمسألة اذن لم تعد مجرد اختيار من بين أفكار متعددة يفضل الشخص واحدة منها ، بل صارت الزاما وحتما واجبارا لا مناص منه ولا فكاك من شكائمه وقيوده . أما من حيث القطاع الوجدانى بالشخصية ، فإن الشخص المريض بهذا النوع من الخوف يجد أنه قد صار ينتحى انتحاء واحداً بحيث لا يصب تياره الوجدانى إلا فى ذلك التيار الواحد هو تيار الخوف من الموت . فجميع وجداناته قد صارت متبلورة حول هذا المفهوم الغامض الذى لا يستبينه بجلاء ووضوح . أما من حيث إرادة ذلك الشخص المصاب بمرض الخوف من الموت ، فإنها تكون إرادة عاجزة عن التحول إلى أى نشاط خارجى يضطلع به . فهو لا يستطيع أن يمارس سوى الأعمال الآلية التى صارت لديه عادات صماء روتينية . ولكن حتى فى ممارسته لأعماله الروتينية فإنه يبدى عجزه عن التصرف أو عن الابداع والخروج من حيز الأداء الآلى إلى حيز الأداء المتبصر بما يفعله المرء .

رابعا : من حيث العلاقات الاجتماعية :

لا شك أن الشخص المصاب بهذا المرض النفسى لا يستطيع أن يقيم علاقات اجتماعية سوية مع الناس المحيطين به ، أو الذين سبق له التعامل معهم قبل إصابته بهذا اللون من الجنون . ولعل أول ما يلاحظ على ذلك الشخص فى علاقاته بالآخرين أنه يتجنب مخالطة الناس . ولعله يصب خوفه من الموت على واحد من أحبائه ، فيظل يتوقع طوال الليل وطوال النهار أن ذلك الشخص سوف يموت فجأة نتيجة إصابته فى حادث ، أو نتيجة إصابته بأزمة قلبية أو بأى سبب من أسباب الموت . ويظل صاحبنا مركزا كل تفكيره ووجدانه حول هذه الفكرة لا يريم عنها . ومن ثم فإنك تجده شديد التعلق بذلك الشخص الذى اختاره بذهنه المريض لكى يخاف عليه من الموت . وربما يكون لهذا الخوف أثر بعيد المدى فى شل حركة ونشاط ذلك الشخص الذى التف حوله الوسواس والمتوقع له أن يموت ، فيمنعه صاحبنا من ممارسة أى لون من ألوان النشاط ، بل لقد يقوم بسجنه فى البيت ويحول بينه وبين الخروج أو العمل .

خامسا : من حيث تسيير دفة الأعمال :

والمجنون بهذا الخوف ، يتوقف عادة عن ممارسة الأعمال التى تدر عليه كسبا . ذلك أنه يؤكد لمن يحيطون به أنه ملاق الموت حالا ، ومن ثم فلا داعى لبذل أى جهد أو السعى وراء كسب الرزق . فما فائدة العمل والكسب بينما الموت يقرع على الأبواب . وأكثر من هذا فإن

ذلك الشخص المصاب بهذا النوع من الجنون كثيرا ما يعمد إلى توزيع كل أمواله على المحيطين به . إنه يقوم بكتابة وصيته لأنه يتوقع الموت بين لحظة وأخرى . ومن الطبيعى أن تصرفاته هذه لا تنجم عن إحساس بالشفقة والحنان على المحيطين به الذين يوزع عليهم أمواله ، بل تنجم عن الخوف على تلك الأموال نفسها من الضياع أو من استيلاء الدولة عليها إذا لم تسلم لأصحابها ولم يظهر للشخص الواهم ورثة . وشاهد ذلك أنه اذا ما عولج وحظى بالشفاء من هذا المرض النفسى ، فإنه يسارع إلى استرداد ماله الذى قام بتوزيعه ، مؤكدا أنه لم يكن فى حالة تسمح له بالتفكير السديد فيما أقبل على عمله .

أما أسباب الخوف من الموت واستحالة ذلك الخوف إلى مرض نفسى ، فإننا نستطيع أن نلخص تلك الأسباب فيما يلى :

أولا : شدة الحساسية الذاتية :

فثمة بعض الأشخاص يكونون نرجسيين والنرجسية هى شدة إعجاب الشخص بنفسه وكلفه بشخصه . والواقع أن النرجسية قد تتواكب مع الحساسية الشديدة بالذات ، مما يحمل الشخص على الخوف على نفسه ، وبالتالى فإنه يكون عرضة للخوف من أن يدهمه الموت .

ثانيا : إصابة المرء بالمخاوف الغامضة وتراكم تلك المخاوف مما يشكل قلقا مسيطرا عليه :

فتلك المخاوف الغامضة وحالات القلق تبحث عن منفذ تتجه إليه ، فتجد ضالتها المنشود فى توقع الموت . ومن ثم فإن ذلك الشخص القلق يأخذ فى بلورة مخاوفه الغامضة حول محور الموت . فيكون وقوعه على هذا المحور نتيجة لتدفق واعتمال قلقه وضغطه على جهازه النفسى ، ونتيجة انصبابه على عقله .

ثالثا : ما قد يكون موجها إلى الشخص من تهديدات :

وبعض تلك التهديدات تكون تهديدات صريحة بالقتل ، وقد تكون مجرد تهديدات بالخصم من المرتب أو بالفصل من العمل بالنسبة للموظفين ، وقد تكون تهديدات بالسرقة وفرض الاتاوات ، بل إنها قد تكون تهديدات أدبية كالتشنيع واثارة الفضائح على الملأ ونحو ذلك من تهديدات متباينة . فتلك التهديدات تنصب على جدار الجهاز النفسى المسمى بالأنا مما يترتب عليه شعور الشخص بالخطر ، ومن ثم فإنه قد يحس بأنه على وشك الفناء ، وأن الموت يدق على الأبواب .

رابعا : قد تتأتى هذه الحالة المرضية عن اضطراب يصيب الغدد الصماء وما يتواكب مع ذلك الاضطراب من اضطراب فى الاتزان الهورمونى :

قد تقوم إحدى الغدد الصماء بافراز الهورمون الخاص بها بأكثر أو أقل من المعدل المطلوب لتحقيق التوازن بين كمية الهورمونات المتباينة التى تفرزها الغدد الصم الأخرى والتى تنصب فى الدم مباشرة . فلقد نجد مثلاً أن الغدتين فوق الكليتين تفرزان هورمون الأدرنالين بكمية أكثر من المطلوب فتضطرب الحالة النفسية للشخص ، وينتهى الأمر بظهور هذه الحالة النفسية المرضية أو غيرها من حالات مرضية أخرى .

خامسا : فى بعض حالات نقص التغذية وما يترتب عليها من إصابة بالأنيميا ونحوها من أمراض جسمية :

فلا شك أن هناك صلة تبادلية وثيقة بين الحالات الجسمية وبين الحالات النفسية . فكما أن الأفكار والعواطف تؤثر فى الصحة الجسمية . كذا فإن الحالة الصحية العامة وهبوط مستواها يمكن أن يؤدى إلى الإصابة بهذا المرض النفسى .



دعنا نسبر أغوار الشخص الخائف.

الفصل الخامس عشر
سيكلوجية الخائف

التغيرات الجسمية :

من الحقائق المعروفة أن الإنسان يشترك مع كثير من الكائنات الحية الأخرى – وبخاصة الحيوانات الرئيسة **primates** – فى المظاهر الخارجية والتغيرات الداخلية التى تقع بالجسم عندما يسيطر الخوف عليه . ولعلنا فيما يلى نحاول أن نستعرض أهم تلك المظاهر الخارجية والتغيرات الداخلية التى تقع للمرء عندما يأخذ به الخوف كل مأخذ .

أولا – ملامح الوجه : فوجه الشخص الخائف يشبه إلى حد ما وجه الشخص الغاضب . ولكن مع هذا فثمة تباينات بين ملامح الوجه الخائف وبين ملامح الوجه الغاضب . واذا نحن تناولنا الصفات التى يتصف بها الوجه الخائف ، فاننا نلاحظ أولا أن عينى الخائف تتسعان وذلك بانفراج الجفون وابتعادها عن الحدقة ، وفى نفس الوقت فان المشاهدة تكون مشتتة ومتنقلة وغير متمركزة على شىء واحد . فالشخص الذى يجابه بأسد فى غابة مثلا يكون بصره مشتتا بين الوحش المفترس وبين ما يحيط به من اشياء ، ولكأنه يبحث بعينيه عن أفضل المسالك التى يستطيع أن يهرب من خلالها . ولكن مع هذا فان ذلك الشخص الخائف من الأسد يتردد فى مشاهدته بين أشياء كثيرة تحيط بالأسد وبين ذلك الوحش الضارى . فالأسد يستولى على النسبة العظمى من النظرات .

وبالاضافة إلى هذا فان الحاجبين يرتفعان عن مكانهما الطبيعى ، كما أن الجبهة ترتد إلى الخلف بحيث تظهر كرمشة فيها ، كما أن الأسنان تصطك بعضها مع بعض ، وقد يعض الشخص الخائف لسانه أو السطح الداخلى للخدين . أما الشعر فانه يقف بالفعل ، وليس ما يقال عن وقوف الشعر فى أثناء الخوف مجرد كلام مجازى . ولقد تهتز الأذنان عند بعض الأشخاص بيد أن هذا لايحدث إلا لأولئك الأشخاص الذين يتمكنون من تحريك الأذنين فى الحالات العادية . ولقد يكون لذلك التحريك علاقة بالتطور البعيد فى الزمان عندما كان فى مقدور الانسان أن يحرك أذنه بتجاه مصدر الصوت الذى ينبعث منه الخطر . فلقد كان هذا شأن البدائيين كما هو الشأن اليوم بالنسبة للقردة والقطط والكلاب وغيرها .

ثانيا – لون البشرة : من الملاحظ أن الشخص الخائف يخضع لسلسلة من التغيرات فى لون بشرته . فبادئ ذى بدء وفى اللحظات الأولى من وقوع الخوف فان الدم يتدفق إلى سطح

الجلد وبخاصة الوجه . ويكون ذلك التدفق مصحوبا بافراز كمية كبيرة من العرق . وطبيعى أن يكون العرق المتصبب بنفس حرارة الجسم لدى تصببه . ولكنه ما يفتا أن يبرد ويسبب انخفاض حرارة الجسم . فتصير الجبهة والأطراف باردة نسبيا . وهذا يسبب فى الواقع تحول لون الوجه والجسم بعامة إلى اللون الأصفر بعد اللون الوردى . وفى المرحلة الثالثة من الخوف – بفرض أنه يشتد من جهة ويستمر فترة طويلة من جهة أخرى – فان لون البشرة والأطراف يستحيل إلى اللون الأزرق المشوب بالصفرة .

ثالثا – حركات الجسم والأطراف : إن الخوف الشديد يعمل على تفكك المفاصل وربما يكون ذلك راجعاً إلى الجهد الذى يبذله القلب فى نقل الدم إلى سطح الجلد ، وبالتالى فقدان الأطراف والمفاصل لحيويتها . ومن هنا فانك تجد أن الخائف سرعان ما تنهار قواه بحيث لايستطيع أن يحمل جسمه على رجليه فيرتمى على الارض جالسا أو نائما . واذا كان الخائف يحمل فى يديه ثقلاً ما ، فان قبضته عليها تضعف فتسقط الأشياء التى كان ممسكا بها من بين يديه . واذا كان الخائف نائما ، فانه يتكور بحيث تقترب أطرافه من مركز الجسم . وتكثر الحركات العشوائية غير الهادفة باليدين والرجلين عند الخائف . وتتسم تلك الحركات بالرتابة والنمطية . فهى لا تتغير بل يدأب الشخص الخائف على الاتيان بها طوال فترة خوفه . وتأخذ تلك الحركات فى الخفوت مع تزايل الخوف من مشاعر المرء . وطبيعى أن يحاول الشخص الخائف الهرب والابتعاد عن مصدر الخوف . ولكنه قد يغالب نفسه فيبقى فى مكانه مسمرا متحديا أو عاجزا عن الفرار . ولقد يصطدم الشخص الخائف بالناس والأشياء وذلك لعدم غرضية سلوكه وعدم تبينه للوجهة التى يتجه اليها ، ولأن عينيه تكونان زائغتين بحيث لا يستطيع تبين حدود الأحجام أو العلاقات المكانية كما يكون عاجزا عن تقدير المسافات . وهذا يحدث بالطبع اذا كان الخائف هاربا على قدميه ، كما يحدث أيضاً اذا كان الهارب مستقلا سيارة ويقوم بقيادتها بنفسه . ومن الملاحظ أيضا أن الخائف لايستطيع أن يركن فى المكان الواحد فترة طويلة . إنه يكون متقلقلا فى جلسته ، فيتردد بين الجلوس والوقوف والمشى فى الحجرة أو فى الحديقة أو الشارع ، ويتقلب بين المشى البطىء والجرى بغير انتظام فى الحركة . وهذا يدل على ما يتردى فيه الخائف من تردد وعدم استقرار وعجز عن اتخاذ القرارات بازاء ما يتجه صوبه أو مايقوم بعمله .

رابعا – صوت الخائف ومدى تحكمه فى حنجرته وأحباله الصوتية : من الملاحظ أيضا على الخائف عجزه عن السيطرة على أجهزة النطق لديه . فتجد أن ريقه يجف ، وأنه يصاب بالحبسة ، كما أنه اذا استطاع أن يتكلم ، فان صوته يكون مرتعشا ولايستقر فى طبقة واحدة .

فتخرج بعض الكلمات أو المقاطع حادة جدا ، بينما تخرج كلمات أو مقاطع أخرى منخفضة أو ضعيفة.وأكثر من هذا فان بعض مايفوه به الخائف يأتى همسا لايكاد يسمع . وإن دل هذا على شىء فانما يدل على مايقع من اضطراب وتوتر فى الاحبال الصوتية وفى باقى أجهزة النطق بما فى ذلك اللسان نفسه . وفى الحالات الشديدة من الخوف يبطل الكلام ليحل محله الصراخ والنحيب والبكاء بصوت مرتفع . وفى أحيان كثيرة تتداخل الكلمات بعضها فى بعض ، أو تخرج الكلمة وقد اضغمت مقاطعها بعضها فى بعض ، أو حل مقطع منها محل مقطع آخر . فلا يستطيع من يسمع أن يستبين ما يقصده الشخص الخائف مما يصوغه من كلام . وفى بعض الاحيان تجد أن كلام الخائف قد صار مجرد همهمة أشبه ما تكون بغمغمة الطفل . وهذا يشير إلى أن الخائف قد ينكص لفترة تقصر أو تطول إلى مرحلة الطفولة الباكرة بحيث لايعدو ما يستطيع أن ينطقه مستوى الطفل الصغير فى مرحلة الطفولة الباكرة .

خامسا – ما يقع من تغيرات بدخيلة جسم الخائف : اذا كنا قد عددنا فى البنود الأربعة السابقة ما يتبدى من مظاهر خارجية جسمية ، فان هذا لا يغنينا بالطبع عن التساؤل عما يقع من تغيرات جسمية داخلية . والواقع أن المقام لايتسع لتفصيل كل التغيرات الجسمية الداخلية لأن هذا يحتاج منا إلى حيز أكبر مما خصصناه لاستعراض تلك التغيرات الجسمية الداخلية . ولكن نستطيع بصفة عامة أن نقسم تلك التغيرات إلى مايلى : (ا) تغيرات خاصة بالقلب والدورة الدموية . فالقلب يدق بشدة وبسرعة هائلة . وفى بعض الحالات المفاجئة والخطيرة فان ما يطلب من القلب من عمل يفوق طاقته ومن ثم فانه قد يتوقف عن العمل . وطبيعى أن يتواكب ضخ الدم بشدة فى الشرايين مع زيادة ضغط الدم . (ب) شدة التنفس واضطراب حركته . فالخائف يجد نفسه فى شهيق وزفير شديدين . وفى بعض الحالات ينعكس الوضع فيكاد التنفس يتوقف تماما . (جـ) تدفق هورمون الأدرنالين بشدة فى الدم . فالغدتان فوق الكليتين تنشطان فيما تقومان بافرازه من هورمون الأدرنالين فى الدم ، مما يساعد على ظهور علامات الخوف الجسمية المتباينة التى عرضنا لها قبلا . (د) حدوث نشاط كبير فى الجهاز العصبى وبخاصة فى بعض مناطق المخ وفى بعض الحالات التى يصل فيها الخوف إلى حد الذعر ، فان قدرة وكفاءة المخ على العمل تخفتان بحيث قد يصل الأمر إلى حدوث شلل مؤقت أو شلل مستمر . وفى ببعض الحالات يكون الشلل الحادث متعلقا بعطب حدث بالمخ ، بينما قد يكون فى حالات أخرى شللا هستيريا يكون بمثابة عصاب أو عرض نفسى يتسنى علاجه بغير لجوء إلى وسائل العلاج الفسيولوجية الكيمائية . (هـ) حدوث تقلصات عضلية داخلية لا يقف عليها المشاهد من الخارج ،ولكن ردود فعلها وانعكاساتها تتضح فى العضلات الظاهرة للعيان .

ومن الطبيعي أن فصل التغيرات الجسمية الداخلية عن التغيرات الجسمية الخارجية هو فصل منهجي وليس فصلاحقيقيا واقعيا . ذلك أن النظرة الى الجسم يجب أن تكون نظرة تكاملية حتى ولو اضطررنا إلى التفصيل والقاء الاضواء على بعض الجوانب بصفة خاصة.

الحالة العقلية والوجدانية :

بينما نجد أن وصف الظواهر الجسمية الخارجية التي تبدو على الجانب الخارجي من جسم الخائف من الأمور السهلة والميسورة ، فاننا نجد أن وصف الحالة العقلية والوجدانية للخائف من الصعوبة بمكان . ولذا فلا نجد أمامنا سوى استبطان الحالة التي مررنا بها كخبرة ذاتية نحاول إحالتها إلى خبرة موضوعية وعامة تنطبق على أي شخص يعتوره الخوف . ولعلنا نستطيع تحديد القسمات العقلية أولا للخائف ، ثم نعمد بعد ذلك إلى تحديد القسمات الوجدانية لديه . والقسمات العقلية لدى الخائف تتحدد فيما يلي :

أولا – فيما يتعلق بالادراك : فمن الملاحظ أن الخائف لايستطيع إدراك جميع ما يصل إلى حواسه من احساسات . ولعلنا نذكر أن الادراك هو الترجمة العقلية لما يصل إلى مراكز الترجمة بالمخ من إحساسات عن طريق احدى الحواس الخمس . فبالنسبة للشخص الطبيعي ، فان معظم الاحساسات التي تنقلها التيارات العصبية من الحاسة المعينة إلى مركز الترجمة بالمخ الخاص بها يجد له ترجمة هناك . ونحن نقول معظم الاحساسات ولانقول جميع الاحساسات ، وذلك لأن بعض مايقرع باب الحواس لاينتقل إلى مراكز الترجمة الادراكية بالمخ ، أو لاينتقل إلى هناك بنفس القوة التي تسمح بحدوث الترجمة الادراكية . فالشخص النائم ، أو الشخص الغافل ، أو الشخص الواقع تحت تأثير مخدر ما ، أو الشخص الذى تركز ذهنه فى شيء ما سواء بالتذكر أم بالتخيل أم بالاستغراق التصورى التجريدى ، لا يستطيع أن يترجم كل أو معظم ما يصل إلى مراكز الترجمة الادراكية بمخه من احساسات . والواقع أن الشخص الخائف يكون شأنه شأن الشخص الواقع تحت تأثير مخدر . فمراكز الترجمة الادراكية بالمخ تضعف أو يبطل عملها إلى حد بعيد فى أثناء الشعور بالخوف . ولذا فان الشخص الخائف كثيرا ما يكون عرضة للارتطام بأى شيء يقف فى طريقه وهو يهرب من مصدر الخوف .

ثانيا – فيما يتعلق بالتذكر : وعلى نفس النحو فان الخائف لايكون متمتعا بنفس قوة الذاكرة التي اعتاد أن يتمتع بها . وفى بعض الحالات التي يستولى فيها الخوف على بعض الأشخاص ، فانهم ينسون أشياء أساسية فى حياتهم أو ما يتعلق حتى بأشخاصهم بما فى ذلك اسم أقرب الناس إلى الشخص الخائف ، بل قد ينسى اسمه هو شخصيا . ولعل ضباط الشرطة

ووكلاء النيابة يذكرون لك القصص الكثيرة عن ضعف ذاكرة الأشخاص الخائفين الذين يقومون باستجوابهم. فلقد يصل الحال بالشخص الخائف أن يفقد ذاكراته تماما لفترة تقصر أو تطول بحيث لايستطيع الإجابة عن أى شيء يتعلق بشخصه أو بعنوانه أو باسماء أقرب الناس اليه . ولقد يظن فى بادىء الامر أن المتهم الذى يفقد ذاكرته ممتنع عن الكلام فتوجه إليه التهديدات التى لا تستطيع اعادة الذاكرة إليه ، بل انها قد تزيد الطين بلة وتجعل حالة فقدان الذاكرة أشد وأنكى .

ثالثا – فيما يتعلق بترتيب الأفكار ومنطقية التفكير : فالشخص الخائف لايتسنى له أن يرتب أفكاره أو أن يراعى المنطق فى النسق الفكرى الذى يتبعه . وعلى العكس من هذا فان الشخص الخائف يفكر بطريقة مهوشة ومشوشة . إنه يضحى ضحل التفكير بحيث لا يستطيع أن يقدم فكرا مترابطا يعوَّل عليه . وانك لتجد الخائف وقد نكص إلى مستوى منحط من التفكير ربما يكون فى مستوى تفكيره أيام كان طفلا . وطبيعى أن تأتى كلمات الخائف مبعثرة بلا نسق ينتظمها . إنها تكون كعقد منفرط ومبعثر هنا وهناك بغير نظام أو ترتيب . ولقد يقول الخائف كلاما يعطى المعنى العكسى لما يقصده من معان . فهو يصف الابيض بالسواد ، ويصف السواد بالبياض . ولقد يصدر عن الشخص الخائف كلام يؤذى مشاعر من يخاطبهم بحيث يظنون أنه يهاجمهم مع أنه يكون فى ذلك صادرا عن عجز عن الابانة عن المقاصد .

أما عن القسمات الوجدانية التى يتسم بها الشخص الخائف ، فاننا نستطيع أن نحددها فيما يلى :

أولا – من حيث تبلور الوجدانات حول الأشياء والأشخاص : إنه بالنسبة للشخص العادى ، أو لنفس الشخص قبل أن يحس بالخوف ، أو بعد أن يزايله الخوف ، فان وجداناته تكون متبلورة حول مجموعة من الأشياء والأشخاص ، بل وأيضا حول مجموعة من المحاور الفكرية أو القيم . ولكن الخائف يتصف بتشتت الوجدان . فاذا قمنا بتشبيه الوجدانات بمجموعة من الأسماك تتجمع فى بقعة معينة بالبحر أو النهر ، ثم قذف طفل حجرا حيث يوجد ذلك التجمع فتتفرق أشتاتا مبعثرة ، فاننا على نفس النحو نقول إن مصدر الخوف يشبه الحجر الذى ألقى به على السمك المتجمع . فهو يشتت الوجدانات ويهدم الكيان التبلورى لتلك الوجدانات التى التفت وتبلورت حول محور معين . والواقع أنه فى ظل الخوف فان جرائم كثيرة تقع منها هتك العرض والتخلى عن المبادىء والمعتقدات الأساسية . ولقد وجد أن الكثير من الجرائم تصدر عن أشخاص استولى عليهم الخوف بحيث صاروا مطواعين لزعماء العصابات يوجهونهم كيفما يشاءون تحت وطأة الشعور بالخوف .

ثانيا – من حيث التقلب العاطفى : فالشخص الخائف لايتسم بالثبات العاطفى ، بل يتسم بالتقلب بين العواطف المتعارضة . ففى ظل الخوف قد تجد الخائف يقبل عدوه بحراره كأنهما صديقان حميمان . وفى ظل الخوف أيضا قد تجد الخائف يتنكر لصديقه ويبدى له الكراهية الشديدة . وفى الحالتين : حالة ابداء الحب الشديد للعدو وحالة ابداء الكراهية الشديدة للحبيب ، فان الشخص الخائف لايكون متصنعا فيما يبديه من مشاعر الحب والكره ، بل يكون ما يبديه من مشاعر حقيقى وصادق وترجمة لما يعتوره من تناقض وجدانى شديد . وفى هذه الحالات يجب الامتناع عن إصدار أحكام أخلاقية على الشخص الخائف ، بل يجب النظر إلى سلوكه من زاوية سيكلوجية بحته .

ثالثا – التذبذب فيما بين الخوف والغضب : لقد سبق أن ذكرنا أن هناك تداخلا فيما بين تعبيرات الخوف وتعبيرات الغضب . والواقع أن ذلك التداخل لايعنى التطابق . فتعبيرات الخوف متمايزة فى مجموعها عن تعبيرات الخوف . والواقع أن التداخل الملاحظ بين تعبيرات الخوف وتعبيرات الغضب انما هو فى الواقع تذبذب بين مشاعر الخوف ومشاعر الغضب ، بمعنى أن الشخص الخائف ينحو عاطفيا إلى الغضب ، كما ينحو الشخص الغاضب إلى الخوف . ولقد نعبر عن ذلك التداخل بطريقة أخرى فنقول إن الخوف والغضب يوجدان لدى الشخص الخائف ولكن تكون نسبة الخوف إلى الغضب كبيرة . وعلى العكس من هذا فانه فى حالة الشخص الغاضب ، فان نسبة الغضب إلى نسبة الخوف تكون كبيرة .

رابعا – الأحلام وأحلام اليقظة : لاشك أن الأحلام التى تواتينا خلال النوم ، وأحلام اليقظة التى نحوكها فى أثناء يقظتنا تجلى عن مدى إحساسنا بالطمأنينة . فالشخص الخائف لايحلم أحلاما تدل على الطمأنينة ، وكذا فان الخائف لايحوك أحلام يقظة تشير إلى سلامه الداخلى . واذا كانت أحلام اليقظة تشير إلى الحالة الوجدانية التى يمر بها الشخص فى أثناء حوكه لها ، فان أحلام النوم تمتد لتشير إلى الحالة الوجدانية للمرء فى الحاضر والماضى على السواء . فلقد تكون غير خائف بل مطمئنا تماما قبيل انخراطك فى النوم ، ولكنك برغم ذلك تحلم وأنت نائم حلما مزعجا مخيفا . فيكون حلمك المزعج مؤشراً إلى ما سبق أن عانيته من مخاوف سابقة قد تمتد إلى طفولتك الباكرة .

خامسا – التشنجات الانفعالية وما قد يعتور المرء من جنون مؤقت أو دائم :

فالشخص الخائف اذا ما اشتد خوفه فانه لايقتصر على ما يحس به من خوف ، بل إنه قد ينخرط فى سلسلة من الانفعالات الشديدة التى تبدو عليه فيما ينخرط فيه من حالة نفسية غامرة . ولعل من أهم مظاهر انفعالات الخوف الشديد ما يلم بالشخص الخائف من تشنجات

تبدو فى تقلصات وجهه ، وما قد ينخرط فيه من إغماء وفقدان الوعى . ولقد تبدو أعراض هستيرية فى أثناء سيطرة الخوف على بعض الأشخاص ، فيصابون بمجموعة من الهلوسات hallucinations البصرية والسمعية . فلقد يشاهد الشخص الخائف أشباحا مخيفة تتربص به الدوائر ، كما أنه قد يسمعها توجه إليه التهديدات المتباينة بأنها ستخنقه أو تفترسه أو تلقى به فى البحر أو فى النار . والشخص الخائف من هذا النوع يؤكد لمن حوله بعد استعادته لطمأنينته أنه شاهد وسمع الاشباح بالفعل مما يؤكد وجودها . ولكنك تلمح على وجهه وهو يقص عليك ما شهده ورآه دلائل الخوف .

ارادة الخائف :

كما أن الخوف يترك آثاره على المظاهر الخارجية لجسم الخائف ، وكما أنه يترك آثاره فى تفكير الخائف وعواطفه ، فانه على نفس النحو يترك آثاره فى القطاع الثالث من الجهاز النفسى بالشخصية ، أعنى الارادة . ذلك أن بالشخصية ثلاثة مقومات أساسية ، هى الفكر والوجدان والنزوع . ومثلث الشخصية هذا يتبدى على المرآة الخارجية أعنى الجسم .

ولعلنا فيما يلى نحدد الملامح الرئيسية التى تتميز بها إرادة الشخص الخائف .

أولا – من حيث قوة الإرادة : الواقع أن الخوف يعمل على إضعاف إرادة الخائف . فاذا ما قمنا بقياس المنجزات التى يضطلع بها أحد الأشخاص وهو مطمئن ، فاننا نجدها أكثر بكثير من منجزاته وهو فى حالة من الخوف . بيد أننا نميز هنا بين نوعين من المنجزات : النوع الأول هو النوع الرتيب أو الروتينى أو النمطى الخالى من الابتكار . أما النوع الثانى فهو النوع الابتكارى الابداعى . وما نقصده بالنقص فى الانجاز هو هذا النوع الثانى . فالشخص الخائف لايستطيع أن يبدع . وان هو أبدع فان إبداعه يكون قليلا جدا اذا ما قيس بما يبدعه وهو مطمئن غير خائف . ومن جهة أخرى – وعلى النقيض من ذلك – فاننا نجد أن الخوف يمكن أن يحفز على كثرة الانتاج والانجاز بازاء النوع الأول من الانجازات . ولكن حتى بالنسبة لتلك الأعمال الروتينية النمطية الخالية من الابداع فان هناك حدا وقدرا من الخوف يعمل على زيادة الانجاز . ولكن اذا ما زاد ذلك الحد أو القدر عن معدل معين ، فان الانجاز يقل أو يمتنع تماما .

ثانيا – من حيث نوعية الأداء أو الانجاز : قلنا إن الخوف لايحفز المرء على الابداع ، بل إنه يعطل القدرات الابداعية لديه . ومعنى هذا فى الواقع أن ما ينجزه الشخص الخائف من أعمال روتينية يكون غير قابل للتطور على يديه . ذلك أن ما يستشعره من خوف يجعله شخصا ملتزما

بالخطوط العريضة والخطوط الدقيقة فى نفس الوقت . فهو يصير شخصا متقولبا فى قالب ضيق لايستطيع تخطى حدوده . ولذا فانك تجد الروتين الحرفى يتفشى فى الأجهزة الحكومية والشركات التى تشيع الرعب فى أوصال العاملين فيها . وعلى نقيض العقوبات التى تشيع الخوف فى نفوس العاملين ومن ثم تجعلهم مقيدين بالحرفية والنمطية والقوالب الجامدة فاننا نجد أن الحوافز والمكافآت المادية والأدبية تشجع على الابتكار . ذلك أن تلك المكافآت والحوافز تشيع الطمأنينة والثقة ، ومن ثم فانها تشيع الجو المناسب لاعمال الفكر والتحليق فى أجواء الخيال الابتكارى .

ثالثا – من حيث طول النفس والمواصلة : فالخوف لايسمح بطول النفس فى الانجاز ، كما أنه لايسمح بالمواصلة والمواظبة على أداء العمل . وما قد يبدو من نفس طويل أو من انتظام على العمل وعدم التخلف ، إنما يكون بغير رصيد داخلى . فشتان ما بين النفس الطويل الذى يصدر عن صميم الشخص ، وبين ما يبدو كأنه نفس طويل مع أنه مجرد نتيجة للضغط الخارجى المستمر والارهاب الذى لايقف عند حد مما يضطر العامل إلى الاستمرار فى العمل عن غير رغبة فى دخيلته ، بل عن كراهية ومقت لما يضطلع به من أداء . وكذا الحال بازاء المواصلة والانتظام على العمل وعدم الانقطاع عنه . فشتان ما بين موظف ينتظم على عمله ولايكاد ينقطع عنه الا الضرورة القصوى ولأعذار قاهرة ، وبين موظف يفعل ذلك خوفا من العقوبات التى يمكن أن توقع عليه اذا هو انقطع عن العمل . فالمحك الرئيسى الذى يجب أن نأخذه فى اعتبارنا هو الباعث الداخلى والنشاط الصادر عن رغبة صادقة وحب قلبى للانجاز وما يحيط به من ظروف وأجواء .

رابعا – من حيث العلاقات الاجتماعية بين رفقاء العمل أو بين العامل والجمهور :

فالشخص الخائف يكون فى حالة توجس وترقب وحرص لدى التعامل مع غيره من رفقاء العمل . إنه يحس بأن كل واحد من الزملاء والمرءوسين والرؤساء يتربص به الدوائر . ومن ثم فان عليه أن يقدم رد فعل مماثل لما يتلقاه منهم أو لما يتوقع أن يتلقاه منهم من مؤامرات وايقاعات . فعليه إذن أن يتربص هو الآخر بهم وأن يتغذى بهم قبل أن يتعشوا هم به كما يقال فى المثل السائر . ومن الملاحظ أيضا أن الشخص الخائف يكون فى حالة من الاستئساد والصرامة الشديدة مع من هم أضعف منه . واذا كان الشخص الخائف متمتعا بالسلطة وفى يده الحل والربط ، فانه ينحو اذن إلى إذلال كل من لهم مصلحة عنده . ولعلنا نقع على مفتاح تعطيل الأعمال وايقاف المصالح والتسويف ووضع العراقيل أمام كل مصلحة لأحد المواطنين فى كثير من المصالح والشركات عندما نتفهم هذه الحقيقة ، وهى أن جو الخوف الذى يشيع

ويشرى فى نفوس الموظفين هو المسئول عن هذه الظاهرة الاستبدادية التى يتشبث بها كثير منهم فى تعاملهم مع الجمهور.

خامسا – من حيث مدى تفهم غرضية العمل والأهداف القريبة والبعيدة له : فالواقع أن الشخص الخائف يركز فكره على الأداء دون أن يفهم ما يرمى إليه ذلك الآداء من أهداف. فالتلميذ الخائف يستذكر الجزئيات التى تقع أمامه ، ولكنه لايستطيع أن يربط فيما بينها بحيث تشكل تلك الجزئيات كلا متكاملا يستهدف هدفا شاملا أو غاية مترابطة متكاملة . وقل نفس الشيء بالنسبة للموظف الذى يضطلع باحدى المسئوليات . إنه يحصر نطاق تفكيره فى الممارسة الادائية الجزئية ، بينما تفوته البصيرة بالأهداف القريبة والبعيدة للعمل . ولذا فان مثل ذلك الموظف الخائف لايستطيع أن يحل طريقة جديدة للأداء محل الطريقة القديمة ، ولايستطيع أن يقدر العواقب التى تترتب على تعطيل الانجاز أو على عدم تحقيق الأهداف التى يصبو إليها أصحاب العمل أو أصحاب المصالح .

وبعد أن استعرضنا الملامح الرئيسية التى تتميز بها ارادة الشخص الخائف ، فاننا نحاول تصنيف الارادة الخائفة إلى ارادات متباينة . ولعلنا نستبين الأنواع التالية من الارادات الخائفة :

أولا – الارادة العاجزة : فالشخص الخائف قد يصير صاحب إرادةعاجزة عن النهوض بالأعمال المنوطة به . فتجد أن صاحب تلك الارادة لا يستطيع أن يبذل الجهد الكافى المطلوب للعمل المنوط به . فهو لايكاد يقطع نصف الشوط من الانجاز حتى يقف مكتوف اليدين عاجزا عن الاستمرار فى الأداء . ولايكون عجزه ناجما عن طبيعته التى لايناسبها ذلك العمل ، بل يكون السبب فى ذلك هو الخوف المسيطر عليه والآخذ بناصيته كل مأخذ .

ثانيا – الارادة المشلولة : وهذا النوع من الارادة لايكون صاحبها عاجزا عن اتمام العمل الذى بدأه ، بل يكون عاجزا عن مجرد البدء فى العمل . انه لايكاد يستطيع تحريك العمل على الاطلاق . وفى هذه الحالات قد يكون الشلل الارادى كاملا بحيث تجد أن الشخص المشلول اراديا يركن إلى السرير وقد تدثر باللحاف وغطى كل جسمه حتى وجهه وتكور كالكرة . ولا يستطيع أن يفعل أى شيء بما فى ذلك مغادرة سريره . ولايكون السبب فى الشلل الارادى ضعفاً أصاب أجهزة الجسم ، بل يكون السبب هو الخوف الشديد الذى سبب ذلك الشلل الارادى .

ثالثا – الارادة المتهورة : وبدل أن ينتج الخوف عجزا اراديا أو شللا اراديا ، فان الشخص الخائف قد يصاب بالتهور الشديد فى الأداء مما يترتب عليه الكثير من المخاطر التى تحيق

بالعامل أو بحياته او بحياة الآخرين . فلقد تجد السائق الذى استولى عليه الخوف وقد داس على البنزين بحيث تكاد سيارته تطير من فوق الأرض . ولايكون سلوكه ناجما عن جرأة وشجاعة أو عن مغامرة ، بل يكون ناجما عن الخوف الذى استولى عليه وجعل إرادته غير ملجمة بالحكمة والروية .

رابعا – الارادة المتذبذبة : وفى بعض الأحيان نجد أن الخوف يخلق لدى الشخص الخائف إرادة متذبذبة بين أكثر من موقف . وصاحب هذه الارادة ينتحى مرة إلى اليمين ، ومرة أخرى إلى اليسار . إنه يصدر القرار ثم يسارع إلى الغائه ، وهو يكون الشخصية الصارمة ولكنه ما يفتأ أن يصير الشخصية الطرية التى لا تعرف إلى الانضباط سبيلا . وصاحب الارادة المتذبذبة يكون صعب المراس . فالمتعاملون معه لايستطيعون التنبؤ بما سوف تكون عليه إرادته فى اليوم التالى أو حتى فى اليوم نفسه . إنه يكون متعبا لكل من يتعاملون معه بمن فى ذلك ذووه وأقرب الناس إليه .

خامسا – الارادة المتضاربة : والخوف ينتج فى بعض الحالات إرادة متضاربة فى الوقت الواحد . فالمدير صاحب تلك الارادة يصدر الأمر ونقيضه فى نفس الوقت . والوالد صاحب هذه الارادة يتخذ فى تربيته الموقف ونقيضه بازاء أبنائه فى نفس الوقت . فهو يشجع أولاده على اللعب فى الشارع ، ولكن بمجرد أن ينزلوا إلى الشارع للعب تنفيذا لتوجيهاته ، فانه يقيم الدنيا ويقعدها ويوقع عليهم أشد العقوبات . ويكون موقفه المتضارب هذا ناجما عن تضارب بين قيمه وعن تضارب إرادته فى نفس الوقت .

التعبير عن الخوف :

إلى جانب ما يتبدى على ملامح الوجه من انفعالات عندما يخاف المرء ، فان هناك فى الواقع مجموعتين من التعبيرات يستخدمها الخائف ليعبر بهما عما يعتمل فى دخيلته من مخاوف . والمجموعة الأولى تصدر عن الشخص الخائف وهو فى حالة وعى وادراك وبصيره بما يبديه . أما المجموعة الثانية من وسائل التعبير عن الخوف ، فان الخائف يبديها بطريقة لاشعورية . ولنبدأ بعرض سريع لوسائل التعبير الشعورى الارادى عن المخاوف على النحو التالى :

أولا – التعبير باللسان أو بالقلم كطلب للنجدة . والواقع ان التاريخ الفردى المسجل عن تاريخ حياة الأبطال ، وكذا تاريخ الدول إنما يشير إلى أن الخوف عندما يعتمل فى قلوب الأفراد والجماعات ، فان طلب النجدة باللسان أو بالقلم يكون من أهم الوسائل التى يعبر بها الفرد الخائف أو الزعيم الذى يعبر عن خوف المجموعة التى يتزعمها فيطلب النجدة.فهذا يشكل واحدة من أهم وسائل التعبير الارادية عن الخوف المعتمل بالقلوب .

ثانيا – التعبير عن الخوف بالحركة والبعد عن مصدر الخوف . فالشخص قد يخطط للتخلص من مصدر الخوف الذى يهدد أمنه وذلك بالبعد المكانى عن ذلك المصدر . ذلك أن بعض الأخطار لاتكون مباغتة ومفاجئة ، بل تكون مستمرة أو متوقعة . من ذلك مثلا مايقرره المهندس المعمارى المسئول عن أن إحدى العمارات مهددة بالسقوط . طبيعى أن يعمد سكان تلك العمارة إلى الهروب من تلك العمارة إلى سواها . بيد أن هربهم منها لايكون مفاجئا كما هو الحال اذا ما بدأت تلك العمارة فى التصدع فجأة وبغير سابق إنذار وقد بدأت تنهار بالفعل . فسكان العمارة التى يقرر المهندس المعمارى أنها قابلة للانهيار وأن من الواجب إخلاؤها لايسارعون إلى الهروب فى التو واللحظة وهم لايلوون على شىء ، بل إنهم يفعلون ذلك بتريث وتمهل وتخطيط مستتأنى .

ثالثا – التعبير عن الخوف بالاقناع . فلقد يكون مصدر الخوف متمثلا فى شخص ما يكون صاحب حق أو واهم أنه صاحب حق ، ويهدد برفع قضية فيخاف الشخص الذى يوجه إليه التهديد ، فيقابل خصمه للتفاهم حتى يثنيه عن اتباع الطريق القانونى ويأخذ فى التفاوض معه للتوصل الى حل وسط يرضى الطرفين . فمثل هذا التصرف ومحاولة اقناع الشخص الذى يهدد برفع القضية إنما يكون بطريقة شعورية إرادية ، ويكون التعبير عن الخوف خاضعا للتخطيط ، بمعنى أن حل المشكلة يكون فيه الضمان لتزايل الخوف عن قلب ذلك الشخص الخائف من رفع القضية عليه .

رابعا – الاستعطاف ومحاولة تليين القلب وصرف الغضب . وهذا النوع من التعبير شبيه بالنوع السابق . بيد أن ما يستهدفه الشخص هنا ليس الاقناع بقصد الوصول إلى حل وسط يرضى الطرفين ، بل ان ما يستهدفه الشخص هنا هو مخاطبة القلب والتأثير فى الوجدان . والحالات التى تنخرط تحت هذا البند يكون الخطر فيها محدقا بحياة الشخص أو متاعه . تخيل انك تقود سيارتك فى طريق خال فخرج عليك بعض قطاع الطرق يهددونك بالسلاح وأنت لاتملك سلاحا . فماذا عسى أن يكون موقفك ؟ انك بالطبع ستحاول التأثير فى عواطفهم وتحاول تليين قلوبهم حتى يتركوك بغير أذى . ولا شك أن توسلاتك تكون ذات تخطيط فورى ولكنه تخطيط عاطفى يخاطب ذاتية المهاجمين ، ولايكون تخطيطا موضوعيا يتعلق بقطاع موضوعى مشترك بينكما . ولكنه على أى حال تخطيط عن وعى وشعور وارادة .

خامسا – التعبير بالتحدى . بيد أنك قد لاتجد فى موقفك السابق أنك ستنجح فى إثناء المجرمين من ممارسة جريمة الاعتداء عليك . فماذا تفعل ؟ انك ربما تتذكر أن بسيارتك مسدساً كنت قد اشتريته منذ فترة ورخصته ولكنك لم تستخدمه على الاطلاق . فيرشدك عقلك الواعى

بأن تضع خطة فورية حتى يتسنى لك إخراج المسدس من المكان الوضوع فيه بالسيارة . انك تقوم أولا – باقناع المجرمين بأنك ستسلمهم حافظة نقودك الموجودة فى ذلك المكان . ولكنك تفاجئهم بانتزاع المسدس بسرعة واشهاره فى وجوههم مهددا بأنك ستطلق عليهم النار فى الحال اذا لم يبعدوا عن سيارتك . وبالفعل فانك تطلق عيارين أو ثلاثة بتجاههم فى الهواء ، بينما هم يلوذون بالفرار .

وبعد أن عرضنا لوسائل التعبير الشعورية الارادية عن الخوف ، فاننا نبدأ بعد هذا فى استعراض وسائل التعبير اللاّشعورية عما قد يساور المرء من مخاوف . وتتلخص تلك الوسائل اللاّشعورية فيما يلى :

أولا – وسائل التعبير الفنى التشكيلى : فالفنان التشكيلى فى أثناء انخراطه فى عمله الفنى ، فانه يعبر عن غير قصد من جانبه عما يعانيه آنيا من شعور بالخوف ، أو عما يكون قد كبته فى لاشعوره من مخاوف منذ عهد بعيد فى مراحل نموه بدءا من الطفولة الباكرة . فعن طريق الصور ترسم ، أو عن طريق التمثال ينحت ، فان الفنان يخرج مشاعره الشخصية ويصوغها فى تلك الصيغ الفنية . وبتعبير آخر فان العمل الفنى التشكيلى يتضمن جانبا موضوعيا من جهة ، وجانبا ذاتيا من جهة أخرى . وهذا الجانب الذاتى يتضمن فى نطاقه الخبرات المخيفة التى عانى أو يعانى منها الفنان . وليس بالضرورة أن تكون الصورة أو التمثال معبرا تعبيرا صريحا وصارخا عن الخوف ، بل إن بعض العناصر التى يحملها العمل الفنى – وهى قد تكون عناصر قليلة أو عناصر كثيرة – قد تشير إلى مشاعر الخوف المعتملة لدى الفنان .

ثانيا – ما يصوغه الأديب من نثر أو شعر : فالأديب فى نثره أو شعره يجد أن قلمه قد أخذ يعبر بصراحة أو بشكل رمزى عما ساوره أو يساوره من مخاوف . بيد أن ادراك الأديب لتلك العناصر التعبيرية يأتى بطريقة بعدية ، أى بعد أن ينتهى القلم من التعبير . ولقد لايستطيع الأديب إدراك تلك العناصر التى تدل أو تشير إلى مخاوفه ، بل يستنبطها الناقدون لعمله الأدبى .

ثالثا – والواقع أن ما يخرج على لسان أو قلم الأديب من ألفاظ تنم على الخوف ، وكذا ما ينسرب من بين يدى الفنان التشكيلى من عناصر تعبيرية فنية تشير إلى ما اعتمل ويعتمل لديه من مخاوف . إنما يدل على ما يعتمل لديه من عملية لاشعورية يطلق عليها اسم ميكانزم الاسقاط projection .

والاسقاط هو انعكاس ما يعتمل لاشعوريا لدى أحد الأشخاص على ما يضطلع به من أعمال ، وعلى جميع مناشطه المتباينة . ولقد يتبدى الاسقاط فيما يعكسه الشخص الخائف على

المحيطين به من أشخاص مطمئنين . فيتهمهم بأنهم مرتعدون خائفون . فبدل أن يستقرىء الخائف مخاوفه الذاتية المعتملة فى طياته . فانه يلقى بالاتهامات على غيره . وكأنه هو خال من الخوف وهم الخائفون . وهذا الموقف أو هذه العملية هى فى الواقع عملية لاشعورية يقوم الشخص بواسطتها باشاعة الطمأنينه فى نفسه . ولكن هيهات أن ينجح فى ذلك . إنه كمن يدفس رأسه فى الرمال متشبها بالنعامة التى تخفى نفسها من الصياد بدس رأسها بعيداً عن الأنظار .

رابعا – **التمثيل** : فالممثل على خشبة المسرح أو على شاشة السينما أو التلفزيون عندما يتقمص شخصية ما . فانه لايكون مجرد حامل لثوب تلك الشخصية ، بل انه يكون متحدا بها – بفرض أنه ممثل صادق فى التمثيل . فهو يعيش قوامها النفسى ومشاعرها المتباينة . وحتى ما تحمله الشخصية التى يمثلها الممثل من مخاوف يقوم الممثل بالتعبير عنها ، إنما يكون فى نفس الوقت معبرا بشكل غير مباشر . بل وبشكل لاشعورى عن مخاوفه الشخصية . من هنا فأن علماء النفس يقررون أن التمثيل الصادق مفيد نفسيا لأنه يشكل فرصة يعبر الممثل من خلالها عن مخاوفه ، وذلك عن طريق تلبسه بالشخصية المستعارة التى يمثلها ويحيا حياتها طوال مدة تمثيله لها . والواقع أن الطفل الصغير فى لعبه الايهامى إنما يكون مُمثلا لأنه يتخيل نفسه فى مواقف متباينة فيحوك علاقات اجتماعية غير موجودة ويعبر من خلالها عما يحسه من مشاعر متباينة بضمنها مشاعر الخوف .

خامسا – الرغبة فى الانتماء إلى مجموعة . فالإنسان بطبعه يخشى من الانعزال بعيدا عن الصحبة . ومن هنا فانه يهفو إلى أن يكون عضوا فى جماعة ينتمى إليها. ذلك أن الرغبة فى الانتماء هى فى نفس الوقت رغبة لاشعورية فى التعبير عن الخوف المعتمل فى النفس ، والصبو نحو التخلص من عبء المخاوف المعتملة فى القلب . فنحن بالانتماء إلى أسرة أو إلى مدرسة أو إلى وطن أو إلى قومية أو إلى أى مجموعة ، صغرت أم كبرت ، انما نكون فى نفس الوقت معبرين عن الرغبة فى ذب المخاوف عن قلوبنا . تلك المخاوف التى نستشعرها فى وحدتنا .

دور القيم الاجتماعية :

يختلف التعبير عن الخوف من مجتمع لآخر ، وفى نفس المجتمع من عصر إلى عصر آخر . ويرجع هذا الاختلاف إلى تطور القيم الإجتماعية فى المجتمع الواحد من جهة ، وإلى تباين القيم الاجتماعية بتباين المجتمعات الإنسانية من جهة أخرى . والواقع أن القيم الاجتماعية تتلبس بصيغ متباينة لعل أهمها مايلى :

أولا – المعتقدات الدينية : فلكل مجتمع معتقداته الدينية التى يعتقد أبناؤه أنها نازلة إليه من السماء وأنها ليست مستوحاة من عقول وعواطف الناس . ومن ثم فان المعتقدات الدينية تتسم بالتقديس والتنزيه عن الخطأ ولها فى قلوب الناس الأثر الأكبر ، بل إنها تؤثر أيضا فى سلوك الأفراد والجماعات تأثيرا بالغا . ولعلها تؤثر أيضا فى قطاع العاطفة المتعلق بالخوف . فنحن نعلم أن الأديان بعامة تؤمن بالمثوبة من جهة ، وبالعقوبة من جهة أخرى . فالأخيار سوف يحظون بالبركات فى الدنيا والآخرة ، بينما يلاقى الأشرار العقاب فى الدنيا والآخرة أيضا . ومن الطبيعى أن يخاف المؤمنون بالدين المعين من فقدان لنعيم ينتظرهم ومن عقوبة توقع عليهم إن هم خالفوا عن أوامر دينهم . ناهيك عن إحساس المؤمنين بالدين بأن الرعاية الآلهية تشملهم ، فلا خوف اذن عليهم ، ومن ثم فانهم يحسون بالطمأنينة تغمر قلوبهم وتكلأهم وتحميهم من كل شر . وحتى اذا لحقهم شر ، فان إيمانهم بالتعويض عما يلاقونه فى الدنيا من شر بما سوف يحظون به من نعيم فى الآخرة ، يحملهم على تحمل المشاق والالآم والاضطهادات المتباينة .

ثانيا – المعتقدات السحرية : ومن جهة أخرى فان جميع المجتمعات تقريبا تؤمن بالسحر إلى جانب إيمانها بالدين . فثمة المعتقدات السحرية إلى جانب المعتقدات الدينية . والاعتقاد فى السحر صنو للاعتقاد فى الدين . ذلك أن المؤمنين بوجود إله هو مصدر كل خير ، يؤمنون فى نفس الوقت بوجود شيطان هو مصدر كل شر . وكما أن الخبرات تأتينا من مصدر علوى إلهى ، فان الشرور تأتينا من مصدر سفلى شيطانى . بيد أن هذا لاينفى انزال العقوبات على الأشرار من الجانب الآلهى . والسحر هو الوقوع فى براثن القوى السفلية تؤثر فيه بطرق خفية روحانية . ذلك أن الشيطان كائن روحانى شرير . واتباع ذلك الشيطان والمتقربون إليه بالعبادة الشيطانية هم السحرة . فهم يتخذون الشيطان معبودا لهم يسجدون له ويقدمون إليه القرابين والأضحيات . وبعض تلك الأضحيات تكون من البشر أنفسهم وبخاصة الاطفال . ولاشك أن السحرة يخافون من الشيطان ويخشون بأسه وتأثيرة الردىء فيهم ، ولذا فانهم يخشعون أمامه ويتقربون إليه ويرضخون لارادته الشريرة . ومن جهة أخرى فان معظم الناس فى المجتمعات المتباينة يخافون من أن يلحق بهم تأثير السحر الذى يحوكه لهم السحرة فيوقعون بهم الضرر فى أجسادهم أو عقولهم أو قلوبهم أو أولادهم أو أموالهم . والواقع أن الخوف من الحسد هو فى نفس الوقت خوف من السحر . ذلك أن السحر يعتبر فى نفس الوقت سحر غير مقصود . فالحاسد هو شخص يمارس السحر عن غير قصد من جانبه .

ثالثا – العرف والقانون : العرف هو القانون غير المكتوب . وكثيرا ما يستمد القانون الرسمى فى أحد المجتمعات مقوماته وبنوده من العرف السائد بذلك المجتمع . ولقد يتعارض العرف مع

القانون الرسمى وتقوم حرب شعواء بينهما . خذ مثالا لذلك الأخذ بالثأر فى بعض قرى الصعيد . ان الذى لايأخذ بالثأر فى تلك الأنحاء يعد خارجا ومتحديا للعرف السائد . وفى نفس الوقت فاننا نجد أن من يأخذ بالثأر وهو المنفذ لما يأمر به العرف ، يكون فى نفس الوقت مخالفا للقانون ويحكم عليه بالسجن لأنه قتل عن عمد وبسبق الاصرار والترصد . وخذ مثالا آخر يتعلق بالجنس . فالعرف فى كثير من بلادنا يأمر بأن تجرى عملية طهارة للبنت فى الطفولة . ولكن القانون يمنع ذلك لأن تلك العملية ضارة بالأنثى . وقل نفس الشىء بالنسبة للعديد من الأعراف والقوانين . وهنا نجد الخوف وقد توزع بين العرف من جهة ، والقانون من جهة أخرى . فأذا ما رجحت كفة الخوف من العرف على كفة الخوف من القانون ، فان الشخص يتبع أوامر العرف ويضرب صفحا بأوامر القانون . والعكس كذلك صحيح . فاذا كانت كفة الخوف من القانون هى الراجحة ، فانه يكون اذن مسموع الكلمة من جانب المواطنين .

رابعا – التقاليد الاجتماعية : ترتبط التقاليد الاجتماعية بالعرف تمام الارتباط . فلقد ينظر إلى التقاليد الاجتماعية باعتبارها التطبيق المباشر لما يأمر به العرف . بيد أن هناك فى الواقع فرقا بين التقاليد الاجتماعية وبين العرف . فحفلات الزار تعتبر ضمن التقاليد الاجتماعية فى بعض البيئات المصرية . ولكن تلك الحفلات لاتعبر عن عرف سائد بتلك البيئات ، بمعنى أن الذى لايقيم أو يشارك فى تلك الحفلات لايكون خارجا على ما يقرره العرف بها . فهى لا تتعلق بالنواهى ولا تتضمن عقوبة فى حالة الاغضاء عنها أو عدم الأخذ بها ، بل إن الذى لايقيم تلك الحفلات ولايشارك فيها لا يكون منتقدا ولايعد خارجا على أصول السلوك الاجتماعى السليم .

خامسا – التذوقات الجمالية والأخلاقية : لكل بيئة اجتماعية تذوقاتها الجمالية والأخلاقية . فثمة الجميل والقبيح من جهة ، وثمة الخير والشر من جهة أخرى . والجمال قد يرتبط بالخير وقد ينفصل عنه ، كما أن القبح قد يرتبط بالشر وقد ينفصل عنه . فكونك تقتنى سيارة جميلة أو كون السيدة الأنيقة ترتدى فستانا جميلا ، لا يعنى أن الحصول على سيارة جميلة أو فستان جميل اقتناء أخلاق حميدة . لقد يكون اقتناء السيارة الجميلة بطريق السرقة أو الرشوة ، وقد يكون الفستان الجميل من مال حرام أو نتيجة الارتماء فى أحضان الرجال والانحراف الجنسى ، فيكون الحكم على اقتنائه حكما غير متفق مع الأخلاق الكريمة . ولكن مع هذا فان السيارة الجميلة تظل جميلة ، والفستان الجميل يظل جميلا . وعلى العكس من هذا فان الناسك المتعبد الزاهد قد لا يحيط نفسه بالجمال فى مظهره أو مسكنه فلا يمتلك سيارة جميلة ولكن عدم استمساكه بالجمال فى زيه لايعنى خروجه على الأخلاق الكريمة . بيد أن هذا لايعنى أن الجمال ينعزل دائما عن الخير ، أو أن القبح ينفصل دائما عن الشر . فلقد تكون صاحب سيارة جميلة

وعلى خلق كريم فى نفس الوقت ، وقد تكون السيدة متأنقة فى ملبسها ومظهرها وصاحبة سلوك لاغبار عليه . ومن جهة أخرى فان صاحب الهيئة المزرية قد يكون شريرا ، وقد تكون المرأة التى لاتعتنى بجمالها شريرة فاسقة .

والواقع أن المجتمع – أى مجتمع – له تقييماته الجمالية والأخلاقية ، وهو يطالب أبناءه بأن يكونوا مستمسكين بتلابيب الجمال من ناحية ، ومتمسكين بتلابيب الأخلاق الكريمة من جهة أخرى . ولاشك أن الأخلاق الكريمة قد تتمشى مع التعاليم الدينية وقد تتباين عنها وذلك لأن لكل مجتمع تذوقاته الخاصة به . فلقد يكون الشخص متدينا جدا ولكنه يلتزم بالصراحة الجارحه ويكون مقصده من الصراحة إصلاح حال المحيطين به . بيد أن المجتمع الذى يعيش فى نطاقه يكون قد جعل من المجاملة أو المداهنة والنفاق مثلا للأخلاق الكريمة . فالشخص المتدين الصريح والناصح والمقوم لسلوك المنحرفين بالكلام القاسى – والجارح أحيانا – لايدخل فى نطاق أصحاب الأخلاق المستحبة فى أنظار أبناء ذلك المجتمع . ولكن اذا استطاع الشخص أن يتخذ له طريقة تجمع بين الصراحة والرفق بالناس وسوق نصائحه الدينية بطريقة لبقة ، فانه يكون قد حقق التحاما بين الدين والأخلاق .

ومما لاشك فيه أن كل عضو من أعضاء المجتمع يخاف من أن يخالف عن أصول الدين وتقييماته ، ومن أن يخالف عن الأصول الأخلاقية والجمالية التى حددها مجتمعه . فمغبوط ذلك الشخص الذى يستطيع أن يحقق ما يأمر به مجتمعه من تقييمات دينية ومن تقييمات أخلاقية ومن تقيمات جمالية . بيد أن الخوف الذى يستولى علينا من مخالفة القواعد الدينية والاخلاقية والجمالية لايكون بالضرورة خوفا من عقوبات مباشرة محسوسة ، بل قد يكون خوفا من اهتزاز تلك القيم فى قلوبنا . ذلك أن اعتزازنا واحترامنا الشديد لتلك القيم قد يشكل الدافع لدينا للخوف من التعدى على تلك القيم . فيكون خوفنا فى هذه الحالة هو « خوف على » وليس « خوفا من » . ومعنى هذا أن الخوف قد يرتفع ويسمو عن مستوى العقوبة المادية المحسوسة إلى مستوى الخوف من أن تخدش قيمة معينة نصونها بقلوبنا ، ونحافظ عليها كجوهرة ثمينة . ولنضرب مثالا بالعفة . فالتعفف الجنسى والخوف من ارتكاب إثم جنسى لايكون خوفا من النتائج المحسوسة المترتبة عليه ، بل يكون خوفا من انهيار قيمة ايجابية نستمسك بها هى العفة أو الشرف .

للمؤلف

بنهضة مصر للطبع
والنشر بالفجالة

١ – اسس الصحة الجنسية .
٢ – الثقة بالنفس .
٣ – الاسترخاء النفسى والعصبى (ترجمة)
٤ – لقد آن الأوان – ازمة الشباب فى العالم الجديد (ترجمة)
٥ – مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة (ترجمة)
٦ – السحر والتنجيم .
٧ – أعداؤك : كيف تنتصر عليهم ؟
٨ – المشكلات النفسية : حقيقيتها وطرق علاجها .
٩ – رعاية الطفولة .
١٠– سيكلوجية الانتقام .
١١– المرأة والحرية .
١٢– فن الحياة .
١٣– التفاؤل والتشاؤم .
١٤– إرادة القوة .
١٥– التربية لمجتمع متحرر .
١٦– سيكلوجية الخوف .
١٧– السعادة فى الخطوبة والزواج .
١٨– الشخصية المحبوبة .
١٩– الشخصية الناجحة .
٢٠– سيكلوجية الخوف .
٢١– دليل الأضواء : ارشادات تربوية للآباء والأمهات .
٢٢– سيكلوجية الاعتقاد والفكر .
٢٣– سيكلوجية النمطية والابداعية . (تحت الطبع)
٢٤– شخصيتك بين يديك (تحت الطبع)
٢٥– الثقافة بين الأدب والفن (تحت الطبع)
٢٦– آفاق تربوية (تحت الطبع) .
٢٧– فلسفة برتراند رسل التربوية (تحت الطبع)
٢٨– سيكولوجيات . (تحت الطبع)

بمكتبة غريب بالفجالة :

٢٩- الشخصية القوية .
٣٠- الشباب والتوتر النفسى .
٣١- رعاية المراهقين .
٣٢- العبقرية والجنون .
٣٣- قوة الارادة
٣٤- رعاية الشيخوخة .
٣٥- سيكلوجية الشك .
٣٦- سيكلوجية الالهام .
٣٧- الحب والكراهية .

بالهيئة العامة للكتاب :

٣٨- تطوير الانسان العربى .
٣٩- المدرسة والتوجيه السياسى .
٤٠- ميادين الحرية .
٤١- أجناس البشرية (ترجمة)
٤٢- الثقافة ومستقبل الشباب .
٤٣- سيكلوجية الابداع فى الفن والأدب .
٤٤- سيكلوجية الغضب .
٤٥- الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى (ترجمة)
٤٦- الهيروين والايدز (ترجمة)
٤٧- الجامعة فى الميزان (ترجمة)
٤٨ - الانتماء وتكامل الشخصية .

بمكتبة الانجلو المصرية

٤٩- الطفل الطبيعى (ترجمة)
٥٠- المراهقة (ترجمة)
٥١- تربية الموهوب والمتخلف (ترجمة)
٥٢- كيف تتعامل مع غيرك ؟
٥٣- تخلص من التوتر النفسى .
٥٤- اللذة والألم فى حياتنا .
٥٥- السلوك وانحرافات الشخصية .
٥٦- الانسان التكنولوجى (ترجمة)
٥٧- القوى الروحية فى المجتمع .

بدار النهضة العربية

٥٨- التربية المقارنة (ترجمة)

٥٩- الحرية والفكر (ترجمة)

٦٠- قاموس مصطلحات علم النفس (ترجمة)

٦١- النوم الهادىء (ترجمة)

٦٢- ذاكرتك : كيف تحافظ عليها ؟ (ترجمة)

٦٣- كيف تستذكر دروسك ؟ (ترجمة)

٦٤- الطفولة المبكرة (ترجمة)

٦٥- الخوف : كيف تتخلص منه ؟ (ترجمة)

٦٦- تربية الذوق الفنى (ترجمة)

٦٧- معتقدات وخرافات .

بعالم الكتب

٦٨- المدرسة الشاملة (ترجمة)

٦٩- المدرسة اليابانية (ترجمة)

٧٠- الأصول الثقافية للتربية (ترجمة)

٧١- فى فلسفة التربية (ترجمة)

بدار المعرفة

٧٢- معنى الانسانيات (ترجمة)

٧٣- انه عالم واحد (ترجمة)

بمكتبة النهضة العربية

٧٤- المجتمع (ترجمة)

بالدار المصرية للطباعة والنشر

٧٥- الجنس والأسرة

٧٦- أزمة الذكورة (ترجمة)

٧٧- جنون الجنس (ترجمة)

٧٨- المرأة والحياة التناسلية (ترجمة)

بالجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية

٧٩- مشكلات العمل (ترجمة)

٨٠- الاضطرابات الاكتئابية فى الثقافات المختلفة (ترجمة)

الموضوع	الصفحة